

كتاب السياسة

أو

الإشارة في تدبير الإمارة

للأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ



وليّه
مع المسالوك في سياسته الملوك
نهاية الرتبة في طلب المحسبة
عما للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيرازي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

وليّه
اية الرتبة في طلب المحسبة

لمحمد بن أحمد بن بسام المحسب

تمت بحسن محمد حسن ابنما عيل
تحقيقه
أحمد فريد الزبيدي

مستورات
محمد دجاوي بيضون
لشركت السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

كِتَابُ السِّيَاسَةِ

أَوْ

الْإِشَارَةُ فِي تَدْبِيرِ الْأُمَرَاءِ

لِلْأَمِيرِ بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنِ الْحَسَنِ الْمُرَادِيِّ الْخُصْرِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٩ هـ

وَوَلِيِّهِ

النَّهْجُ الْمَسْلُوكُ فِي سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ

وَنَهَايَةُ الرُّتْبَةِ فِي طَلَبِ الْحُسْبَةِ

كَلَامُ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الشَّيْزِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٠ هـ

وَوَلِيِّهِ

نَهَايَةُ الرُّتْبَةِ فِي طَلَبِ الْحُسْبَةِ

لِلْمُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بَسَّامٍ الْمُحَلِّسَبِ

تَحْقِيقُهُ

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ فَرِيدٍ الْمَرْيُوطِيِّ

مَنْشُورَاتُ

مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ

لِنَشْرِكِ كِتَابَ الشُّنَّةِ وَالْجَمَلَةِ

دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ

بِكَلْبُوت - بَيْسْكَان

مستغربات محمدياوت بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف - شارع البحري - بناية ملكات
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

كِتَابُ السِّيَاسَةِ

أَوْ الْإِشَارَةُ فِي تَدْبِيرِ الْأِمَارَةِ

لِلْأَمِيرِ بَكْرِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْمُرَادِيِّ الْخُصْرِيِّ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٩ هـ

تَحْقِيقُهُ
مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ أَحْمَدُ فَرْيَدُ الْمَرْيُوطِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المصنف

هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادى الحضرمى، المتوفى سنة (٤٨٩هـ)، ولد فى القرن الخامس، ومات آخره، نشأ فى القيروان، وكان رجلاً، نبهًا، عالمًا، وإمامًا فى أصول الدين، عالم بالاعتقاد، والأصول، والأدب، والشعر، وكان ذو حظ وافر فى البلاغة والفصاحة.

قال ابن بشكوال: إنه كان عالمًا بالفقه، وقد أهله هذا لتولى القضاء، وارتبط المرادى بالأمير أبى بكر بن عمر، ثم عاد المرادى بعد أن قضى مع الأمير زمنًا، إلى الصحراء، حيث توفى فى مدينة أزكى.

انظر: الصلة لابن بشكوال (٥٤٧/١ - ٥٤٨)، الذخيرة لابن بسام (١/٣٦٤ - ٣٦٧) القسم الرابع.

تنبيه: ترجع أهمية هذا الكتاب، أن كثيرًا من أهل العلم كان ينقل منه، ويظهر هذا فى التحقيق، خاصة ابن الأزرقي فى بدائع السالك، حيث كان يأخذ منه نصوصًا برمتها.

* * *

شكر خاص

إلى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، لعقده ندوة «تراث العرب السياسى»، وإلى الأستاذ الدكتور أحمد يوسف أحمد، مدير المعهد ومشرف الندوة، وإلى الدكتور فيصل الحفيان، منسق برامج الندوة، والأستاذ الفاضل عصام الشنطى، المحاضر بالندوة، والأستاذ الدكتور رضوان السيد، صاحب مجلة الاجتهاد اللبنانية، والمحاضر بالندوة، والأستاذ/ محمود الدهشان، والأستاذ محمد سلطان، لإشرافهما على الندوة.

وذلك لحسن اهتمامهم بالتراث السياسى عند العرب، والحث على نشره.

وننوه أننا قد قمنا بتحقيق مجموع كتاب فى السياسة الشرعية، وغيرها من أنواع السياسات، أوله: السياسة الشرعية لابن دَدَه أفندى، وآخره: السياسة لابن سينا، قيد الطبع، دار الكتب العلمية، بيروت، تحت إشراف الحاج/ محمد على ببيضون، حفظه الله ووفقه الله لنشر التراث العربى والإسلامى.

المحققان

* * *

وصف المخطوط

لقد اعتمدنا في إخراج هذا النص بفضل الواحد الأحد، الفرد الصمد، على ثلاث نسخ خطية، أحدها: نسخة الرباط، والثانية: نسخة الخزانة الملكية، والثالثة: نسخة تونس، حتى خرج على هذا الوجه الضعيف الحقير، أسأل الله أن ينتفع به طلاب العلم، والملوك، والرؤساء، والوزراء، ومن شاكلهم، وأن يتقوا الله فينا، ويعملوا بما في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ومن فهمها من أرباب المذاهب المشتهرة المعروفة.

طالب العلم

محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي

١٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

* * *



طرة نسخة الخزانة الملكية

بسم الله الرحمن الرحيم صلواته على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الفقيه الاستاذ الا
عرب ابو بكر محمد بن محمد بن
الحضره ورضي الله تعالى عنه

الخ **سورة** على فضيلة العفول
 وصالته على من هو افضل نبي ورسول وعلى
 الله وعلى تسليم الامايع **سورة** اهل البيت
 بفارادى عز كبر الالوتى محمد والفرع محمد وادام
 ارتقاء محمد بن عبد الله الالاتام محمد والوفا
 بوجه واتم نعماء الله في شرب لاه الالهية لعصر
 والسياسة **سورة** فان الازبقاع الى المعالي
 صحت والاعطاف عناسم اولن تلال معالي
 الزب الالهية والاه بول كاتيتا من الجوده
 الهية ورفع من الخطوط على وجه المصطفية
 فاعده اعمال شين خاطوبه الشار هل زابا من احب

5708

اللوحة الأولى من نسخة الخزانة الملكية

اللوحة الأولى من نسخة تونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه آمين

قال الشيخ الإمام الفقيه أبو بكر سيدى محمد بن الحسن الحضرمى المرادى، رحمه الله ورضى عنه: الحمد لله على فضيلة القول، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل نبي ورسول، وعلى أهله وسلم تسليماً، أما بعد:

أطال الله بقاءك فى عز لا يزال الولى يحمده، والعدو يحسده، وأدام ارتقاءك فى مجد لا تزال الأيام تجده، والتوفيق يوطده، وأتم نعماءك فى شرف لا تزال الحكمة تعضده، والسياسة تعهده، فإن الارتفاع إلى المعالى صعب، والانحطاط عنها سهل، ولن تنال معالى الرتب إلا بالحكمة والأدب، وكل ما تقياً من الحدود دون الحكمة، ووقع من الحظوظ على وجه المصادفة، فإنه فى الحال شىء حاصل، وفى المال ظل زائل، فمن أحب المعالى أدركها بالحكمة، ومن أحب الحكمة أدركها بالنظر المنتظم، ومن عنى بالنظر فى الأمور، أدركه بمسألة العلماء، وبمجالسة الحكماء، وإدمان الفكرة فى خلواته، واستشارة ذوى الرأى من ثقاته.

وإنى وجدت أولى ما يتحفظ به الأحباب، وأجدى ما يتهداه الأجلاء والأصحاب، آداباً منظومة تحكم، وآراء مسبوكة تفهم، تكسب بها عقول الأولين، وتحفظ بها آراء المتقدمين الذين اكتسبوها بالنظر، وجربوها بطول العمر، وأبرزوها من غيابات الحب، واكتتروها كما يكتثر الذهب، فإنهم كانوا أطول أعماراً، وأكثر بأعمارهم للأمور اختباراً، وأحد أذهاناً، وأشد بأذهانهم للأمور إتقاناً، ووجدناهم قد خلدوا فى الآراء والحكم الكتب الباقية، وضربوا التجارب والنظر الأمثال الشافية، فكفونا بذلك مؤونة البحث الذى لا نصل إليه إلا بشق الأنفس، ولا نبغى إلا بسهر الأعين.

وقد ولّد المتأخرون بعدهم حكماً استخرجوها من كتبهم، ورُتّباً بنوها على رتبهم، فكملت لهم الفائدة، واستوسقت لفهمائهم الحكمة.

وقد ذكرت لك في هذا الكتاب من ذلك أبواباً، إذا أحطت بحفظها علماً، وانعطفت تحفظها فهماً، كانت لك ميزاناً تزن بها آدابك، وميداناً تروض فيه أخلاقك، وأصلاً تسند إليه قياسك، وجبلاً توطد عليه أساسك.

وأولى الأسنان بحفظ الحكمة، وأجراها بنفع الموعظة، سن الحداثة، فإن وجدت فيه فوائد أربعاً، ليست في غيره من الأسنان: أولها: سرعة الحفظ، والثانية: ذكاء الفهم، والثالثة: فقد التجارب، والرابعة: تقديم الحكمة قبل سوء العوائد، فإن الكهول والأشياخ ربما علموا بتجارهم ما لا يعلمه الأحداث، فكان الأحداث أحوج منهم إلى حفظ الحكمة، وتقديم الموعظة، ولأن الأحداث أطوع منهم لسلطان الشهوة الذى هو في غالب الأمر متضمن لسوء العادة، ونزع العادة السيئة شديد، وعلاجها بعد استحكامها بعيد.

فلذلك نظمت لك في هذا الكتاب درراً من آداب الإمارة والوزارة، وفصلت لك ثناياه فصولاً من أنواع الإدارة والاستشارة، واصفة لآداب المتقدمين، كاشفة لأمر الدنيا والدين، فإذا استقبلتها بذهنك، وتأملت غوامضها بفكرك، واستعملت معانيها بجوارحك، مع ما رزقك الله من نجابة، ووهب لك من رصانة، قل مثالك، وجلت أحوالك، وشرفت آدابك، وكرم أصحابك، وامتنع جنابك، وحوى الفضائل كلها بابك، وبالله تدرك المطالب، وإليه تبذل الرغائب.

وقد قسمت أبواب هذا الكتاب على ما فيه من الآداب، فكانت ثلاثين باباً:

أولها: باب في الحض على القراءة والتعلم.

والثاني: باب في آداب النظر والتفهم.

والثالث: باب في الاستشارة وصفة المستشار.

والرابع: باب في المعيشة وسياسة الأجسام.

والخامس: باب في الفرار من سوء العادة، ورياضة النفس قبل الحاجة.

والسادس: باب في الخلطاء والأصحاب.

والسابع: باب في صفة الكتاب والأعوان والحجاب.

والثامن: باب في الظهور والحجة.

والثاسع: باب في هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات.

والعاشر: باب في سياسة الحاشية والجنود.

والحادى عشر: باب في تقسيمهم على الأعمال.

والثانى عشر: باب في معاشرة أصحاب السلطان بعضهم لبعض.

والثالث عشر: باب في أقسام السلاطين وكيفية سيرهم.

والرابع عشر: باب في أقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم.

والخامس عشر: باب في الأدلة التى يستدل بها على أهل الفضل والنقيصة والتوسط.

والسادس عشر: باب في الكلام والصمت.

والسابع عشر: باب في الحلم والصبر.

والثامن عشر: باب في ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد.

والتاسع عشر: باب في الغضب والرضى.

والعشرون: باب في التجبر والخضوع.

والحادى والعشرون: باب في الحزم والتفريط.

والثانى والعشرون: باب في الكتمان والإذاعة.

والثالث والعشرون: باب في العجلة والتأني والتوسط.

والرابع والعشرون: باب في الإنفاق وصفة الجود والإمساك.

والخامس والعشرون: باب في الشجاعة والجبن.

والسادس والعشرون: باب في الحروب والمسالمة.

والسابع والعشرون: باب في التحبب والمواصلة.

والثامن والعشرون: باب في الحيلة والمكر والخديعة.

والتاسع والعشرون: باب في التدهى والتغافل.

والموافق ثلاثين: جامع لفنون الحكم والآداب، غير منتظمة في الأبواب.

فهذه ثلاثون باباً، إذا تحفظ الفطنُ منها كل يوم باباً، لم يأت عليه الشهر إلا وقد حفظ صدرًا كبيراً من الحكمة، وتعلم أصلاً عظيمًا من السياسة، وقد انتخبت في هذا الكتاب من فوائد الحكم وجواهر الكلم، فيجب على دارسه إمعان التأمل له، فبذلك يصل إلى الانتفاع به، فإن كل حرف منه متضمن لحكمة، ومنطوقه على فائدة، والله سبحانه يوفقك إلى حسن العناية به، ويأجرك على جميل النية بمنه وفضله.

* * *

الباب الأول

في الحض على القراءة والتعلم

أقول: إن الأحياء الناطقين، والحكماء المتقدمين، فرقوا بين الجماد والحيوان بالحياة، وفرقوا بين البهيمة والإنسان بالعقل، وفرقوا بين الشريف والخسيس بالعلم، فالعقل الطبيعي أصل للعقل الكسبي الذي يستفاد بالتعلم، ويعلم بالدرس والتأمل، وهو فائدة الحياة، وروح العيش، وبه يفرق بين اليقظة والنوم، وبه تظهر الحقائق والطرق، وبه تبصر الأشياء كما تبصر بالشرج، وبه تعرف المنافع من المضار، وبه يفرق بين الإنسان والجماد، وهو الذي يمسك أعتة النفوس عن الأهواء، وبه تقتات الأجسام كما تقتات بالغذاء، وهو الحاكم على القوة، والمصرف لها بحسب المنفعة، ومن لا علم له ضعيف، وإن كان قويًا، وفقير وإن كان غنيًا، ونفسه زاهقة بأدنى حيلة، وماله ذاهب بأقل حادثة، والذي تفعله القوة بالتعب يفعله العلم بالراحة، والذي تهيمه القوة بالمعيشة، تهيمه الحكمة بالهوين.

فقد بان بذلك أن العلم أصل، وأن القوة فرع، وأن العلم روح، وأن القوة جسم، وأن الأسد الذي يتناهى في الجرأة، يصيده الطفل بأدنى حيلة، وأن البعير العظيم الجثة، يسخره الشيخ الضعيف المنة، وذلك دليل على فضل المعرفة، فيا طالب العلم بالدراسة، إن كنت للعلم درست، والانتفاع به أردت، فأقرن درسك بالفطنة، وتعاهد محفوظك بالفكرة، فإنك في ما حفظته بمثابة صاحب الجوز الصحاح الذي لا يفوز بنفعه حتى يستخرجه من قشره، وكمثل الرجل الذي عنده كثر في داره وهو لا يشتغل بحفره، ومُشابة لصاحب السمس الذي يمشى في الظلمة، ولا يتشاغل بعصره، وكمثل الطبيب الذي يحسن الدواء، ولا يتشاغل بكسبه، ويكسبه ولا ينظر في شربه.

واعلم أنك إذا قست الأمور، فهمت المستور، وإذا فهمت المستور، بلغت السرور، وتجنبت المحذور، وتلك نهاية المراد، وغاية الاستعداد، إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في آداب النظر والتفهم

أقول: إن العاقل متعوب بحذره، وإن الأحمق مستريح بطمأنينته، وإن الذى يفرق به بين تعب العاقل وتعب الأحمق، أن تعب العاقل يفضى إلى راحة، وراحة الأحمق تفضى إلى تعب، فمن حُرِمَ العقل والفطنة، سُلِبَ ثوب العز والكرامة، وقربت أحواله كلها من الهلكة، ومن لم يستعمل فكرته فى ما عليه وله، ماتت فطنته، وطالت حسرته، وعميت بصيرته، فقدّم النظر الصحيح قبل جميع أفعالك، واختبر بالعبرة جميع أحوالك، ولا تفعل من الأفعال ما لا منفعة فى فعله، فإن ذلك هو الفضول بعينه الذى حذرت الحكماء من مواقعه، فقالوا: من ترك ما لا يعنيه من الأمر، تهياً له جميع الفضل، وقالوا: من فعل ما لا يعنيه، وقع فيما يتقيه، ولو لم يكن فى ذلك إلا مشقه عارية من نفع، وكلفة لا تعود بحظ، لكان ذلك كافياً فى ذمه، وداعياً إلى تركه، ثم إن الأفعال المستحسنة تنقسم إلى فعل تطلب به منفعة، وفعل تدفع به مضرة، والنظر فى هذه الأفعال يكون فى فصول عدة:

أولها: النظر فى الفعل والترك، أيهما أنفع فى الحال والمآل.

والثانى: النظر فى الفعل والترك لما يخشى فيهما من المضرة، ويتقى من سوء العاقبة.

والثالث: النظر فى دفع ذلك، إن كانت فى دفعه حيلة.

والرابع: النظر فيما يكون الفعل عليه من الصفة، إن كانت فيه منفعة، فإن الأفعال ربما نفعت على بعض الوجوه، وضرت على بعضها.

والخامس: النظر فى الفعل إذا كانت فيه مضرة ومنفعة، أيهما أولى بالإيثار والتقدمة، فعلة لمنفعته، أو تركه لمضرته، وهذا الباب هو النظر فى أضر الضررين وأنفع النفعين من دقائق الحكمة، ومحتاج إلى فضل التأمل والمعرفة، فإذا تفقدت هذه الوجوه من أفعالك، وتدبرتها بفطنتك فى جميع أحوالك، فزت بالحكمة، وأخذت بنصيب وافر من السياسة، فأيقظ فهمك إليها، فإن صحة الفهم، أوعظ واعظ يدعو النفس إلى الحذر من الغلط، واعلم أنك إذا علمت فيما سلف من أمرك مواقع الخطأ، فقد استقبلت اليقين

بوجوه الآراء، فإن التجارب والدربة لهما حظ من العلم والإجادة، فدرّب نفسك على تدبير الأمور قبل نزولها بك، كما تدبرها باللعب قبل دخول الحرب مع أترابك، وإذا نزلت بك الأمور في أوقات الضيقة، فلا تشتغل عنها بالحزن على المصيبة، وليكن شغلك بإعمال الحيلة التي تلتصم بها الخلاص من وحلتك، والانتهاز لفرصتك، فإن فعلت ذلك ذهب خاطرك شعاعاً، وألفاك عدوك مضاعاً.

* * *

الباب الثالث

في الاستشارة وصفة المستشار

أقول: إن الاستشارة تفيد المستشار عقلاً يزيد به إلى عقله، وهداية يجمعها مع هدايته، كما يزيد النهر ماء بما يمدّه من أنهاره، وكما تزيده النار العظيمة بما يصب عليها من الدهن الكثير^(١). والحكماء تقول: خاطر من استغنى برأيه^(٢).

ومن كلام علي، رضى الله عنه: من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بفعله زل، والذي يستشير ولا يقبل من نصحاء، كالعليل الذي يترك ما يبعث له الطبيب، ويعمل ما يشتهي بغير علم.

والمشورة يحتاج إليها لأوجه أربعة:

أحدها: تقصير المستشار عن معرفة التدبير.

والثاني: خوفه من الغلط في التقدير، وإن لم يكن من أهل التقصير.

والثالث: أن الفطن التحرير ربما ستر عليه الحب والبغضة وجوه الرأى والروية، فإنهما يعدلان بالفكر عن الإصابة، فيحتاج إلى مشورة من رأيه، صاف من كدر الهوى، مبصر لوجوه الآراء.

والرابع: أن المستشار ربما كان في الفعل شريكاً، أو عليه معيناً، فيكون مشورته داعية إلى استلافه، وإغراءً له في معونته، إن كان الفعل إنما يفعل برأيه، وقد قيل: ربما أخطأ العاقل رشده، وأصاب الأعمى قصده، وإن الله تعالى جعل لكل ذى عقل

(١) انظر: الأدب الصغير لابن المقفع (ص ١٤)، عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧/١).

(٢) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (٨٧/١).

نتيجة، وعند كل إنسان معرفة، وأولى ما التمس العاقل فيه الرأى مواضع الالتباس، فإنه إذا فعل على الشك، كان كالماضى على غير طريق، والجارى إلى غير غاية، فإنه كلما زاد فى جريه جهداً، زاد على الحقيقة بعداً، وكدودة القز التى كلما زادت على نفسها نسجاً، زادت من الهلاك قرباً.

فيا أيها المستحى من المشورة، إن الرأى لم ترده للافتخار، وإنما أردته لإدراك الصواب، ولو أنك للفخر أردته، لكان افتخارك بالاستشارة أمدح من افتخارك بترك النصيحة، فإن الحكماء قد قالوا: الجاهل لا يقبل من نُصَحَاتِهِ، والناقص لا يشعر بنقصه. واعلم أن المستشار فى الأمور يجب امتحانه بالاختبار، حتى يخلص من أوصاف تَحِلُّ بالنصيحة، ولا تؤدى مستشيريه إلى النقيصة.

فمن ذلك أن يكون عاقلاً فطئاً، فإن الأحمق الجاهل إذا استشرته، زادك فى لبسك، وأدخل عليك التخليط فى رأيك، ولم يقم بحقيق نصحك^(١).

ومنه أن يكون محباً صافياً، فإنه إذا كان كذلك، أمنت من غشه، واجتهد لك فى نصحه، ونظر فى أمرك بجميع أجزاء قلبه^(٢)، ولا يستشار العدو إلا فى موضع واحد، وهو أن يكون صلاح الرأى بصلاحه، وفساده بفساده، كعدوين يكونان فى سفينة مثلاً، يستشير أحدهما الثانى فى صلاحها ونجاحها من هلاكها، واحترز أن يكون فى عقبى إرشاده شىء يخلصك بفساده^(٣).

ومنها أن يكون كأنما لسرك، وغير مُطلع لأحد من إخوانه على شىء من أمرك، فإنه إذا أطلع على رأيك بعض أصدقائه أو غيرهم من جلسائه، أخبر كل صديق صديقه، وفاه كل جليس إلى جليسه، حتى يصل أمرك إلى عدوك، ويتصل رأيه بأهل بغضك، فيبغضونك الغوائل، وينصبون لك الحبائل، فيفسد أمرك قبل إحكامه، وينتقص حكمك قبل إبرامه، وربما كانت الاستشارة فى سد ثلثة من ثلمك، أو فى التخلص من غرة من أمرك، وعدوك عنها غافل، وحاسدك بسواها متشاغل، فلا يزيدك بنمّه إلا تنبيه عدوك على ثلمتك، وإغراء حسادك على انتهاز فرصتك^(٤)، فيكون فى ذلك عطب ومهلكة،

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرقي (٣٠٩/١).

(٢) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرقي (٣٠٩/١).

(٣) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرقي (٣١٠/١).

(٤) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرقي (٣١٢/١)، الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ٩٢).

أو خسارة ومنقصة، فتجنب من هذه سبيله باستشارتك، وحصن عنه أسرارك بجهدك وطاقتك.

ومنها أن يكون المستشار لا يؤدي نصحك إلى ضرره، ولا إلى ضرر أحد من إخوانه، فإنه إن أدى نصحك إلى ضرره، وإلى نقصان شيء من أمره، لم يفضلك على نفسه، ولم يخلصك بنصحه، وكذلك إذا كان ذلك مضرًا بإخوانه، فإنك لا تدري لعل مودة صاحبه أثر عنده من مودتك، ونصيحته بغشك أولى في رأيه من نصيحتك^(١).

ومنها أن لا يكون المستشار حاسدًا، فإن الحسد يبعث أهل الحجة على البغضة، وأهل الولاية على البعد والفرقة، فحينئذ يعتمد ضرك بجميع الوجوه التي تتقيها على نفسك، ويكون داعيًا إلى فساد رأيك^(٢).

واعلم أن الحسد أمر مركب في الطبيعة، وغريزة موجودة في أصل الخليقة، فلا يقدر على التحرز منه بالمصانعة، ولا يطمأن لمن عرف فيه بكثرة المصادقة، فلذلك جعلته قسمًا زائدًا على المحبة، واشترطت التوقي منه في أصل الاستشارة.

ويا أيها المستشار، إنك مشارك في عقلك ومروءتك، وموثوق بدينك وأمانتك، فإن خنت في رأيك، وقصرت من جهدك، فقد انتفيت بقدرك من جميل خصالك، ولا خير في العيش بعد ذلك.

واعلم أنك إذا أشرت بالنصيحة، قبلها منك العدو المبغض، وإذا تكلمت بالهوى، رده عليك الصديق المخلص، واتبعك العدو مدحًا على صوابك، وقطعك الصديق لومًا، ولم يعبأ بك.

فاحرص على شكر عدوك وصديقك باجتهاد في النصيحة وتحقيقك، وإذا أشرت برأي من الصواب، فكان النجاح عقيبه، فلا تكثرن من الافتخار برأيك، والاحتجاج على فساد رأي غيرك، فإن ذلك من سيئ الآداب، وتقريع الأصحاب، ومذموم الإعجاب، واقتصر في ذلك على الصمت والتوقر، والشكر لأصحابك بالتخشع أو بالتلطف، فلا بد لهم أن يحوجهم الإنصاف إلى شكرك، أو يقودهم شاهد الحال إلى

(١) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٢/١).

(٢) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٢/١)، الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ٩٢).

الاعتراف بحسن رأيك، فتكون محبباً لأصحابك، ممدوحاً بما أشرت لهم من صوابك.

و اعلم أيها المشير له، ليس عليك القبول ضربة لازم، وإن الترتك لرأيك ليس في فضلك قادحاً، فلا تقابل التنكيب عن رأيك بالإنكار والاحتجاج، وكثرة المراء والللجاج، والغضب الظاهر، والتعرض بأفعال المكابر، فإن هذا ليس من أخلاق الأشراف، ولا جار في حلبة الإنصاف.

وإذا كانت آراء الوالي مخالفة لرأيك، فلا تزين له المحال من آرائه، فإن ذلك غاية في غشه، ونهاية في خديعته، ولا تجاهده على الرجوع إلى رأيك بكرهه، فإن هذه رياضة صعبة، وطريقة وعرة، تؤذنه بغيضك، وتدعوه إلى إطراحك، فتكون بذلك زائداً في غلطه، مؤذياً لنفسك في إطراحه وجفوته، ولكن نيهه على الصواب من رأيه، واتركه حتى يظهر على غلطه، فإن ذلك مما يحمله على اتباعك، ويزيده معرفة بقدرك، وإن قدرت على أن تتحلل أصحابك صواب رأيك فافعل، فإن ذلك أجمل لك، فأما أن تتحلل أنت صواب رأيهم فافعل، فلا خير في ذلك، فإنه غاية في سوء الأدب، وداعية إلى الذم، مع ما فيه من الكذب، وإن أشار عليك أحد برأى أفضى منه إلى الغلط، وزل به عن الصواب، فلا تأخذن في تأنيبه وتوبيخه، فإن الآراء ربما خفيت وجوهها، وغابت أسبابها، وليس كل الرأي مقطوعاً على صوابه، بل الآراء فيها ما هو مبني على غالب الظن، ومدرَك صوابه بالوهم، فإذا لمته على غلطه، مع تصحيح قصده، أدبته بسوء أدبك، وجازيته بالقبيح على مجاملتك، وقطعت غيره من النصاح عن نصحك، فعلى هذه الأمور فقسْ نُصِب في الاستشارة إن شاء الله تعالى^(١).

* * *

الباب الرابع

في المعيشة وسياسة الأجسام

أول ما أوصيك به في هذا الباب، أن تأخذ نفسك بالاعتدال في جميع الأحوال، في مطعمك، ومشربك، وملبسك، ومنكحك، ونومك، ويقظتك، وتعبك، وراحتك.

واعلم أن بطنك لا يسع جميع الأطعمة، فاختر له أفضلها، وفضل الطعام من عدة أوجه: أولها: قرب وجوده، والثاني: تمام نفعه، والثالث: قلة ضرره، والرابع: لذاته

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٢٣).

طعمه، والخامس: ذكاء ربحه، والسادس: إحكام صنعته. فإن لم تجتمع هذه الأمور في طعامك، فاعمد إلى أقرب الأطعمة من نفعك، وأشبهها بحالك.

واعلم أن ما أخللت به من هذه الأوصاف التي وصفتها لك مضر بك في نفسك، ومزر عليك عند مواكلك، وإن مطاعم الرجال يستدل بها على عقولها، ويستشهد بها على هممها ومروءتها، فإنه لا يحكم أراءه من ليس يحكم غذاءه.

واعمد في لباسك على التوسط من لباس أجناسكم، فإنه إن كانت حالك فوقه، كنت به متواضعاً، وإن كانت حالك دونه، كنت به متجمللاً، وكنت خليقاً بالدوام عليه في حالتي يسرك وعسرك، وحريراً بالوجود له في يومي غناك وفقرك، وانظر في لباسك إلى إحكام صنعته، واعتدال قده، ونظافة لونه، وتعمد هذه الأمور ترسلاً، ولا تعمدتها تصنعاً، فإنها مع الترسل أجمل منها مع التصنع.

واقصد في منكحك إلى ثلاثة أوصاف، إن أخللت بوصف منها، خسرت صفقتك، وعظمت وحلتك، وخشن ذكرك، وهجن ولدك، أولها: طيب الأصل، والثاني: حسن الخلق، والثالث: كمال الدين.

فما كان بعد ذلك من الجمال واليسار، وكثرة العشيرة والأنصار، فهو ربح، وإن عدمته لم تخل بالأصل، ولا تحمل نفسك من الباءة ما يثقل على جسمك، فإنه داء مهلك، ولا تأخذ المرأة، وإن حسنت، بمجامع قلبك، تملكها قياد أمرك، ولا تشعرها بجميع حبك، فتستولى على حالك، ولا بجميع بغضك، فتبغيك المهالك.

واحرص على أن تخفى قدر مالك على بنيك وجندك وعمالك، فإنه إن كان قليلاً حقروك، وإن كان كثيراً، حقروا إنفاقك عليهم منه، وامتدت أيديهم منك إلى فوق ما تريد.

وخذ من نومك ما يصلح به جسمك، ويحود به فهمك، ولا تكثر منه إكثاراً يموت به قلبك، ويفوت به شغلك، واجعل أكثر أحوالك في اليقظة صمتاً، وأكثر صمتك في الأمور عيرة، فإن في كثرة صمتك راحة لقلبك وإجماماً لفكرك.

واجعل أكثر كلامك جدّاً، ومزاحك كله مستطرفاً صدقاً، وأقلل المزاح بجهدك، واجعله في كلامك كالملح في طعامك، واستعن على طلب المعيشة بسعة خلقك، واستعن على سعة خلقك بالسلو عما قصر عنه وجدك، وارض عن الله عز وجل في

جميع ذلك، تكن أطيّب الناس نفساً، وأكثرهم عزاً.

وليكن دهنك غباً، وكحلّك ليلاً، ولا عيب عليك في تعيشك وتلذذك، إذا نظرت في الجسيم من أمرك، وفوضت إلى الكفاءة ما بقى من شغلّك، وحجب إلى نفسك العلم حتى تألفه، فيكون فيه لهوك وراحك ولذتك وسلوتك.

واعلم أن من العلوم علوماً للمنافع، وعلوماً لتزكية العقول ونشاطها، ولكل علم منها وقته من الزمان، ومكانه من الخواطر والأذهان^(١).

واعلم أن الملوك العلماء بقيت من العلم أذكّارهم، وأن الملوك الجهال ماتت معهم أخبارهم، وليس للسلطان أن يكون حسوداً، فإن الحسد من خلق اللئام، وآلات السفال، وهو التحكم على الله عز وجل في قسمة فضله، والاعتراض عليه في إمضاء حكمه، وفيه عذاب الحاسد في وقت ينعم فيه المحسود، فليكن مما يصرف به ذلك أن يعلم الحاسد أن جليسه وقرينه إذا كان أقوى منه دفع عنه بقوته، وإذا كان أعلم منه أفاده من علمه، وإذا كان أملاً منه أفاده من ماله، وأن جميع ذلك لا يزيله بحسده، فإن زواله عن صاحب غير عائد بنفعه، إذ لم ينتقل إلى ملكه^(٢).

ومن أخلاق المروءة خفض الصوت، ولين الكلمة، وسكون الريح، إذا لم يخالط ذلك الكبير، ولم يمازجه العجب، فإن مازجه العجب، فهو من دواعي المقت، وإياك أن تكون منقبضاً عن الناس كل الانقباض، فيكسبك ذلك البغض، ويكسوك العداوة، ولا تكن منبسطاً كل الانبساط، فيكسبك ذلك أصدقاء السوء الذين إن قطعتهم شانك اسم القطيعة، وإن وصلتهم كملت لديك المضرة.

والحزم أن تلبس الانقباض للعامة، والانبساط للخاصة، وتحمل الجميع على الخيرة، ولا تتركن مباشرة الصغير من أمرك، فيعود شأنك صغيراً، ولا تتركن مباشرة الكبير، فيكون الكبير ضائعاً، ويعود قدرك صغيراً^(٣).

واستكف الكفاة فيما لا تباشره بنفسك من صغير أمرك، واعلم أن كثرة الأشغال مشغلة عن اللذات، وقاطعة عن جميع الراحة، وأن الذي تشغله من رأيك في غير المهم

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٥٩).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٦٠).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٠٩).

يزرى بك في المهم، وما تصرفه من مالك في الباطل، تفقده في الحق الواجب، وما تبذله من كرامتك لأهل التقصير، يزرى بك عند أهل الفضل، فاردد الأشياء إلى أصولها، وابن الأمور على قواعدها، وتصرف بحكم الحقيقة لا بحكم الشهوة.

و اعلم أنك إذا اتبعت الشهوات، ساقطت إلى أصناف الرذالات، والرذالات يقود بعضها إلى بعض، حتى يؤدي ذلك إلى اختلال الأحوال، وفساد العرض والدين والمال، والله يعيدك من هذه الخصال بمنه.

* * *

الباب الخامس

في الفرار من سوء العادة، ورياضة النفس قبل الحاجة

قالت الحكماء: العادة طبيعة خامسة، فجعلتها كالطبائع الأربع اللازمة، وفي الحديث: «ولكل امرئ ما اعتاد».

ووجدنا العادة تسهل الأمور الصعبة، وتصعب الأمور السهلة، والعادة السوء إذا استحكمت، كالطبع الرديء في الثوب الجيد إذا وسخ، وربما زال الطبع الرديء في الثوب، وأعوز زوال العادة من المعتاد.

و التحرز من سوء العادة يكون بوجهين:

أحدهما: التدرب على العادة الجميلة قبل اتخاذ القبيحة من سن الحداثة، وهذه الطريقة أسهل ما تعالج به العادة القبيحة بعد اتخاذها، وذلك مختلف بقدر اختلاف الأسنان، واستحكام العوائد، فإن كانت العادة قديمة والسن كبيرة، فعلاجها مُعنى في غالب الأمر، ومن الأمثال المحكمة في ذلك قول من قال:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب^(١)

وإن كانت في السن بقية، والعادة السوء غير مستحكمة، فهاهنا يرجى الصلاح بما يتجرعه المعالج بالانتقال عنها على التدريج، بأن يزيد في كل وقت من أوقات العادة شيئاً قليلاً في الإمساك عن الزيادة، حتى يقف على حد السلامة، فيأخذ نفسه حينئذ بالدوام، وإيضاح ذلك بالمثال: إن المعتاد لكثرة الأكل، يأكل في كل يوم عشرة أرطال مثلاً، فإذا أحب الانتقال عن هذه العادة، نقص عن غذائه كل يوم درهماً، حتى يقف على الحد الذي يقتضيه صواب الرأي كونه عادة، وكذلك المعتاد للبخل ولإذاعة

(١) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٦٤).

السر، يدرج نفسه على العطاء القليل، وبكتمان ما يحتاج إلى كتمان من الأمور، حتى تستولى على ذلك عادته ويصير طبعه.

وهذا الذى ذكرته منبه على ما كان فى بابه، وتحفظ من سكر الشباب، وسكر المال، وسكر الميزة، وسكر العلم، وسكر السلطان، فإن هذه الأمور تولد فى النفس عزة خارجة عن الاعتدال، وريحاً تجرئ اليد واللسان على غير الصواب، ودواء ذلك التثبت قبل القول والفعل، واعتبار الأمور بالعقل^(١).

وأول ما يجب عليك، أن تدرب نفسك فى معرفة جميع عيوبك، والدربة على الزوال عنها، وإن لم تعرف جميعها، فتصفح أحوالك بالنظر، وتعقب أفعالك كلها بالتأمل، فكل ما ظهر لك منها، فاعمل فيه على ما ذكرناه، وكل ما علمته منها، فاحذر أن تعيبه على غيرك وأنت مرتكب لمثله فى نفسك، وإذا ذكرت عن أحد خلقية سوء، فإياك أن تناضل عنها مناضلة المدافع عن نفسه، أو مناضلة المستحسن لما عيب عليه من خليقته، فإن ذلك مؤذن باقحامك بمثل عيبه، وغير موجب لاستحسان ما ذم من فعله.

و مما يجب أن تأخذ نفسك به، ترك الإفراط فى المدح إذا مدحت، وفى الذم إذا ذممت، ولتكن من ذلك على حد من التوسط جميل، فإنه من كل أحوال المدح والمذموم قريب، وإذا كنت فى جملة من الناس، فلا تعب قبلاً من القبائل، ولا جنساً من الأسماء، فإنك لا تدري لعل فى جلسائك من ذلك الاسم اسمه، أو اسم أبيه، أو قبيله، أو قبيل مناسبه، فتكون بذلك مؤذياً لجليسك، وفاتحاً لأبواب العداوة والخصام على نفسك^(٢).

وإياك والملال لحالة من أحوالك، أو لأحد من جلسائك وأصحابك، فإن الملل يفضي بفساد العقل، ويخبر عن لوم الطبع؛ لأن الملل لا بد له من حالتين، إما أن يكون أولاً استحسان ما لا يجب استحسانه، وإما أن يكون ثانياً استقبح ما لا يجب استقباحه، وكل ذلك قبيح فى العقل واختلاط فى رأى.

واحذر أن تدخل فى أمر من الأمور حتى تعرف منتهاه، وتعرف أحواله، فإن توقفك فى الفعل من قبل أن تفعله، هو الحذر المدح من أهل الحكمة، وإذا دخلت فى الفعل فاضطربت ورجعت عنه بعد ابتدائك فيه، فذلك هو الحذر المذموم عند أهل العقل والمروءة^(٣).

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٥١، ١٥٢).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٨٤).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٨٥).

ومن سوء العادة أن تذم الدنيا عندما تذكر منها لجليسك أو لصاحبك، وذلك محمول منك على الحسد والضجر بما رزقه الله منها، وليس بمحمول على الموعظة، ولا تفتخر عند نفسك بالحلم حتى تكون قادراً على الامتناع، ولا بالزهد حتى تكون قادراً على الدنيا، واضبط أصول دينك باعتقاد الحق، والتتره عن الكبائر، واضبط أصول دنياك بالتقدير والنظر في العواقب^(١).

وإذا أردت أن تغم عدوك، فازدد فضلاً في نفسك، ولا تفرح بالمال والسلطان، فإنهما ظلان زائلان، ولكن تفرح إذا عظمت بالعقل والديانة والعلم والمروءة، فإن هذه الصفات لا تفارقك في الدنيا ولا في الآخرة^(٢).

وإذا أشكل عليك الصواب في أمر من الأمور، فاقصد إلى ما كان أبعد من هواك، فإن الصواب في غالب الأمر يكون في مخالفة الهوى، وقل ما يكون الهوى في النفع، كما أنه قليل ما يكون الدواء في الحلو.

وإذا أشكل عليك التخلص الجميل مع الإخوان والأصحاب، فاكره لهم ما تكرهه، وأحب لهم ما تحبه لنفسك، وأوجب لهم ما تحب أن يوجبوه لك، فإنهم في الخليقة من جنسك.

وتصور الأمور العظيمة في نفسك من لقاء الملوك والعلماء، ومن ممارسة الحروب والأعداء، ومن الاحتجاج على الخصوم، ولقاء المحافل والجموع، والجوابات عن أنواع المحاورات والمناقضات، وغير ذلك من الأمور المهمات.

وروض نفسك عليها لو نزلت بك ما كنت صانعاً فيها، فإن ذلك مما يعين على الدربة، ويشحذ الخواطر قبل الحاجة.

واعلم أن الملوك ربما احتاجوا في الهزائم والحوادث إلى ضروب من الخشانة وأنواع من الصنعة، فيجب على السلطان أن يحفى ويتنعل، ويخشن ويترفه، ويدرب نفسه أحياناً على الطعام الخشن، ويديه أوقاتاً على العمل الصلب، ورجليه أحياناً على المشى، ويكون قوياً على المصارعة والمشابكة والمكاسب، وإن استحيى من ذلك صنعه في خلواته ومع ثقاته، حتى إذا احتاج إليه وجد نفسه فيه.

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٨٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٧٥، ١٨٦).

فهذه لمحة دالة على هذا الباب، مغنية عن الإطالة والإسهاب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

في الخطاء والأصحاب

أقول: إن صاحب السوء من الأشغال الشاغلة، والآفات النازلة، والأدواء القاتلة، وإنه يستحب من تخير الأصحاب، ما يستحب من تخير الطعام والشراب.

وصحبة صاحب السوء للاختيار، كشرب السم للتجربة، وإن صاحب السوء يغذيك من دناءة طبعه، فتتغير به طباعك، ومن لكنة لفظه، فيفسد بها كلامك، ومن فساد آدابه، فيلين بها رأيك، ويدريك على سوء الأدب، ويذيع لك مكتوم السر، ويدل بنقصه على نقصك، وبقلة دينه على قلة دينك، فإن الحكماء قد تقرر بينهم أن دين المرء على دين خليله، وأن الشكل منجذب إلى شكله.

و من الحكم في ذلك قول الشاعر^(١):

عن المرء لا تسل وسل عن قرين فكل قرين بالمقارن مقتد

ثم إنك إذا أردته للنصرة خذلك، وإن أردته للرأى غرك، وإن أطلعتة على عورتك كشفك، وإن خالفتة ساعة عاداك وقذفك، ثم إنه يزهد أهل الفضل في مودتك، ويطمع الأرزال في صحبتك.

والصاحب الفاضل إن كان عالماً أفادك من علمه، وزينك بوقاره، وأرشدك برأيه، وحسن ذكرك بحسن ذكره، وإن كان حليماً علمك من حلمه، وإن كان شجاعاً أمدك بنصرته، وإن كان جواداً أفادك من بره، وهو حقيق بسد ثلمتك، وستر عورتك، وجمال مغيبك وحضرتك.

فاجتهد في اختياره، وثبت في اختباره؛ لأنه لا شيء أخفى على الحواس من تخير طبقات الناس، وقد قيل: إن الناس كالسيوف، سيف بألف، وسيف بدرهم، وكلاهما مثل الآخر في العيان، من قبل مشاهدة البرهان.

(١) هو عدى بن زيد العبّادى التميمي، من شعراء الجاهلية. انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي

ولا تجالس أصحاب الصنائع، فإنهم يرفعون بك على صنائعهم، ومع السفلة من جلسائهم ومهنتهم، ولا تجالس الخدام والعبيد، فإنهم يرتفعون بك عن مهنتهم، فيخل ذلك بخدمتهم، ومن الأمثال في ذلك: إن الجلسم لا يكون نديماً، وإن العبد لا يكون للحر قريباً، والمغتتاب، والنمام، والكذاب، ليس لهم إلا الإبعاد، والمغتتاب أخفهم، والكذاب أشرهم.

وأربعة لا يصبر عليها السلطان لأحد من جلسائه: إفساد حريمه، وإخراج سره، والطعن في دولته، والاستخفاف بحقه.

وامتحن الأصحاب بالاختبار قبل الصحبة، وإياك والطمأنينة قبل الخبرة، فإذا ظفرت يدك بالكرم، فاستدم إخاءه باللين والمودة، فإنهما قرابة مستفادة.

وابذل للصدیق الصالح نفسك ومالك، ولمعارفك رفدك وصيانتك، وللعمامة بشرك وتحبيك.

ولتكن الغاية التي تجرى إليها مع صديقك الرضى، والغاية التي تجرى إليها مع عدوك العدل، فقد قالت الحكماء: إن العدو خصم يحاكمك إلى العدل، وإن الصديق ليس بينك وبينه قاض سوى حكمه، فبرضاه يزداد في محبتك، ولا تطلب رضى الكافة، فإنها غاية لا تدرك، ومرام لا يبلغ^(١).

وكيف يصح لك بلوغ أهوائهم، وهى على غاية الاختلاف ونهاية التباين والشتات، فالتمس رضى أهل الفضل، ولا حاجة بك إلى رضى من رضاه الجور، ومراده الظلم.

صحبة الكريم على الهوان، خير من صحبة اللئيم على الإحسان؛ لأن كل واحد منهما راجع إلى ضد ما بدأ به.

وكل من صحبته من سلطان أو إخوان أو ذى منزلة، فوطن نفسك في صحبته على إقالة العثرة، والتغافل عن الهفوة، ولا تمل معه إلى المعاتبة، فإنها ربما أملت الصحبة، وأخبرت بتقفى الزلة، ولا تمل معه إلى الاستزادة، فإنك تصل بالاسترسال إلى فوق الإرادة، مع بقاء المروءة والعرض والدين. ولا تسترسلن مع أحد وإن صحبته إلا بالمروءة، فإن الاسترسال الكثير ربما أخرج إلى سحق المنزلة، والاستخفاف بالحرمة، ولا تلتمس غلبة صاحبك عند كلامه، ولا تبتغ بالحجة إفساد مذاهبه في الأمور على جهة

المغالبة، فإن ذلك مما يدل على انتفاصك إياه واستخفافك بحقه.

وافترق إلى الناس بلين كلمتك، وإظهار مودتك، واستغن عنهم بتراهة عرضك، ولا تجالس أحدًا بغير طبعه، ولا تكلمه بغير طريقته، كما يفعله من لا يعرف الآداب من الوزراء والكتاب، يجالسون الأهل بالنعو، والجاهل بالفقه، وأنت إذا فعلت ذلك التمس لكلامك المعائب، وقوبل رأيك بالتسفيه، وأذيت جليسك بالتجهيل، وأضعت علمك، وأتعبت نفسك بغير منفعة، ولا رجوع إلى فائدة، ولتكن أرفق الناس بصديق صديقك، وأجراًهم إلى إجلاله، وأثناهم عليه بجميل خلاله.

وإياك والولوع بشيء من مضرته، والتعرض إلى شيء من عرضه، فإن ذلك مؤذ لصاحبك، ومغير له عن مودتك، والجزع عند مصائب الإخوان أجمل من الصبر، والصبر عند مصائب النفس أجمل من الجزع، وإظهار الفرح عند الحزون، والحزن عند المسرور، من سوء الأدب، وإظهار التكذيب للمجالس في حديثه، والاستخفاف برأيه، ليس من أفعال أهل الفضل.

فإن خشيت على أحد من جلسائك ضللاً بقول الجليس، أو سكوناً إلى سوء رأيه، فالطف في انتقاده، وتخيل على أشعاره، مع الإبقاء على أدبك، وكل من علمت نصحه، ووثقت بحبه واجتهاده، فلا تلمه على غلظه، إلا لوم تقويم وتنبيه، ولا سيما إن كان عارفاً، فزل بعد اجتهاده، ووقع في التقصير بخلاف مراده.

وقد قالت الحكماء: الملك بمن غلط من أصحابه فاتعظ، أشد انتفاعاً منه بمن لم يغلط ولم يتعظ؛ لأن الأول كالقارح الذي أدبته العبرة، وأصلحته الندامة^(١)، والثاني كالجذع المتهوك الذي هو راكب للغرة، وراكن إلى السلامة، والعرب تزعم أن العظم إذا جبر من كسر، عاد صاحبه أشد بطشاً، وأقوى يداً.

لوم صديقك على مجالسة عدوك ليس من الإنصاف، إن كان صديقاً مخلصاً، كان غرضه حقداً يخلله عنك، أو عورة يسترها عليك، أو عاقبة يطلع عليها لك، وإن لم يكن مخلصاً، فما قدرتك على قطعه، وما فضلك عليه، فإن كنت ذا سلطان فمنعته بسلطانك، فإنما أنت مانع لأعدائك، لا سائس لأصدقائك.

وإذا أصابت الصديق مصيبة، فقد أصابت صديقه معه؛ لأنه بين أمرين: إما أن يكون مواسياً مشاركاً، فيحمل ثقل المصيبة، وإما أن يكون خاذلاً، فيحمل ثقل العار

(١) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (١/٣٨١).

والفضيحة، فاحتل في دفع مصائب إخوانك، كما تحتال في دفع مصائب نفسك.
وأول ما يبدأ به اللئيم إذا ولى ولاية، أو نال مترلة، هدم داره، وطلاق زوجته، ومقاطعة إخوانه، وقد كان يقال: إذا تولى صديقك ولاية، فارض منه بعشر ما كنت تعرف قبلها من المودة، فإن كثيراً من الناس ينتقلون بانتقال الأحوال، وإذا تولى صديقك ولاية، أو ارتقى مترلة، فلا ترى أنك زدتة إجلالاً لمكان سلطانه، ولكن أشعره أنك إنما زدتة في إجلاله، لمكان ما زادك من إحسانه.

وهذا الباب واسع جداً، فقس ما بقى منه على ما ذكرته لك تصب إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السابع

في صفة الكتاب والأعوان والحجاب

من كلام الحكماء المتقدمين: كاتبك لسانك، وحاجبك وجهك، وعونك يدك، فاحتر لنفسك وجهاً، ولساناً، ويداً، وأقل ما يحتاج إليه في الكاتب أن يكون فصيح اللسان، حسن الخط، عارفاً بالأدب، كائناً للسر، فما أدخل به من هذه الصفات، كان وصمة في مستكتبه، وإخلالاً بكتابته.

وأقل ما يحتاج إليه كاتب الزمام، أن يكون صحيح الأمانة، عارفاً بوجوه الجباية، بصيراً بالحساب، رفيقاً بالرقية، وأقل ما يحتاج إليه كاتب القاضي أن يكون في غاية العدالة والتزاهة، والمعرفة بالفقه والفصاحة، وإذا كان الكاتب فصيحاً، أبان عن مراد مستكتبه، وأظهر الباطن من حجته، وكسر القوى من شبهات خصمه؛ لأن الكاتب الماهر يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، حتى يشكل ذلك على الحذاق، كالمصور الحاذق الذى يصور صورة، فتراها كأنها خارجة من الحائط، ويصور أخرى فتراها كأنها داخلية، وليس الأمر كذلك^(١).

وإذا لم يكن هذا، كانت حجة صاحبه داحضة، وشبهة خصمه قائمة، وكان حقيقاً ألا يرغب في وعده، ولا يخوف من وعيده، ولا يبرز من المعاني ما في نفسه، وإن كان مديعاً لسره، أتى معه من مأمنه.

(١) انظر: كلیلة ودمنة لابن المقفع (ص ١٠٠).

ويجب أن يكون كاتب الأمير موثقاً بمروءته؛ لئلا يخل به في ساعة عسرته، وأوقات شدته، كما فعل بعض الكتاب برئيسه، لم تمر عليه أدنى ضيقة، حتى هرب من خلفه، وكما قال مروان لصاحب شرطته في حربه: احمل عليهم، قال: أحمل أنت إن أحببت، قال له: والله لئن لم تحمل، لأجعلنك نكالا، قال له: وددت والله أنك كنت على ذلك قادراً، وهمز فرسه، وانقلب لشأنه.

ويجب أن يكون الحاجب سهل الوجه، لين العريكة، سالم الجوارح من كل آفة، عارفاً بالناس ومنازلهم وأقدارهم عند رئيسه، حتى يكون وجهه عنواناً عن وجه محجوبه من غضب ورضى، وإبعاد وإدناء، وأن يكون بينه وبين محجوبه رسول لطيف المعنى، يشعر بمحضور كل من حضر، وعلى أى صفة وصل، فإن أحب الإذن له أعلمه فاستأذن له، وإلا اعتذر عن الاستئذان على محجوبه قبل تصريحه بمنعه؛ لأن الاعتذار عن الاستئذان أنزل لقدر الممنوع، وأوسع لعذر الرئيس من التصريح بالمنع على لسان صاحب الأمر.

ولهذا كان الحاجب عند الخلفاء الماضين والملوك المتقدمين في رتبة الوزارة، ومتجاوز القدر للتوسط في الجلالة، وأما العون، فإنه مفتقر إلى أربع خصال: أولها: الشدة، والثانية: السياسة، والثالثة: الصدق، والرابعة: الطاعة.

وإنما احتاج إلى السياسة ليضع الإكرام والإهانة في مواضعها على قدر من أمر فيه بها، فلا يعامل الخاصة بمعاملة العامة، ولا العامة بمعاملة الخاصة، واحتاج إلى الصدق لما يتصرف فيه من الأخبار.

ويجب على العون أن يكون فيه التوقر بحضرة رئيسه، والمبادرة إلى إنفاذ أمره، فما أخل به من هذه الصفات، فقد أخل به من أدب مخدمه.

ومن لا يحسن اختيار كتابه وحجابه وأعوانه، فأحرى ألا يحسن التصرف في سلطانه.

* * *

الباب الثامن

في الظهور والحجبة

يجب أن تكون الحجبة والظهور على قدر محكم، وحد معتدل، سالم من عيوب الرفق بالحجبة، وعيوب الظهور بالإكثار والخفة، فيكون الظهور في أوقات النزهة عند

ترادف الصفة، وقلق النفس من كثرة الغيبة، أو عند قضاء الحاجة، والبروز للمهم من أمر الخدمة، أو عند استعلام أحوال الرعية، والتعرض لمن عسى أن يكون بلغته مظلمة.

فإن زاد ذلك، فإنه مسقط للهيبة، وناقص في قلوب الرعية من المخافة، ومجزئ لسائر الطلاب على كثرة المسألة، وممكن للمرتصد الغرة من انتهاز الفرصة.

فأما الحجة، فمضيعة للأشغال، ومبعدة للإخوان، ومفسدة للرعية، وقاطعة عن معرفة الأخبار الحادثة، وموقعة للمحتجب في أبواب التهمة، وممكنة لمن يريد الخلاف عليه من الفرصة، فيجب أن يجرى منها على حد معتدل.

ويجب أن يكون للرئيس في أوقات حجبته، من يعلمه بجميع ما يجرى في رعيته، وبجميع ما يقدم عليه بحاجته، فإنه إذا كان كذلك، اكتفى ما في الحجة من المضرة، وحصل على ما فيها من الراحة.

* * *

الباب التاسع

في هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات

اجعل جلوسك للحاجة في غاية الانقباض، والتوقر، والصمت، والتجمل، وقلة الضحك والاتفات والتمايل، وبسط الأرجل، والمشاورة، والمجاورة، والقيام، والقعود، ولا تتحول عن الحالة التي يجدونك عليها، ولتكن كل أحوالك بعيد الغور، ساكن الفور، ولا تكثر الانشراح الدال على الفرح، ولا الانقباض الدال على الحزن، ولتكن من التوسط على حال لا يدري معها ما في نفسك، ولا يستدل بها على شيء من أمرك.

واجعل جلوسك للخاصة أبسط منه للعامة، وأنعمهم بالتحية، وأظهر لهم المودة، وعاشرهم بلين الكلمة، وترفع المتزلة، وتحفظ معهم من السقط، وأرهم أنك مسقط للتحفظ^(١).

واقسم بشرك بينهم على أقدار منازلهم، ولا سيما في محافلهم ومجامعهم، ولا تنقص الكريم من قدره، فإن ذلك موجب لحقده، وناقض من وده، ولا ترفع اللئيم فوق

(١) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (١/٣٧٨).

مزلته، فإن ذلك موجب لتمرده، ومشعر للكريم أنك جاهل بحقه.

واعلم أن المنازل الرفيعة إذا أهلت لها اللثام، صغرت عند الكرام، وحسبوا أنك لم ترفعهم إليها بالفضل، وإنما أعطيتها لهم بالمصادفة، فتَهون كرامتك، ويزهد في التوجه بالفضائل عندك، ويزدري على عقلك ورأيك، والانقباض مع الخاصة دال على الغل، وكثرة البشاشة دالة على السخف، فكن من ذلك من على حد جميل من التوسط، وغم السفية بالسكوت، ودار الأحمق بالرفق، وخذ الأخرق بضرب من الملق، وعامل العالم بالحجة والصواب، وليكن ضحكك تبسماً، وجلوسك تربعاً.

وإياك وتشبيك الأصابع، وإدخالها في الأنف، والعبث بالقلنسوة، ووضع اليد على اللحية، وتقليم الأظفار بحضرة الناس، أو بحضرة السلطان، وإذا مشيت، فلا تضرب برجليك الأرض، ولا تنظر في عطفيك، ولا تتمايل تمايل المرأة، ولا تثب وثوب الطفل، ولا تقف على الجماعات، ولا تنتظر أحداً إن تأخر عنك، ولا تقف عنه إن كان معك، وإذا ركبت فاهمز بعقبك، ولا تكثر من تحرك رجلك، ولا تضرب الدابة. واقتصر من حركتها على جذب العنان وإرساله، فإن أحوجت فوقى الرأس، وأدب على العثار، وأقلل الأدب على النفار، ولا تتقدم الناس، فتلقى من يرد عليك دون حاجب، ولا تتأخر عنهم فيؤذونك بغبارهم.

وكن على حد من التوسط، يكون فيه من خلفك أكثر ممن أمامك، وليكن بإزائك من رجالك أفهمهم، ويلبهم أشدهم وأنفعهم. وإذا شكأ أحد إليك في طريقك، فإن كان أمره خفيفاً، فانصفه في حاله، أو فعهده إلى مجلسك، ولا تعرض عنه، وإن نويت إنصافه، فإن ذلك مشعر بظلمك، ومخبر عن قلة إنصافك، ومسلط من وراءك على سبك. وإذا أتيت مجلس قوم، فإذا استطعت أن تجلس دون ربتك فافعل، فإن ذلك أرفع لقدرك.

* * *

الباب العاشر

في سياسة الحاشية والجند

الجندي المراد للحرب، يجب أن تعتبر فيه خصلتان: إحداهما: الشدة، والثانية: المروءة؛ لأنه بالشدة يقاتل، وبالمروءة يثبت، ويشتد بها حميته، فيزيد في شجاعته، ومائة

من كبار الجند، يتبعهم خلق كثير، ومائة من صغارهم، يهرب منهم جزء كبير، ويجب تثقيف الجند بأزمته وقوادهم وعرفائهم، ومن لا يخفى على الوالى والأمير شيئاً من أحوالهم، ولا يغفل عن حوائجهم وأرزاقهم، فيؤدى ذلك إلى اختلال أحوالهم، وفساد قلوبهم، ويجب على الوالى أن يعرف لكل واحد منهم حق نجلته، ومكان اختصاله، ولا يُنسَ له محمود أفعاله، وليعلمهم بالغرض الذى يجرون إليه من خدمته، والقدر الذى يستحقون عليه من كرامته، وإن لم يعلمهم ذلك بلسانه، أعلمهم إياه بعاداته، ولا يمكن أهل البلاء منهم عنده بالتدلل عليه، ولا من الافتيات على رعيته، وليرضهم رياضة تؤذن كل واحد منهم بالوقوف عند حكمه، والمبادرة إلى امتثال أمره.

وإذا قوى السلطان جنده بإضعاف رعيته، فهو مضعف لجنده، ومتلف للملكه، وإذا أضعف جنده بقوة رعيته، فهو متلف لجنده، ومفسد للملكه، فليكن غرضه العدل فى سيرته وجبايته بين جنده ورعيته.

وإذا قبل السلطان من عماله العطاء، فقد أذن لهم فى الأخذ، وإذا قبل عليهم أقوال الشاكين والناقلين من غير الصحة، فقد عرض بهم إلى العزل.

وإذا كان السلطان جديداً الدولة، فلا يغرنه استقامة جند بغير رزق، ولا نفع، وعمل بغير حزم ولا تدبير، فإن الأمر الجديد ربما تكون له هيبه فى بعض القلوب، وحلاوة فى بعضها، ثم ترجع الأمور إلى حقائقها بأدنى مكث، فينحل عقده، وينتقض إبرامه، وإذا كان السلطان إنما يصول بقوم ليس بينه وبينهم قرابة، فيحملهم على الأدب والحفيظة التى تثبت بها بينهم المودة، وإلا فهو معهم كراكب الأسد الذى يهابه الناس، وهو لما ركبه أهيب.

ويستحب للسلطان أن يكون جنده أجناساً مفترقة، وقبائل شتى، لا يتهيأ لها الاتفاق على رأى واحد فى الخلاف، وأن يسوس جنده سياسة تخرج شيوخه وقادته عن الاتفاق والصدقة، وعن الخلاف والعداوة، فإن الأمرين جميعاً يعودان عليه بالمضرة^(١).

ومما يجب أن يتجنبه إثارة أحد من الأجناد والحاشية من الكرامة بما لا يليق به لجنسه، ولا يستحقه بعمله، فإن ذلك مفسد لمن فضله، ولمن فضل عليه، أما الذى فضله، فإنه يتيقن أن عطيتك بالهوى، فيخاف أن ينتقل هواك عنه، فهو أبداً خائف من جهتك، مترقب لتنتقل، وأما الذى فضلت عليه، فقد أعطيته الحجة على نفسك، وأعلمته أن

غيره أثر منه في رأيك، وأقرب منه بغير استحقاق إلى قلبك، وفي ذلك أيضاً داعية إلى الاتكال على المصادقة، وترك الأعمال التي تنال بها المتزلة^(١).

وينبغي أن يدرب السلطان قائد جنده على وثبات كوثبات الأسد، وخطفات كخطفات الحداة، واختلات كختلات الذئب، وروغان كروغان الثعلب، وصبر كصبر الحمار، وهجمات كهجمات الخنزير، وبكور كبكور الغراب، وحراسة كحراسة الكركي^(٢).

ويجب عليه أن يدرب قاضيه على وقار كوقار الفيل، وعلو كعلو النسور، وقرب كقرب الحمام، وصيانة كصيانة الغزال، وفطنة كفطنة الفأر، واحتراس كاحتراس القرد، وجسر كجسر النمر، وعبادة كعبادة المهدد، وبيان كبيان البيغاء.

ومن أمثال العجم أن أحزم الملوك يحتاج إلى وزير، وأشجع الناس يحتاج إلى سلاح، وأجود الخيل يحتاج إلى سوط، وأحد الشفار يحتاج إلى مسن، ومثل الوزير الفاسد مع الملك الصالح، كمثل التمساح في الماء الصافي^(٣).

* * *

الباب الحادي عشر

في تقسيم الجند والحاشية على الأعمال

قالت الحكماء: إن السلطان مع أصحابه كالكرمة تتعلق بما التصق إليها، ولا تختار من تختصه بتعلقها، وإن السلطان لابد له أن يتصور كثيراً من الناس بخلاف منازلهم التي هم في الحقيقة عليها، لما يلقونه به من التصنع، ويعاملونه به من التعامل، ثم لا يلبث ذلك أن ينكشف بسرعة إن كان السلطان فهماً، أو بعد مدة إن كان السلطان جاهلاً، كالثمرة المرة التي تظلي بالعسل، فلا تلبث أدنى لبث، حتى ينكشف عنها، وترجع إلى طبعها، ويظهر الذائق على مرارتها.

وأكثر من يرضى بالتعمل السقطة والأنذال، فأما أهل الفضل والسيادة، فإنهم

(١) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (٢٠٠/٧).

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١١٥/١)، التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ١٥٤)، بدائع السلك

في طبائع الملك لابن الأزرق (ص ٢٠٤).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ١٤٣).

يرغبون بأنفسهم عن هذه الخطة، بل ربما عكسوها، فأخفوا من فضائلهم، وكنتموا من مناقبهم، ما لو علمه السلطان، لم يقدم غيرهم عليهم، ولا أنزل سواهم مكانهم.

وقد قالت الحكماء: إن الأصحاب ثلاثة: صاحب كالغذاء، وصاحب كالدواء، وصاحب كالداء، والذي هو كالداء يجب إبعاده والتحرز منه قبل خلطته، كما يفعل بالداء الذي هو مشبهه، والغذاء والدواء يجب استعمال كل واحد منهما في موضعه، واعلم أن من استعمل الدواء في موضع الغذاء أضر ذلك بجسمه، وأخبر استعماله لذلك عن فرط جهله.

فيجب على السلطان الحازم أن يتحفظ بأعماله ممن هذه صفته، ويبحث كل البحث عن أهل الفضل فيمن غاب عنه، وفيمن صحبه، وأن لا يقتصر من عامله على مجرد صحبته فقط دون البحث عن أمره.

وقد قالت الحكماء: إن الذي يصرف واحداً من أصحابه في غير ما هو صالح له، بمنزلة من يلبس حلية رأسه رجليه، وحلية رجليه في رأسه، فجميع لباسه غير مغن عن العضو الذي لبسه، ولا زائد على الدلالة على جهله، ولا مغن عنه أكثر من تضييع شغله، وفساد ما أهله إليه من عمله.

واعلم أن الناس تختلف أحوالهم باختلاف طبائعهم، وأنه من يصلح لأمر، ولا يصلح لغيره، كالشجاع الذي لا رأى له، يصلح للقتال بنفسه، ولا يصلح للإمارة على غيره، والشجاع المدير ذى رأى الحسن، والحيلة والنصيحة، يصلح للقتال بنفسه، وهو أصلح ما يكون للإمارة على غيره، وربما صلح للسرية القرية، والمعرفة الحاضرة، إذا لم يكن معه من الجود وحسن الذكر والصحة ما يستلزم به الإمارة، وكالفصيح الماهر الحسن الخط الذي يصلح للكتابة، وكالفصيح الذي لا خط له يصلح للخطابة، ولا يصلح للكتابة، ومثل هذا كثير.

فيجب على الرئيس والوالى أن يضع عماله فيما يصلحون له، وألا يولى أحداً منهم في غير موضعه.

وقد كانت الفلاسفة القدماء لا يستعملون أحداً إلا فيما دل عليه مولده، فإن خفى عليهم ذلك، أدخلوه في بيت الهياكل الذي فيه جميع الصور، فما رأى وأنس به، وجلس إليه، أدخلوه فيه، فيكون مجيداً أبداً.

٤٠ كتاب السياسة في تدبير الإمارة

ويجب على الوالى والأمير إذا ولى عاملاً أو قاضياً بعد اختباره، أن يتعاهده بالنظر، ويدس عليه من يأتيه بالرشوة والزماد فى تبديله الحقيقة، فإذا رآه استداد على الامتناع من ذلك، حمد أمره وشد أزره.

ويجب أن ينظر من عامله وكتابه إلى سيرته ومجلسه وأصحابه، فإذا رأى من ذلك عيباً متباشعاً، استبدل به غيره، واستدل بذلك على فساد طبعه، وقلة تدبيره، وإذا رأى من الفساد ما يشتهيه، أمره بإصلاحه، وأخذ على يده فى العودة إلى مثله.

ويجب على السلطان إذا كان على حد من الضعف، يمكن معه تغلب العمال عليه، ألا يطيل بقاء الحازم منهم على عمله؛ لئلا يستبد بأمره، ويخرج عن طاعته، وهذه لحة تدلك على ما جانسها من هذا الباب.

* * *

الباب الثانى عشر

فى معاشرة أصحاب السلطان بعضهم لبعض

ليعلم أصحاب السلطان أنهم كالبنيان المرصوص الذى يشد بعضه بعضاً، وكأسنان المشط الذى لا ينفع أحدهما إلا بصاحبه، ولا يستعين على شغله إلا به، فإنهم يوم يقتل أحدهم بالبغي، قد قتلوا به جميعاً، وأنهم على حد من الخطر لا مثال له، ولا شىء يشبهه، وقد مثلهم الحكماء براكب الأسد الذى يهابه الناس، وهو لما ركب أهيب^(١).

وقد قالت الحكماء: إن الوزير أكثر أعداء من السلطان؛ لأن أعداء السلطان كلهم يعادونه، وأصحاب الوزير أكثرهم عداوة ومنافسة وهم حاضرون مجاهرون، فليستعن على ذلك بالصحة وثبوت الحجة، ثم ليرح قلبه منهم، كأنه لا عدو له؛ لأنه إذا خاف منهم، كان خائفاً فى أمنهم، ومصطلياً بنار أحقادهم^(٢).

ويجب لصاحب السلطان أن يزيد فى هيبه رئيسه وإجلاله، كلما زاد الرئيس فى رفعة وإعظامه، ولا يؤنس قربه منه، فيحمله على معصيته، أو على ترك الاحتياط لنفسه من غضبه.

وإذا قربك السلطان، فلا تكثر من الدعاء له، والثناء عليه فى كل كلمة، وعند كل حركة، فإن ذلك مما يحدث الوحشة، ويريه أنك معامل له بالملق، وقصد ما يبلغه، لا ما

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (٢١/١)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١١٣).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٢٧).

ينفعه. والناس أشبه بزمانهم، وصفة الخدمة مشتقة من سجايا سلطانهم، والإبقاء على حرم السلطان كالإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه، كالإشفاق على ديناره ودرهمه^(١).

ويجب على أصحاب السلطان أن يراعى بعضهم بعضاً، ويتخذ بعضهم عند بعض يداً، وإن كان عند السلطان كبيراً، فإنه راجع إلى أيدي أصحابه بأدنى جفوة وبأقل إغراض ومعتبة.

ويجب على أصحاب السلطان أن يتولى بعضهم بعضاً قضاء حاجة صاحبه، دون ارتفاعها إلى رئيسه، فإن ذلك أطيب لنفوسهم، وأبقى عليهم عند رئيسهم.

ويجب على الحاذق الماهر من خدمة السلطان ألا ينافس نظراءه في الكلمة، يتقربون بها، والعمل يؤمرون به، فإنه في ذلك بين أمرين: إما أن يكون عنده في ذلك فضل عليهم، فيبدو ذلك ويحتاج إليه، ويلتمس منه وهو متأدب مسالم، وإما أن لا يكون عنده من هو أولى من المأخوذ عليه، وأنت مصيب بموافقتك لهم وموافقتهم لك، أكثر مما تناله المنافسة.

وإذا كان أصحابك عند السلطان معترفين بفضلك، ومسلمين لحسن رأيك، وجميل بلائك، فلا تجترن على خلافهم، ثقة منك بذلك، فإنك غير آمن أن يحملهم ذلك على خلافك ومنازعتك، ونصب الشبه على بطلان قولك، وجعل ذلك سبباً لعداوتك، فقد شاهدنا من يتعلم منا الأدب، ويسأل الفائدة، ويحضر المجالس، فإذا حضر السلطان، نازع في أقل من كلمة، وتطلب إدخال أدنى منقصة^(٢).

فاعمل في هذا على ما قلت لك، فإنك غير واجد في كل أمر حجة، ولكل حجة مستمعاً، وبكل حق عاملاً، ولا تطمح نفسك إذا نلت منزلة من السلطان إلى مزايلة أصحابه عنه، وإفساد مراتبهم عنده، وإن كان قولك فيهم حقاً، فإنه ربما كانت لصحبته ومؤانستهم في قلبه رتبة وعنده شفاعاة، وفي نفسه لذة لا يجدها لغيرهم ممن هو أفضل منهم، وقد رأينا من يخف عليه بعض أصحابه، ويثقل عليه غيره، من غير إنكار لفضله.

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٣٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٣٤، ١٣٥).

ولا تدعونك نفسك إلى الدخول بين السلطان وبين أقاربه، كنسبائه، وأبنائه، وإن ارتفع شأنك، وعظم عنده مكانك، إلا بالإصلاح، وما ترجو منه الصلاح، فإن الذى بينه وبينهم أقرب مما بينه وبينك، فإنهم راجعون إليه بعد انصرام تلك الجفوة، ووحشة ما أوقعت بينهم فى وقت الوحشة، فاعلم ذلك.

وإذا رأيت من بين السلطان هوى يخالف رأيك، وشيئاً ينكره طبعك، فلا تشكونه إلى أصحابه وأهل خدمته، فإنهم لا يرجعون بقولك إلى خلافه، ولا تزيد نفسك على أن تدلهم على مرادك، وتغريهم باتباعه، وتجعل لهم أو لمن رضى منهم إلى القول فيك طريقاً، وإلى إسقاط منزلتك عنده سبيلاً^(١).

وإذا غضب السلطان على أحد من رجاله، فلا تظهر الرضى عنه فى وجهه، ولا تقيم له عذراً، ولا تنم له سرّاً، ولا يجمعك وإياه مجلس، فإذا تقضى نقص غضب السلطان عليه، ورجوت حيلة فى الرضى عنه، فانظر فى عذره، والطف فى إصلاح أمره، ولا تغضب من شتم السلطان، فإنه فى كثير من الأحيان غير دال على المنقصة، ولا مسقط للحرمة، مع استدامة الخدمة، وإنما ييسط لسانه ريح العزة، ويحملة على ذلك فرط النخوة، وأنت على رد قوله بالتلطف، أقدر منك عليه بالتجهم^(٢).

ولا تحضرن عند الوالى كلاماً لا تُعنى به، ولا تُحب عمّاً لا تسأل عنه، فإن الذى فى ذلك من الدرك أكثر مما فيه من المنفعة، فهذه نكت دالة على ما ورائها من هذا الباب إن شاء الله تعالى^(٣).

* * *

الباب الثالث عشر

فى أقسام السلاطين وكيفية سيرهم

قالت الحكماء: إن السلاطين ثلاثة: سلطان عدل وأمانة، وسلطان جور وسياسة، وسلطان تخليط وإضاعة.

فسلطان العدل والأمانة له فضائل أربعة: الأجر، والثناء، والنصر، والبقاء، ومن

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٣٨).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٢٨، ١٢٩).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٢٨).

الأمثال في ذلك: إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فليشر ساكنها بالعز والعمارة. ومن كلام أرسطوطاليس: العالم بستان، سياحه الدولة، والدولة سلطان تحميه السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمععه الرعية، والرعية عبيد يجمعهم العدل، والعدل مألوف، وبه صلاح العالم^(١). وقد قالوا: العدل يزيد السلطان في علوه، وينصره على عدوه، والعدل أنصار من الرجال، ودرة عمر، رضى الله عنه، كانت أهيب من سيف الحجاج. فهذا القسم من السلاطين إذا بذل لجنده ورعيته ما عرفوه عدلاً، رضى به جميعهم، وإن سخط بعضهم لم يلتفت إلى سخطه، إذا كانت العامة على خلاف مذهبه.

وأما سلطان الجور والسياسة، فإنه يحتاج إلى فنون من التدبير يستعطف بها القلوب، وتزين بها الأبصار، ويجب أن تكون سياسته على قوانين مألوفة، ولا يكثر من تغييرها، فإن الظلم المألوف تصبر عليه النفوس أكثر من صبرها على الظلم المتغير، ومع ذلك فلا يسلم من حقد، ولا يؤثر ذلك في ديناه، إذا عمل بالحزم.

وأما سلطان التخليط والإضاعة، فإنما هو لذة الساعة، ودمار الدهر، وفساد الدين والعرض، وخسارة الدنيا والآخرة، واستعجال الفقر والذلة، وربما سحب ذلك تلف المهجة.

وإذا تقلدت شيئاً من أمر السلطان، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً محافظاً عليه، ناظراً في دوامه، سائساً له بالحزم، وإما رجلاً كارهاً له، مكرهاً عليه، تابعاً فيه لآراء السلاطين، فإذا كنت محافظاً، فيأياك أن يظهر لك التدبير شيئاً من العجز والهويني، وترك النظر في إصلاح أمرك وتدبير ولايتك.

واعلم أنه قد يتصور العجز أحياناً في صورة التوكل، فيظن العاجز أنه متوكل على الله عز وجل بعجزه وبتركه النظر في أمره، وهذه خدعة من السلطان، مخالفة للعقل والشرعية؛ لأن الرسل، عليهم السلام، قد حزموا وأمروا بالحزم.

وإذا كنت كارهاً في ولايتك، وظهر ذلك إلى موليك، فاعمل فيها بما يصلح دينك وعرضك، وبما تأمن به على نفسك في وقت عزلتك.

واعلم أن هذين القسمين قد ينتقل أحدهما إلى الآخر، وذلك أنه قد يتبدئ الوالى الولاية راعياً فيها، فلا يزال يفتق على نفسه الفتوق، ويجلب إليها بتدبيره عظام الأمور،

حتى يعود كارهاً في ولايته، وطالباً للخلاص من عظيم وحلته، وقد يتدنى الوالى ولايته كارهاً، فلا يزال يفعل الأفعال التى يأمن على نفسه معها فى حين عزلته، حتى يعود راعباً فى ولايته، فيجب أن تكون السياسة لكل واحد من هؤلاء حكم الحال التى هو فيها، لا حكم الحال التى ابتدأ عليها.

وليكن مطلوب السلطان من الولاية ثلاثة أشياء: رضى ربه، ورضى سلطانه الذى فوقه، ورضى أهل الفضل والخير من رعيته، وما عليه أن يلطف المال والذكر والتنعيم، فإنها ثابتة على كل حال ما أحرز الثلاثة.

وخير السلاطين من كان كالنسر، حوله الجيف، وشرهم من كان كالجيفة حولها النسور^(١).

وليعلم السلطان أن الناس يرمون الولاة بسوء العهد، وقله الإنصاف، فإذا استطاع أن يزيل ذلك عن عرضه، وأعراض نظرائه فليفعل، وإذا أراد السلطان أن يفعل فعلاً ما من الأفعال، فلينظر كيف ذلك الفعل عنده وعند الناس، فإذا كان عنده صالحاً، وعند الناس فاسداً، فليتركه ما استطاع، فإنه ليس كل من رآه من الناس يصنع نكراً، يستطيع أن يوسعه عذراً^(٢)، وأحق الناس أن يأخذ نفسه بالعدل السلطان فيما قال أو فعل؛ لأنه نافذ الأقوال، مسؤول عن جميع الخلق.

ويجب عليه ألا ينظر بعين المقت والمحبة؛ لأنهما يحسنان القبيح، ويقبحان الحسن، ولا يسمع كلام من يتهمه بالبغي، فإنه يهلك العمال بقوله، كما يهلك المعمول فيه، وليعلم الوالى أن أكثر رعيته على دينه ورأيه، فليكن للخير والفضل عنده نفاق، فإنه سوق، ما نفق عنده حمل إليه، فإذا نفق عنده الشر هلك الناس^(٣).

والسلطان والوالى يحتاج فى ولايته إلى سياستين، ومن أهل بطانته إلى جنسين: سياسة وبطانة لتقوية ملكه، وسياسة وبطانة لجماله، وسياسة القوة أولى؛ لأنها إذا انخرمت زال الجمال، وسياسة الجمال أحضرها لذة، وأظهرها حلاوة، وقد تكون القوة من الجمال، والجمال من القوة، ولكن الشئ إلى معظمه^(٤).

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٣٠٠).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١١٦).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١١٨).

(٤) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١١٨، ١١٩).

ويجب أن تعرف رعيته كما عودتها من عادتك، الأبواب التي ينالون بها الخير عندك، والأبواب التي يخافون منها الضير من قبلك، فإن ذلك داعية لهم إلى التقرب بها لديك، وليكن العامل منهم للخير واثقاً بأنه غير خفي عنك، وليكن عقابك معجلاً ومؤجلاً، حتى يظن السالم منه أنه سيأتيه، فلا ينسبط على العودة إلى مثل فعله؛ لخوفه من عقوبته، واجعل لذنوب السر عقوبة السر، ولذنوب العلانية عقوبة العلانية، فإنك إذا عاقبت على ذنب السر علانية، رأى الناس العقوبة، وغفلوا عن الذنب، فذموا رأيك بالفساد، ونسبوا رأيك إلى الظلم، وإذا عاقبت على ذنب العلانية سرّاً، انبسط عليك الذنوب، واحترى الظالم والسفيه، وقد تندر من ذلك ندرات، يعاقب فيها السلطان على ذنب العلانية سرّاً إذا أراد أن يتصف بالحلم^(١).

وليكن السلطان لفريق من أعدائه مصاحباً ومداهنّاً؛ ليعرف به أخبار بقيتهم، ويهدم به اتفاق جميعهم، ويتسبب به إلى خلافهم، وتشيت آرائهم، وإذا ابتلى السلطان بقوم ذى نفاق وشدة وقلة انقباض إلى الحقيقة، فليقم منهم رءوساً، ويلقى بينهم الخلاف حتى يكفيه بعضهم مؤونة بعض، ويبقى هو فى أمن وراحة، فإنه إن انصلح ما بينهم رجعوا كلهم عليه، فاتبعوه وأهلكوه، فليدبرهم بهذا التدبير قبل تدبيرهم بالحرب^(٢).

* * *

الباب الرابع عشر

فى أقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم

اعلم أن العلماء الماضين، والملوك المتقدمين، قد قسموا الناس على ثلاثة أجناس: كريم فاضل، ولئيم سافل، ومتوسط بينهما، صار اللؤم إليه من أحد أبويه، أو أصحابه، أو معاشريه، أو من الأعمال التي تقتضيه، فأما الكريم، فضبطه وملكه بالإكرام والإنصاف والمودة والاستعطاف، فإذا جعلته سيّداً، كان لك عبداً، والكريم مأمون إذا شيع وقدر، ومخوف إذا جاع وقهر، واللئيم مخوف إذا شيع وقدر، ومأمون إذا جاع وقهر، فارتفع الكريم جهداً، فإنك كلما رفعتة تواضع لك، وضع اللئيم جهداً، فإنك إن رفعتة ترفع عليك.

وعامل المتوسط بقدر ما فيه من الإكرام والإهانة، فامزج له الرغبة بالرهبة، وقابل له

(١) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص ١٢٥).

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢٢٢).

الإكرام بالإهانة، فإنه يطيعك خوفاً من عقابك، ورجاء في ثوابك، فأما الكريم، فلا بقاء له مع خوف العقوبة عندك.

واعلم أنك إذا أهنت الكريم، فتحت على نفسك باباً للؤم والمضرة، وإذا أكرمت اللئيم، اقتضيت منه شراً، وزادك عليك بإكرامك له تمرداً، وإذا عاملت المتوسط بأحد الطرفين، انتقص عليك الطرف الثاني منه.

وقد كان بعض ملوك الفرس يجعل لكل طبقة من الناس جنساً من اللباس، يعرف به مكانه، فلا ينتقل عن لباسه حتى يرى له من الفعل ما يستدل به على فضله، فينتقل بإذن الوزير إلى الطبقة التي فوقه، وذلك إحرازاً منهم لإيقاع السياسة في مواضعها، ومعاملة كل طبقة بما تستحقه لنفسها وفضلها، فاحصر هذه الأقسام بتدبيرك، فإنها لن تخل بالحزم، إن شاء الله.

وقد قالت الحكماء: إن الناس طبقات في الطبائع والأخلاق، ومذاهبهم شتى في جميع الأحوال، فعاشر في وقت كل إنسان بما يحمله خلقه، ولا ينكره طبعه، وتخلق له بموافقته بعد دلائلك على حظه، وإلا فلست بحكيم في التدبير، ولا لطيف فيما تريد، واعلم أن المداراة درجة رفيعة لا يستغنى عنها ملك ولا سوقيه، وأن القلوب جبلت على بعض من استعلى عليها، فعامل الناس بالموافقة في غير أماكن الغلظة.

واعلم أن الخلاف يهدم المحبة، ويدعو إلى الفرقة، وأهون ما تكون عند الناس إذا كانت بك إليهم حاجة، فتعزز عليهم بالاستغناء، واملكهم بقضاء الحاجة، واعلم أنهم عبيدك ما دامت لهم إليك حاجة، وأعداؤك ما دام لهم عنك غنى، فعاشرهم في وقت استغنائهم عنك بخلاف معاشرتهم في وقت حاجتهم إليك، وقارب عدوك من الناس بعض المقاربة، ولا تباعده كل المباعدة، ولا تقاربه كل المقاربة، فيجترئ عليك، ويطلع على سرّك، ويضعف بمقاربتك جندك، ويذل بذلك نفسك^(١).

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: إن الخشب المنصوبة في الشمس، إن أملتها قليلاً زاد ظلها، وإن جاوزت الحد في إمالتها نقص الظل، وأما صديقك فقربه أنفع لك من بعده، وبعده قريب من فقده، فعلى هذا فقس أقسام الناس تصب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الخامس عشر

في الأدلة التي يستدل بها على أهل الفضل والنفيسة والتوسط

أقول: إن الناس على ضربين، منهم معروف بالأصل، والأبوة، والنشأ، والمروءة، ومنهم طارئ غير معروف الأصل، ولا مشهود له ببلد، ولا أهل، فالأول يحكم له بحكم منصبه وأبوته، إذا لم يعرف بغير مروءته، بأن يظهر منه نقص، فيخرج به عن حكم الأصل، والطارئ ينظر أولاً إلى الطبقة التي يألفها، والمنازل التي يسكنها، والحرفة التي يتحرفها، وينظر إلى علومه وآدابه وأحواله، فيحمل على مروءة جنسه، حتى يدل على خلافها بفعله.

وإذا أشكل عليك عقل الرجل، فشاوره في مهم من الأمر الذي لم يتزل بك، ولا أنت محتاج إليه في وقتك، فإنك تستدل برأيه على موضع عقله، وإذا أحببت أن تعرف قدر سخائه، فشاوره في شيء تجود به على من تعرفه بقدر فضله، فإنك تستدل برأيه على قدر سخائه، وإذا أحببت أن تعرف قدر علمه، فسله عن مشكلات المسائل، وعن أنواع العلوم المختلفة، وإذا أحببت أن تعرف قدر دين العالم، فعرض به إلى الشبهات، فإن رأيته متسامحاً فيها من غير ضرورة إليها، فاقض بلطافة دينه، وإذا أشكل عليك كريم الطباع، فاخبره بلطفك ولحظك، فإن زادك تواضعاً فهو كريم، وإن ترفع عليك أدنى ترفع فهو لئيم. شعر:

وإذا جهلت من امرئ إعرافه وقديمه فانظر إلى ما يصنع

* * *

الباب السادس عشر

في الكلام والصمت

أقول: إن الحكماء قد قالوا: قلب العاقل أمام لسانه، يتدبر الأمر قبل النطق به، وقلب الأحمق خلف لسانه، يقول الشيء قبل تدبيره. وقالوا: إذا تم العقل، نقص اللفظ، فتدبر كلامك قبل النطق به، وانظر من كلامك في ضره، ونفعه، ووقته، وموضوعه، وفصاحته، ووزنه، وليكن كلامك مترسلاً، سهلاً، قليل لأهل الفضل، مبسوطاً لأهل الجهل، متوسطاً لأهل التوسط، كل كلمة منه متعلقة بفائدة متضمنة لمنفعة، وليكن صوتك به بين الجهر والخفوت، وإيرادك له على الاعتدال من توالي الحروف، واهجر الكلام السوقي الذي ابتذله العامة، والغريب الوحشي الذي تستثقله الخاصة.

وإياك أن تؤتى من سوء فهم مخاطبك، فيكون ذلك عائداً بسوء فهمك، ولا تصل بكلامك الحشو الذى لا يفيد شيئاً، كقولهم: اسمع، وافهم، وحاشاك، وما أشبه ذلك من كلام الضعفاء، والمنتقصين: ولا تكثر فى أثنائه من السعال والبصاق والتأؤب، ولا تمزجه بالأيمان، وإن كنت صادقاً، فإن ذلك مما يزرى بفصاحتك، ويؤذن المخاطب بتهمتك.

وإذا سُئلت فأجب على قدر مسألتك، ولا تخلط ما لم تسأل عنه بكلامك، وإذا سُئِلَ غيرك، فلا تكن أنت مجيئاً، وإن كنت بالمسؤول عنه عالماً، وإن كان السؤال عاماً، فلا تبتدر بالإجابة، فإن الحضور معك، يتبعون كلامك بالتأمل، ويجتهدون لجوابك فى التنقص، ويكون لهم عليك الخيار^(١).

وإذا تأخر جوابك، كان لك أن تفعل بهم ذلك، مع ما تضيفه إلى رأيك من آرائهم، وتزيده من جوابك من إبطال أقوالهم، وإذا لم يصل القول إليك حتى اكتفى بصواب غيرك، فلا يؤثرن ذلك فى نفسك، فإن الحكماء قد قالوا: إن صيانة القول خير من وضعه فى غير موضعه، مع أن كلام العجلة من قبل الروية موكل به الزلل، ومصروف إليه الخطأ والخلط.

وإذا تمارى قوم بحضرتك، فاستقبلهم بصمتك، وسائرهم بحسن وقارك، فإنك إن ماريتهم، كنت كأحدهم، وإن صمت عنهم، رجع الأمر إلى قولك، واعتمد فى الصواب على رأيك، وتكلم حين تصيخ الأسماع إلى كلامك، ولا تتحدث بكل ما سمعته، ولا تكذب بكل ما أشكل عليك.

وإذا أصغيت إلى كلام، فلا تظهرن العجب به، ولا تكثرن التحدث عن بلد بعينه، ولا ضرب من ضروب الرأى، ولا رجل من أصناف الناس، حتى يغلب ذلك على كلامك، فإن ذلك مؤذن بنقصك، ولا تكثر التحدث بفضل والدك، ولا ولدك، ولا امرأتك، ولا دارك، ولا دابتك، ولا تقطع كلامك بعد ابتدائه، ثم تعد المستمعين بإتمامه، كأنك رويت فيه، فرأيت أن الصمت خير من إتمامه، ولتكن رويتك فيه من قبل إنشائه، وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الحديث، فإن الاستماع إمهال المتكلم حتى يستوفى حديثه، وقلة التلفت إلى جوابه، والإقبال بوجهك ولحظك على لفظه^(٢).

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٣١، ١٣٢).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٤٣، ١٤٤).

ولا تغالب أحدًا على كلامه لثرى الجماعة أنك أعلم منه بقوله، واقطع كلامك عمن لا يقبل عليك ببصره، ويصغى إليك بسمعه، ويفهم عنك بذهنه، وإياك أن تفعل ذلك بأحد مخاطبيك من أمير وغيره^(١).

وإذا جالست أهل العلم، فأرهم أنك على استماع كلامهم أحرص منك على كلامك.

وإذا تكلمت فلا تعجب بكلامك، ولا تدع سامعه إلى الإعجاب به، ولا تهزأ بالجد، ولا بما يقع موقعه من النفس، فإن ذلك يثير الأحقاد، ويمحو الوداد، وإذا مازحك أحد، فلا تخلطن بمزاحه جدًا، فإذا أخذ المخاطب في مزاحه فأمسك^(٢).

وإذا تعرضك بنقص، فإن استطعت أن تجعل جوابه جدًّا بألفاظ الهزل فافعل، والتزم مع ذلك رحب الذرع، وطلاقة الوجه، والأحوال التي يجري عليها صاحب المزح، بغير أمر يؤلم النفس، فإن ذلك أردع لقوله، وأشد للاستخفاف بحقه، وإن استطعت أن تفعل أفعالك كلها دون الوعد بها فافعل، فإن فعلك لما لم تقل أجمل من قولك لما لم تفعل، وإن غلبت على الكلام، فلا تغلبن على الصمت، فإنه أزين في بعض المحافل، وأحسن في كثير من المواطن، وفيه جزء من الوقار، وظل من الأمن من سقطات الكلام، وقد قيل: أحسن البلاغة الصمت حين لا يحسن الكلام.

* * *

الباب السابع عشر

في الحلم والصبر

الصبر محمود عند الحكماء، ومرجوع إليه في المكارة والأرزاء، والصبر صبران: صبر على ما تكرهه، وصبر عما تحبه، وكلاهما محمود، فأما الصبر على ما تكرهه، فإنه ينقسم قسمين:

أحدهما: أن تكون في مقابلته منفعة أعظم منه قدرًا، وأجل خطرًا، كالذي تصبر عليه من مرارة الدواء، لما ترجوه من زوال الداء، فهذا صبر محمود عند الحكماء. والثاني: أن يكون صبرًا بلا منفعة، وتجرعًا لكربة بغير فائدة، فهذا من الصبر المذموم عند العقلاء^(٣).

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٣٨، ١٣٩).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٤٤، ١٤٥).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤١٥)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٥٨).

فأما القسم الثاني من أقسام الصبر، فإنه صبر المكروه على الأمر الذي لا يجد سبيلاً إلى خلافه بالجزع الشديد، والحزن الذي لا يفيد، فهذا أجمل مآله الصبر على المصيبة، وانتظار العقوبة، وقد قيل: إن الصبر يناضل الحدثان، وأن الجزع من أعوان المصائب، واحتمال الضيم أقر على الحظ، وأجمل من الحدة بالحر.

وقد قالوا: من ملك شهوته صان قدره، وغما شرفه، ومن غلب نفسه، أمره قومه، ومن ركب العجلة، لم يأمن العثار.

وقالوا: بالاحتمال يجب السؤدد، ومن جزع على ما ذهب منه، كمن جزع على ما لم يصل إليه، وإنما تكون الدعة في الأمن والسعة.

والصبر على المصيبة، مصيبة على الشامت، والصبر على البلية أحسن من ركوب الهلكة، وإن كان الصبر مرّاً، فعقباه حلو، والصابر الحازم يتجرع الغصص، ويتنظر الفرص، ومن تبع الصبر اتبعه النصر، والكرام أصبر نفوساً، واللثام أصبر أجساداً، وليس الصبر المحمود إلا أن يكون لنفسه غالباً، ولشهوته مخالفاً، وبما يقتضيه التدبير المحكم عاملاً، وعند الضر محتملاً^(١)، ووطن نفسك على الصبر في مؤاخاة الأخ الصالح، والتجلد على ما يطرأ من هفواته، واعتقد أنه لا سبيل إلى فراقه.

وقد قيل في المثل: من لك بأخيك كله، ومن طلب صديقاً بغير زلة، أبقتة الأيام بغير صاحب، وعود نفسك الصبر على ما يخالفك من رأى أهل الصنعة، والتجرع لمرارة قولهم، ولا تسهل سبيل ذلك إلا لأهل العقل والفضل والمروءة والستر، فإنك إن سهلت ذلك لغيرهم، تجرأ عليك السفية، واستخف بك النذل، وتحمل على الجمع بين الأخذ بأقوالهم، والعمل بما يقتضيه التدبير، فإن لم يجمع لك ذلك، فأجمل الاعتذار، وتحيل في حسن الانصراف.

والحلم هو الصبر على مكافأة الظالم والسفيه على وجه جميل مع المقدرة على الانتصار عليه، ومع العجز يكون ذلاً، ومع الاضطراب ورجاء النفع في الحال أو في الاستقبال يكون صبراً.

وقد قالوا: متى حلمت على السفية، كثر أنصارك عليه، ومن حلم زاد، ومن تفهم ازداد، وبالله سبحانه التوفيق.

* * *

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤١٥)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١٥٨).

الباب الثامن عشر

في ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد

اعلم أن الاتساع في الحلم، ومجازاة كل سفيه بالترك، والأخذ عليه بالفضل، يؤدي إلى ضروب من الفساد، فيصير معها ترك الحلم حلمًا، والصواب في ذلك أن يتجاوز السلطان عن زلات أهل الخير والصيانة والبيوت الكبيرة والسالفة، ويتجاوز في بعض الأوقات عمن رحمه من السفهاء، فما جناه عليه من نفسه خاصة، ولا يتجاوز عن أهل السفه والجُرأة، إذا افتاتوا عليه، أو على غيره من الرعية.

وإنما يكون الحلم في غير الأحكام المتعلقة بالشرعية، ومتى انخرمت هذه في الحليم، أدى ذلك إلى فساد كثير، فاعمل عليها تصب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب التاسع عشر

في الغضب والرضى

الحب، والبغض، والغضب، والرضى، يعدلن بالفكر عن الإصابة، ويصورن الأشياء على غير الحقيقة، ولكل واحد منها صورة يتقى معها السقط، ويخشى منها التناقض والغلط، فيجب على العاقل أن يفزع معها إلى التثبت، ويدمن فيها كثرة التأمل، ويجب على العاقل أن يطفئ جمره غضبه بالحلم، ويتمسك في حال بغضه بالعدل، ويجرى في رضاه وحيه إلى التوسط، فإن الإفراط في كل شيء مدموم، وذلك أن الإفراط في الخير يؤدي إلى الانقطاع عنه، والإفراط في الشر يؤدي إلى الهلكة دون تمامه.

وأقبح ما يكون في الغضب أن قومًا من الملوك وغيرهم يغضبون على من جنى عليهم، إذا لقوه في أوقات غضبهم، فيلقونه بالتجهم، والتنكر، والترق، والتوثب، ويرضون عن غيره ممن أرضاهم وأحسن إليهم، فيلقونه بالإكرام والتهلل، وربما أعطوا في أوقات الرضى عطاء جزيلًا لمن لا يستحقه، وقضوا أمورًا جلييلة لمن لا يستوجبها.

فاحذر هذا الباب حذرًا شديدًا، فإنه ليس أحد أسوأ حالًا فيه من السلطان الذي يبالغ فيه في حال حبه، بوضع الإكرام في غير موضعه.

وفي الحديث: «إذا استشاط السلطان حضر الشيطان»^(١)، فاحترس من سورة

(١) بلفظ: «إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان»، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٧/٤) (ح)

(١٨٠٠٧)، والطبراني في الكبير (١٦٧/١٧، ١٦٨) (ح ٤٤٤)، وقال الحافظ الهيثمي: رجاله =

الغضب، وسورة الحمية، وسورة الشباب، وأعد لكل شيء من ذلك عدة تجاهد بها من الحلم، والتفكر، والروية، وذكر العاقبة، وإيثار الفضيلة.

وقد قالت الحكماء: إن كل إنسان قد ركب فيه جزء من سوء الطبيعة، ولن يقدر العاقل على دفعه إلا بالمجاهدة.

ومن عيوب الغضب أنه يتلف الحجة الحاضرة، ويثير الأحقاد الكامنة، ويصدئ العقول الصقيلة، ويهون الأمور العظيمة^(١)، وقد قيل: من أطاع غضبه، أضاع أدبه^(٢).

وقد قالت الحكماء: لا يقوم عز الغضب بذل الاعتذار، وقالوا: غضب العقلاء مستور، وغضب الجهال مشهور، ومن ظهر غيظه ضعف كيده، فإذا غضبت، فلا تثلم دينك، ولا تقبح صورتك، ولا تحرق ثوبك، ولا تكثر أثاثك، فتتلف ملكك، وتشفى عدوك من نفسك^(٣).

وإذا خاصمت، فاصبر على خصمك، وأر الحاكم بينكما حلمك، وإذا سخف خصمك فتوقر، وإذا سكت فتكلم، وتحفظ من حديثك، وفكر في حجتك، فإن ذلك مما يبعث الحاكم على نصرتك، وأهل المجلس على شكرك.

* * *

الباب الموفى عشرين

في التجبر والخضوع

لا يحسن التجبر بالأحرار، ولا يجمل إلا على الكفار، والتجبر داع إلى الهلاك، وضامن للمقت، ومزر بالحسب، وذاهب بحسن الأدب، وعجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، ومن خرج من قدره، لم يرجع إلا إلى دونه، ومن خشنت عريكته، وأزور جانبه،

=ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٧١/٨)، وقال في موضع آخر: في إسناده من لم أعرفه، انظر: مجمع الزوائد (١٩٤/٤)، وهو ظاهر في تناقض الحافظ الهيثمي، رحمه الله.

قلت: وفيه عروة بن محمد وأبوه وثقهما ابن حبان فقط، على أن الحافظ ابن حجر قال في عروة: مقبول، أي عند المتابعة، وقال في أبيه: صدوق، والله أعلم.

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤٥٠).

(٢) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤٥٠).

ملته أهله، وقل مصاحبه، وليس لذي عنف شمل ولا ألف، ومن عادات القلوب أنها تكابر من استولى عليها، ومن سما فوق قدره، استحق الحرمان من ذوى النعمة عليه، والعجب مذهب للمحاسن، وقبيح في كل المواطن، إلا في موضع المسايقة، ومأزق المحاربة، فإنه يحسن فيه إظهار القوة، والمشى بالتحجير والصلافة، والخضوع قبيح بالأحرار، ودلالة على الفقر، ومخبر بدناءة النفس، ومنبئ عن سقوط الهمة والقدر.

وقد قيل: إن الخضوع لا يحسن الا للعالم، والوالدين، والسلطان العدل، فأما غير هؤلاء، فالخضوع لهم قبيح.

* * *

الباب الحادى والعشرون

فى الحزم والتفريط

الحزم هو النظر فى الأمور قبل نزولها، وتوقى المهالك قبل الوقوع بها، وتدبير الأمور على أحسن ما يكون من وجوهها^(١).

وقد قالت الحكماء: تضييع الحزم جالب للندامة، ومقرب من الهلكة، وقالوا: من الحزم الوقوف عند الشهوة، والأصل فى الحزم الاحتراس من جميع الناس، والحذر من كل مكروه يحذر، ثم معاشرة الناس بالاسترسال مع شدة الاحتراس، والتيقظ لما عسى أن يدخلوا عليك منه الغفلة، ويأخذوك عليه من الغرة.

وقد قالت الحكماء: الملوك ثلاثة: حازمان، وعاجز، فأحد الحازمين الذى ينظر فى الأمور قبل نزولها، ويحتال لها قبل الوقوع فيها، فيجتلب خيرها، ويجتنب شرها، كاللاعب الماهر فى الشطرنج الذى يرى الحركة الرديئة من قبل وصوله إليها فيحترس منها، ويرى الحركة الجيدة قبل وصوله إليها، فيلجئ ملاحظه إلى اللعب بها، والحازم الثانى: هو الذى لا يدبر الأمور حتى تحل به، فإذا حلت عرف وجوه التخلص منها، وهذا أخفض رتبة من الأول، وأقرب منه إلى التغير، وأدنى منه إلى أسباب الهلكة فى بعض الأمور؛ لأنه ربما وقع بغفلته وتوانيه فى أمر يتعذر منه الخلاص على ذى الحيلة والاجتهاد.

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٤٩٨).

والثالث العاجز المتوانى الذى لا يزال فى لبس من توانيه، وعجز وغفلة عن إصلاحه، حتى يقوده ذلك إلى الهلكة^(١).

وضربت الحكماء لهذه الأقسام مثلاً، فقالوا: إن صياداً مر بأجمة فيها سمكات ثلاث، فقال لصاحبه: عد بنا إلى هذه الأجمة بعد فراغنا من الصيد، لنصيد ما فيها من السمك^(٢).

فأما أحزم السمكات، فخرجت من منفذ الماء إلى البحر فأمنت، وأما الثانية التى تليها فى الحزم، فمكثت حتى أتى الصياد، فسد المنفذ، فأيقنت بالهلكة واحتاجت إلى الحيلة فتماوتت، وطففت فوق الماء، فأخذها الصياد فطرحها غير بعيد من البحر، فوثبت إلى البحر، فسلمت بعد التغرير والمخاطرة، وأما الثالثة العاجزة، فلم تزل تجئ وتذهب حتى صيدت.

واعلم أن الحازم يجب عليه است فراغ الوسع، وإعمال الاجتهاد فى أسباب الفائدة والخلاص، فإن غلبت الأقدار، كان بذلك معذوراً، وكان قلبه مستريحاً، وغير عجيب أن يغلب الخالق سبحانه مخلوقاته، وأن يتصرف الصانع عز وجل فى مصنوعاته.

وقد قيل: اعط الآراء حقها، واستفرغ نفسك فى وسعها، فإن خانتك الحقائق، وجاءتكم الأمور على خلاف العوائد، فاعلم أنه قدر سابق لا حيلة فيه، وليس نفوذ الأقدار مما يقول الفاضل إلى تضييع الحزم، وذلك من أخلاق الجهال.

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: بينما رجل يحتش حشيشاً، إذ قصده ذئب، فلم يفتن به الرجل حتى دنا منه، فلما رآه الرجل اشتد وجله منه، وفر هارباً نحو قرية على شاطئ نهر، فلما انتهى إلى النهر، وجد عليه قنطرة مكسورة، ورهقه الذئب، فقال: كيف أصنع؟ الذئب يتلوى، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، ولست أحسن السباحة، إلا أنى على حال لا أجد شيئاً أحرز لى من أن ألجأ بنفسى إلى الماء، فوقع فى الماء، فرآه أهل القرية، فأرسلوا إليه من أخرجه، وقد أشرف على الهلكة، فأتاهم به، فلما صار إليهم تساند إلى حائط، فلما أفاق أخذ يحدثهم بما لقي، وعظم هول ما خلصه الله

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ١١٥، ١١٦)، بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٤٩٩، ٥٠٠).

(٢) انظر: كيلة ودمنة لابن المقفع (ص ١٢٠، ١٢١).

منه، فبينما هو كذلك، إذ تقدم عليه الحائط فقتله^(١).

فهذا على سعيه مشكور، وفيما نزل به من ربه مغفور، ولو كان جاهلاً متوائماً، أو عاجزاً مفرطاً، لألقى بيده إلى الذئب، وقال: لعلني إذا عبرت النهر غرقت، وإذا بلغت إلى العدو قتلت.

وقالت الحكماء: إن من الحزم التوقف عند كل لحظة، ورب حرب جنيت من لفظة، وقالوا: ولا يدع الوالي الثبوت عندما يقول، وعندما يعطي، وعندما يعمل، فإن الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والإقدام على الأعمال بعد الأناة فيها، أحزم من الإمساك عنها بعد الإقدام عليها. وكل الناس يحتاج إلى الثبوت، وأحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع، ولا عليهم مستحث.

وقالوا: ثلاثة على كل عاقل أن ينظر في إصلاحها، ولا يلقي بيده إلى تضييعها: إصلاح دينه، وإصلاح معيشتة، وإصلاح ما بينه وبين الناس. وأربعة من كن فيه لم يستقم له عقل: التواني، وتضييع الحزم، والتصديق لكل مخبر، والتكذيب لكل عالم^(٢).

ويجب على الحازم أن يجري الأخبار كلها على التأمل، ويأخذ الحق من أهل الباطل، ولا يأخذ الباطل من أهل الحق، فإنه إذا صدق كل مخبر، كان مثاله مثال المصدق المخدوع.

وقد ضربت الحكماء مثلاً، فقالوا: إن سارقاً رقى بيتاً، فلما أحس به صاحب البيت، قال لأهله سرّاً: اسأليني من أين هذا المال الذي عندي؟ فسألته، فقال: إني كنت سارقاً، فأرقى على البيوت، وأقول كلمات، فذكرها، فإذا قلتها تعلقت بضوء القمر، فترلت سالماً، فإذا قضيت من الدار حاجتي، قلتها فصعدت. فغافله السارق قليلاً، ثم قالها، فسقط مكسوراً، فقال له صاحب الدار: من أنت؟ فقال: أنا المصدق المخدوع، فإذا قبل الإنسان كل ما سمع من غير نظر فيه، اعتراه مثل ذلك^(٣).

ويجب على الحازم اللبيب ألا يتواني في أوائل الأمور، رجاء أن يدرك أواخرها، فإن ذلك هو العجز بعينه.

(١) انظر: كليله ودمنة لابن المقفع (ص ٩٤).

(٢) انظر: كليله ودمنة لابن المقفع (ص ٦٦).

(٣) انظر: كليله ودمنة لابن المقفع (ص ٧٧ - ٧٩).

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: إن رجلاً كان عرياناً، وله شيء من قوته، فبينما هو ليلة نائم، إذ دخل عليه سارق، فجعل يأخذ طعامه ويجعله في كسائه، فقال: لأمهله حتى إذا فرغ من أخذه نهضت، فأخذت كسائه وأحرزت طعامي، ثم أخذه نوم، فانصرف السارق بطعامه، فكان ذلك من جنابة تضييعه، حيث لم يحتط للأمر من أوله^(١).

وقد قالت الحكماء: إن الحازم من صفاته أن يكون فارغاً من أشغاله، متحرراً لجميع أموره، حتى لو مات من ساعته، لم يندم على ما أخره من فعله.

* * *

الباب الثاني والعشرون

في الكتمان والإذاعة

الكتمان من رأس المروءة وقواعد التدبير، والإذاعة مؤذنة بانخرام الأشياء قبل إحكامها، فلا تفاوض في شرك إلا من تثق بكتمانهم وتأنس لأمانته.

واعلم أنك على إذاعة ما كتمته، أقدر منك على كتمان ما أذعته، ومن أمثالهم في كتمان الأسرار: شرك أسيرك، فإذا أذعته صرت أسيره، وإذا كتمت أسرارك، فجاءت الأمور على غير اختيارك، صنت بالكتمان عرضك، ووقرت به نفسك، وإذا جاءت الأمور على مرادك، قدرت على إذاعتها من بعد ذلك.

واعلم أن صديق الصديق من آفات الأسرار؛ لأن الصديق يحدث صديقه، ويحدث كل واحد منهم صديقه، حتى يذيع الأسرار، ومن الحزم والمروءة ألا تذيع أسرار أحد من أصدقائك إلى صديق ثان، فإنه إنما ائتمن على أسرارهم أنت، ولم يأتمن صديقك، واحذر الإذاعة من المجلس والرسول والبريد والمشاور. وإذا قدم جواسيسك، فاستبدل بهم، فإنهم ربما انقلبوا عليك.

واعلم أنه قد ينعكس التدبير، فيحتاج إلى الإذاعة في بعض الأمور، وتضطر الحال إلى التشنيع والتهويل، فيكون الحزم في ذلك.

* * *

(١) انظر: كيلة ودمنة لابن المقفع (ص ٦١، ٦٢).

الباب الثالث والعشرون

في العجلة والتواني والتوسط

العجلة مذمومة على وجهين، وممدوحة على وجهين، فأما الوجهان اللذان هي مذمومة عليهما، فأحدهما: العجلة في الأمور قبل تأملها وتدبرها، فذلك مذموم عند جميع العقلاء، ومفسدة في آراء الحكماء، ومن أمثالهم في ذلك: رب عجلة قُب ريثًا. وقالوا: العجلة مفتاح الندامة، والتأني حصن السلامة، وقالوا: التأني مع الحية خير من النهوض مع النجاح، وفي الحديث: «من عجل أخطأ أو كاد، ومن تأني أصاب أو كاد»، وقالوا: التأني في الأمور أول الخزم، والتسرع إلى الخطأ عين الجهل^(١).

والوجه الثاني: الذي تدم عليه العجلة، هو أن يطلب الشيء قبل أوانه، ويلتمس وجوده قبل إبانته، فإنه من الأمور أسباب لا بد لها من الأناة والصبر، فطالبها قبل حينها كطالب الثمرة قبل أوانها، فمن ذلك ما لا يتهيأ إلا في سن الشيخوخة، وما لا يبذل الملوكة لعمالهم ووزرائهم إلا بعد طول الصبغة، وأكيد التجربة، فطالب هذه الأمور قبل أوقاتها منسوب إلى العجلة، موصوف بضد الحكمة، ومن ذلك السرعة في قطع المسافة، ومن أمثالهم: شر السير الحقةقة.

وأما الوجهان اللذان تمدح بهما العجلة، فأحدهما: انتهاء الفرصة بعد إحكام المعرفة، فإن الأمور منها ما يفوت بمرور الوقت، ومفارقة المكان، ألا ترى أن الخطيب الماهر إذا فكر في المعنى المصيب بعد نزوله، فقد فاتته الفرصة بإيراده، وصار مضيعًا له في وقته ومكانه، وأن اللاعب المحسن الشطرنج إذا فكر في الحركة بعد مفارقتها النصبية، كان بتوانيه مذمومًا، وبعجلته محمودًا.

والخزم أن توضع الأشياء في مواضعها، وتفعل في أوقاتها. ألا ترى أن الهر إذا وثب على الجرذ من قبل خروجه من الجحر، كان مؤذيًا لنفسه بالتعب، ومؤذيًا لعدوه بالخطر، وإذا أمهله بعد خروجه حتى يعود إلى جحره، كان مضيعًا لفرصته، مفسدًا لعمله.

والوجه الثاني الذي تمدح فيه العجلة هو الذي ضدها التواني المذموم، وهو أن يترك الأمور إلى آخر أوقاتها، فإنه ربما عرضت حينئذ عوارض تمنع من إتمامها، فيكون ذلك داعية إلى انخرامها، ومن أمثال ذلك: أن رجلاً أتى نهرًا بينه وبين منزله، فقال: أنام على

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٤٢٠).

هذا النهر، حتى إذا تملأت من نومي، قمت وأتيت منزلي، فبينما هو نائم، إذ حمل الوادي بسيله، فمنع الرجل الوصول إلى منزله. وقيل لبني أمية: بأى شيء ذهب ملككم؟ فقالوا: بتضييع الخزم، وترك شغل اليوم إلى الغد^(١).

فأما التوسط، فإنه يكون في غير الأماكن التي تمدح فيهما العجلة، ويذم فيها التأخير، ومن أمثاله في ذلك: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء إلا شانه. وقالوا: إذا لم تدرك الحاجة بالرفق والدوام، فبأى شيء تدرك؟.

* * *

الباب الرابع والعشرون

في الإنفاق وصفة الجود والإمساك

الأصل في الجود أن تؤتي الحقوق أهلها، وتتفضل بعد ذلك ببعض التفضل، ثم إن استطعت أن تكثر من الفضل، فافعل.

وقالت الحكماء: الجود أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً، واعلم أن الجود لا يتهياً إلا مع التنمية، ولا يستقيم مع التضييع، ولا مع التبذير، ولا مع ترك النظر في تنمية المال.

وقد قالت الحكماء: لا يزهديك في التقدير كثرة مالك، فإن أكثر الناس مالاً أشدهم إلى التقدير حاجة، فإن بقليل الإتلاف يتلف كثير من مالك.

والمملوك أشد الناس ذنباً في الإتلاف؛ لأنهم لا قوام لهم إلا بالمال، وأقل الناس عذراً في البخل؛ لأنهم آمنون من الفقر، والسوقه بخلاف ذلك؛ لأن الفقر لاحق بهم، وهو دون الغنى ممكن.

واعلم أنه لا يكون الشيع والإخوان والأهل والأعوان والحشم إلا مع المال، ولا تظهر المروءة والرأى والقوة إلا به^(٢).

وقد وجدنا من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً، قعد به العدم عنه، كالماء الذي يبقى في الأودية عن مطر الصيف، فلا يصل إلى نهر ولا إلى بحر؛ لأنه لا مادة له،

(١) انظر: سراج المملوك للطرطوشي (ص ٥٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص ١١٤).

ووجدنا من لا مال له، فلا أهل له، ومن لا أهل له، فلا ولد له، ومن لا ولد له، فلا ذكر له، ومن لا مال له، فلا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة.

فيجب على العاقل إذا أحب الجود أن ينظر في التنمية، فإن جبال الكحل ما لم يكن لها مادة، فنيت بما يجعل منها في العين ويتناول منها بالمراد، وتحر القصد تخف عليك المون، وخذ من الجود بشعبة، ومن الضنانة بأخرى، فإنه لا جود لمن لا ضنانة له، ولا ضنانة لمن لا تدبير له، ولا مال لمن لا جود له.

واعلم أن الجود ساتر العيوب، غارس للمحبة في القلوب، وإنه ربما يكون سبباً لتكسب المال، ومحرزاً لكثير من جميل الخصال، وأنه مع الإسراف فيه يكون الانقطاع عنه، وأحسن ما في ذلك أدب الله لنبيه، عليه السلام، في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وأحسن ما رأيت في الجود والإمساك من أقوال الحكماء والشعراء، قول أبي الطيب المتنبي:

فلا ينحلل في الجود مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده^(١)

قلت: ومن صفات جود العقلاء أن يكون معتدلاً في مقداره، معجلاً لا يكدر بانتظاره، محقراً لا يتابع بالمن، منسياً لا يجدد بالذكر، فإن احتقاره يعظمه، وستره يظهره؛ لأن المطلوب منه تمكين المحبة، وتحسين الشاء، وتعزيز النصرة، ولا يصح ذلك فيه إلا بوصوله إلى قابله في أجمل صورة وأحسن هيئة.

واعلم أن الفقر خير للبخيل من ماله؛ لأن ماله مع البخل يضر بعرضه، ويحضر على مضرتة، فهو يذل نفسه، ويصون ماله، فماله حسرة عليه، ووديعه في يديه.

وقال الحكيم: لا تسأل البخيل، فإنه إن حرمك أخزأك، وإن أعطاك استعذك، فأما سائر النفقات، فالآداب فيها التوسط، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

* * *

الباب الخامس والعشرون

في الشجاعة والجبن

الأصل في الشجاعة ربوط الجأش، وقلة التخوف في مواطن البأس، فإن صحب ذلك الحذر، والتوقى، ووضع القتال في مواضعه، كان ذلك شجاعة، وإن صحبه ترك التوقى، وقلة الحذر، ووضع القتال في غير مواضعه، كان هوجا.

والجبن شدة الخوف، واضطراب الجأش، والنكول عن مواضع الحرب، فإن كان النكول عن مواطن الهرج لا غير ذلك، فهو تثبت، وليس بجبن، والجبن والشجاعة غرائز في أصل الخليقة، والشجاعة تحسن في مواطن ثلاثة:

أحدها: أن يغلب الظن مع القتال على الظفر والسلامة.

والثاني: أن يكون القتال واجبا بالشرعية، أو خوفاً من العار والفضيحة.

والثالث: أن يكون الهلاك متيقنا مع الفرار كتيقنه مع الإقدام.

فها هنا يكون القتال أكرم وأسلم؛ لأنه ربما أدى إلى الخلاص، وقاد إلى الظفر. والشجاعة من محاسن الأخلاق، وغرائز الكرام، والشهرة بها محمود؛ لأنها تكفى كثيراً من القتال، ويكون صاحبها منصورا بالرعب، بخلاف الوصف بالدهاء والحيلة، فإن الوصف بهذا مضرة على صاحبه، على ما نبينه في بابه، إن شاء الله تعالى.

ومما يرغب في الشجاعة أنا نجد الهزائم يموت فيها من الجبناء والضعفاء أكثر مما يموت فيها من الشجعان والأقوياء، فالجبن على هذا ليس بسبب إلى السلامة، مع ما فيه من العار والفضيحة والذلة وحرمان الحاجة.

ومما يستحق الإنسان به اسم الشجاعة، أن يكون لا يحدث نفسه بالفرار، ومما يبالغ فيه له في الوصف بالشجاعة، أن يكون أول حامل، وآخر منصرف، مع شدة التوقى والحذر، والمدافعة في موضع الضرر، وهذه النكت في الشجاعة تغنى عما سواها إن شاء الله تعالى.

الباب السادس والعشرون

في الحرب والمسالمة

للملك أن يبدأ عدوه باللين، والمسالمة، والبذل، وطلب المواصله، والسكون، فإن لم يفعل، أو كان في الحال ما يقتضى ذلك، رجع معه إلى الكيد، والحيلة، وتشتيت الأصحاب، وتأليب الأعداء عليه، وتسليط الغرباء له على عداوته، وأخذ الأمور بما ينفق فيه القول دون الفعل، ولا يصل معه إلى الحرب حتى تعوزه الحيل كلها، فإن الحكماء قد قالوا: أكيس القوم من لم يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غيره سبيلاً، ولأن الحرب ينفق فيها من الأعمار، وغيرها ينفق فيها من الأموال.

وقد قالت الحكماء: إن العدو مثل الخراج الذي يُبتدأ في علاجه بالترطيب والتحليل والتسكين، فإن لم ينجح بذلك، رجع فيه إلى الكي، وهو آخر العلاج، والحرب آخر ما يجب استعماله.

واعلم أن العاقل، وإن وثق بقوته ومنعته وفضله، لا يجب أن يحمله ذلك على أن يجنى على نفسه عداوة وبغضاً هو عنها في غنى، اتكالاً على ما عنده من الرأي، وثقة بما لديه من القوة، فإنه في ذلك بمثابة الطبيب الماهر الذي عنده الترياق الفائق، لا يحسن منه أن يشرب السم القاتل، اتكالاً على ما عنده من الدواء النافع.

واعلم أن الصلح أحد الحروب التي يدفع بها الأعداء عن المضرة، فإذا كثر أعداؤك فصالح بعضهم، وأطمع بعضهم في صلحك، واستقبل بعضهم بحربك^(١).

وإذا ابتليت بحرب، فلا تأمن عدوك وإن كان صغيراً، فإن العدو كالنار التي تترى من الشرارة، والنخلة التي تنبت من النواة، وربما نال العدو بصغره، ما عجز عنه عدوه مع كبره، كالسيف الذي يقدر الهامة، ويعجز عن فعل الإبرة.

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

ولا تحقرن عدواً رماك وإن كان في ساعديه قـ
فإن السيوف تحز الرقاب وتعجز عما تنال الإبر

ويجب على العاقل إذا بعد عدوه، أن لا يأمن معاودته، وإذا انهمز، لا يأمن كرتة، وإذا

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ٩٦).

قرب، أن لا يأمن موأابته، وإذا رآه وحيداً أن لا يأمن مكره، وإذا رأى عسكره قليلاً، أن لا يأمن كمينه.

ويجب على العاقل أن يكون متأهباً للحرب في حال سلمه، خائفاً من العدو في حال صلحه، فإن العدو الذى يصلحك لأمر يضطر إليه، لا يخرج بالصلح عن طبعه، وإنما مثله الحكماء بالماء الجارى الذى تضطره النار إلى حرارته، فإذا زائله رجع إلى طبعه، وما كان عليه من برده.

واعلم أن الجهل كل الجهل تضييع الفرصة، إذا أمكنت في العدو، والأمر الجسيم إذا ظفر به، فإن الحكماء قالوا: من التمس فرصة الأمر، ثم أمكنته فضيعها، ولم يقدر عليها. ومن وجد عدوه ضائعاً ومغرراً، فلم يسترح منه، أصابته الندامة حين يقوى العدو ويستعد، ثم لا يقوى عليه^(١).

ومن وجد إلى اختلاف أعدائه، وتسليط كل فريق منهم على صاحبه سبيلاً، ثم تولى هو الحرب بنفسه، فلا شئ أعظم من جهله، وكان يقال: إن من الأعداء من يعمل في صلاح عدوه بإزاحته من غيره من أعدائه، أو في الحيلولة بينه وبين من هو أعظم من ضده، ومنهم من يعمل في بعاذه، ومنهم من يعمل في هلاكه.

وقالت الحكماء: إذا طلب اثنان أمراً، ظفر به أفضلهما مروءة، فإذا استويا في المروءة، فأفضاهما رأياً وأشداهما ساعداً، فإن استويا في ذلك، فأسعدهما جداً وأتمهما سعداً.

واتخذ من أعوانك ووزرائك من يحسن الفعل، وإن لم يحسن القول، ولا تتخذ من يحسن القول ولا يحسن الفعل، فإن الذى يحسن الفعل، إن أبدى الصمت ضعفه، كشف الفعل عن قوته، والذى يحسن القول، إن أبدى القول قوته، كشف الفعل عن ضعفه.

وقد قيل: إذا كان الملك جاهلاً، ووزرائه عالمون، استقام أمره، وإن كان عالماً ووزرائه جاهلون، تفرق عليه أمره، واضطرب عليه رأيه. وقيل: اختر رسولك في الحرب والمسألة، فإن الرسول يلين القلب ويخشنه، ويبعد الأمر ويقربه، ويصلح الود ويفسده،

وبه يستدل على عقل مرسله، ومنه يسترق ما خفى من خبره.

وإذا ابتليت بالحرب، فأذك العيون بالنهار، وبالغ في الحرس بالليل، وخندق إن كنت مقيماً، وحصن مضاربك^(١)، وليكن جندك عليك حصناً، ولأنفسهم حرساً، واحتل للشمس أن تكون معك في وقت اللقاء، وللريح أن تكون معك في وقت الهجوم، وللماء وللمرعى أن يكونا معك في مكان الترول، واخف آثارك عن عدوك، واعمل في حين لقائه على إراحة ظهره، وكراعه، وثقف جهاته بمن تثق به من رجالك، واحذر من الإطراد أن تستمر هزيمة، ومن الكمين أن يأتيك غفلة، ومن رحلك أن يخالف إليه، وإن استطعت أن تخالف عدوك إلى رحله فافعل، وإن انهزم عدوك فلا تحل بينه وبين الهزيمة طمعاً في استئصاله، فإن ذلك ربما كان سبباً لثباته، والذي تنال منه في ظهره أكثر من الذي تنال منه في وقوفه.

وإذا هزمت قومًا فاثبت ثبثاً في محلك، وإذا غلبت فعم آثارك، واجعل الليل جنتك، واعلم أن الهزيمة تحل الهزيمة، وأن الهارب لا يعرج على صاحب، وأن الفرار في وقته ظفر، وأن القتال في غير مكانه عناء، والله يقيقك للمكارم، ويصونك من المكاره^(٢).

* * *

الباب السابع والعشرون

في التحبب والمواصلة

من لانت كلمته، وجبت محبته، ومن لان عوده، كثرت أغصانه، وبالرفق يملك الأمر كله، وأفضل الناس من تواضع عن شرف، وعفا عن قدرة.

واعلم أن البغضة خوف وعذاب، وأن المودة أمن وراحة، فأكثر ممن يؤمنك ويريحك، واهجر من يعذبك ويخيفك. واعلم أن الحبة تكفى الحروب، وتبلغ المطلوب، وتنفي المرهوب.

واعلم أن الكلمة الطيبة تسهل الوعر، وتذلل الصعب، وتكثر الصحب، وتملك القلب، ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، لكان كافياً، بل وافياً، فقد قالوا: حسن الخلق يدل على طيب الأصل، وكرم الفرع، ويقود إلى راحة القلب.

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ٩٨).

(٢) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ١٥٣).

وقالوا: أظهر الناس أعرافاً أحسنهم أخلاقاً. وقالوا: المروءة ألا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية. وقال أرسطوطاليس: المروءة استحياء المرء من نفسه. وقالوا: من عاشرته بحسن الخلق، وكريم الأدب، استنصرت بقلبه عليه.

وأربعة أشياء إذا اجتمعت في السلطان، كسر صحبه، ووجب حبه: العدل، والبذل، والتحبب، والمروءة في الخلق السجيج، والكف عن القبيح.

* * *

الباب الثامن والعشرون

في الحيلة والمكر والخديعة

يجب أن تعرف الحيلة ليعمل بها، وليحترز منها، وفي الحديث: «الحرب خدعة»، وأدنى الحيلة ما كان بالرياء والتلاعب بالديانة، والغضاضة أردى خصال الحيلة. وتحتاج الحيلة إلى التلطف والتمرن، والاحتراس منها أن تنعكس، والاستعداد لها إذا فطن بها كيف التخلص منها، والاعتذار لها.

وقد قالت الحكماء: من لم يتأمل بعين عقله، لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله. وربما احتاجته الحيلة إلى مقدمات، تؤنس المحتال عليه بها، حتى يطمئن إليها.

واعلم أن كثيراً من الحذر قد يكون عوناً على صاحبه، ومشعراً بما يخفيه في قلبه، فيجب على العاقل ألا يأتي من ذلك إلا ما ينكتكم له، ولا يفطن به.

والحيل في الحروب وغيرها كثيرة الوجوه، وقد ضرب الناس لها أمثالاً، وأكثر ما تكون في الحروب بالكتب المستخرقة، والجواسيس المأخوذة، وإشعار العدو أن أصحابه عليه لا له، وأنهم يضمرون خلافه، وأن عدوه قد تضافر عليه مع غيره من أعدائه، وأن كثيراً من عماله قد مالاً عليه، وأرسل إلى عدوه، وأن تعمى عليه الوجوه التي يلقاه عدوه عليها، ويريه أنه يضرب له على أبعاض أنظاره ليشغله بالاحتياط على غير جهته بتفريق عسكره، وأن يريه أنه راجع عن قتاله لتفريق حشوده، ليرجع إلى مأمنه^(١).

ووجوه الحيل أكثر من أن يحاط بها، وإنما هي مواد العقول، ونتائج الفكر والتجارب، وقد قالت الحكماء: لطيفات الحيل أنجح من الوسائل، والحيلة أنجح من القوة.

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص ١٨٠).

واعلم أن الإقبال ينصر من الحيل ما لا معنى له، ولا يعتد بمثله، والتعذير يفسد منها ما لا مثيل له، وقد قالت الحكماء: إذا انقطعت المادة، كان الحتف في الحيلة، وقالوا: لا تحمل الحركة في التعذير، فإنها تعذر، وقالوا: لا يجب للعاقل أن يتكل على الإقبال، فيترك التحذر والاحتياط.

* * *

الباب التاسع والعشرون

في التدهى والتغافل

الدهاء اسم لوضع الأمور في مواضعها، والكف عما لا نفع فيه انتظاراً لما فيه النفع، وقد يوقع أيضاً هذا الاسم على من كثرت حيلته، وقويت فطنته، وكان وصوله إلى أغراضه بالطف الوجوه، التي يمكن التوصل بها إليها، فتراه أبداً كأنه أبله، وهو متبale، فهو يحصى دقائق الأمور، ويدبر لطيفات الحيل، فلا ينطق حتى يرى جواباً مسكناً، أو خطاباً معجزاً، ولا يفعل حتى يرى فرصة حاضرة، ومضرة غائبة، فعدوه مغتر بعداوته، ومقدر عليه الغفلة والبله بغوايته، وهو مثل النار الكامنة في الرماد، والصوارم المكنونة في الأغمد^(١).

واعلم أن الدهاء منه عند الحكماء التبرؤ من اسمه، وألا يوصف المتدهى والمتغافل بفعله، فإنه إذا لم يفطن له، وصل مع الغفلة عنه إلى فرصته، وأخذ عدوه وهو في غرته، وإذا اشتهر بالدهاء، لم يأمن أن ينصت له حكيم، أو يتحرز منه ضعيف.

ومن آداب العاقل دفن [إربه]^(٢) ما استطاع، وأن يعرفه الناس بالمساحة في الخليفة، والاستقامة على الطريقة.

وإذا كنت هيباً للأمور بما معك من التحرز والتعقب، فإياك أن تشعر الناس بهيبتك لها، فإن ذلك مما يجرؤ عليك العدو، ويهينك عند الصديق، ويدعو إليك منهم كل الذي هبته.

وإذا كنت للمدح والثناء محباً، فإياك أن تشعر الناس بذلك، فإنهم إذا شعروا به، كان

(١) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (ص ١٦٣).

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من الأدب الكبير (ص ١٦٣)، والإرب هو العقل. انظر: لسان العرب (٥٥/١) (مادة/ أرب).

ثلثة يقتحمون عليك منها، وصرت كمادح نفسك، ولكن اصنع من الفضائل والمعروف ما تستحق به المدح، فسيأتيك وأنت مظهر لكراهيته، ومتبرئ من استحقاقه، واعلم أن الدهاء كل الدهاء مقاربة الناس في عقولهم، فإنه السبب إلى السلامة من غوائلهم، ومنه أيضاً التغافل عن كل ذنب لا يستطيع على العقوبة عليه، وعن عداوة كل من لا يقدر على الانتصار منه، فأما التغافل عما لا يعنى، فهو العقل.

وقد قالت الحكماء: لا يكون المرء عاقلاً حتى يكون عما لا يعنيه غافلاً، وجامعه ألا تتكلم حتى ترى نكته، ولا تفعل حتى ترى فرصة، وأن تتحلى بالغفلة، وأنت في نهاية الفطنة.

* * *

الباب الموفى ثلاثين

فى فنون من الحكم والآداب

الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، وبه ترتفع الأحساب الوضيعة، وتنفاد الرغائب الجليلة، وبه يعتز من غير عشيرة، وينتصر من غير دربة، وهو المؤنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمجمل فى المغيب والحضرة.

وأدب النفس أصل أدب الدرس، فلا ينمى الشئ دون مادته، ولا يطول الفرع إلا بأصله، وحلى الرجال ما يحسنون من الأدب، وحلى النساء ما يلبسن من الذهب، والفطنة الإصابة بالظن، ومعرفة ما لم يكن بما كان، والعامل ينظر أولاً لصيانة دينه، ثم لصيانة نفسه، ثم لصيانة ماله.

وقدم الآخرة، تتبعك الدنيا، وقدم الدنيا، تذهبها جميعاً، وتقوى الله عز وجل هى العدة الباقية، والجنة الواقية، وظاهر التقوى شرف الدنيا، وباطنها شرف الآخرة، وسادات الدنيا الأسخياء، وفى الآخرة الأتقياء، وعادات السادات، سادات العادات، ومن عفت أطرافه، حسنت أوصافه، ولا سرف فى الخير، ولا خير فى السرف، والشرف فى العلم، والعلم فى الشرف.

وإذا لم تدرك الفضائل بآبائك، تدركها بحسن أفعالك لأبنائك، والجلود غاية الزهد، والزهد غاية الجود، وإن الله تبارك وتعالى يقتضى الإنعام منك بالإنعام عليك، فأفد من فائدته، واستفد بفضلك من فضله، والتواضع فى الشرف أشرف منه، والتواضع مصيدة

الشرف، والحق ظل ظليل، والباطل منقطع قليل، وحق مغلوب خير من باطل غالب. وإذا غلبت الحق فإنما غلبت نفسك، وإذا احتجت للباطل، فإنما خادعت عقلك، وما فات اليوم لا يدرك أبداً.

ومن الفراغ تكون الصبوة، وعمل الناس فى الفراغ والصحة، والماضى بعيد وإن قرب، والآتى قريب وإن بعد، وما وافق الطباع تمكن، وما خالفها تغير، وأثبت المروءات مالم ينهنه الفزع، ولم يغيره الطمع، والشكر قيد النعم، وعصمة من النقم، وأنت أخو العز ما التحفت بالقناعة، وأنت أخو الدوام، ما وقفت دون الغاية، وما أقبح التفریط بالعاقل، وما أوحش النعم عند الجاهل. وما توانيك وأنت للفوات خائف، وخذ من توانيك لارتحالك، ومن شبابك لا كتهالك، ومن صحتك لسقمك، ومن صباك لهرمك.

وقال ابن المقفع فى آخر كتابه المعروف ببيتمة الدهر: إني مخبرك عن صديق لى، كان من أعظم الناس فى عينى، وكان الذى عظمه فى عينى، صغر الدنيا فى عينيه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يغيها ما لا يجد، ولا يكسر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخف له رأياً ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يقدم يدأ ولا بدناً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذ القائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجدد، فهو الليث عادياً.

وكان لا يدخل فى دعوى، ولا يشارك فى مراء، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً منصفاً، وشهوداً عدولاً، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر من مثله، حتى يعلم ما وجه عذره، وكان لا يشكو وجعاً لمن لا يرجو عنده البرء، ولا صاحباً لمن لا يرجو عنده النصيحة لهما جميعهما، وكان لا يتبرم، ولا يسخط، ولا يتشكى، ولا ينقم من الولى، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته، فعليك بهذه الفضائل إن أطقتها، وإلا فخذ ما أطقت منها، فإن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

والحمد لله حق حمده، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبداه. انتهى.

المحتويات

٥	ترجمة المصنف
٦	إهداء خاص
٧	وصف المخطوط
٨	صور النسخ الخطية
١٩	الباب الأول فى الحض على القراءة والتعلم
٢٠	الباب الثانى فى آداب النظر والفهم
٢١	الباب الثالث فى الاستشارة وصفة المستشار
٢٤	الباب الرابع فى المعيشة وسياسة الأجسام
٢٧	الباب الخامس فى الفرار من سوء العادة، ورياضة النفس قبل الحاجة
٣٠	الباب السادس فى الخطاء والأصحاب
٣٣	الباب السابع فى صفة الكتاب والأعوان والحجاب
٣٤	الباب الثامن فى الظهور والحجة
٣٥	الباب التاسع فى هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات
٣٦	الباب العاشر فى سياسة الحاشية والجند
٣٨	الباب الحادى عشر فى تقسيم الجند والحاشية على الأعمال
٤٠	الباب الثانى عشر فى معاشرة أصحاب السلطان بعضهم لبعض
٤٢	الباب الثالث عشر فى أقسام السلاطين وكيفية سيرهم
٤٥	الباب الرابع عشر فى أقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم
٤٧	الباب الخامس عشر فى الأدلة التى يستدل بها على أهل الفضل والقبضة والتوسط
٤٧	الباب السادس عشر فى الكلام والصمت
٤٩	الباب السابع عشر فى الحلم والصبر
٥١	الباب الثامن عشر فى ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد
٥١	الباب التاسع عشر فى الغضب والرضى
٥٢	الباب الموفى عشريين فى التجبر والخضوع
٥٣	الباب الحادى والعشرون فى الحزم والتفريط
٥٦	الباب الثانى والعشرون فى الكتمان والإذاعة
٥٧	الباب الثالث والعشرون فى العجلة والتوانى والتوسط

٧٠	المحتويات
٥٨	الباب الرابع والعشرون في الإنفاق وصفة الجود والإمساك
٦٠	الباب الخامس والعشرون في الشجاعة والجن
٦١	الباب السادس والعشرون في الحرب والمسالمة
٦٣	الباب السابع والعشرون في التحجب والمواصلة
٦٤	الباب الثامن والعشرون في الحيلة والمكر والخديعة
٦٥	الباب التاسع والعشرون في التدهي والتغافل
٦٦	الباب الموفى ثلاثين في فنون من الحكم والآداب

النَّهْجُ الْمُسْلُوكُ فِي سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ

لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُهَيْرِ الشَّيْزُرِيِّ
المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
أَحْمَدُ بْنُ فَرِيدِ بْنِ الْمَرْيُومِ
تَمْقِيهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المصنف

الشيرزى

هو العلامة الأديب الفقيه الطبيب القاضى المعتبر: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله أبو النجيب، جلال الدين العدوى الشيرزى، وقيل: الشيرزى، والشيرازى، قاضى طبريا، شيخ صلاح الدين الأيوبى وطبيبه، نسبته إلى قلعة شيرز قرب المعرة من أعمال حلب.

مصنفاته

- ١ - النهج المسلوك فى سياسة الملوك، بتحقيقنا.
 - ٢ - نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، بتحقيقنا.
 - ٣ - الإيضاح فى أسرار النكاح، بتحقيقنا.
 - ٤ - خلاصة الكلام فى تأويل الأحلام، بتحقيقنا.
- وهو كغيره من كثير من المصنفين، لم يُنصف فى ترجمته، وقد توفى على الراجح سنة ٥٩٠هـ، وقيل: ٥٨٩هـ.

مصادر ترجمته

- ١ - الأعلام للزركلى (٣/٢٤٠).
- ٢ - كشف الظنون (١٩٨٧).
- ٣ - هدية العارفين (١/٥٢٨).
- ٤ - مجلة الكتاب (٢/٦٥٩).

٥ - معجم سركيس (١١٧٥).

٦ - فهرس معهد المخطوطات العربية.

٧ - فهرس دار الكتب الظاهرية.

٨ - فهرس مكتبة شستربتي (٤٨٨).

٩ - BROCK.S.I. ٨٢٢

١٠ - قائمة دار الكتب العلمية، بيروت.

ولقد اعتمدنا في تحقيق كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزري، على نسخة طبعت بمطبعة الظاهر سنة ١٣٢٦هـ.

كتبه: محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدي

١٥ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

الحمد لله^(٢) الذى عجزت العقول^(٣) عن معرفة ذاته، والأفكار عن الإحاطة بكنهه

(١) الباء للملابسة، والظرف مستقر، حال من ضمير ابتدئ الكتاب، كما فى: دخلت عليه بثياب السفر، أو للاستعانة، والظرف لغو، كما فى: كتبت بالقلم، من اختار الأول نظم إلى أنه دخل فى التعظيم، ومن اختار الثانى نظر إلى أنه مشعر بأن الفعل لا يتم ما لم يصدر باسمه تعالى، وإضافة اسم الله تعالى إن كانت للاختصاص فى الجملة، تشمل أسماءه كلها، وإن كانت للاختصاص وضعاً لذاته تعالى المتصف بالصفات الجميلة، اختص بلفظ الله للوفاق على أن ما سواه معان وصفات، وفى التبرك بالاسم والاستعانة به كمال التعظيم للمسمى، فلا يدل على اتحادهما، بل ربما يستدل بالإضافة على تباينهما.

والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة، من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والأول أبلغ؛ لأن زيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى، ومختص به تعالى بحسب الوضع، وليس كذلك، بل لأن معناه المنعم الحقيقى البالغ فى الرحمة غايتها، وتعقيبه بالرحيم من قبيل التتميم، فإنه لما دل على جلائل النعم وأصولها، ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها.

انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادى (٢٩٢/٤ - ٣٤٤)، غرر الأحكام لمناخسرو (٣/١).

(٢) افتتح المصنف، رحمه الله، بعد التيمن بالبسملة بحمد الله تعالى، أداءً لحق شىء بما يجب عليه من شكر نعماته، التى تأليف هذا الكتاب أثر من آثارها، واقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بخبر: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع»، وفى رواية: «بالحمد»، وفى رواية: «بالحمد لله»، وفى رواية: «وكل كلام لا يبدأ فيه بالحمد، فهو أجذم»، رواه أبو داود وغيره، وحسنه ابن صلاح وغيره، ومعنى ذى بال، أى حال يهتم به، وفى رواية للإمام أحمد: «ما لا يفتتح بذكر الله، فهو أوتر وأقطع». انظر: نهاية المحتاج للشمس الرملى (٢٤/١).

(٣) جمع عقل، وبه تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات، وقد ينقسم قسمين: غريزى، ومكتسب، فالغريزى هو العقل الحقيقى، وله حدّ يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تم فى الإنسان سمي عاقلاً، وخرج به إلى حد الكمال، كما قال صالح بن عبد القدوس:

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أى من كان عاقلاً.

واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى، فقال قوم: هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات. ومن قال بهذا اختلفوا فى محله، فقالت طائفة منهم: محله الدماغ؛ لأن =

صفاته، وتحيرت الأبصار فى بدائع مصنوعاته، وشهدت له بالوحدانية عجائب أرضه وسمواته، وبعد: فأحمدته على منته العظام، وأياديه الجسام، حمد معترف بسوايغ الأنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا منعوتًا بالجلال، موصوفًا بالكمال، منزهاً عن الحركة والسكون والانتقال، مقدسًا عن الجسم والشج والخيال، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله ببرهان لامع المنار، وقرآن ساطع الأنوار، قاطع بإعجازه حجج الكفار، وقامع بإيجازه ألباب أولى الأفكار، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار، صلاة قائمة بالعشي والإبكار، وبعد:

قال عبد الرحمن بن عبد الله: لما كان المولى الناصر صلاح الدين يوسف ملك الإسلام والمسلمين، أبو المظفر ابن أيوب بن شاذى مجده أمير المؤمنين، أدام الله دولته، وحرس على الإسلام طلعتة، قد أتاه الله ملكه العظيم، وهذاه صراطه المستقيم، وأورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأوطأه من الملوك رقابها ومناكبها، ممن يعز الأدب وفضله، ويؤثر العلم وأهله، ضمنت لخزانة علومه هذا الكتاب، وهو يحتوى على طريق من الحكمة، ومن الأدب، وأصول من السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة المملكة، وقواعد التدبير، وقسمة الفىء والغنيمة على الأجناد، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد، ونهت فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة، والحث عليها، وكيفية مصابرة الأعداء، وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى

=الدماغ محل الحس، وقالت طائفة منهم: محل القلب؛ لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس. قال الشيخ الماوردى: وهذا القول فى العقل بأنه جوهر لطيف فاسد، من وجهين، أحدهما: أن الجواهر متماثلة، فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها، ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله. والثانى: أن الجوهر يصح قيامه بذاته، فلو كان العقل جوهرًا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل، فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا.

وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو المدرك للأشياء على ما هو عليه من حقائق المعانى، وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله، فبعيد من الصواب من وجه واحد، وهو أن الإدراك من صفات الحى، والعقل عرض يستحيل ذلك منه، كما يستحيل أن يكون متلذذًا، أو ألمًا، أو مشتهيًا. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية، وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال، ويتناوله من الاحتمال والحد، وإنما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الإجمال والاحتمال. وقال آخرون: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية. قال الشيخ الماوردى: وهو القول الصحيح. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص ٤).

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى ٧٧
الذهن شواهد صحتها، ومعالم أدلتها، مع نوادر الأخبار، وشواهد من الأشعار، وفصلته
أبواباً تتضمن حكايات لائقة، ومواعظ شائقة، وحكمًا بالغة، وسلكت فى ذلك كله
طريق الاختصار، ومذهب الإيجاز؛ لئلا تمح الخواطر، وترفضه الأسماع، وسميته:
«النهج المسلوك فى سياسة الملوك»، وكنت فى إيداعه خزانة علومه، كمهدىء الماء إلى
هجر، أو الكافور إلى قيصور، ولكن قصدت بذلك إيصال الحكمة لأهلها، وأن أضعها
فى محلها، وبالله أعتصم، وعليه التوكيل، وهو عشرون بابًا، وبالله التوفيق، وهو حسبى
ونعم الوكيل، حسبى الله.

الباب الأول: فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل.

الباب الثانى: فى بيان فضل الأدب وافتقار الملك إليه.

الباب الثالث: فى معرفة قواعد الأدب.

الباب الرابع: فى معرفة أركان المملكة.

الباب الخامس: فى معرفة الأوصاف الكريمة والحث عليها.

الباب السادس: فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها.

الباب السابع: فى كيفية رتبة الملك مع أوليائه حال جلوسه.

الباب الثامن: فى بيان فضل المشورة والحث عليها.

الباب التاسع: فى بيان أوصاف أهل المشورة.

الباب العاشر: فى معرفة أصول السياسة.

الباب الحادى عشر: فى معرفة جلوس الملك لكشف المظالم.

الباب الثانى عشر: فى ذكر أدب صحبة الملك.

الباب الثالث عشر: فى معرفة ما تكاد به الملوك فى غالب الأحيان.

الباب الرابع عشر: فى ما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدريب الجنود.

الباب الخامس عشر: فى ما يلزم أهل الجيش من حقوق الجهاد.

الباب السادس عشر: فى مصابرة المشركين.

الباب السابع عشر: فى معرفة قتل قطاع الطريق وأهل الردة والبغى.

الباب الثامن عشر: فى معرفة قسمة الفىء والغنيمة.

الباب التاسع عشر: فيما ينبغى للملك فعله عند قفول الجيش.

الباب العشرون: فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك.

* * *

الباب الأول

فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل

قال عبد الرحمن: لما كانت الرعية ضروريًا مختلفة، وشعوبًا مختلطة متباينة الأغراض والمقاصد، متفرقة الأوصاف والطباع، افتقرت ضرورة إلى ملك عادل يقوم بأودها، ويقيم عملها، ويمنع ضررها، ويأخذ حقها، ويذهب عنها ما أشقاها، ومتى خلت من سياسة تدبير الملك كانت كسفينة فى البحر اكتنفتها الرياح المتواترة، والأمواج المتظاهرة، قد أسلمها الملاحون، واستسلم أهلها إلى المتون.

واعلم أن الرعية تستظمن إلى عدل الملك وتديره، استظماء أهل الحرث إلى الغيث الوابل، وينتعشون بطاعته كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر، بل الرعية بالملك أعظم انتفاعًا منها بالغيث؛ لأن للغيث وقتًا معلومًا، وسياسة الملوك دائمة لا حد لها، ولا وقت، والرعية فى تباين أوصافها كنبات الأرض، فمنه الطيب المثمر، ومنه الخبيث القاتل، فما كان منه طيبًا، فإنه لا تزكو أصوله فى أرضه، ولا تندى فروعه إذا جاوزه الخبيث فيها؛ لأن الخبيث يسبق مادته فى القرار، فيشربها وتكشف فروعه فى الفضاء، فلا يصل إلى الطيب حظه من النسيم، فإذا أصلحت الأرض، وأخرج ما فيها من النبت الخبيث، انتعش نبتها الطيب، وقوى أصله، وغما فرعه، وطاب ثمره، وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيها، افتقرت ضرورة إلى ملك يصلح فاسدها، ويقمع صائلها، ويكسر شوكة أهل التعدى عليها لتنتعش أحوالها، وتزكو أموالها، ويكثر خيرها، وتصلح أمورها.

وقد قيل: الرعية بلا وال، كالأنعام بلا راع، فانظر سائمة الأنعام فى مراعيها إذا خلت من راعيها، ما أشد اختلال حالها، واختلاف أفعالها، بل الرعية أشد اختلالاً، وأكثر اختلافاً، فلا بد من سلطان يمنعهم من المظالم، ويفصل بينهم فى التنازع والتخاصم، ولولاه لكانوا فوضى مهملين، وهمجاً مضاعين، وقال الأفوه الأودى:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا ينبى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
إن تجتمع فيه أوتاد وأعمدة لا شك نال أهالوه الذى رادوا

الباب الثانى

فى فضل الأدب وافتقار الملك إليه

قال عبد الرحمن: لما اقتصررت الرعية فى تدبيرها إلى تدبير الملك، وكان الأدب مجموع خلال حميدة، وخصال جميلة، افتقر إليه الملك ضرورة لتصدر عنه تصارييف التدبير فى المملكة على قانون العدل الذى به دوام المملكة، فقد قيل: من حسنت سياسته، دامت رئاسته.

واعلم أن الأدب أحد الأوصاف الأربعة التى يشترط قيامها بالملك فى تدبير المملكة، على ما سنوضحه فى موضعه، فإذا خلى الملك منه، اختلت سياسته وتدبيره، وقيل: الأدب صورة العقل، فمن لا أدب له، لا عقل له، ومن لا عقل له، لا سياسة له، ومن لا سياسة له، لا ملك له، وقال بعضهم: قرأت فى التوراة: أحسن الحلية الحسب، ولا حسب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا عقل له، ولا عقل لمن لا أدب له. وقال بعض الحكماء: الأدب عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى العلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقه أن يعرفوا فضله، ويعظموا أهله.

وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يفخر بحلة جليلة نالها بغير عقل، ومنزلة رفيعة جلبها بغير أدب، فإن الجهل ينزله منها، ويزيله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجياً، ووليه معادياً. وكان يقال: عقل الأديب أبداً فى إرشاد، ورأيه فى سداد، فقلوه سديد، وفعله حميد. وقال رجل من قيس لسيد من قريش: اطلب الأدب، فإنه زيادة فى العقل، وكمال فى المنصب، ودليل على المروءة، وصاحب فى العزلة، وصلة فى المجالس، ويقال:

أدب المرء كلهم ودم ما حواه جسد إلا صلح
لو وزننا رجلاً ذا أدب بألوف من ذوى الجهل رجح

وكان يقال: الأدب مال، واستعماله كمال. وأوصى ملك ولده، فقال: يا بنى، خصلتان يسود بهما المرء إن كان غير ذى مال: العلم، والأدب، يا بنى، جالس الكبراء، وخالط العلماء، فإن مؤاخاتهم كريمة، ومجالستهم غنيمة، وصحبتهن سليمة.

وأوصى رجل ولده، فقال: يا بنى، عليك بالأدب، فإنك إن كنت غنياً كنت شريف قومك، وإن كنت محتاجاً لم يستغن عنك، ويحتاجك رؤساء البلاد وأشرافهم. وقيل:

من قعد به نسبه، نهض به أديه. وقال بزر جمهر: ما أورث الآباء أبناءهم شيئاً أفضل من العلم والأدب؛ لأنهم إذا أورثوهم الأدب والعلم، اكتسبوا بهما الأموال، ونالوا بهما أعلى المراتب، وإذا أورثوهم الأموال أضاعوها وبقوا هم عدماً من قلة الأدب.

وكان يقال: الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، والتوفيق خير قائد، والاجتهاد أربح تجارة، ولا مال أغنم من العقل، ولا عقل أوثق من المشورة، ولا فقر أشد من الجهل. وقيل: الأدب ثوب جديد لا يلى، والعلم كنز عظيم لا يفنى. وقيل: من أدب ابنه أرغم عدوه. وقيل: ثلاثة ليس معهن غربة: حسن الأدب، ومجانبة الريب، وكف الأذية.

وقال نصر بن سيار: كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، وكل شيء يرخص إذا كثر، إلا الأدب، فإنه إذا كثر غلا، واعلم أن فضل الأدب أشهر من أن يسطر، وفي النفس الأبية باعث إليه إذا كانت تأبى ضده، وتكره مخالفته، وله قواعد تبنى عليها أركانها إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الثالث

في معرفة قواعد الأدب

لما كان الأدب وصفاً مشروطاً للملك في تدبير المملكة، افتقر في ذلك إلى معرفة قواعده الذى لا يتحقق بدونها، ولا يبنى إلا عليها، وهما قاعدتان لا يسع للملك تركهما، إذ هما أصلان في السياسة والتدبير، القاعدة الأولى العلم، اعلم أن العلم بأحكام الدين، وضبط الشريعة، واجب على كل مسلم، وعلى الملوك أشد وجوباً؛ لافتقارهم إلى إقامة الحدود الشرعية، وأخذ الحقوق من وجوهها، وصرفها إلى أربابها وجهاتها؛ ليتحقق منهم العدل الذى قامت به السموات والأرض، ومتى كان الملك جاهلاً من تدبيره، كان ذلك هدماً لقواعد المملكة.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: من عمل بغير علم، كان ما يهدم أكثر مما يبنى^(١).

(١) وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني، تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً =

وقال عبد الرحمن: ولا محالة إذا كان ملك المدينة خالياً من العلم، ركب هواه، وتخبطه ما يليه إذ لا تحجبه فكرة سليمة، ولا تمنعه حجة صحيحة، ويكون كالفيل الهايج في البلد القفر، لا يمر بشيء إلا تخبطه، وإذا كان الملك عالماً، كان له من علمه رادع يجمع هواه، ويميل به إلى سنن الحق، كالفيل الهايج إذا خرج من البلد القفر إلى الأنيس، ذلت السلسلة، وقهرته الكلايب حتى تحمل عليه الأثقال.

وقال بعض الحكماء: الملك إذا لم يطرزه علم، كان مذلة آجلة، والعلم إذا لم يؤيده عقل كان مضلة عاجلة.

وكان يقال: إذا أراد الله بأمة خيراً، جعل العلم في ملوكهم، والمملك في علمائهم، وقال بعض الحكماء: العلم عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية.

وقال ابن عباس، رضى الله عنه: إن سليمان بن داود، عليهما السلام، خيره الله تعالى بين العلم والمملك، فاختار العلم، فأعطاه الله تعالى العلم والمملك جميعاً.

وأوصى ملك من ملوك اليمن ولي عهده، فقال: اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن يفعل معك فافعل برعيتك، فانظر كل حسن فافعله، واستكثر من مثله، وكل قبيح فارفضه، وبالنصحاء يستبين لك ذلك، وخيرهم أهل الدين، وأهل النظر في العواقب، واستكثر من العلم، فإنه أساس التدبير، وما ليس له أساس فهدوم، وإنما رأيت الملوك تؤتى من ثلاثة أمور، فاحسم عنك واحداً، وأحكم اثنين، وهى: اتباع الهوى، وتولية من يستحق، وكشف أمور الرعية، فإنك إن ملكت هواك، لم تستأثر، ولم تعمل إلا بالحق، وإن وليت المستحق كان عوناً لك على ما تحب، ولم تضيع على يديه الأمور، وإذا تناهت إليك أمور رعيتك، فاستفهم من الوضيع فى حق الرفيع، وأمسك المظالم، وآمن المظلوم والسالم.

وحكى أن عبد الله بن صالح بن على دخل بغداد على بعض شباب بنى العباس، فحادثه فوجده على خلاف ما عهد إليه أسلافه فسأه ذلك، فلما خرج من عنده قال:

=سدت، وإن كنتم سوقة عثمت. وقال بعض الحكماء: العلم شرف لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٣).

إن الجهل يحط أولى المراتب، ويصغر ذوى المناصب، ثم أنشد:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

وقال بعض العلماء: الجهل مطية من ركبها زل، ومن صحبها ضل، وأنشدنى بعض أهل العلم شعرًا فى المعنى:

احفظ العلم ما استطعت فإنك إن كنت حاملاً رفعتك
اترك الجهل ما استطعت فإنك إن كنت عالياً وضعك

وقال بعض العلماء: من غرس العلم اجتنبى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنبى العزة، ومن غرس الإحسان اجتنبى المحبة، ومن غرس الفكرة اجتنبى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنبى المقت، ومن غرس الحرص اجتنبى المذلة، ومن غرس الطمع اجتنبى الخزى، ومن غرس الحسد اجتنبى الكمد.

القاعدة الثانية من قواعد الأدب نهى النفس عن الهوى، وذلك لازم للملك فى التدبير؛ لأن صواب رأى وخطأه إنما يكون بحسب قوة التخیل الفكرى وضعفه، فمن قوى تخيل فكره، كان على سلطان الهوى غالباً، وإنما يضعف التخیل الفكرى إذا استولت على النفس الشهوات، فيحتجب العقل عن صواب رأى، فإذا قهر الملك نفسه عن هواها، ومنعها شهواتها الضارة بها ونهاها، ظهر له صواب رأى والتدبير فى أمره بالعقل، ومتى لم يملك الملك ضبط نفسه عن هواها، وهى واحدة، لم يملك ضبط حواسه، وهى خمس، وإذا لم يملك ضبط حواسه مع قلتها وذلتها، صعب عليه ضبط الخاصة من أعوانه والعامه، مع كثرة جمعهم وخشونتهم، ومن لم يضبط خاصته من أعوانه وهم نصب عينيه، لم يضبط عامته من رعيته فى أقاصى بلاده وأطراف مملكته، وليس للآدمى عدو أقوى من نفسه، فبقهر الآدمى نفسه يقهر حواسه الخمس؛ لأنها أعوان النفس، ودليلها على الشهوات الموبقة، وقد رأينا قوة الحاسة الواحدة منهن على انفرادها إذا أتت على نفس من النفوس القوية الحذرة، ألقتها عن مصلحتها حتى توردها موارد الموت، فكيف إذا اجتمعت خمس على نفس واحدة.

فمن ذلك أن الظبى مع شدة نفوره إذا سمع صوت أوتى القفر مع تواتر النقرات واصطحابها، ألهاه سماع ذلك عما يراده، فيلبث فى مكانه حتى يأتیه الصياد فيقبضه،

والفيل مع عظم جسمه وشدة قوته، يلهيه لين اللمس، ويذهله عن نفسه حتى تنصب له المصائد، فيصاد ويذل ويركب عنقه، والجراد الذى يستكن من حر الشمس إذا رأى ضوء النار أعجبه نورها، وحسن منظرها، فيلهيه ذلك حتى يلقى نفسه فيها فتحرقه، وذباب الورد المتبع لطيب الروائح، يطلب ما يقطر من أصل أذن الفيل عند هيحانه، فإنه يكون فى طلب رائحة المسك، ولا يهوله تحريك أذن الفيل، بل يلهيه شم ذلك عن الاحتراز حتى يلج فى أصل أذنه، فتقع عليه الأذن فتقتله، والسماك فى البحر يسلبه ذوق الطعم، ويلهيه عن الصنارة التى فيها اللحم فيبلعها، فيكون فيها حتفه، فمن ملك هذه الحواس الخمس، فقد ملك نفسه، ومن ملك نفسه حسنت سياسته، ودامت رئاسته، ومن أعطى نفسه هواها باتباع ملاذ شهواتها، اشتغل عن تدبير مهماته، فتخل أمور دولته، وتنحل عرى مملكته.

وسئل رجل من بنى أمية عن سبب زوال دولتهم، فقال مثل ما قال بزرجمهر: شغلتنا لذاتنا عن مهماتنا، وقل عطاؤنا لجنودنا، فقل ناصرنا، وجرنا على أهل خراجنا، فدعوا علينا، وطلبوا الراحة منا، وأشد من ذلك أنا استعملنا صغار العمال على كبار الأعمال، فآل ملكنا إلى ما آل. وقال بعض الحكماء: العقل كالزوج، والنفس كالزوجة، والجسم كالبيت لهما، فإذا كان سلطان النفس غالباً قاهراً، اشتغلت النفس بمصالح الجسم، إما لمنفعة تجلبها، أو لمضرة تجتنبها، كما تشتغل الزوجة التى قهرها زوجها بمصالح بيتها العائدة عليها وعلى زوجها، وإن كان سلطان النفس على العقل غالباً، كان سعى النفس فاسداً، ونزعاتها مدمومة، كفعل الزوجة التى قهرت زوجها، وكان يقال: إن الملك الحازم يخاف ظهور عدوه عليه، حتى يتجاوز عدوه قضايا العقل إلى قضايا الهوى، فحينئذ ييشر بالغلب، ويثق بحسن المنقلب.

وكان يقال: الهوى كالنار إذا عسر إيقادها عسر إخمادها، والسييل إذا اتصل مدة تعذر رصده. وقال المأمون: الهوى يبين من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحتها، ولهذا شعر:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جميعاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالاً عواذله
وما يزع النفس الحرون عن الهوى من الناس إلا حازم الرأى كامله

وقال أزدشير: ما استعان ملك على رعيته بعدل أفضل من مجانبته الهوى. وأوصى

رجل ولده، فقال: يا بنى، اعص هواك والنساء، وافعل ما شئت. وكان يقال: إذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإذا غلب عليك هواك فهو لعدوك. وقال بعض الحكماء: أكثر مخالفة الهوى، فإن النفس أمارة بالسوء، تكره ما لها، وتحب ما عليها، ولا يسلم من الندم من استنصح الهوى والنفس، ولهذا شعر:

إذا أنت لم تعص الهوى قadak الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

وأوصى ملك من ملوك حمير أخاه، فقال: لا يكن الإفراط من شأنك فى نكال، ولا نوال، فإنه من النكال يجحفك، ومن النوال يؤثمك، وإذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك، فإنه أضر ما اتبعت، واعمل بالحق، فإنه لا يضيق مع شيء، ولا يتعب فيه عاقل، ولا يعقبك فيه تبعه، وليكن خوف بطانتك لك أشد من أنسهم بك.

وأوصى ملك من العرب ولى عهده، فقال: كن بالحق عمولاً، وعما جهلت سؤولاً، وأول شيء تؤدب به نفسك منعها عن شهواتها، وردعها عن هواها، فلا شيء أضر بالمملكة من اتباع الهوى، واخفض عن الأمور يظهر لك حقائقها، واستبطن أهل التقوى وذوى الأحساب تزين نفسك، وتحكم أمرك، وإياك وقبول التزكية فيما لا تشك أنك مكذوب فيه، فإنها خدعة تتبعها صرعة، ولا تضع شرك إلا عند من يكتمه، ولا تثق برجل تهمه، ولا تعود لسانك الخنا، ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه، وإذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وإياك وكثرة التأنى، فمن تأنى على الله أكذبه، وارجح ترحم، شعر:

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنا بطاعة الحزم وعصيان الهوى

* * *

الباب الرابع

فى معرفة أركان المملكة

اعلم أن المملكة تبنى على قاعدة كلية، لا قوام لها بدونها، ولا تثبت إلا عليها، وهى منها بمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا بقاء للجسد بعد الرأس، كذلك لا بقاء للمملكة بدون هذه القاعدة، وهذه القاعدة لها أركان خمسة بها قوام القاعدة، فإذا انتقص منها ركن أو هن القاعدة، وأفضى إلى اضطرابها، فتحل المملكة، كما أن النفس يقوم بها

أركان خمسة، وهى: الغذاء، والشحم، والدم، والمخ، والعظم، فإذا انتفض منها ركن فى شخص، بطل عنه البواقي، وخرج عن السلامة، وهذه القاعدة وأركانها الخمسة لها أساس لا تثبت إلا عليه، فإذا اتسع هذا الأساس اختلت الأركان، واضطربت القاعدة وأفضى الأمر إلى هدم الجميع، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أما القاعدة التى تنبنى عليها المملكة، فهى: الملك المنتصب لتدبير الرعية، وسياسة الملك، وقيمه أوصاف أربعة لا ينفك عنه واحدة منهن، وهى: أدبه، وعقله، وعدله، وإقدامه، فإذا عرى عن شىء من ذلك، ذهبت قوته، وضعفت عن عمل المملكة، كالطبائع الأربع المركبة فى جسد الإنسان لا قوام لها إلا بها، فإذا خلا عن واحدة منهن، انحل تركيب الجسم، وزهقت منه النفس، فإذا استقام الملك بهذه الأوصاف، قامت به المملكة.

والركن الأول من أركان المملكة هو الوزارة: وهو على ضربين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ، فأما وزارة التفويض، فهو أن يستوزر الملك من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه؛ لأن ما وكل إلى الملك من تدبير الرعية لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستعانة، وأما وزارة التنفيذ، فالنظر فيها مقصور على رأى الملك وتديره، والوزير هو واسطة بين الملك وبين الرعية، يؤدى عنه ما أمر به، وينفذ ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر عنه بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من أمرهم، وما تجدد من حدث ملم، ولا مندوحة للملك عن نظر الوزير واستعمال رأيه فيما يجمله من أمور التدبير والوقائع الحادثة، وقد روت عائشة، رضى الله عنها، أن النبى ﷺ، قال: «من استعمل على عمل وأراد الله به خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه»^(١).

وقد ينجو المغلوب من الملوك برأى وزيره، حتى يغلب من غلبه بقوة رأيه، وإن كان ضعيفاً بلطف حيلته، والغالب له أقوى منه. واعلم أنه لا بد للوزير أن يستعمل فيه عشرة أوصاف:

الأول: العلم؛ لأن تدبير الجاهل يقع مخالفاً للشرع، فيكون وبالاً.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣١/٣) ح (٢٩٣٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٧٠/٦) ح (٢٤٤٥٩)، وابن حبان فى صحيحه (٣٤٥/١٠) ح (٤٤٩٤)، والبيهقى فى الكبرى (١١١/١٠) ح (٢٠١٠٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للبخارى، وقال: رجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد (٢١٠/٥).

الثاني: السن؛ لأن الشيخ حنكته التجارب، وعركته النوائب، وشاهد من اختلاف الدول ونزول الحوادث ما أوضح لعقله صواب الرأى فى التدبير.

الثالث: الأمانة، حتى لا يخون فيما أوّمن عليه، ولا يغش فيما استنصح فيه.

الرابع: صدق اللهجة، حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل بقوله حتى ينهيه.

الخامس: قلة الطمع، حتى لا يرتشى، ولا ينخدع.

السادس: أن يصلح وأن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحنة؛ لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف.

السابع: أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الملك، أو ينقله عنه؛ لأنه شاهد له وعليه.

الثامن: الذكاء والفطنة، حتى لا يدلس عليه فيشبهه، ولا تموه عليه الأحوال فتلتبس؛ لأن الأمور لا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم مع التباسها حزم.

التاسع: أن لا يكون من أهل الأهواء، فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، ويتدلس عليه المحق من المبطل؛ لأن الهوى خادع الألباب، وصارف عن الصواب.

العاشر: أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج، خبيراً بهما، عارفاً بتفصيلهما، فلا يكون مباشراً لهما تارة، ومسبباً تارة أخرى.

وعلى هذا الوصف مدار الوزارة، وهذه الأوصاف العشرة بها تنتظم أمور السياسة، ومتى لم تجتمع فى الوزير هذه الأوصاف العشرة، كان تدبيره ناقصاً بقدر ما نقص منها.

وحكى أن المأمون كتب فى اختيار وزير: إنى التمست لنفسى وتدبير أمورى رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه واستقامته فى طريقه، قد هذبته الآداب، وحنكته التجارب، إن أوّمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللحمة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بجلالة لسانه وحسن بيانه.

قال عبد الرحمن: وهذه الأوصاف إن كملت فى الوزير، فقل أن يكمل فى الصلاح

بنظر عام، وبتدبير تام، وإن اختلفت، فالصلاح بحسب نقصها مختل، والتدبير على قدرها معتل. وقد كان الفضل بن سهل وزير المأمون يبعث أصحابه إلى البلاد عيوناً، يسمعون ما تقول الناس فيه من خير أو شر، فيطالعونه بذلك، فما سمع من خير ازداد منه، وما سمع من عيب فيه أزاله، وإن وفدًا قدموا على المأمون من بلاد الروم فأكرمهم، فلما رجعوا إلى بلادهم قال عقلاؤهم: ما رأينا مثل المأمون جلالة، وعقلاً، ولا رأينا مثل وزيره فى سمته وكمال أوصافه، لولا أنه حديث السن، ومن شأن الملوك أن يستوزروا المشايخ الذين اجتمعت لهم الحيلة والرئاسة والعلم والتجربة، فأخبره أصحابه بذلك، قال: فاحتجب ثلاثة أيام فى داره يعالج لحيته حتى ظهر للناس وهى بيضاء.

ولا يجوز أن يكون الوزير امرأة؛ لقوله ﷺ: «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»^(١).

الركن الثانى من أركان المملكة الرعية: اعلم أن الرعية ركن شديد من أركان المملكة، وهى قسمان: خاصة وعامة، والخاصة قسمان: متصنع فى خدمة الملك، ومطبوع على الانكماش، والقيام بحقوق الخدمة، فليعرف الملك المتصنع منهم والمطبوع، فإن العون من الخاصة المتصنع فى خدمته يكون فى أول ذلك نشيطاً مواظباً للخدمة، ثم يدركه فتور الطبيعة، وقصور الهمة، فيفتر عما يتعاطاه أولاً، ويذهب تصنعه، والمطبوع على الانكماش فى الخدمة يكون نشطاً فى كل وقت مثل نشاطه فى أول خدمته، وأما العامة، فهم ثلاث طبقات: أخيار، وأشرار، ومتوسطون بين ذلك، ولكل طبقة منهم سياسة سنذكرها فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

والمطلوب من الرعية طاعة الملك، وذل الجانب، وعمارة البلاد، وأداء الحقوق، وإنما يحصل ذلك بنشر العدل عليهم، على ما سنذكره فى بابه إن شاء الله تعالى.

الركن الثالث من أركان المملكة القوة: فقوة الملك تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها: قوة رتبته فى الناس، وهيبته عليهم، وما يقع فى نفوسهم من عزته وسطوته واستعلائه وقدرته، الثانى: قوة احتماله بنفسه لما يرد عليه من الأمور واستقلاله بذلك، الثالث: قوة التدبير لأمر المملكة والنفاد فيها بحسن نظر العواقب فى الأمور.

(١) لم أجدّه فى مظانه.

أما القوة الأولى، فتحصل بحسن السياسة على ما سذكركه فى موضعه، والقوة الثانية تحصل بآداب النفس كما ذكرناه فى الباب الذى قبله، والثالثة تنقسم على ثلاثة أقسام، أحدها: تدبير إبرام الأمور بعد الاحتيال فيها، ووضع الأصول لها، الثانى: تدبير معرفة الوقوف على الأمر الذى لا يوجد للتدبير فيه حيلة حتى لا يصير إلى ما يصير إليه، ثم يطلب الحيلة فيه بعد ذلك، الثالث: تدبير ما لا حيلة فيه.

واعلم أن أفضل هذه القوى قوة التدبير، فأما الأمر الذى لا حيلة فيه ولا رفق، فالحيلة فيه الصبر واللين؛ لأن متعاطى الشدة فيه ينقلب اللين عليه إذا لم يرفق، ألا ترى أن ذا القوة لقوته يناله الضرر من سباحة الماء على ليونته، ولم يقطعه بقوته، فإذا رفق سهل عليه عبوره الماء، وأمكنه قطعه، وكذلك من حاول أن يقعد بكفه على الهواء صعب عليه، ولم يجد إلى ذلك سبيلاً، ولو أن الفيل بقوته تعاطى ثلم الجبل بنابه، انكسر ولم يؤثر فى صفوانه شيئاً، والرجل على ضعفه برفقه وحيلته يتخذ من الجبل الصلد مسكناً، وقد يذيب الحديد الشديد برفقه وحيلته.

واعلم أن الملك القوى قد ينبو عن حد قوته إذا لم يعنه رفق، كما ينبو السيف عن ضربته، وإن كان من الحديد الشديد حتى يسقى من الماء الذى هو لين سيال، فتشحن مضاربه، حتى إذا حمل على الحديد الذى هو من جنسه قطعه كله، ذلك إنما يحصل بالرفق دون الخرق، وسنوضح كيفية التدبير فى مواضعه إن شاء الله تعالى.

الركن الرابع من أركان المملكة المال: اعلم أن بيت المال ركن عظيم للمملكة، تتعلق به المصالح الكلية من أرزاق المقاتلة، والولاء، وأعوانهم، وتجهيز الجيوش، وأرزاق الفقراء والمساكين، وأهل العلم، وسد الثغور، وبناء المعادل والحصون، وغير ذلك مما تقوم به مصالح الرعية، ويقدر زيادته ونقصانه يكون حال المملكة، وناموس الملك عند نظرائه وخاصته وأعوانه؛ لأنه ذخيرة يرجع إليها الملك والأعوان والرعية عند نزول الحوادث، فإذا اشتهر بكثرة أنواع الأموال، واختلاف أجناس الجواهر، اشتد أزر الرعية، وقويت نفوس الجند، وعظم قدر الملك عند أمثاله، وإذا اشتهر بالنفاذ والقلة، صغر قدر الملك، واحتلت أمور الملك، وطمع فيه أعداؤه، فيجب حفظ بيت المال واحتياطه عليه بتوليته الثقة، وأهل الأمانة، وبتوقى الملك الإسراف فى بذله وصرفه إلى غير أهله، ولا يمنعه أهل الحقوق فيحصل بذلك الزلل، ويتطرق إليه الخلل، سيما الجند وأعوانه، فإن تقتير الأرزاق يفضى بالملك إلى المهالك.

وقد كان يقال: المال ناموس تظهر به هيئته، وتقوى أبهته، حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب، وجعلها على باب خزانة المال، يجلس عليها الخزنة وغيرهم، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته، فلما أفضت المملكة إلى ولد ولده، جعل يفرق الأموال، ويسرف في العطايا، فلما نفذت تلك الأموال، أخذ تلك الأعمدة وسبكها، فوجدها بجوفة، وقد ملئت رملاً، فذهب حينئذ ناموسه، وتظاهرت أعداؤه، وقلت هيئته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة.

وحكى عن بعض ملوك مصر أنه أخذ جبايا من الخزف وملأها ذهباً، ثم سبكه، ثم كسر الخزف وأزاله، فبقى كهية الجباب، ثم جعلها على باب قصره يجلس عليها الناس، وسماها الحسرات، وإنما قصد ذلك أيضاً لإقامة ناموس مملكته، وتقوية نفوس جنده، فلهذه المعاني يجب حفظ المال والاحتياط عليه.

الركن الخامس من أركان المملكة الحصون: اعلم أن الحصون التي يتحصن بها الملوك، ويمتنع بها جانبهم، تنقسم إلى خمسة أقسام، كل نوع منها يحصل به التحصن وامتناع الجانب، وهى: المال، والجبال، والمفاوز، والقلاع، والرجال، وأحصن هذه الحصون الرجال، ثم القلاع، وتحصين الرجال بالأموال، وأفضل الأموال الأطعمة، وجمع الأطعمة وتحصيلها إنما يتحقق بالعدل، قيل: كان مكتوباً على منطقة بعض ملوك الفرس: لا ملك إلا برجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالريعية، ولا رعية إلا بالعدل، وقالت أم جيفوننة ملكة طبرستان لنصر بن سيار الملك الحازم: من اتخذ إلى نفسه سبعة أشياء، حصن يلجأ إليه إذا تظاهر عليه نظراؤه، ووزير صالح يثق برأيه ويفضى بسره إليه، وذخيرة خفيفة الحمل يرجع إليها عند النوائب، وفرس يثق بجريه إذا داهمته الأعداء، وسيف إذا نازل الأقران لم يخف أن يخونه، وامرأة حسناء إذا دخل عليها ذهب همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له ما يشتهيه.

وكتب ملك إلى حكيم، فقال: دلنى على ما تبقى به المملكة؟ فقال، واختصر فى ذلك بأربعة أشياء: حصن شاهر، ووزير حاذق، ومال وافر، وعدل عامر. وبلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك، فكتب إليه: قد بلغت من السياسة ما لم يبلغه ملك قبلك، فدلنى إلى ذلك؟ فكتب إليه: إنى تحصنت بالرجال، وحصنت الرجال بالأموال، ولم أهزل فى أمر ونهى، ولا وعد ولا وعيد، وأودعت القلوب هبة لم يشبهها مقت، ووداً لم يشبه كذب، وأخذت بالقوة، ومنعت بالتفضل.

وسأل ملك من ملوك الفرس حكيمًا من حكمائهم: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل في العامة، قال: فما حصن الملك؟ قال: وزرائه وأعدائه، فإنهم إذا صلحوا صلح الملك، وإذا فسدوا أفسد الملك، قال: فما سبب صلاحهم؟ قال: البذل والإنعام والإحسان الشامل، قال: فأى الأمور أحمد للملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الأموال من غير مشقة، وأداؤها إليهم عند أوانها، وسد الثغور، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم من الظالم، وزجر القوى عن الضعيف، قال: فأى خصلة تكون فى الملك أنفع؟ قال: الصدق فى جميع الأحوال، وأما الأساس الحامل للمملكة فهو الدين.

اعلم أن الدين أساس المملكة، لا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع، والانتفاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بما يرضى الله تعالى سرًا وعلانية، فإنه لا دوام للملك بغير هذه الأشياء. قال رسول الله ﷺ: «من أصلح سريره، أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله، أصلح الله فيما بينه وبين الناس».

وحكى أن أزدشير قال لولده: إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا قوام له إلا به، الدين أس، والملك حارس، فمن لم يكن له أس فمهدوم البناء، ومن لم يكن له حارس فضائع، يا بنى، اجعل مرتبتك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل العلم ولأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وبرك لمن يعنيه ما عناك من أهل العقل. قال الأحنف بن قيس: من هدم دينه كان لمجده أهدم، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم. وقال بعض الحكماء: الدولة بلا دين كالبناء على الثلج.

* * *

الباب الخامس

فى معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها

ينبغى للملك المنتصب لتدبير الرعية أن يتصف بالأوصاف الكريمة، ويتلبس بها، ويجعلها له خلقًا مطبوعًا، ولا يهمل منها وصفًا واحدًا، إذ بها قوام دولته، ودوام مملكته، وهى خمسة عشر وصفًا: العدل، العقل، الشجاعة، السخاء، الرفق، الوفاء، الصدق،

الرأفة، الصبر، العفو، الشكر، الأناة، الحلم، العفاف، الوقار، وسنشرح فضل هذه الأوصاف وما يتعلق بها من المصالح الكلية فى تدبير المملكة.

الوصف الأول العدل^(١): اعلم أن العدل أفضل أوصاف الملك، وأقوم لدولته؛ لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال، وتنمى الأموال، وتتبعش الرعية، وتكمل المزية، وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه، وحثهم عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قال الحسن: الله تعالى جمع الخير كله والشر كله فى هذه الآية^(٢)، وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها فى الآية، واضطرابه بالثلاثة المنهى عنها فيها.

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فالعدل فى الغضب، والرضى وخشية الله تعالى فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٣).

وحكى أن الإسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع فى بلادهم: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فىنا، فقال لهم: أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل استغنى عن الشجاعة. وقال أزدشير: إذا رغب الملك عن العدل، رغب الرعية عن الطاعة. وعوتب كسرى أنو شروان على ترك عقاب المذنبين، فقال: هم المرضى إذا لم نداوهم بالعدل فمن لهم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات المملكة، وبالجور زوالها. وقيل لأزدشير: من الذى لا

(١) قال ابن مسكويه: الإمام العادل الحاكم بالسوية، يخلف صاحب الشريعة فى حفظ المساواة، فهو لا يعطى ذاته من الخيرات أكثر مما يعطى غيره. انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (ص ١٥٦).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى للبيهقى فى شعب الإيمان. انظر: الدر المنثور (٤/٢٤١).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٤/٢١٢، ٢١٣) ح (٥٧٥٤) من حديث ابن عمر مرفوعاً بتحقيقنا، وقال الحافظ الهيثمى: فيه ابن لهيعة، ومن لا يعرف. انظر: مجمع الزوائد (١/٩٤)، وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١/٢١٤) ح (٢٣٥) من حديث أنس بن مالك مرفوعاً، وكذلك الطبرانى فى الأوسط (٤/١٢٩) ح (٥٤٥٢) وإسنادهما فيه حميد بن الحكم الجرشى. قال ابن حبان: منكر الحديث جداً، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد. انظر: لسان الميزان (٢/٣٦٣).

يخاف أحداً؟ قال: من عدل فى حكمه، وكف عن ظلمه، نصره الحق، وأطاعه الخلق، وصفت له النعمة، وأقبلت عليه الدنيا، فهنىء بالعيش، واستغنى عن الجيش، وملك القلوب، وأمن الحروب.

قال بعض العلماء: إن أيدى الرعية تبع لألستها، فمتى قدرت أن تقول، قدرت أن تصول، فلن يملك الملك ألستها حتى يملك جسومها، ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه، ولن تحبه حتى يعدل عليها عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة. قال كسرى أنوشروان لبزرجمهر: ابن لى قبة، واكتب عليها كلمات أنتفع بها فى بقاء الدولة ودوام المملكة، فبناها وكتب فى طرازها: العالم بستان، وسياحه الدولة، والدولة ولاية تحرسها الشريعة، والشريعة سنة يستسنها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفيهم المال، والمال رزق تجمععه الرعية، والرعية عبيد يستعبدهم العدل، والعدل مألوف به قوام العالم.

وقال الوليد بن هشام: يفسد الملك بفساد الملك، وينصلح بصلاحه. وقال سفيان الثورى للمنصور: إني لأعرف رجلاً إن صلح صلحت الأمة، قال: ومن هو؟ قال: أنت. واعلم أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم عشر خصال:

أحدها: إقامة منار الدين، وحفظ شعائره، والحث على العمل به من غير إهمال له، ولا تفريط بحقوقه.

الثانى: حراسة البيضة الإسلامية، والذب عن الرعية من عدو فى الدين، أو باغ فى النفس والمال.

الثالث: عمارة البلدان باعتماد الصلاح وتهذيب السبل والمسالك.

الرابع: النظر فى تعدى الولاة وأرباب المناصب والأعوان على الرعية؛ لأن تعديهم منسوب إليه، قال الشاعر فى المعنى:

ومن يربط الكلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب
كذلك من ولى ابنه وهو ظالم فظلم جميع الناس من قبل الأب

الخامس: النظر فى أموال الجند وغيرهم من أهل الرزق؛ لئلا يبخسهم العمال أرزاقهم، أو يؤخروا العطاء عنهم، فيجب الانتصار لهم.

السادس: الجلوس لكشف المظالم، والنظر بين المتشاجرين من الرعية، والفصل بينهم بالنصفه على وجه الشرع.

السابع: تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات أربابه من غير إسراف ولا إقتار.

الثامن: إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة.

التاسع: اختيار خلفائه فى الأمور، وولاته، وقضاته، وعماله، بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحدق والدراية فيما هم بصده.

العاشر: تنفيذ ما وافق من أحكام القضاة وأهل الحسبة، وما عجزوا من تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه، فينفذ الملك ما حكموا به عليه بالشرع.

فإذا فعل الملك هذه العشر خصال، كان مؤدياً لحق الله تعالى فى الرعية بالعدل الذى أمر الله تعالى، وكان مستوجباً لطاعتهم، ومستحقاً لمناصحتهم، وإن ترك شيئاً من ذلك، كان للعدل ناكباً، وفى الجور راغباً، وفى المعنى شعر:

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا
زلوا فما عدلوا أيام دولتهم حتى إذا عزلوا زلوا فما رحموا

الوصف الثانى العقل^(١): اعلم أن العقل وصف شريف، وخلق عظيم لا يبطل حقاً، ولا يحق باطلاً، وهو عبارة عما يستفاد من التجارب بمجارى الأحوال. وقيل: هو العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ومن نتائجه الفكرة السليمة، والنظر الثاقب فى حقائق الأمور ومصالح التدبير. وسئل بعض الحكماء عن العقل، فقال: الإصابة بالنظر، ومعرفة ما لم يكن بما كان.

وقال بعض الحكماء: خير مواهب الملك العقل، وشر مصائبه الجهل. وكان يقال: الجاهل يعتمد على أجله، والعاقل يعتمد على عمله، وقيل: نظر العاقل بقلبه وخاطره، ونظر الجاهل بعينه وناظره. وقال ابن المعتز: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس عن اتباع الهوى. وقال بعض الحكماء: العاقل من أتعب نفسه والناس منه فى راحة، والأحمق من نفسه فى راحة والناس منه فى تعب، وقال بعضهم فى المعنى:

(١) تقدم تعريفه فى الهامش رقم (٣) ص (٧٥)، واعلم أن الذى يحده هو العقل الغريزى، أما المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى، وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حد؛ لأنه ينمو إن استعمل، وينقص إن أهمل. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص ٤).

وأفضل قسم الله للمرء عقله وليس من الأشياء شئ يقاربه
إذا كمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومناقبه

وقال بعض الحكماء: العقل قائد، والعلم سائق، والنفس حرون، فإذا كان قائد بلا سائق، حرنت النفس، وإذا كان سائق بلا قائد، عدلت يميناً وشمالاً، فإذا اجتمع القائد والسائق، سارت طوعاً أو كرهاً، وقال بعضهم شعراً:

تأمل بعينك هذا الأنام وكن مثل من صانه عقله
فحيلة كل فتى فضله وقيمة كل امرء بذله
ولا تتكل فى ارتفاع العلا على نسب ثابت أصله
فهل من فتى زانه عقله بشئ يخالفه فعله

وقال بعضهم: يعرف العاقل بحسن سمته، وطول صمته، وصحة تصرفه. وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يتحجج بحالة جليلة نالها بغير عقل، فإن الجهل ينزله منها، ويزله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحة هاجياً، ووليه معادياً^(١).

وكان يقال: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر، فأما العاقل، فإن الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأى الحسن سجيته، إن كلم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع العلم وعى، وإن حدث الفقه روى، وأما الأحمق، فإن تكلم عجل، وإن حدث وهل، وإن استنزل عن رأيه نزل، وأما الفاجر، فإن ائتمنته خائنه، وإن حدثته شانك، وإن استكتمته أمراً لا يكتمه، وإن علم علماً لم يعمل به، وكان يقال: لا عطية أعظم من عقل، ولا داء أقوى من جهل. وقال المبارك الطبرى: ليس العاقل الذى يحتال الأمر الذى غشيه، بل العاقل الذى يتحذر الشدائد قبل الوقوع فيها حتى لا يقع.

وقال فيروز بن حصين: إذا أراد الله أن يزيل عن عبده نعمة، كان أول ما يغير منه عقله، شعر:

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن فى قومه بحسيب
إذا حل أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقل فى بلدة بغريب

الوصف الثالث الشجاعة: اعلم أن الشجاعة من أحمد الأوصاف التى يلزم الملك أن

يتصف بها ضرورة، وإن لم تكن له طبعاً تطبع بها لتحسم بهذا مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منها حماية المملكة، والذب عن الرعية، وحقيقة الشجاعة ثبات الجأش، وإظهار الرعب على الأعداء، وإذهاب الرعب عن الأوداء، وزوال هيبة الخصم، واستصغاره عند لقاءه، ولا بد أن يسبق ذلك رأى ثابت، ونظر صائب، وحيلة فى التدبير، وخداع فى الممارسة، فقد قال ﷺ: «الحرب خدعة»، وفى المعنى شعر للمتنبى:

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما قتل الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الفرسان

واعلم أن ثمرة الشجاعة من الجند الكرّ والفر، وثمرتها من الملوك الثبات حتى يكون قطباً يدورون عليه، ومعقلاً يلجأون إليه، هذا إذا كان بحضرتة من يذب عنه، والأحسن منه حيثئذ أن يذب عن نفسه، إما بالإقدام وإما بالانهزام.

ولقد حكى أن فيلاً اغتلم، فدخل قصر كسرى أنوشروان، والفيل إذا اغتلم أنكر ساسته، ولا يمر بشيء إلا حطمه، وأن ذلك الفيل قصد الإيوان الذى فيه كسرى وعنده جماعة من خاصته، فلما نظروا إلى الفيل مقبلاً إليهم، خافوا غائلته، وفروا من حول كسرى، وثبت كسرى على سريرته، ولم يتغير عن سريرته، ولا عن هيئته، وثبت عنده واحد من الرجال بيده طبر، فقام ذلك الرجل، أما كسرى، فقصد الفيل فثبت، فلما غشيه ضربه الرجل بالطبر على خرطوميه فقدّه، فولى الفيل راجعاً، وكسرى فى هذا كله لم يزحزح عن سريرته، ولا تغير لونه، ولا فارقتة الهيبة، وهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملوك.

وكذلك حكى أن موسى الهادى كان يوماً فى بستان على حمار له، وليس معه سلاح، وبحضرتة جماعة من أهل بيته وبطانته، فدخل عليه حاجبه، وأخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس شديد، ونكاية فى الناس، وأنه قد ظفر به بعض القواد وهو معه على الباب، فأمر الهادى بإدخاله عليه، فأدخل بين رجلين قد قبضا عليه، فلما نظر الخارجى إلى الهادى جذب يديه من الرجلين، واختلط سيف أحدهما وقصد الهادى، ففر عنه كل من كان بحضرتة من أهله وبطانته، وبقي الهادى وحده على حمارة. بمكانه ذاك حتى دنا الخارجى منه، ورفع يده بالسيف ليعلوه، فقال: يا غلام اضرب، فالتفت الخارجى ينظر من خلفه، فوثب الهادى من سرج حمارة، فإذا هو على الخارجى، فقبض

عليه، وانتزع السيف من يده فذبحه، ثم عاد إلى حماره من فوره، وتراجع إليه خاصته يتسللون وقد ملثوا منه رعباً وحياء، فما خاطبهم بشيء من ذلك، ولم يكن بعد ذلك يفارق السلاح، ولم يركب إلا جواداً من الخيل، وهذا أعجب ما يكون من الشجاعة وثبات الملوك.

الوصف الرابع السخاء: اعلم أن السخاء عماد البر الذي هو سبب الألفة لما يوصل إلى القلوب من الراحة والألطاف، وكذلك ندب الشرع إليه، وحث الخلق عليه؛ لما فيه من عموم المصلحة في الدنيا والآخرة؛ لأن في السخاء رضى الله سبحانه وتعالى، ورضى الناس أجمعين، قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار»^(١)، وقال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذنب الكريم، فإن الله يأخذ بيده كلما عثر»^(٢)، وقالت عائشة، رضى الله عنها: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء. وقيل: أوحى الله إلى موسى، عليه السلام: أن لا تقتل السامرى، فإنه كريم.

وحدث أبو القاسم، فقال: حضرت الحكم بن المطلب لما مات بمدينة متيخ، وقد أخذ في النزاع وشخص بصره، فقال أبو معيوف الحمصى: اللهم أرفق به، فإنه كان جواداً، شجاعاً، صواماً، قواماً، قال: فلما أفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟ فقال أبو معيوف: إن ملك الموت يسلم عليك، ويقول لك: إن الله تعالى أمرنى أن أرفق بكل كريم، ثم اضطجع، فكأنه كان فتيلة طفئت، رحمه الله. وكان يقال: سؤود بلا جود، كملك بلا جنود. وقيل: من جاد ساد، ومن ضعف ازداد. وكان يقال: جود الرجل يحبه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

واعلم أن السخاء على نوعين:

النوع الأول: هو أن يتدنى به الإنسان من غير سؤال، وهذا طبع السخاء، وأشرف

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذى (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب. والعقيلي فى الضعفاء الكبير (١١٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٣٨/٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٢٨/٧، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، والطبرانى فى الأوسط (٢٢/٢) ح (٢٣٦٣)، وفيه سعيد ابن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (٢٣٧٩).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٤٢٣/١) ح (٧٢٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣/٧) ح (١٠٨٦٧)، وفيه انقطاع، والطبرانى فى الأوسط (٢٠٠/٤) ح (٥٧١٠)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٨٥/٦).

٩٨ كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزرى
العتاء؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، سئل عن السخاء، فقال: ما كان منه
ابتداء، فأما ما كان منه عن مسألة، فحياء وتكرم. وقال بعض الحكماء: أجل النوال ما
كان قبل السؤال، وقال بعض الشعراء:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع الأول من السخاء، والسخاء قد يكون لأسباب ثلاثة:

أحدها: أن يجد خلة يقدر على سدها، أو فاقة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم
وسماحة النفس أن يهمل ذلك، بل يكون مكفلاً بنجازها رغبة في الأجر.

الثانى: أن يرى فى ماله فضلة عن حاجته، فيرى انتهاز الفرصة فيضعها عند ما يكون
له دخراً.

الثالث: أن يفعل ذلك سحبة قد فطر عليها، فلا يميز بين مستحق ومحروم، ولا يفرق
بين محمود ومذموم، وهذا هو السخاء طبعاً، غير أن هذا لا يصلح بالملك؛ لأنه خارج
إلى السرف والتبذير، وبيت المال قد يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، فإذا أعطى
غير مستحق فقد منع مستحقاً، وحال الملوك لا يقتضى ذلك.

النوع الثانى من السخاء ما كان عن طلب وسؤال، وعلامة السخى عند ذلك أن
يلقى السائل بالترحيب وطلاقة الوجه، وأن يكتفى بالتلويح، ولا يحوج السائل إلى
التصريح، كما قال الشاعر:

تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلاً
واعلم بأنك عن قريب صائر خبيراً فكن خيراً تنال جزيلاً

وينبغى له عند السؤال أن يعمل بالوعد قولاً، ثم يعمل بإنجازه فعلاً؛ ليكون السائل
مسروراً بعاجل الوعد، ثم يؤجل الإنجاز، كما حكى أن الفضل بن السهل سأله رجل،
فقال: إنى أعدك اليوم، وأحبوك غداً؛ لتذوق حلاوة الأمل، ولكن لا يطيل الوعد على
السائل، فإنه لا تبقى حلاوة بمرارة الانتظار، شعر:

إن العطية لا تكون هنيئة حتى تكون قصيرة الأعمار

وقد مضت سنة الخلفاء الراشدين وملوك المسلمين بصلة المسترزقين على وجه الشرع
من غير إسراف ولا إقتار، وذلك مشهور، فأعرضنا عن شروحه.

الوصف الخامس الرفق: اعلم أن الرفق أفضل أوصاف الملك، وأحمد أخلاقه في التدبير؛ لأنه يبلغ به من أموال الرعية ما لا يبلغ بالخرق، فإن الرعية قد تعامل بالرفق، فتزول أحقادها، ويسهل مقادها، وقد تعامل بالخرق، فتكاشف على ما أضمرت، وتقدم على ما نهيت، ثم إن غلبت كان غلبها عاراً، وإن غلبت لم تحصل بغلبها افتخاراً، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو أن الرفق رجل لكان حسناً، ولو كان الخرق رجلاً لكان قبيحاً»^(١).

وقد يبلغ الملك برفقه ولينه في التدبير ما لا يبلغه بخرقه، ألا ترى أن الريح العاصف بقوتها وهول صوتها، كيف يتداخل الشجر ولا يقتلع المستخلف منه، والماء بليته وسلاسته يبلغ في أصل الشجر المستخلف منه من أصوله، وباللين والتدبير ينقلب العدو صديقاً، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [المؤمنون: ٩٦] الآية، وبالخرق ينقلب الصديق عدواً، كالطعام الذي هو غذاء الإنسان وقوام جسده، إذا أساء المقدر له في تقديره، وأفرط في تناوله، صار داء وانقلب أذى.

حكى أن كسرى أنو شروان سأل حكيماً من حكمائهم، فقال: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل في العامة، قال: فما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم من غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه.

وحكى شجاع الأحمر، قال: دخلت على المتوكل وبين يديه نصر بن على الجهمصى، وهو يحث المتوكل على الرفق بالرعية، ويرغبه فيه، والمتوكل ساكت، فلما فرغ من كلامه التفت إليه المتوكل، وقال: حدثني مؤدبي الفضل، قال: حدثني مؤدبي، عن أبي، عن جدي، ورفعني إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل عباد الله عند الله يوم القيامة إمام عادل»، ثم أتى بيحيى ابن أكثم، فقال: وأنت حدثتني حديثاً ورفعته إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير»، ثم سكت ساعة متفكراً، وقد أنشد بعضهم في المعنى شعراً:

ارفق فإن الرفق من لينه قد أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في أمره يستخرج الحية من وكرها

(١) عزاه الحافظ العجلوني للعسكري، عن عائشة، بلفظ: «إن الرفق لو كان خلقاً، لما رأى الناس خلقاً أحسن منه، وإن الخرق لو كان خلقاً، ما رأى الناس أقبح منه». انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٢/٢٠٩، ٢١٠) ح (٢١١٢).

وقال بعضهم: دخلت على المتوكل فسمعتة يمدح الرفق، واستكتب هذه الأبيات منى:

فلا تقطع أخاك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم
ولا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تحزن عليه وكن رفيقا فقد بالرفق يستشفى الكليم
فإن الرفق فيما قيل يمن وإن الخرق فيما قيل شوم

وإنه ينبغى للملك أن يستعمل الرفق واللين فى جميع المواطن، ويجعل الرعية ثلاث طبقات، ويسوسهم بثلاث سياسات، طبقة هم الخواص من الأبرار، فيسوسهم بالعنف والشدّة، وطبقة هم العامة، فيسوسهم باللين تارة والشدّة تارة أخرى، وطبقة هم بين الطبقتين، وخليط عادات الاثنتين، فيسوسهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة.

وقال مسلم بن قتيبة: ملاك السلطان الشدّة على السيئ، واللين على المحسن. وسأل ملك من ملوك الفرس بزرجمهر، فقال: ما أحسن سير الملوك؟ فقال: أن يعاملوا أحرار الناس بمحض المودة، ويعاملوا العامة بالرغبة والرغبة، ويعاملوا السفهاء والسفلة بالخافة، كما قيل:

إذا كنتم للناس فى الأرض قادة فسوسوا كرام الناس بالحلم والعدل
وسوسوا لثام الناس بالذل وحده صريحاً فإن الذل أصلح للعدل

الوصف السادس الوفاء: لما كان الوفاء من الأوصاف العلية، والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به، ومدحهم على فعله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

والوفاء خليق بالملك؛ لما فيه من إيصال الراحة، واستعطاف القلوب بإنجاز الوعد، ودوام العهد. قال بعض الحكماء لملك فى زمانه: أوصك بأربع خصال، ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا تعدن وعداً ليس لديك وفاؤه، ولا تتوعدن من لا ينفذ فيه الفعل، فإن بالأولى تذهب عظمتك، وبالثانية يعترض عليك، ولا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تستغش ناصحاً فتتغطى عنك أمور الرعية.

وقد كان يقال: من أحسن الوفاء استوجب الصفاء. وكان يقال: الوفاء من أخلاق الكرام، والخلف من أخلاق اللثام. وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لا يكاد يوعده بحاجة تخوفاً من الخلف، فإذا وعد أو قال: نعم، لم يقر له

قرار حتى يفى بما وعد، وأنشد رجل من بنى تميم فى المعنى شعراً:

إذا قلت فى شىء نعم فأثمه فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا واسترح وأرح بها لئلا يقول الناس أنك كاذب

وأنشد بعضهم:

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن عرفت من الأشياء شيئاً سوى نعم
وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن سمعت بها فى سالف الدهر والأمم
وكان يقول: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مظل وتسويق. وكان يقال:
العاقل لا يعد بما لا يستطيع نجاذه، ولا يسأل ما يخاف منعه، وأنشد بعض أهل العلم فى
المعنى:

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تتم الوعد فى شىء نعم
وإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح الوعد إن الخلف ذم
حسن قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم

الوصف السابع الصدق: اعلم أن الصدق من اسمى السمات، ومن أشرف الصفات، وأسلم المناهج، يدعو إليه الشرع، فقد ورد باتباع الصدق ولو كانت الهلكة فيه، وحظر الكذب ولو جر نفعاً، أو دفع ضرراً، علماً من الشارع بما ينقلب إليه عاقبتهم، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسناً، ويمتنع من إتيان ما كان مستقبحاً، والكذب مستقبح عقلاً، لاسيما إذا كان لم يجلب نفعاً، ولا يدفع ضرراً، وقد قال رسول الله ﷺ: «تخيروا الصدق، وإن رأيتم الهلكة فيه، فإن النجاة فيه، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم النجاة فيه، فإن الهلكة فيه»^(١).

قال بعض الحكماء: دع الكذب حتى ترى أنه ينفعك، فإنه يضرّك، وأت الصدق حتى ترى أنه يضرّك، فإنه ينفعك، وكانت العرب تقول: لسان صدق مع العسرة، خير من سوء الذكر مع الميسرة، وأنشد بعضهم:

عود لسانك صدق القول تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد

(١) معضل: أخرجه هناد فى الزهد (٦٣٥/٢) ح (١٣٧٥) مرسلًا عن مجمع بن يحيى الأنصارى، وعزاه الحافظ المنذرى لابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت معضلاً عن منصور بن المعتمر مرفوعاً: «تخروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»، وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٥١/١) ح (١٣٧) عن مجمع بن يحيى الأنصارى، عن منصور بن المعتمر مرفوعاً به، وابن أبى الدنيا فى الصمت (٢٢٧/١) ح (٤٤٦).

موكل بتقاضى ما سنت له فاختار لنفسك وانظر كيف تزداد

وقال المهلب: ما يكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع بأعز له من الصدق، وكان يقال: للملك أن يكون صدوقاً ليثق الأعوان بوعده، وأن كان شكوراً فيستوجب الزيادة.

قال الأحنف بن قيس: كل الناس حقيق بالصدق، وأحقهم به الملك؛ لأن الذى يدعو للكذب مهانة النفس، والملك لا يكون مهاناً. وقال بعض أهل الأدب: كن صادقاً فى شىء تقوله، ولا تك كذاباً فتدعى منافقاً. وقال بعض الحكماء: أول سعادة الملك صدقه، وأول هلاكه جوره.

الوصف الثامن الرأفة: اعلم أن الرأفة جملة كريمة تقتضيها حال الملوك؛ لأنها تبعثهم على حراسة الأمة، وكمال الشفقة، والتحنن على الرعية وضعفائها، واصطناع المعروف إليهم، وكف الأذى عنهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا المعروف عند الرحماء من أمتى، وعيشوا فى أكنافهم»^(١)، وقال ﷺ: «إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»^(٢).

(١) عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «يا على، اطلبوا المعروف من رحماء أمتى تعيشوا فى أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإن اللعنة تنزل عليهم»، أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣٥٧/٤) ح (٧٩٠٨)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ومن حديث أبى سعيد الخدرى أخرجه القضاى فى مسند الشهاب (٤٠٦/١) ح (٧٠٠)، والخرائطى فى مكارم الأخلاق، قاله الحافظ العجلونى، وعزاه الحافظ العجلونى لابن عساكر، عن عبد الله بن بسر. انظر: كشف الخفاء (١٥٦/١) ح (٤٠٥).

(٢) عن أسامة بن زيد، رضى الله عنهما، مرفوعاً. أخرجه البخارى (٥٣٣١)، ومسلم (٦٣٥/٢) ح (٩٢٣) وأبو نعيم فى المسند المستخرج (١٠٩/٣) ح (٢٠٦٤)، وابن حبان فى صحيحه (٤٣٠/٧) ح (٣١٥٨)، وأبو داود (١٩٣/٣) ح (٣١٢٥)، والنسائى فى المجتبى (٢١/٤) ح (١٨٦٨)، وابن ماجه (٥٠٦/١) ح (١٥٨٨)، والإمام أحمد فى مسنده (٢٠٤/٥) ح (٢١٨٢٤)، وابن أبى شيبه فى مصنفه (٦٢/٣) ح (١٢١٢٣)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٥٥٢، ٥٥١/٣) ح (٦٦٧٠).

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ارحموا من فى الأرض، يرحمكم من فى السماء»، فأخرجه أبو داود (٢٨٥/٤) ح (٤٩٤١)، والترمذى (٣٢٣/٤) ح (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح، والإمام أحمد فى مسنده (١٦٠/٢) ح (٦٤٩٤)، والبيهقى فى الكبرى (٤١/٩) ح (١٧٦٨٣)، وابن أبى شيبه فى مصنفه (٢٥٣٥٥).

وروى مالك أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، دعا رجلاً يستعمله على بعض مدائن الشام، فجاء بولد صغير لعمر، رضى الله عنه، فأخذ عمر إلى صدره، ثم قبله، فقال ذلك الرجل: يا أمير المؤمنين، أتقبله؟ قال: نعم، قال: والله إن لى أولاداً ما قبلت واحداً منهم قط، فقال له عمر: أنت لا ترحم ولدك، ولا تتحنن عليه، فأنت للناس أقل رحمة وتحنيئاً، ثم صرفه ولم يستعمله، ثم قال: لا يصلح وال من لا رحمة عنده لرعيته.

وروى مالك أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، مر بطريق مكة، فأبصر راعياً يرعى غنمه فى مكان جذب، فناده وقال: انظر مكاناً خصباً فالحق به، ثم قال على أثر ذلك: كل راع مسؤول عن رعيته^(١).

وروى أسلم مولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: طاف عمر ليلة فى المدينة وأنا معه، فإذا هو بامرأة من جوف دارها، وحولها صبية يكون، وهى توقد تحت قدر لها، فأتاها من الباب، وقال: يا أمة الله، مما بكى هذان الصبيان؟ فقالت: من الجوع، قال: فما هذه القدر؟ قالت: إني جعلت فيها ماء أوهمهم أن فيها طعاماً، وأعللهم حتى يناموا، قال: فجلس عمر، رضى الله عنه، وبكى بكاء شديداً، ثم قال: تمهلنى، وقام وجاء إلى بيت الصدقة، فأخذ غرارة^(٢)، وجعل فيها دقيقاً، وشحمًا، وسمناً، وتمراً، وثياباً، ودراهم، حتى ملأ الغرارة.

ثم قال: يا أسلم، احمل هذا على ظهري، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك، فقال: لا أم لك يا أسلم، احمل على، فأنا المطالب عنهم يوم القيامة، قال: فحمل الغرارة على صلبه، حتى أتى بها منزل المرأة، فأخذ القدر، وجعل فيها شيئاً من دقيق، وشحم، وتمر، وجعل يحركه وينفخ تحت القدر، قال أسلم: وكان له لحية عظيمة، فلقد رأيت الدخان يخرج من خلالها، حتى طبخ لهم، ثم جعل يفرق لهم بيده، ويطعمهم حتى شبعوا، قال: ثم خرج وتربص بجذائهم على الباب، كأنه سبع، فخفت أن أكلمه،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٠٨/٢) ح (٥٨٦٩)، والطبرانى فى الكبير (٣٣٨/١٢) ح (١٣٢٨٤).

(٢) الغرارة: الجوالق، واحده الغرائر. قال الشاعر:

كأنه غرارة ملأى حصى

قال الأيادى: الغرائر جمع غرارة، وهى ما يوضع فيها الشيء من التبن وغيره. انظر: عون المعبود للأيادى (١٤٧/٨).

فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، هل تدرى لما تربصت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال: كنت رأيتهم ييكون، فكرهت أن أذهب حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسى.

وحكى أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، أحضر عنده محمد بن كعب القرظى، وقال: دلنى على النجاة من عذاب الله تعالى، فقال: فليكن كبير المسلمين لك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم ولداً، فوقر أباك، وارحم أخاك، وتحن على ولدك.

وقل نصر بن يسار الكنانى: كان عظماء الترك يقولون: ينبغى للملك العظيم أن يكون فيه عشر خصال، أربع من خصال الطير، وست من خصال الوحش، وهى: سماحة الديك، وتحن الدجاجة، وحراسة الكركى، وحذر الغراب، وحمة الخنزير، وقلب الأسد، وغارة الذئب، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وشقاء الضب، وقد نظم هذا بعض الشعراء:

أبى يطير لا يترك آثار خيلنا	لا كل لحوم من أعاد سواغب
وما زال من حب لنا غير عادة	لهن علينا فى بقاء الكنائب
أرى الملك المقدام من تم أمره	بعشر خصال هن خير المناقب
سماحة ديك ثم رأف دجاجة	وحرسة كركى وحذرة زاغب
وحمة خنزير وقلب غدنفر ^(١)	وغارة ذئب ثم روغ الثعالب
وكالكلب صبراً حين يقرع بالعصا	وشقوة ضب فى بلاد سباب
فمن كان هذا وصفه فهو كامل	عظيم وإلا فهو أخيب خائب

وقال بعض العلماء: خير الملوك من ملأ قلوب رعيته محبة، كما أشعرها هيبة، ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملاً بخمس خصال: إكرامه شريفاً، ورحمته ضعيفاً، وإغاثته لهيفاً، وكف عدوان عاديها، وتأمين السبيل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية شيئاً من ذلك، فقد أحقدتها بقدرها وقدر ما أفقدتها.

الوصف التاسع الصبر: اعلم أن الصبر يتنوع أنواعاً كثيرة، ألبقها بكمالها فى كتابى هذا صبر الملوك، وهو عبارة عن ثلاثة قوى، القوة الأولى: قوة الحلم وثمرتها الصبر،

(١) الأصل بالبدال، ولعله بالضاد كالمشهور.

القوة الثانية: قوة الحفظ وثمرتها عمارة المملكة، الثالثة: الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات؛ لأن إقدامهم في المعارك تهور وطيش، والصبر سيد الأوصاف الجليلة وأميرها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصبر خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده».

وليس المراد تفضيل الصبر على العلم والعقل، وإنما المراد أن الثبات على هذه الخصائص إنما يكون بالصبر؛ لأن الصبر الثبات، والحبس، والإثبات، والإمساك، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يصبر، كان عند مزاييلته كمن لم يتصف به، فالصبر ضابط للأوصاف الشريفة، كما يضبط الأمير جنوده. وقيل: كان مكتوباً في الصحيفة الصغرى المعلقة في أعظم هياكل الفرس: كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فكذلك الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر، ولهذا أنشد بعضهم:

إنني وجدت وخير القول أحده للصبر عاقبة محمودة الأثر
وليس من كان في أمر يطالبه واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وقال بعض حكماء العرب: ما ميز الرجل بين صبر ولا جزع إلا وجددهما متفاوتين، أما الصبر فحسن الأولى، محمود بالعاقبة، والجزع غير معوض شيئاً، ولو كانا في صورة لكان الصبر أولاهما بحسن الخلقة وكرم الطبيعة.

وقال بعض الحكماء: الحوادث النازلة نوعان، أحدهما لا حيلة فيه، فدفعه بالصبر الدائم، والإعراض عنه، الثاني يمكن فيه الحيلة، فدفعه بالصبر عنه إلى حين نفوذ الحيلة فيه، وأنشد بعضهم شعراً:

اصبر إذا دهمتكَ نائبة ما خاب من يصبو إلى الصبر
فالصبر أولى ما اعتصمت به ونعم حوشاً جوانب الصدر

وقال حسن البصري: جربنا وجرب المجربون، فلم نر شيئاً أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يداوى بغيره^(١).

عن سليمان بن داود، عليهما السلام، أنه قال: إنا وجدنا خير معيشتنا الصبر. وكان عيسى ابن مريم، عليه السلام، يقول: يا معشر الحوارين، إنكم لا تدركون ما تؤملون إلا

(١) وقال الخليفة علي، عليه السلام: الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٦٢).

بالصبر على ما تكرهون، ولهذا شعر:

ويوم كان للمصطلين بحره وإن لم تكن ناراً قياماً على الجمر
صبرنا له حتى تفرح إنما تفرج أيام الكريهة بالصبر
وقل آخر شعراً:

الصبر أولى بوقار الفتى من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار

الوصف العاشر العفو: اعلم أن وصف العفو خليك بالملك؛ لما فيه من المزية وكمال
الرعية؛ لأن الملك متى عاقب على الزلة، وقابل على الهفوة، وأخذ بالجرم الصغير، ولم
يتجاوز عن الكبير، قبحت سيرته، وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أفضل القصد
عند الحدة، وأفضل العفو عند القدرة، وما أقبح مجازاة القادر على سوء صنيع المقدور
عليه.

وكان معاوية، رضى الله عنه، يقول: إن أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وإن
انقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه. وقيل: إن عظيماً من عظماء قريش فى سالف
الدهر، كان يطلب رجلاً، فلما ظفر به، قال له: لولا أن القدرة تذهب الحفيظة لانتقمت
منك، ثم أطلقه، فحسنت سيرته.

وغضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القشرى، فلما دخل عليه قال:
يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، وأنا مستحق إلى العقوبة، فإن تعف فأهل
ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفى عنه، والله أعلم.

وحكى أن المأمون لما ظفر بعمه إبراهيم بن المهدي، أحضر عنده جماعة من خواصه،
ثم قال: علىَّ به، فأدخل عليه وهو يحجل فى قيوده، فقال: السلام عليك يا أمير
المؤمنين، فقال: لا سلام الله عليك، ولا مرحباً بك، فقال إبراهيم: على رسلك يا أمير
المؤمنين، ثم أنشد يقول:

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فأبدت منى الكأس بعض ما كرهت وما أن يستوى السكر والصحو
فإن تعف عنى كان حظى وافرا وإلا تداركنى فقد قصر الخطو

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك ولىّ تأرى، وإن القدرة تذهب الحفيظة، وإنى قد أصبحت فوق كل ذى ذنب، كما أصبح كل ذى عفو دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، قال: فأطرق المأمون، ثم رفع رأسه، وقال: إن هذين أشارا علىّ بقتلك، يعنى العباس والمعتصم، فقال: إنهما أشارا على ما يشير به مثلهما علىّ مثلك، إذ كان منى الذى كان، فقال: يا عماء، إن من الكلام كلاماً كالدر فى لبات الغوانى، وإن هذا الكلام منه، يا غلام، حل القيود عن عمى، وكان المأمون يقول: ليس على العفو بونة مزية، وإنى وددت أن أهل الجرائم يعلمون حلمى وعفوى، فيذهب عنهم الخوف.

وكان يقال: أقبح المجازاة المكافأة بالإساءة. وقيل: إن عبد الملك بن مروان اشتد غضبه على رجل، فلما صار فى يده، قال له: يا فاجر، لأمثلن بك أشر الأمثال، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد صنع ما أحببت يا أمير المؤمنين، فاصنع ما يحبه الله من العفو عنه، قال: فعفى عنه وأطلقه، وكان المأمون يقول: لو علم الناس رغبتى فى العفو، ما تقربوا إلىّ إلا بالذنوب، وأنشد فى المعنى:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا واغفر له ذنبه إن برّ أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أهلك من يعصاك مستترا

ويحكى أنه جرى بين شهرام المروزى، وبين أبى مسلم الخراسانى كلام شديد ومنازعة، فما زال أبو مسلم يقاوله، إلى أن قال له شهرام: يا لقيط، فلما قال ذلك سكت، ثم إن شهرام ندم، فأقبل على أبى مسلم معتذراً وخاضعاً، فلما رأى أبو مسلم ذلك، قال: لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب من الشيطان، والعذر يسعك، والعفو أجمل، وقد عفونا عنك، فقال شهرام: أيها الأمير، إن عفو مثلك لا يكون إلا غروراً، فإن عظم ذنبى لا يدع قلبى يسكن، فقال أبو مسلم: يا عجباً، كنت تسمى وأنا أحسن، فإذا أحسنت أسئ، وأنشد بعضهم فى المعنى شعراً:

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها وتخاف شدة نكلها

ويحكى أن المنصور بعث إلى جعفر بن محمد، فلما أتاه قال: إنى أريد أن أستشيرك

١٠٨ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى

فى أمر، وقد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى، وقد نهيتهم مرة بعد أخرى فلم ينتهوا، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يقطع نخلها، ويغور عيونها، فما ترى أنت؟ فسكت جعفر، فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: أتكلم أنا؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان، عليه السلام، أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف، عليه السلام، قدر فغفر، وإن محمداً ﷺ أودى فاحتمل، وقد جعلك من نسل الذين يغفرون ويعفون ويصفحون، قال: فانظفأ غضبه، وأمسك عنهم، وأنشد بعضهم فى المعنى شعراً:

أشكو إليك هموماً ليس يكشفها إلا رضاك فقوم بالرضى أودى
إن تعف عني فأهل العفو أنت وإن عاقبتنى فكما تجنى على يدي
وقال آخر:

لقد ناديت عفوك من قريب كما سألت شخصك من بعيد
فإن عاقبتنى فبسوء فعلى وما ظلمت عقوبة مستفيد
وإن تمنن فأحسنان جديد مننت به على شكر جديد

الوصف الحادى عشر الشكر: اعلم أن الشكر ينقسم على ثلاثة أقسام: عقد بالجنان، وثناء باللسان، ومكافأة بالإحسان، فأما العقد بالجنان، هو أن يضمر إعظام النعم، وإعظامه، وإجلاله، والخشية له، والإقبال عليه، والعجز عن القيام بحقيقة شكره، واستكثار النعمة منه وإن قلت، واستقلالها فى غيره وإن جلت. وأما الثناء باللسان، فهو إظهار الحمد للنعم، والثناء عليه بما خوله من تواتر النعم، وبلوغ المقاصد، وحصول الأغراض، وغير ذلك مما خصه النعم لخلق، وفضله به على كثير الناس.

وأما المكافأة بالأفعال، فهي الإقبال على طاعته، والوقوف عند حدوده ومنهياته، وأن يواسى الضعفاء من نعمته، ويعمهم بعدله، ويخصهم بفضله، سيما لمن ناصح فى دولته، وأخلص فى خدمته، وصدق فى ولايته من أعوانه وخاصته، ولمن سارع فى مرضاته، وغير ذلك مما يجلب إليه المسرة، أو يدفع عنه به المضرة، فإنه إذا فعل ذلك بنية وقول وعمل، سمي شاكراً على الحقيقة، وكان لمزيد النعمة مستحقاً، ولتابع الإحسان مستوجباً، لقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد قال بعض الحكماء: لا يكون الملك شاكراً للنعمة حتى يجتمع فيه أربعة أشياء:

المواساة فيها، والاستعانة بها على طاعة موليتها، والإرشاد بها، وتيقن العجز عن القيام بحقيقة شكرها. وكان يقال: لا زوال للنعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر. وقيل: الشكر قيد للنعمة. وقيل: الشكر مثمر النعم، وعصمة من النقم.

وقال بعض الحكماء: من لم يشكر على الإنعام، فأعده من الأنعام. وقال بعض ملوك الهند: خير الملوك الشكور على حسن الأعمال، والصبور على ما يحمل من الأثقال. وكان يقال: من كفر النعمة استوجب حرمان المزيد. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

من حاول النعمة بالشكر لا يخش على النعمة ما اغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله الذى قالها
لأن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفركم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها

وقال بعض البلغاء: الشكر وإن قلّ يزيد كل نوال وإن جل، وقيل:

فلو أنه استغنى عن الشكر ماجد لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه فقال اشكرونى أيها الثقلان

الوصف الثاني عشر الأناة: اعلم أن الأناة من أوصاف الملك، وأعظم أخلاقه وأكملها، وعلامة توفيقه؛ لأنه يتعلق بها صواب الرأى والتدبير، واتضاح الأمور فى السياسة، ولا يقترب بها زلل، ولا يعقبها ندامة ولا فشل، فقد قال رسول الله ﷺ: «التردد من الرحمن، والعجلة من الشيطان»^(١).

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وبلغظ: «التأنى من الله، والعجلة من الشيطان»، أخرجه ابن أبى شيبة، وأبو يعلى، وابن منيع، والحاتر بن أبى سلمة، فى مسانيدهم، عن سيدنا أنس مرفوعاً، وأخرجه الحافظ البيهقى عنه أيضاً، وله شواهد عند الترمذى، وقال: حسن غريب بلغظ: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»، والعسكرى عن سهل بن سعد رفعه بلغظ: «الأناة... إلخ»، ولكن ضعفه بعضهم بأن فيه عبد المهيمن: ضعيف. ويفيد ذلك ببعض الأعمال، فروى أبو داود، عن سعد بن أبى وقاص: التؤدة فى كل شىء، إلا فى عمل الآخرة. قال الأعمش: لا أعلم أنه رفعه. وفى لفظ للحاكم، وأبى داود، والبيهقى، عن سعد: التؤدة فى كل شىء خير، إلا فى عمل الآخرة. وللمزى فى تهذيبه فى ترجمة موسى، عن شيخة من قومه مرسلأ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «الأناة فى كل شىء، إلا فى ثلاث: إذا صبح: يا خيل الله اركبى، وإذا نودى=

١١٠ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى

وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير عقوبة من أساء العمل، وتعجيل مكافأة المحسن، والعمل بالأناة فيما حدث من الأمور، فإن له فى تأخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة إلى الطاعة من الرعية، وفى الأناة اتضاح الرأى وانفساح الجواب.

وسأل ملك من الملوك حكيمًا، فقال: أى أخلاق الملك أحمد؟ فقال: الأناة، فقال: أيها أجب لمودة الرعية؟ قال: الكرم، قال: فأى الملوك أحرقت؟ قال: أسرعهم عقوبة للرعية، قال: فأى الحلال أجمع للمحامد والمناقب؟ قال: العدل. ويحكى أن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، سأل كبيرًا من كبراء فارس، فقال: أى ملوككم كان عندكم أحمد سيرة؟ قال: أزدشير، له فضيلة السبق فى المملكة، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال: فأى حالة كانت أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة.

الوصف الثالث عشر الحلم: اعلم أن الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب^(١)، وهو خليق بالملك؛ لما فيه من الراحة، واستلزام الحمد، وحسن العاقبة، ورضى الخالق، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الحليم، ويبغض الفاحش»^(٢).

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: من حلم زاد، ومن فهم ازداد. وقال بعض العلماء: كل ملك لا يجتمع فيه ثلاث قوات فملكه مسلوب، القوة الأولى قوة الحلم وثمرتها العفو، الثانية قوة حفظ الرعية وثمرتها عمارة المملكة، القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات، وفى الجند الإقدام. وكان يقال: أكد أسباب الحلم رحمة الجهال.

وقال معاوية: إنى لأرى أكبر ذنب أن يكون ذنب أوسع من حلمى. وكان يقال:

=بالصلاة، وإذا كانت الجنابة»، ولترمذى، عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا تؤخروها: الصلاة إذا أتت، والجنابة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤًا».

وللغزالي عن حاتم الأصم، قال: العجلة من الشيطان، إلا فى خمسة، فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إطعام الطعام، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب، قاله الحافظ العجلونى فى كشف الخفاء (١/٣٥٠) برقم (٩٤٣).

(١) هكذا عرفه الشيخ الماوردى. انظر: أدب الدنيا والدين (ص ١٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/٣٦٠) ح (١٠٢٤).

ليس الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر عفى. وقد حفظ من وصية أنوشروان لولده: يا بنى، من أخلاق الملوك الحلم، وعزة النفس، وإنك ستبلى بمداواة قوة، وإن سفه السفه ربما بلغك، فإنك إن كافأته بالسفه، فكأنك رضيت بما عني، فاجتنب أن تحتذى عليك مثاله، وإن كان سفه السفه عندك فحقق ذمك إياه بترك معارضته.

ويحكى أنه قيل للإسكندر: إن فلاناً وفلاناً يسبانك، فلو عاقبتهما لانزجرا، فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى سبى. وقال الأحنف بن قيس: ما جهل علىّ أحد إلا أخذت فى أمره بأحد ثلاث خصال: إن كان أعلى منى عرفت له قدره، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه، وإن كان نظيرى تفضلت عليه، فأخذ محمود الوراق هذه المعنى ونظمها شعراً:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذب	وإن عظمت منه علىّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثلّى مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره	وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن	إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلّى فإن زل أو هفا	تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

وأنشدنى بعض أهل العلم:

وجهل رددناه بفضل حلومنا	ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة	وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال عبيدة بن عاصرة:

وإننا وإن كنا سنة قومنا	وكان لنا فيهم مقام مقدم
لنصفح عن أشياء منهم تسوينا	ونضرب عن ذى الجهل منهم ونحلم
ونكلوهم بالغيب منا حفيظة	وأكبادنا وجدا عليهم تضرم
ولا نسأم النعماء منا إليهم	وإن كثرت حتى يملوا ويسأموا
وليس بمحمود من الناس من جزى	بسيئة يأتى المسمى المعلوم
سأحمل عن قومى جميع استياءهم	وأدفع عنهم كل ضيم وأغرم

واعلم أن كمال العقل وشرف النفس وعلو الهمة على الحلم عند هيجان الغضب

١١٢ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى

لأسباب أربعة، أحدها الترفع عن السفه من له خدمة سالفه، وحرمة لازمة، فيراعى منه ذلك، فيحلم عنه لأجله، الثانى الرحمة له والرأفة به لضعفه عند القدرة عليه، الثالث أن يتألفه بالحلم ويتفضل عليه به، الرابع الاستحياء من الله تعالى ومن الحاضرين أن يجيب السفه بسفه مثله، وينبغى للملك أن يعرض على نفسه هذه الأسباب عند هيجان الغضب ليحلب إليه الحلم واحد منها.

واعلم أن الحلم ليس بمحمود فى كل المواطن؛ لأنه قد يطرأ على الملك من الأمور ما يكون الحلم معها مفسدة، والتراخى عنها مضرة؛ لأن الرعية على قسمين: قسم لا يخشى فسادهم، ولا يضر ما صدر عنهم، فإطراح الملك لهم والترفع عن مجازاتهم أليق، والاستهانة بهم أصوب، وقسم لا يمكن إهمال أمرهم، فردعهم بالأفعال الزاجرة أولى بالملك من الحلم عنهم حتى لا يزدادوا شرًا وتمردًا.

وقد سأل يزيد بن معاوية أباه، فقال: يا أمير المؤمنين، هل ذمت عاقبة حلم قط، أو حمدت عاقبة إقدام قط؟ فقال: ما حملت على لئيم قط وإن كان وليًا إلا أعقبنى ذمًا، ولا أقدمت على عقوبة كريم قط وإن كان عدوًا إلا أعقبنى أسفًا.

وقال بعض الحكماء: إن الحلم يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال بعض أهل العلم: ليس الحلم بمحمود فى كل المواطن، كما أن الجهل ليس بمذموم فى جميع الأحوال، ولهذا شعر:

لئن كان حلم المرء عون عدوّه عليه فإن الجهل عن ذاك أروح
وفى الحلم ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال إبراهيم بن المهدي:

إذا كنت بين الحلم والجهل مائلًا وخيرت أيما شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفًا ولم يرض منك الحلم فالجهل أفضل

وينبغى للملك أن يتلطف فى تدبير من هذه صفته على وجه يحصل به الردع والزجر من غير مبالغة فى النكاية على ما تقتضيه المصلحة فى تدبير السياسة.

الوصف الرابع عشر العفاف: اعلم أن العفاف هو ضبط المملكة والنفس عن الرذائل، وكف الجوارح عن الأذى، وذلك غاية السؤدد، وكمال المروءة، وختام مكارم

كتاب النهج المسلوک فی سياسة الملوك للشيزري ١١٣
الأخلاق. قالت عائشة، رضى الله عنها: كانت الجاهلية لا يسودون إلا رجلاً يجتمع فيه
ست خصال، ثم زادت فى الإسلام خصلة فصارت سبعاً: السماحة، والنجدة، والصبر،
والحلم، والبيان، والتواضع، وتماهن فى الإسلام العفاف.

وكان يقال: من عفى فى ماله، وعدل فى سلطانه، حشر مع الأبرار. وقد قدمنا فى
صدر الكتاب أن من لم يقدر على ضبط نفسه من الرذائل، لم يقدر على ضبط حواسه
وهى خمسة، ومن لم يقدر على ضبط حواسه، لم يقدر على ضبط خاصته، ومن لم
يقدر على ضبط خاصته وهم نصب عينيه، لم يقدر على ضبط رعيته وهم فى أقاصى
بلاده، فإذا عفى نفسه وجوارحه، فقد انتظم أمر مملكته فى دنياه، وينقلب إلى الملك
الدائم فى عقباه، فأما إعفاف الجوارح، فهو أن يعف بصره عن النظر إلى المحارم، وأن
يترك ما حجب عنه ونهى؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «النظر سهم مسموم من سهام
إبليس، فمن تركه من خوف الله، أتاه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه»^(١).

وقال أبو الدرداء، رضى الله عنه: من غض بصره عن نظر الحرام، زوجه الله من
الخور العين حيث أحب، ومن اطلع فوق بيت من بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى،
ثم يعف سمعه من كلام الناس القبيح، والغيبة، والنميمة، وسماع المحرم من الملائكة،
وينزه مجلسه عن جميع ذلك، فقد قال عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما: نهينا عن
الغيبة والاستماع إليها، والنميمة والاستماع لها. وقال ﷺ: «من استمع إلى فتنة، صب
فى أذنه الأنك يوم القيامة»^(٢).

ثم يعف لسانه عن قول الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخف من الكلام، فقد قال
رسول الله ﷺ: «من ضمن لى ما بين لحيته وما بين رجليه، ضمنت له على الله
الجنة»^(٣)، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل، رضى الله عنه: «وهل يكب الناس على

(١) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١٩٥/١) ح (٢٩٢)، والطبرانى فى الكبير (١٧٣/١٠)
ح (١٠٣٦٢)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه عبد الله بن إسحاق الواسطى، وهو ضعيف. انظر:
مجمع الزوائد (٦٣/٨).

(٢) عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعاً: «من استمع إلى حديث قوم يفرون منه، صُبّ فى أذنه
الأنك»، أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٩١/٤) ح (٤٧٧٢). وعن ابن عباس، رضى الله
عنهما، مرفوعاً: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب فى أذنه الأنك يوم
القيامة»، قال سفيان: الأنك الرصاص. أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢١٣/٤) ح
(٤٨٢٩).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٤١٢/٣) ح (٤٩٨١)، وفى الصغير =

١١٤ كتاب النهج المسلوک فی سياسة الملوك للشيزري
مناخيرهم فی النار إلا حصائد ألسنتهم»^(١).

ثم یعف يده، ولا يتناول بها إلا ما یحل له من أموال الرعية، ولا یسطها إلى محذور
فی عقوبة، ولا نکایة محرمة فی حد ولا تعذیر، فقد قال رسول الله ﷺ: «حرمة مال
المسلم کحرمة دمه»^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على
العباد»^(٣).

ثم یعف رجلیه، فلا یسعی إلى مکروهه، فقد قال مسروق: ما خطا العبد خطوة إلا
کتب له بها حسنة أو سيئة. ثم یعف فرجه عن مقاربة الزنا، وذلك أصل العفاف، وتام
المروءة، وحصانة الدين، وقال رسول الله ﷺ: الحديث المتقدم، فإذا فعل جميع ذلك كان
عفيفاً، وكان للسيادة مستحقاً.

الوصف الخامس عشر الوقار: اعلم أن وقار الملك وسياسته وسكنته من أعظم
سیاسة المملكة؛ لما يتعلق به من إظهار الهيبة، وتعظيم الحرمة، وقيام الأبهة، وإرهاب
العدو وأهل الزعارة، وسنوضح ذلك إن شاء الله فی الباب السابع، وهذه أصول مكارم
الأخلاق ومحاسنها التي تقوم بها السياسة، وتدوم بها الرئاسة، وسنزيدها إيضاحاً بذكر
قبائح أضدادها فی الباب السادس إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

فی معرفة الأوصاف الذميمة والنهی عنها

لما ذكرنا من مكارم الأخلاق أوصافاً جميلة، وأخلاقاً حميدة، یزداد المتصف بها
إجلالاً وتعظيماً، أحببنا أن نوضح ما ذكرنا من محاسنها بشرح قبائح أضدادها المذمومة

= (٢٦٧/١)، وفيه المغيرة بن سقلاب، ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠).

(١) أخرجه الحاكم فی المستدرک (٤٤٧/٢) ح (٣٥٤٨) وقال: حديث صحيح على شرط
الشيخين، ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة فی مصنفه (٣٢٠/٥) ح (٢٦٤٩٨)، والطبرانی فی
الأوسط (٣٣٢/٥) ح (٧٥٠٣)، والبزار فی مسنده (٢٧٣/٦) ح (٢٣٠٢)، وقال البزار:
إسناده حسن، ومثنه غريب. انظر: مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠).

(٢) أخرجه القضاعي فی مسند الشهاب (١٣٧/١) ح (١٧٧).

(٣) لم أجده فی مظانہ والتقصير منّا

الخارجة بالنفس من حد الاعتدال إلى ما يعقبها من الأضداد في أشنأ حال، ونختم هذا بذكر أعراض رديئة ربما عرضت للملك، فأخرجته عن قانون الاعتدال، وهي خمسة عشر وصفاً، وثلاثة أعراض، أما الأوصاف، فهي: الجور، والجهل، والبخل، والسرف، والخلف، والكذب، والغيبة، والغضب، والعجب، والكبر، والحسد، والعجلة، والمزاح، والضحك، والغدر، وأما الثلاثة الأعراض، فهي: الهم، والغم، والسكر.

الوصف الأول الجور: اعلم أن الجور هو العدل عن الحق، واستمراره يخل نظام الطاعة من الرعية، ويبعثهم على ترك المناصحة، وعدم النصرة، ويحملهم على نصب الغوائل، وتربص الدوائر، وليس شيء أصدع منه في خراب الأرض، ولا أفسد منه لضمائر الخلق؛ لأنه ليس يقف على نهاية، ولا ينتهي إلى غاية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه»^(١)، وقال: «لن تهلك الرعية وإن كانت ظالمة أو مسيئة إذا كانت الولاة هادية منها، وتهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الولاة ظالمة مسيئة»، وقال، عليه السلام: «قال الله: لأنتقم من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقم من يرى مظلوماً فقدر على أن ينصره فلم يفعل»^(٢)، قال عليه الصلاة والسلام: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»^(٣).

وقال بعض الحكماء: الملك يبقى على الكفر، ولا يبقى على الجور. وقال حكيم آخر: الجور مسلبة النعم، والبغى مجلبة النقم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها. وقال أيضاً: إياكم والجور، فإنه أداة العطب، وعلة خراب البلاد.

ويحكى أن الرشيد حبس أبو العتاهية، وأقسم أن لا يخرج من حبسه، فبقى في السجن مدة طويلة، فلما ضاق به الأمر كتب على حائط الحبس هذه الأبيات:

أما والله إن الظلم شؤم	وما زال المسيء هو الظلوم
تنام ولم تنم عنك المنايا	تنبه للمنية يا نؤوم
إلى ديان يوم الدين نمضي	وعند الله تجتمع الخصوم

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٠/١) ح (٣٦)، وفي الكبير (٢٧٨/١٠) ح (١٠٦٥٢)، وفيه شيخ الطبراني أحمد بن محمد بن يحيى. قال الذهبي: له مناكير. وقال الحافظ الهيثمي: فيه من لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٦٧/٧).

(٣) تقدم أنى لم أجده.

قال: فأخبر الرشيد بذلك، فبكى وأحضر أبا العتاهية، ووهبه ألف دينار، وكفر عن عيئه، وأنشدنى بعضهم شعراً:

عليك بالعدل إن وليت مرتبة واحذر من الجور فيها غاية الحذر
فالملك يلقى على الكفر البهيم ولا يلقى على الجور فى بدو ولا حضر

وقال بعض الحكماء: ليس للجائر جار، ولا يعمر له دار. وقال حكيم آخر: أقرب الأشياء صرعة الظلم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم^(١)، وقال بعضهم شعراً:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم مرتعه يدعو إلى الوخم
تنام عيناك والمظلوم متبته يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويحكى أن يزدجر الأثير لما كثر عسفه لرعيته، واشتد جورهِ عليهم باغتصاب الأموال وإهانتهم بالعذاب، وطال ذلك عليهم، اجتمع جماعة من المظلومين فى بعض الهياكل، ثم دعوا إلى الله سبحانه وتعالى أن يريحهم منه، فمكث بعد ذلك خمسة أيام، أو سبعة أيام، فجاءه صاحبه وأخبره أن فرساً مستوحشاً جمع محاسن صفات الخيل، قد جاء يشتد عدواً حتى وقف على باب الملك، وقد تهيبه الناس، فلم يجترئ أحد عليه، وقد نفرت منه الخيول، فلم تقرب منه، فلما سمع بذلك يزدجر خرج من قصره، فرأى من الفرس منظرًا عجباً، فدنا يزدجر منه، فخضع له الفرس، فخامره الإعجاب بنفسه، فأمسك بناصيته، ومسح وجهه، ثم أمر بإسراجه، فجمع به وسبق الأبصار عدواً، حتى أتى البحر فاقتحمه به، فكان ذلك آخر ما علم من خبره.

وقد يعلم قبح الجور عقلاً وشرعاً، فيجب اجتنابه والوزع عنه؛ لما فيه من اختلال الرعية، واضطراب الدولة، وخراب البلاد، وعذاب الآخرة.

(١) وقال الشيخ سفيان الثوري، رحمه الله: لأن تلقى الله بسبعين ذنباً بينك وبينه، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين الناس. وفى الخبر: أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: قل للظلمة لا تذكرنى، فإن ذكرى عليهم وبال، قال موسى: يا رب، ومن الظلمة؟ قال: الذين يظلمون الناس فى أموالهم، يا موسى، بنفسى حلفت أن أبواب السماوات مغلقة دون من أكل الحرام، وإنى لأمر ملائكتى يبادرون فى حوائجهم إذا غضبت عليهم، قال موسى: يا رب، كيف تعطيه وهو مجرم؟ قال تعالى: أبغض دعوته، فأسرع فى حوائجهم كى لا يدعونى. انظر: الزاهر فى بيان ما يجتنب من الكبائر والصغائر لابن فرحون (ص ١٧٣) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

الوصف الثاني الجهل: اعلم أن الجهل من الأوصاف الذميمة، والأخلاق الرديئة، لاسيما بالملوك، فإن صاحبه لا يعرى عن القبيحة، ورأيه أبداً في ضلال، وتدبيره فى وبال، يقترب من الزلل، ويحيط به الفشل. وقال بعض الحكماء: الجهل مطية من ركبها ذل، ومن صحبها ضل. وقال آخر: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل. وقيل: الجاهل يعتمد على أمله، والعاقل يعتمد على عمله. وقيل: نظر الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره.

واعلم أن للجهل أوصافاً تظهر عليه خصالاً ترشد إليه، فمن ذلك: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للجاهل خصال يعرف بها: يظلم من خالطه، ويعتدى على من دونه، ويتناول على من فوقه، ويتكلم من غير تدبر، إن عرضت عليه فتنة أرضته، وإذا رأى فضيلة أعرض»^(١). وقال بعض العلماء: ستة يعرف بها الجاهل: الغضب فى كل شىء، والكلام من غير نفع، والعطية فى غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل واحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوه.

وحكى صالح بن حسان، قال: كان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، صديقاً للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان عبد الله يأتى إليه، فتخاليا يوماً يلعبان بالشطرنج، فأتاه الحاجب، فقال: إن بالباب رجلاً سيّداً من أحوالك من ثقيف، قدم غازياً، وقد أحب التسليم عليك، قال: دعه ساعة حتى نفرغ من دستنا، قال عبد الله: وما عليك ذلك إن حضر؟ ائذن له، قال: لما علمت أنك مغلوب أردت أن تحبط الطابق؟ قال عبد الله: فاطلب مندباً وضعه عليها حتى يدخل الرجل فيسلم عليك، ثم نعود إلى الدست، ففعل ذلك، ثم قال: ائذن له، فدخل رجل مشتمر عليه هيئة حسنة، وعليه عمامة فاخرة، وبين عينيه أثر السجود، وقد خضب لحيته بالحناء، فقال: أصلح الله الأمير، قد قدمت غازياً، فكرهت أن أجاوزك حتى أقضى حقك، قال: حياك الله وبارك فيك، ثم سكت عنه ساعة.

فلما أنس به أقبل عليه الوليد، وقال: يا خال، هل جمعت القرآن؟ قال: قد كانت شغلتنى عنه شواغل، قال: فهل حفظت منه شيئاً؟ قال: قد كانت أموالنا شغلتنى عن ذلك، قال: فأحاديث العرب وآدابها وأشعارها؟ قال: لا؛ لأننى كنت فى شغل عن ذلك، قال: فأحاديث العجم وآدابها؟ قال: إن ذلك لشىء ما طلبته، قال: فهل عرفت

(١) لم أجده فى مظانه، والتقصير منى.

١١٨ كتاب النهج المسلوک فی سياسة الملوك للشيرازی
من أقوال الشعراء والحکماء وسیر الملوك ما تسوس به قومك؟ قال: لا، إن ذلك لشيء
لم أكن أبحت عنه، قال: فاستدار الوليد ورفع المندیل، فقال عبد الله: سبحان الله، قال
الوليد: لا تستح منه، فإنه لم يكن معنا فی البيت إنسان، فلما خرج ذلك الرجل، قال
الوليد: أما علمت أن الجهال كالأنعام لا يستحي منهم.

الوصف الثالث البخل: اعلم أن البخل من أذم الخلق، وأنكر الطرق، نهى عنه
الشرع، وقضى بقبحه العقل، وحقيقته منع الحقوق الواجبة، وتقتير النفقات المستحقة،
وفى العرف والعادة هو خزن المال، ومنع المستوفدين من فضوله، واعلم أن البخيل لا
يزال مسلوب الهيبة، مفقود الوهبة، ثقیلاً على النفوس، بغیضاً إلى القلوب، ترمقه
الأبصار بالاحتقار وبقلة الوقار، وذلك أن البخل يدعو إلى الكدح وحزن المال، ويمنعه
من إيصال الحقوق إلى أهلها، وهو يغطي الفضائل، ويظهر الرذائل، وفى المعنى شعر:

ويظهر عيب المرء فى النفس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطي بأثواب السخاء فإنسى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقد ينتج من البخل أربعة أخلاق مذمومة، كل خلق منها فى نهاية القبح، وهى:
الحرص، والشره، وسوء الظن بالله، ومنع الحقوق، أما الحرص، فهو شدة الكدح فى
الطلب، والمبالغة فى جمع المال، وهذا ربما أفضى بصاحبه إلى اقتحام الحرام، وأخذ
الشبهات، فكان مذموماً، وأما الشره، فهو استقلال الكفاية، واستكثار المال بغير حاجة،
وذلك مذموم، وأما كونه يسئ الظن بالله تعالى، فإن البخيل يعتقد أن المال يذهب
الإنفاق، وليس خلف من الله تعالى، ولا عوض يرجع إليه، فيؤدى إلى عدم الثقة بالله
تعالى، وذلك غاية المذمة والقبح.

وأما منع الحقوق، فإن البخيل لا تسمح نفسه بفراق المال إذ هو محبوبها، ونهاية
مطلوبها، فلا تنقاد إلى إيصال الحق، ولا تدع باتصال الخلف، وإذا كان البخيل بهذه
الأوصاف، فليس عنده خير موجود، ولا صلاح مأمول، وقد قال رسول الله ﷺ:
«السخي قريب من الله، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من
الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار»^(١).

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذی فى البر والصلة (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب
لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، إلا من حديث سعيد بن=

وأما أقوال الأنبياء، فمن جملتها قول بعضهم، عليهم السلام: طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء، وقالوا: بشر مال البخيل بحادث أو وارث، ولأهل العلم شعر:

يفنى البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ويقال: البخل جلبات المسكنة. وقال حكيم آخر: لا يدخل البخل مسكناً إلا أعقبته الحسرة، ولا يدخل الطمع مدخلاً إلا أعقبته المذلة، ولا يدخل الشره مدخلاً إلا أعقبته الحيرة. وقيل: البخيل ليس له خليل. وقيل: المال كالماء، فمن استكثر منه ولم يجعل له مسرباً يتسرب فيه ما زاد عن القدر الكافى أغرقه، ولأهل العلم شعر:

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيل
وكيف يسود أخو فطنة يمن كثيراً ويعطى قليلاً

الوصف الرابع السرف: اعلم أن السرف فى إنفاق المال وصف خارج عن حد السخاء المحمود، مجانس البخيل فى الذم والقبح؛ لأن الله سبحانه وتعالى ساوى بين حالتها فى النهى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فهى عن بسطها سرفاً، كما نهى عن قبضها بخلاً، فيدل ذلك على استوائهما واتفاقهما لوماً، ولأن المسرف فى إعطائه المبذر فى سخائه، لا يفرق بين محمود ومذموم، ولا يميز بين مستحق ومحروم، وهذه الحالة تدل على الطبع المذموم، وطيش الرأى، وقصور التدبير، وذلك لا يليق بالملوك؛ لأن بيت المال يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، إذا أسرف فى بذله، فقد وضع الشىء بزيادته على قدر المستحق.

وقال بعض الحكماء: الخطأ فى إعطاء ما لا ينبغى، ومنع ما ينبغى. وقال سفيان الثورى، رحمه الله: الحلال لا يتحمل الإسراف. وقال بعض العلماء: ثلاثة تمنع عنهم الرحمة، وتنزل بهم الشماتة فى ثلاثة أحوال، أحدهم المبذر فى ماله عند نزول الفاقة به،

=محمد، وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يروى عن يحيى بن سعيد، عن عائشة، شىء مرسل. وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٢/٢) ح (٢٣٦٣)، والعقيلي فى الضعفاء الكبير (١١٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٣٨/٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٢٨/٧، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، وفيه سعيد بن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (ت٢٣٧٩).

١٢٠ كتاب النهج المسلك في سياسة الملوك للشيزرى
الثانى الشره إليه حين تصيبه المصيبة، الثالث الظالم المعتدى حين تنزل به العقوبة، ولهذا
المعنى شعر:

وكان المال يأتينا وكنّا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حيث كان لنا فضول

الوصف الخامس خلف الميعاد: اعلم أن خلف الميعاد يتصف به اللثام، وتأباه الكرام
لقبح صورته، وشناعة سمعته، وهو من أركان النفاق، ومساوئ الأخلاق، قال رسول
الله ﷺ: «علامة المنافق ثلاثة: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف». وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز لا يكاد يعد بحاجة توقيًا للخلف، فإنه
يزيل الهيبة. وقال داود بن عبد الله فى وصيته: انجز إذا وعدت، واتق الخلف، فإنه يزيل
الهيبة، ويذهب بهاء الوجه. وقال بعض الحكماء: من أخلف وعده فقد صعر خده،
وجفاه القريب، وتوقاه الغريب، ولهذا شعر:

لا تكسبن عداوة ومودة بعد الصفا
فخلف وعد مرة أصل العداوة والجفا
إن الخلف من فروع الكذب، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الوصف السادس الكذب: اعلم أن الكذب وصف ذميم، وخلق لئيم، لا ينفك
صاحبه عن الفضيحة لمناقضة كلامه بالسهو، ولا يكون لمقامه رتبة، ولا تعلو له منزلة،
لاحتقار الناس له، واستصغارهم إياه، ونفورهم عنه، وقلة ركونهم إليه؛ لأنه إن عاقد لم
يوثق بعهده، وإن وعد لم يركن إلى وعده، وإن ذكر شيئاً تسارعت إليه التهمة، وإن
نزل به مكروه تراجعت عنه الرحمة، كل ذلك لما قد علمته النفوس من مهاتته وقلة
أمانته، وإن كان صادقاً، وفى المعنى بيت مفرد:

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان صادقاً

وقد سلب الله تعالى الكذب عن المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال رسول الله ﷺ: «الكذب مجانب للإيمان»^(١). وكان

(١) الصحيح أنه موقوف: من قول الخليفة أبى بكر، رضى الله عنه. أخرجه: أبو عبد الله المقدسى
فى الأحاديث المختارة (١/١٤٤ - ١٤٦) ح (٥٨)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٩٦) ح
(٢٠٦١٥)، وابن أبى شيبه فى مصنفه (٥/٢٣٦) ح (٢٥٦٠٢)، والإمام أحمد فى مسنده =

كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيرازي ١٢١
يقال: الكذب لا يقوم ديناً ولا دنياً. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: إياك
أن تستعين بكاذب في أمر يحتاج فيه إلى الجميلة، فإنك إن تطع الكذوب تهلك. وقال
عبد الله بن مروان: الكذب فساد كل شيء.

وحكى أن قيصر كتب إلى كسرى: أن عرفني بما ضبطت به ملكك؟ فكتب إليه:
بثمان خصال، لم أكذب في جد ولا هزل قط، ولم أخلف في وعد ولا وعيد قط،
وركنت للعقل لا للهوى، وعاقبت للأدب لا للغضب، وأشربت قلوب الرعية المحبة من
غير جرأة، وأودعت قلوبها هيبة من غير ضغينة، وعمرت بالكفاف ومنعت الفضول.

وقيل: تعدى ابن أبي حاتم على رجل من أهل الفضل، وسأله: أي الأشياء أثقل
عليك؟ قال: عداوة الصديق، ورد السائل، قال: فأى الأشياء أوضع للرجال؟ قال: كثرة
الكلام، والثقة بكل أحد، واللسان الكذب. وقيل: الصدق عز، والكذب ذل وإهانة
للنفس. وكان يقال: الكذب من ذهاب المروءة، وإهانة النفس، وقلة الحياء، ولهذا شعر
لأهل الفضل:

لا يكذب المرء إلا من إهانتَه أو عادة سوءها من قلة الأدب
فجيفة الكلب عندى خير رائحة من كذبة المرء فى جد وفى لعب
وقال غيره:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

واعلم أن دواعى الكذب ثلاثة أشياء: أحدهما: أن يحتلب به نفعاً، أو يدفع به ضرراً،
فيرى أن الكذب أسلم له وأغنى، فيرخص لنفسه فيه لأجل ذلك، الثانى: أنه يؤثر أن
يكون حديثه من الصدق مستغرباً، وكلامه مستطرفاً، ولا يجد فيما يزين به حديثه من
الصدق، فيستعير الكذب، الثالث: هو أن يقصد بالكذب وصمة بغيض، فيسمه
بالقبائح، وينسب إليه الفضائح، وهذه الدعاوى تأبأها النفوس الأبية، والهمم العلية،

= (٥/١) ح (ب ١٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٠٧/٤) ح (٤٨٠٧). والعدنى فى الإيمان
(١٢٣/١) ح (٥٥)، وعبد الله بن أحمد فى السنة (٣٦٤/١) ح (٧٨٦)، وابن المبارك فى
الزهد (٢٥٥/١) ح (٧٣٦)، والقرشى فى مكارم الأخلاق (٤٧/١) ح (١٢١)، وابن عبد البر
فى التمهيد (٤٠/١). وانظر: علل الدارقطنى (٢٥٨/١) ح (٥٠).

١٢٢ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى
سيما نفوس الملوك؛ لشرفها عن الرذائل، وترفعها عن النقائص، إلا أنه ربما مست الحاجة
إلى استعمال قليل الكذب فى كيد الأعداء، وتألف البعداء، فإن مثله مثل سم يقتل
بانفراده، ويدخل فى بعض الأدوية المركبة، فتصير دواء شافياً^(١).

الوصف السابع الغيبة: اعلم أن الغيبة مع تحريمها شرعاً^(٢) وعقلاً، هى عين العجز
واللؤم، ودليل النقص، تأبأها العقول الكاملة، والنفوس الفاضلة؛ لما فيها من انحطاط
الرتبة، وانخفاض المنزلة. قال على بن أبى الحسين: الغيبة أدام كلاب الناس. وقال
عدى بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام. قال: وسمع قتيبة بن مسلم رجلاً يغتاب رجلاً،
فقال: أما والله لقد تلمظت بمضغة طال ما لفظتها الكرام. وقال بعض الحكماء: من أكثر
من عيوب الناس، سهل عليه الإكثار، وإنه إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، وأحسن القائل:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا عليك وأبدوا منك ما كنت تستر
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم فلا عيب إلا دون عيبك يذكر
فإن عبت قومًا بالذى ليس فيهم فذلك عند الناس والله أكبر
وإن عبت قومًا بالذى فيك مثله فكيف يعيب العور من هو أعور

وقال الوليد بن عقبة بن أبى معبد: كنت أسير مع أبى فى موكبه، فلصق إلى رجل،
وجعل يغتاب رجلاً غائباً، فسمعه أبى، فالتفت إلى، وقال: ويحك، أما علمت أن الملوك
ينزهون أسماعهم عن الخنا، كما ينزهون ألسنتهم عن الكلام به، فإن المستمع شريك
القائل، ولقد نظر إلى حيث ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك. وحكى أن يهرام ملك
العجم ولى قائداً من قواده نحو أرض مما يلى أرض الترك، فبلغه عنه أنه يكتر من غيبة
خاقانه، فقال: هذا دليل عجزه وضعفه عن مقاومته، ثم عزله وولى غيره. وقال أبو

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٤٤ - ١٤٩)، الزاهر لابن فرحون (ص ٢٠٧ - ٢١٤).

(٢) فقد عظم الله تعالى أمر الغيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قال: معناه الطاعن فى الناس، الذى يأكل لحوم الناس.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فقيل: هؤلاء الذين يغتابون الناس»، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨)، وإسناده حسن.

وذى حسد يغتابني حيث لا يرى مكانى ويثنى صالحاً حيث يسمع
تورعت أن أعتابه من ورائه بما ليس فيه وهو لا يتورع^(١)

الوصف الثامن الغضب: اعلم أن الغضب وصف طبيعي ركبته الله في الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذى له، وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها، والحادث عن الغضب السطوة والانتقام، فإذا أفرط وجاوز حده، سلب العقل، وحجب عن صواب الرأي، فيصير الرأي وصاحبه مقطوع الحجة، قليل الحيلة، وربما عاد ضرر الغضب ونكايته على الغضبان دون المغضوب عليه، وقد يظهر ذلك في نفسه وجسده، والعقل في حال شدة غضبه ليس بينه وبين المجنون فرق، وبهذه الأوصاف صار قبيحاً مذموماً. قال ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من ملك نفسه عند الغضب»^(٣). وقال عليه السلام: «من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»^(٤).

وقال بعض الحكماء: الغضب أوله جنون وآخره ندم^(٥). وقال آخر: الغضب على من لا يملك عجز، وعلى من يملك لوم. وكان يقال: ما كثر من كثره الغي، ولا قوى من قواه الظلم، ولا ملك من ملكه الغضب. وكان يقال: ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من حاجته، وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يكون حقوداً؛ لأن خطره عظيم عن المجازات.

واعلم أن الذين كان منهم الفعل القبيح لشدة الانتقام في وقت غيظهم، إنما كان ذلك الوقت، فينبغي لمن ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب أن يكف ثورته بحزمه،

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص ٢١٥ - ٢٢٠) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ح ١٠٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٢٩٤)، وفيه: مخيس بن تميم، مجهول.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) إسناده ضعيف جداً: أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٣٨) من حديث عبد الجليل الفلسطيني، عن عمه مرفوعاً، وفيه داود بن قيس، متهم، وعبد الجليل، قال البخاري: لا يتابع عليه. انظر: الميزان (٥٣٥/٢).

(٥) وقال أحد الحكماء: من لم يملك عقله لم يملك غضبه. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص ١٦٨).

١٢٤ كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزري
ويطفئ ناره بحلمه ليسلم من الندم في العواقب، والذي يسكن الغضب عند هيجانه
خمس أسباب:

أحدها: أن يذكر الله تعالى عند غضبه، فإن ذلك يدعو إلى الخوف منه، والخوف
يبعثه على الطاعة أو بالعفو، فيزول عنه الغضب، فقد ذكر أنه مكتوب في التوراة: يا ابن
آدم، اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقيل: إن ملكًا من ملوك الفرس كتب
كتابًا وناوله لوزيره، وقال له: إذا رأيتني غضبت فاتركه بين يدي، وكان فيه مكتوب:
ما لك وللغضب، إنما أنت بشر، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، قال:
فكان إذا غضب ذلك الملك، ناوله الوزير ذلك الكتاب، فيسكن غضبه.

السبب الثاني: أن يتذكر عند الغضب ثواب العفو، وحسن جزاء الصفح، فيقهر
نفسه على ردع الغضب رغبة في الثواب، وما وعد الله به العافين عن الناس، فقد قال
رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَقُمْ، فَيَقُومُ الْعَافُونَ
عَنِ النَّاسِ»، ثم تلا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ^(١).

الثالث: أن يتذكر انعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه عند العفو وكظم الغيظ،
فيمنعه الشئ بالجميل من مطاوعة الغضب.

الرابع: ينتقل من الحالة التي عليها إلى حالة أخرى، فإنه إذا فعل ذلك زال عنه،
وكان هذا شعار المأمون إذا غضب.

الخامس: أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام، لاسيما إنفاذه
فيمن لا يستطيع الدفع عن نفسه، فهذه الأسباب الخمسة إذا تدبرها الملك وتذكرها في
أوقات الرضى، كان أحرى أن يتصورها في أوقات الغضب، فيصده عن إنفاذ الفعل
والإفراط في النكال والانتقام ^(٢).

الوصف التاسع العُجب: إن العجب وصف ردىء يسلب الفضائل، ويجلب الرذائل،
ويظهر الحمق، ويجلب المقت، ويخفى المحاسن، ويشهر المساوئ، ويفضى إلى

(١) عزاه الحافظ السيوطي لابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعًا بلفظين. انظر: الدر المنثور
(٧٠٩/٥).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٤١ - ١٤٤)، الزاهر لابن فرحون (ص ١٦٤ -
١٦٨).

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى ١٢٥
 المهالك^(١)، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا
 وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وقال على بن
 أبى طالب، رضى الله عنه: الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب.

وقال بعض الحكماء: إعجاب المرء بنفسه أحد حساد عقله. وقال آخر: العجب
 فضل حمق وتيه ينتجها الكبير. وكان يقال: ما أعجب بنفسه عاقل؛ لأن العجب فضل
 حمق لم يدر صاحبها أين يذهب به، فصرفه إلى الكبير. وحكى أن رجلاً نظر إلى المهلب
 ابن أبى صفرة وعليه حلة فاخرة يسحبها ويمشى بالخيلاء، فقال له: يا أبا عبد الله، ما
 هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله؟ فقال له المهلب: أو ما تعرفنى؟ قال: بلى أعرفك،
 أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، وحياتك فى ما بين ذلك بول وعذرة، قال:
 فحجل المهلب وأطرق منه حياء، وقد نظم هذا الكلام محمود الوراق، فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان بالأمس نطفة مذرته
 وفى غد بعد هيبته يصير فى الحد جيفة قذرته
 وهو على تيهه ونخوته ما بين جنبيه يحمل العذرة

وقال بعض الحكماء: عجب الملك بتدبيره مفض إلى تدميره. وأنشدنى بعضهم:

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره مأمنه
 وأعجب بالعجب فاقتاده وتاه به التيه فاستحسنه
 فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوماً ويكى سنه

واعلم أن من يحجب عنه أسباب العجب المغضبة وقع فيه، فيهلك فى غالب
 الأحوال، ومن أقوى أسبابه مدح المتملقين الذين يجعلون التملق دأبهم، والنفاق دينهم،
 فيمنع نفسه من تصديق المدح، ومتى كثر المدح وجاوز الحد صار كذباً وملقاً، وقد نهى
 رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «إياكم وكثرة المدح، فإنه الذبح».

(١) حقيقة العجب هى استعظام النفس خصالها، وأنها أهل لكل فضيلة، ومستحقة لكل نعمة، مع
 الأمن من زوالها، وقلة الشكر لمن وهبها إياه، ويبعث ذلك على استحقار الناس، بأن يرى نفسه
 خيراً من أحد من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولعله يصيب من العمل مثلما يصيبه،
 ولعله يكون أروع منه عن ما حرم الله تعالى، وأزكى منه عملاً. انظر: الزاهر لابن فرحون
 (ص ١٥٠).

١٢٦ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى

وقال بعض الحكماء: من رضى أن يمدح بما ليس فيه، أعان الساهر منه. وقال بعض العلماء: قبيح بالليب أن يعجب بنفسه عند مدح المادح، أو يغضب عند سماع القادح قبل أن يتفقد أعماله، ويعلم ما عليه وما له، وألا يصير النساء أعقل منه، فإن إحداهن إذا وصفت وجهها بما تحب أو تكره، امتحنت ذلك بالاطلاع فى المرأة. وكذلك ينبغي للعاقل أن يمتحن أحواله بأن يكل نفسه إلى غيره من أهل الثقة والأمانة والأدب والديانة فى اختيار محاسنه ومساوئه وعيوب نفسه التى فيه، ويستنصحهم فى ذلك، فإن الإنسان قد يخفى عليه عيب نفسه، لاسيما لاستيلاء الهوى على عقله، فإذا أراح نفسه من ذلك، فقد نال غاية الشرف بانعطاف القلوب عليه وميلها إليه^(١).

الوصف العاشر الكبير: اعلم أن الكبر خارج بالنفس عن حد الاعتدال، وحقيقته استعظام أو احتقار غيره، وسببه علو اليد والتميز بالمنصب، أو النسب، أو الفضل، ومتى جاوز حدّه وتعدى طوره، آل إلى البغى والعنوّ، فسلب الدين، وأفسد الإيمان، وخفض المنزلة، وحط الرتبة؛ لأنه يطمس من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، ويكره الصدور، ويوجب النفور^(٢). وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر»^(٣). وقال رسول الله ﷺ لعنه العباس، رضى الله عنه: «أنهاك عن الشرك بالله، وعن الكبر، فإن الله تعالى يحتجب عنهما»^(٤).

وحكى أن سليمان بن داود، عليهما السلام، جلس يوماً على بساطه بجنوده من الإنس، والجن، والطير، والوحش، ثم أمر الريح فرفعت البساط نحو السماء، حتى سمعوا

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص ١٤٦ - ١٥٢).

(٢) حقيقة الكبر هي أن يرى نفسه فوق غيره من صفات الكمال، فيحصل من ذلك نفحة الكبر، ونتيجة الكبر منازعة الله تعالى فى خصوص صفاته، فإن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به، فمن أين تليق العظمة بعبد ذليل لا يملك لنفسه نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص ١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧، ١٤٨)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذى (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣)، والإمام أحمد فى مسنده (٤١٢/١).

(٤) لم أجدّه، وأورده الشيخ الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص ١٢٨). وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن ناساً من أمتى يخرجون من قبورهم على صورة الذر، فيطفوهم الخلائق بأقدامهم»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «المتكبرون». أخرجه الترمذى (٢٤٩٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (١٧٩/٢)، وابن المبارك فى الزهد (ص ٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وإسناده حسن.

زجل الملائكة بالتسبيح، وسمعوا قائلاً يقول: لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر، لحسفننا به أكثر ما رفعناه. وقال بعض العلماء: إن للدولة أمراضاً يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: أحدها: ما يعرض للملك من الغضب، فإن دولته فى هذه الحالة تضطرب لخروجه عن حدود السياسة، والثانى: البغى، والثالث: ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا أحرص ظلم وعسف الرعية، الرابع: هيجان الرعية، فإذا عرض له شىء من ذلك، فليبادر بالحسم.

وحكى المدائنى، قال: رأيت رجلاً بعرفات وهو على بغلة فى مركب من الذهب، والغلمان والخدام بين يديه والناس حوله، وهو لا يعبأ بأحد منهم، فنظرت إليه متعجباً، وقلت له: يا هذا، ليس هذا موضع التكبر، إنما هو موضع التواضع والخشوع، فانزل عن بغلتك، واصرف الخدام من بيد يديك فى هذا الوقت، وأقبل على الله تعالى بخضوع وخشوع، فإنه يقبل عليك برحمته ورضوانه، قال: فلم يلتفت إلى، وتركته وانصرفت، فلما كان العام المستقبل عبرت بالجسر ببغداد، فوجدت ذلك الرجل أعمى يتصدق من الناس، فقلت له: أنت كنت فى العام الماضى على بغلة بعرفات؟ قال: نعم أنا ذلك الرجل، قلت: فما بالك؟ قال: لما تكبرت فى موضع يتواضع الناس فيه، وضعنى فى موضع تكبر عن مثله الناس. وقاله بعض أهل الأدب:

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته مهلاً فإنك بعد الكبر مسلوب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ما استشعر الكبر شيان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً اقصر فإنك مأكول ومشروب

واعلم أن من قطع أسباب الكبر عنه، وازداد لله تواضعاً وخشوعاً وتعظيماً لله سبحانه وتعالى، فقد سلك مسالك الشرف، ودرج فى مدارج النعم، وأزاح عنه المقت، واستعطف إليه القلوب^(١).

الوصف الحادى عشر الحسد: اعلم أن الحسد داء عظيم من أدواء النفس، لا يشفى سقيمه، ولا يرقى سليمه، مع ما فيه من إفساد الدين، وإضرار البدن؛ لأن الحاسد يدوم همه، ويكثر غمه، ويذوب جسمه، ويذهل عقله عن الصواب وحسن الرأى، ويشتغل قلبه عن صحيح الفكر، وهو أقبح من البخل؛ لأن الحاسد يجب أن لا ينيل أحداً شيئاً ما

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص ١٢٧ - ١٣١)، الزاهر لابن فرحون (ص ١٣٧ -

١٢٨ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى
لا يملكه، فكان أعظم قبحاً وأشدّ ذمّاً، وليس شيء أعظم ضرراً من الحاسد، قال رسول
الله ﷺ: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(١).

قال بعض الحكماء: يكفيك من الحسود أنه يغتم وقت سرورك، وإذا رزق الله
المحسود نعمة، كانت على الحاسد نقمة. وكان يقال: الحسد نار في الجسد. وكتب
بعض الحكماء إلى صديق له: قد حسدك من لا ينال دون الانتقام، وطلبك من لا يقصر
دون الظفر بك، حذرك بعد الثقة بالله تعالى على حسب ذلك. وقيل: كان مكتوباً على
فص خاتم بعض الملوك: الحسود لا يسود أبداً، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. وقال
عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه: لن يصل الحسد إلى المحسود حتى يصيب الحاسد
نفسه بغم دائم، وعقل هائم، وهمّ لازم، وما رأيت ظالماً يشتهه بالمظلوم إلا الحاسد.
ولبعض أهل الأدب شعر:

كم من حسود أطال الله حسرته فاغتاظ همّاً على الأيام من حسده
وحاسد الناس طوال الدهر في تعب يزيده الحسد المذموم في كمده
ولبعضهم في المعنى شعر:

إن الحسود الظلوم في كمد يخاله من يراه مظلوما
ذا تعس دائم على تعس يظهر منه ما كان مكتوما
وقال آخر:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إذا لم تجد ما تأكله

اعلم أن أسباب الحسد ثلاثة أشياء، أحدها: بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه،
فإذا ظهرت عليه النعمة، أو اشتهرت عنه فضيلة، أثارت البغضة القديمة حسداً على
ذلك. الثاني: أن يظهر على المحسود نعمة شاملة، أو فضيلة كاملة، يعجز عن تحصيلها

(١) إسناده ضعيف جداً: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٣٠/٦) ح (٣٦٥٦)، والقضاعي في مسند
الشهاب (١٣٦/٢) ح (١٠٤٩)، وفيه عيسى الخنات، متروك. انظر: التقريب (٥٣١٧).
وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٣٦/٢) ح (١٠٤٨) من طريق آخر، فيه عمر بن محمد
ابن حفصة الخطيب. قال الحافظ الذهبي بعد أن ذكره في مسند الشهاب: فهذا بهذا الإسناد
باطل. انظر: ميزان الاعتدال (٢٦٨/٥) (ت٢٢١٧).

الحاسد، وتقصر همته عن إدراكها، ويكره تقدمه عليه بذلك، واختصاصه به دونه فيصير حسداً. الثالث: أن يكون بالحاسد شح بالفضائل المكتسبة، وبخل بالنعمة الموهبة، وليس يقدر على منعها منه ودفعها عنه، إذ هي في يديه ولا مفوضة إليه، فيحسده على منحة الله تعالى من عطائه العميم، وفضله الجسيم، وهذا السبب داء ليس له دواء، فإن كان ذا قوة واقتدار، جره حسده على الانتقام من المحسود، وإن كان ذا عجز وضعف، حدث عنه هم دائم، وسقم زائد، فينبغي أن يحجب عنه أسباب الحسد، ويأنف من تعاطيه، ويستنكف من هجنة مساويه؛ ليدفع ضرره، ويتوقى شره، ولا يغالب قضاء الله تعالى فيرجع مغلوباً، ولا يعارضه في أمره فيصير مسلوباً.

وسنذكر من تأثير الحسد وضرر عواقبه حكاية نختم بها هذا الفصل: ذكر أهل التاريخ أن بهرام بن يزدرج ملك الفرس كان صديقاً لخاقان ملك الترك، وكان بينهما مهادة وتلطف، وأن بهرام اشتهر أمره بالقوة، والشجاعة، والكرم، وحسن السيرة، والعدل في الرعية، فحسده خاقان على ذلك حسداً شديداً، وكان له وزيران، فذكر ذلك لأفضلهما، وسأله التدبير في هلاك بهرام، فقال له الوزير: إن كنتم الملك ذلك، سعيت له فيه، فقال: سأكتمه، فلما لبث مدة، سأل الوزير عما صنع فيه فاستصبره، فلما تكرر ذلك منه، قال الوزير: أيها الملك، لا حيلة لي فيما كلفتنه، وإنما أستصبرك رجاء أن يزول ذلك من قلبك، فإني رأيت الحاصل لك عليه، إنما هو فرط الحسد، وتدبير الحاسد عليه بالمضرة، وأخاف أن ينصب الملك مكيدة فيقع فيها.

قال: فغضب خاقان عليه، ثم أطلع وزيره الآخر على ذلك، وكان فيه شر وخبث وحسد وحيلة، فتكفل لخاقان بنيل مراده، ثم ندب له فاتكاً من فتاك الترك، لم يكن في الترك أشد حيلة منه، ولا أجراً منه في ذلك، وضمن له إن قتل بهرام ونجا، أعطاه رئاسة الجند، وجعل ذلك خالداً في ولده، وإن هلك دون مرامه، شرف ولده تشريفاً يخلد ذكره فيه أبداً، فاستصحب الفاتك أخاه معه، وتوجها إلى دار ملك بهرام، فلما وردا قصر بهرام، قال الفاتك لأخيه: بعني لبعض خدمة قصر بهرام، فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته، فجعل ذلك الفاتك يتحجب إلى مولاه بحسن الطاعة، ونصح الخدمة، حتى وصل عنده، واختص به دون غيره، وأن سيده تخلف يوماً عن حراسة القصر لمرض ناله، فاستناب الفاتك، فعمد ذلك الفاتك إلى خزائن سلاح بهرام، وكانت بجوار قصره، فألقى فيها ناراً، وشاغل أصحابه على المبادرة إلى إطفائها

١٣٠ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى
حتى اشتد عملها، فارتفعت الضجة، فخرج بهرام من قصره على فرس ولا سلاح معه،
فانتهاز الفاتك فيه الفرصة، ودنا من بهرام وفي يده خنجر وقد أخفاه فى كفه، فنظر إليه
بهرام فى ضوء النار، فرأى دلائل الريبة ظاهرة عليه، فتفرس فيه الشر، فجمع رجليه
ووثب من ظهر فرسه، فإذا هو على الفاتك، وقبض على يديه، فوجد الخنجر، فأخذه
منه بيمينه، ولفه فى شماله، وانطلق به يقوده حتى أدخله القصر، فخلا منه وسأله عن
أمره، فصدقه الحديث.

فقال له بهرام: أما أنت، فلك ذمتنا على حفظ نفسك والإحسان إليك إذا كنت إنما
أتيت الذى أتيت طاعة لخاقان، ومناصحة له، وبذلت نفسك فى مرضاته، ومثلك من
يصطنع، ونحن نحفظ عليك نفسك التى ضيعها صاحبك، غير أننا نريد أن نخبسك مدة
ثم نطلقك ونحسن إليك لغرض نريد أن نفعله، فدلنا على أخيك؟ فدلّه عليه، فأرسل إليه
من قبض عليه وحبسهما فى قصره مكرمين، وأخذ عليهما أن يكتما أمرهما، وكان قد
رفع إلى بهرام أن رجلاً من رعيته زارعاً فى بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامرأة
خلقت على وجه الأرض مثل صورتها، طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على
مواطئ قدميها، وجلدها فى لونه وصفائه كأنه قشور الدرّ، وهى متناسبة الخلق، بديعة
التركيب، دقيقة التخطيط، لا يستطيع من رأى إلى عضو من أعضائها أن ينقل بصره عنه
إلا بعد مجاهدة النفس، وإذا قابلت عين ذى لب اضطرب قلبه، فلا يسكن حتى يضمها
إلى صدره، ويرشف ريقها، وكان لها مع ذلك الحسن الباهر أدب، وعقل، وحزم،
فشرهت نفس بهرام إليها، ثم تنزه أن تكون تحتها ابنة زارع، فقمع نفسه عن هواها أنفة
ونخوة، ثم نهى أن يذكرها له أحد، وأمر العامل على البلد التى هى فيها أن يتفقد أمرها،
ومنع أباهما من إنكاحها.

حتى إذا حدث عليه خاقان ما ذكرناه، أحضر رجلاً من أصحابه ذا دهاء ومكر
وحيلة، فندبه لمكيدة خاقان، وأمره بما سنذكره فى أثناء الحكاية، وأعطاه من الذهب
والفضة ونفائس الجواهر ودخائر الملوك ما يظن أنه يحتاج إليه فى عمل المكيدة، وأمره أن
يسير متكرراً فى زى تاجر إلى والد تلك الجارية التى ذكرناها، فيشتريها منه بما يريد؛
ليستعين بها على ما ندبه إليه، وأرسل إلى العامل على بلد أبيها يأمره أن يضيق على أبيها
ويطالبه بما يعجز عنه من المال، ففعل ذلك، فجاء التاجر واشترى ابنته بوزنها ذهباً،
وهذا شئ كان يفعله أهل الخراج من الفرس إذا ضيق السلطان عليهم، باعوا أولادهم.

قال: ثم إن التاجر قصد بها بلاد الترك، حتى حل بمدينة خاقان، فقصد الوزير الساعى لبهرام فى المكيدة، وأهدى له هدايا نفيسة، وتقرب عنده بالتحف، إلى أن آنس به الوزير، وخف على قلبه، ولبث عنده عامًا، ثم قال له: عندى أيها الوزير تحفة، ولك عندى حب شديد، ولى عام أنازع نفسى بإتحافك بهذه التحفة التى لم يظفر أحد بمثلها، وكانت نفسى لم تسمح بها، فقد سمحت بإيثارك، فقال: وما هذه التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على مواطنى قدميها، كأنما كسى جلدها قشور الدرر.

قال: فلما سمع الوزير الصفة، استفزه الهوى إليها، وجعل يتقصى إحضارها، فلما أحضرها ووقع بصره عليها، لم يملك نفسه أن وثب عليها، فعانقها وضمها وقبلها ورشفها، ثم التفت إلى سيدها، وقال له: سل ما شئت واحكم، فقال: حكمى القرب منك، والحضور عندك، قال: هذا لك، وخذ من المال ما شئت، قال: لا حاجة لى فيه، ثم خرج مبادرًا إلى باب قصر الملك خاقان، فقال لبعض ثقاته: إن عندنا نصيحة نخاف فوتها، فأدخلوه على خاقان فى الحال، فسأله عن حاجته ونصيحته، فقال: إنى قصدت الملك بتحفة لا تصلح إلا له، فسألت الوزير فلانًا أن يوصلها إلى الملك، فاستأثر بها واعتدى، وبذل مالاً كثيراً على كتمان ذلك، فلم أفعل ذلك، فقال: وما هى التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وصفتها كذا وكذا.

فأرسل خاقان من نفسه رجالاً من ذوى النسك فى دينهم، وأمرهم بالهجوم عليه، وحفظ الحال التى يرونها عليها، والإتيان به وبالجارية محجوبة عن الأبصار، ففعلوا ذلك، وقالوا: إنهم أبصروها بين يديه جالسة مجردة، فسألها خاقان عما نال منها، فقالت: عانقنى وقبلنى وجردنى ونظر إلى سائر بدنى، وهم أن يقتضى منى، فهجم هؤلاء القوم عليه، فأمر خاقان أن تقطع يده، وتقلع عيناه، ويقطع لسانه وشفته، ففعلوا ذلك بالوزير.

ثم أن خاقان خلا بالجارية وسألها أبكر هى أم ثيب؟ فقالت: بل بكر، فلم يملك نفسه أن افترعها، فلما نزع منها أزالته عن رأسها قناعها، فمسحت به ذكر الملك، فأحس به من ساعته ينمل، ثم بعد ذلك ظهر فيه نفخ، ثم ابتدأ فيه الوجع الشديد، فعلم أنه سم، فتناول موسى وقطع به ذكره، وأمر بالجارية فصرفت عنه وحفظت، وطلبوا مولاهم فلم يظفروا به، وأن خاقان عالج نفسه حتى برئ، ثم أحضر الجارية فسألها عن

١٣٢ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزري
نفسها وأهلها وبلدها، فأخبرته أنها لم تكن تعلم من أمر مولاهما أكثر من أنه تاجر
اشتراها من أبيها بوزنها ذهباً، وسألها عن قناعها، فقالت: كسانيه سيدي، وعرفنى أنه
يهدينى للملك، وشأن الملوك إذا وقع أحد منهم جارية ونزع منها أنها تمسح ذكره بما
على رأسها كائن ما كان، فإن لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك، وتعرضت
لسخطه، فعلم خاقان أنها مخدوعة معذورة، فلم يتعرض لها بسوء.

فلما عاود صاحب بهرام إليه وأخبره بما تم له من المكيدة، أمر بهرام بإحضار الفاتك
التركي وأخيه، وأحسن إليهما، وكتب معهما كتاباً إلى خاقان يقول: إن الحسد والبغى
أوردك وأوردًا وزيرك السوء موارد الندم، وقد كنا أنزلنا بمنزلة الأخ قبل أن نعرف خبث
نيتك فينا، وحسدك لنا، فلما علمنا ذلك أردنا بك ما أردته بنا، ففضى الله لنا عليك
بنجاح السعى، لعلمه بصلاح نيتنا، وخبث نيتك، والآل فاتق الله على نفسك، فلسنا
نعرض لك بسوء إذا لزمنا حسن النظر لنفسك بمسالتنا.

قال: فلما انتهى الكتاب إلى خاقان، عرف ممن أصابه ما أصابه، ثم أنه داخلته الحمية
والغيرة، فتجهز لقتال بهرام في أمم من الترك لا تحصى، وسار إلى أرض فارس، فانتخب
له بهرام أجناداً من شجعان الفرس، ولقيه فهزمه بهرام، وقتل رجاله، ونهب أمواله،
واستولى على بلاده، وكان إثارة هذه الفتنة الحسد والبغى^(١).

الوصف الثاني عشر العجلة: اعلم أن العجلة رديئة العاقبة، مذمومة الأمر، ينتجها
طيش وتهور، أولها ملامة، وآخرها ندامة، لا يفارقها الزلل، ولا يتعدها الفشل. وقد
قال رسول الله ﷺ: «العجلة من الشيطان»^(٢). وكان يقال: لا يواجه العجول محموداً،
ولا الغضوب سروراً، ولا الشره غنى.

وقيل: إنه اجتمع أربعة ملوك من الروم عند حكيم من حكمائهم، فقالوا: أوصنا أيها
الحكيم وصية نتفع بها بما صار إلينا من أمر الملك، فقال: من استطاع منكم أن يمنع
نفسه من أربعة أشياء، فهو حقيق أن لا ينزل به مكروه، وهى: العجلة، واللجاجة،
والغضب، والتوانى، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة الغضب
البغضة، وثمرة التوانى الذلة.

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص ١٣٣ - ١٣٧).

(٢) عزاه الحافظ العجلوني للترمذى، عن سهل بن سعد مرفوعاً، وقال: حديث حسن. انظر:
كشف الخفاء (٢/٧٢).

وكان يقال: التثبت فى النوائب معقل أهل التجارب، والعجلة فى الأمور داعية إلى كل محذور. وأوصى ملك من ملوك اليمن من يخلفه من بعده، فقال: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنك إن تتقه يزيدك ويرضى عنك، ومتى رضى الرب عن عبده أرضاه، وأمر أن لا تعجل فيما لا تخاف فيه الفوت، فإن العجلة ندامة، وإذا شككت فى أمر فشاور، وإذا اتهمت فاستبدل، وإذا قلت فاصدق، وإذا وعدت فأنجز، وإذا أوعدت فى حق فانفذ، واعلم أنك إذا ضبطت حاشيتك ضبطت قاصيتك، والسلام.

واعلم أن العجلة مذمومة، إلا فى أفعال البر، وصنائع المعروف، فإنها حسنة محمودة. وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بخصال ثلاث: تأخير العقوبة فى سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والأناة فيما يحدث، فإن له فى تأخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة فى الطاعة من الرعية، وفى الأناة إيضاح الرأى، وانفساح الصواب.

وذكر بعض الملوك فى وصية له لولى عهده: إذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وارحم ترحم. وكان يقال: العجلة مذمومة قبيحة، إلا فى ثلاثة أشياء: فى اصطناع المعروف إذا أمكن، وفى تزويج البكر إذا خطبت، وفى دفن الميت.

الوصف الثالث عشر المزاح: اعلم أن المزاح شاغل عن الأمور المهمة، مذهل عن النوائب الملمة، يذهب الهيبة والوقار، وليس لمن وسم به مقدار، يزيح عن الحقوق، ويفضى إلى العقوق، ويشغل خواطر الأصحاب، ويجانب محاسن الآداب، ويذهب عنها ويجرى السفهاء، أوله حلاوة، وآخره عداوة.

قال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: اتقوا المزاح، فإنه حمقة تورث الضغينة^(١). وقال أكنم بن صيفى: المزاح يذهب بالبهاء والمهابة فاحذروه. وأوصى مسلم بن قتيبة أولاده، فقال: لا تمارحوا فيستخف بكم نظراؤكم، ويجترئ عليكم أكفاؤكم، وهو مسلبة للهيبة، مقطعة للصحبة، أوله فرح، وآخره ترح. وقيل: إذا مازح السلطان هان عند رعيته، وإذا سفه ذهب حرمة. وقيل فى منشور الحكم: من قل عقله كثر هزله. وقيل: المزاح معدن الداء، عسير الدواء. وقيل: خير المزاح لا ينال، وشره لا يقال.

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر من شىء عرف به، ومن مزح

١٣٤ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيرازي

استخف به، ومن كثر ضحكته ذهبت هيئته، ومن عرض نفسه إلى التهمة فلا يلومن من أساء به الظن. وقال بعضهم لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترى عليك. وكان يقال: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح، ولهذا شعر:

اترك مزاح الرجال إن مزحوا لم أرقومًا تمازحوا سلموا
يفنى مزاح الفتى مروءته ورب قول يسيل منه دم
وقال آخر شعر:

ولقد جبوتك يا بني نصيحتي فاسمع مقال أب عليك شفيق
أما المزاح مع المراء فدعهما خلقتان لا أرضاهما لصديق
إنى بلوت فلم أكن أحدهما لمجاور منى ولا لرفيق

واعلم أن النفوس متى سلك بها الجحد وألزمت به، سئمت، وضجرت، واستقلت حمل الحمق، وربما إلى ضيق الصدر، وسوء الخلق، فينبغي أن يريحها بقليل المزاح، ويسير الدعابة، وليكن كما قال أبو الفتح:

أفد طبعك المكدر بالجد راحة ترحه وعالله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقال عليه السلام: «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً»^(١). وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، اقتصد في مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرى عليك السفهاء، والاقتصار عنه بالكلية ييغضك إلى أصحابك ومؤانسك^(٢)، فامزح معهم، وليكن بمقدار ما يحصل لهم به الأنس منك من غير إفراط، وليحذر مع هذا الشرط أن يمازح الآدمي عدوه، فيصير ذلك طريقاً إلى إعلان المساوى، فقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك^(٣).

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٣/١) ح (٩٩٥)، وفي الصغير (٧١٢) وفيه مبارك بن فضالة، صدوق، يدلس ويسوى. انظر: التقريب (ت ٦٤٦٤)، وحسنه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/٨)، والحديث إسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي حيث ذكره فيه (ص ١٨٤).

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص ٣٢٨)،

الوصف الرابع عشر الضحك: اعلم أن الضحك يضاهى المزح فى المذمة والقبح، ولا تقتضيه حال الملوك وأرباب المناصب؛ لما فيه من زوال الهيبة، وذهاب الوقار، وقلة الأدب، وقد قال رسول الله ﷺ لأبى ذر الغفارى، رضى الله عنه: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يمت القلب، ويذهب بهاء الوجه»^(١). وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر ضحكك قلت هيئته^(٢)، ومن أكثر من شىء عرف به^(٣)، ولكن لا بد أن يرى الإنسان أو يسمع ما يغلب عليه الضحك منه، أو تمس الحاجة إليه لإيناس الجليس، فينبغى إذا طرأ شىء من ذلك أن يجعله تبسماً من غير فقهة واسترسال، وليراع فيه الشرط الذى قدمناه فى المزح^(٤).

الوصف الخامس عشر الغدر: اعلم أن الغدر بعد عقد العهد حرام، وعاقبته هلاك ودمار، إذ لا نقض حتى ينقضى أمده وتنقضى مدده، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وروى سليمان بن عامر، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، فسار معاوية فى أرضهم، كأنه يريد أن يغير عليهم، فقال له عمر بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحل عقده، ولا يشدها، حتى يمضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فانصرف معاوية ذلك العام.

وقال بعض الحكماء: الغدر يسرع إلى الهلك، ويفضى إلى زوال الملك. وكان يقال لكل عاثر راحم، إلا الغادر، فإن القلوب مجمعة على الشماتة بصرعه. وقال حكيم لبعض ملوك زمانه: أوصيك بخمس خصال ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعدن وعداً ليس فى يديك وفاؤه، واعلم أن الأمور بغتة، فكن على حذر، واعلم أن الأمور جزاء ومكافأة، فاتق العواقب،

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧٦/٢ - ٧٩) ح (٣٦١)، والطبرانى فى الكبير (١٥٧/٢) ح (١٦٥١)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم، وأبو زرعة. انظر: مجمع الزوائد (٢٩٦/١٠).

(٢) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص ١٨٧).

(٣) وقال الخليفة على، عليه السلام: إذا ضحك العالم ضحكة مَجَّ من العلم مَجَّةً.

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص ١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص ٣٢٥ -

وأوصى أبو مسلم الخراسانى قومًا بعثهم إلى منازل قوم عدو لهم: أشعروا قلوبكم الجراءة، فإنها سبب الظفر، وأكثروا من ذكر الضغائن، فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة، فإنها حصن المحارب، واحذروا من الغدر، فإن الغادر مصروع. ويحكى أن موبدان قال لفيروز ملك العجم لما عزم على نقض العهد الذى كان بينه وبين الخنشوار ملك الهياطلة، وخرج إلى بلده: أيها الملك، إن الرب تعالى يمهّل الملوك على الجور ما لم يشرعوا فى هدم أركان الدين، فإذا شرعوا فى ذلك لم يمهّلهم، فإن عقدوا ميثاقًا من أركان الدين فلا تنقضه، قال: فلم يلتفت إليه فيروز، وخرج طالب الخنشوار، فهزم جيشه، وقتله واستولى على بلاده.

وقد أوضحنا فى هذا الباب من الأوصاف الذميمة، والأخلاق اللثيمة ما احتمله كتابنا هذا، وسنختمه بذكر عوارض رديئة ربما عرضت للملوك أو بعضها، فأضرت بهم وأخرجتهم عن حدود الاعتدال، وهى ثلاثة أعراض، الأول والثانى الهم والغم، فإن هذين العرضين إذا طرأ واشتد إفراطهما، فإنهما يحدثان من الألم والأذى على النفس والجسم ما لا يمكن تلافيه، ويؤديان إلى التقصير فى المطالب، والقصور فى التدبير، مع ما يظهر فى الجسم من النحول، وفى العقل من الذهول، وهذان العرضان لا مندوحة لأحد عنهما، ولا بد من طروءهما فى مقابلة الحوادث الملمة، والنوائب المهمة، فالهم هو خوف ما يتوقع حدوثه وطروءه فى الزمن المستقبل من الأمور المهمة، والغم هو كمد النفس وحزنها على ما ذهب إليه الزمان الماضى، فينبغى للملك أن يريح نفسه وجسده عند طروء أحدهما، وينال شيئاً من اللذة والسرور بالأشياء المباحة فى الشرع، بقدر ما يبلغ به مصلحته، ويحفظ به صحته.

وينبغى أن يكون مقدار إصابته من ذلك ما يحصل به الاعتدال من غير إفراط فيه، فإن الإكثار من اللهو يحصل به من الضرر فوق ما يحصل به من الغم، فإنه يلهيه عن مصالح المملكة، والاعتدال فى ذلك أسلم، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، رحمه الله، إذا طرأ عليه أحد هذين العرضين، نزل إلى الميدان، وجعل يلعب حتى بالكرة والصولجان نهاره، فإذا جن عليه الليل بسط رقعة الشطرنج، وجعل يلعب حتى يغلب عليه النوم.

العرض الثالث السكر من الشراب، اعلم أن السكر حرام فى جميع الأديان، وإنما

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى ١٣٧
اختلفوا فى عين المسكر، وقد أجمع أهل العقل على قبج السكر، مع تحريم الشرائع له،
وهو من الأعراض الرديئة المفضية بصاحبها إلى البلايا والأسقام، وقد ذكر أهل الطب أن
الإفراط من السكر ربما حدث منه فى وقت السكت والاختناق، وربما حدث منه انفجار
الشريانات التى فى الدماغ، ويحدث منه فى غير وقته الحميات الحارة، والأورام الدموية
والصفراوية، وتحدث منه الرعشة والفالج، هذا كله مع ما يجلب على صاحبه من فقد
العقل، وهتك الستر، وإفشاء السر، والاشتغال عن درك المطالب، ولا يكاد صاحبه
يسمو له حال، ولا يستقيم له أمر فى تدبير، ولا يزال منحط الرتبة عند نظرائه، مسلوب
الوقار فى أعين الناس، وأكثر ما ينصب الغوائل والمكائد للملوك فى حال
سكرهم، هذا كله مع ما يؤول السكر بصاحبه فى الآخرة إلى العذاب المهين،
والنكال الدائم.

* * *

الباب السابع

فى كيفية رتبة الملك وأوليائه فى حال جلوسه وركوبه

اعلم أن ملوك الأمم على اختلاف أجناسهم، كانت لهم سنن وآداب يميزون بها،
وأقاموا أبهتهم بالمواظبة عليها، يضيق كتابنا هذا عنها وعن شرحها، ولا فائدة فى
ذكرها؛ لأن الشرع ورد بالنهى عن التشبه بها، بل تقتصر فى ذلك على مثال ما رتبته
فى ذلك الخلفاء من بنى العباس، إذ هم قدوة ملوك الناس، وسنذكر من ذلك قدر
الحاجة على سبيل الاختصار، فنقول: ينبغى للملك أن يجعل جلوس طبقات أصحابه
وأعوانه وأوليائه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: يجلس فيها الجند والغلمان الذين ليس لهم مزية على غيرهم.

المرتبة الثانية: يجلس فيها القواد المتوسطون الذين قد ولوا الأعمال من قبل الأمراء،
ومن يجرى مجراهم من الطواشية وغيرهم.

المرتبة الثالثة: يجلس فيها الأمراء والأكابر الذين يتولون الأعمال، ويخطب لهم على
المنابر، وكبار الحجاب، والعلماء، والقضاة، وهذه المرتبة تسمى دهليز الخاصة، وهو
القريب من الستر.

فإذا جلس الناس لا يختلط قوم بغيرهم، ولا يعلو أحد منهم فى الجلسة على من هو

فوقه، ويطرقهم الحجاب طول جلوسهم، فإذا جلس أحد فى غير مرتبته أقامه إليها، ويجلس صاحب الحجاب ملاصقاً للوزير، والباب الذى يوصل منه إلى الملك؛ لأنه أول من يصل إليه، ويكون الستر مسبلاً على الباب، ويمسكه البوابون الفحول، ولا يطلقونه لأحد لأجل الاطلاع منه إلى صحن الدار التى يجلس فيها الملك، فإذا خرج الملك مع خدمه، وجلس على سريره المفروش، وقف على رأسه الخادم الخاص، ويكون ممن له فطنة، وصورة حسنة مقبولة، ثم يخرج الخادم الحربى صاحب الرسالة، فيستدعى صاحب الحجاب، فيدخل وحده، ولا يشال الستر لكن بعضه حتى يقف فى صحن الدار بين يدى الملك، ثم يستدعى الوزير، فيتقدم الحاجب، ثم يمشى إلى أن يقرب من السرير، فيتقدم وحده ويرجع عنه الحاجب إفراداً له عما يعامل به سائر الناس من التقدم معه، فيخدم الملك، ثم يقف عن يمين السرير على نحو خمسة أذرع منه، ثم يدخل أمير الجيش بعده، فيمشى معه الحاجب كما فعل بالوزير، فيخدم الملك، ثم يقف على يسرة السرير.

ثم يدعى بالحجاب فيدخلون، وبالخدم الرؤساء فيدخلون، ثم يدعى بالأمراء القواد، فيوصلهم الحجاب ويقفون على مراتبهم بمنة ويسرة على حسب محالهم ومواقعهم من المراتب، ولا يتقدم أحد على غيره، ثم يدعى بالعلماء والفقهاء والقضاة، فيجلسون دون الوزير على يمنة السرير، ثم يستدعى رؤساء الأطباء، فيقفون بارزين، فإذا احتاج لشيء من علمهم، كانوا حاضرين يعلمون به الملك بعد خروج الناس، ثم يستدعى بالغلمان والجنود، فيقيمون بارزين صفاً مفرداً خلف الناس، ثم يخرج الناس عن طبقاتهم بعد وقوفهم ساعة، وبعد أن يلحظهم الملك، ويشاهد حضورهم، ويعرف من يتخلف من وجوههم، وليحذر كل من يقف بين يدى الملك أن يتشاور أو يتحدث مع أحد.

ثم يتخلف الوزير ساعة طويلة، وقد ينحى صاحب المرتبة الكبيرة من موضعه إلى أن يشاور الوزير الملك فيما يحتاج الأمر إلى مشاورته، ومن أدب الوزير أن يأخذ المذبة الصغيرة ويروح على الملك بها، ويكون صاحب الحجاب واقفاً بالبعد، بحيث إذا دعى أجاب، ثم يخرج الوزير بعد ذلك ومعه الحاجب، فيجلسان فى الدهليز، وينظران إلى أعمال الملك المهمة وحوائج العامة، ويرجع الناس إلى مراتبهم وأعمالهم، وإذا أراد الملك أن يركب فى موكبه، فتمشى الخدم قدامه وهم متحفظون على أسلحتهم، إلى أن يوصلوه موضع الركوب فيركبوه، وقد تقدمهم قطعة من الحجاب قدام الموكب، يطرقون ويمنعون أحداً من سلوك الطرقات، وتكون الخيل المسومة بأحسن العدد من جنب وقدام الملك، ويكون الوزير وراء الملك، بحيث إذا دعى أجاب، ولا يخرج الملك

إلى الالتفاف له بعنقه، فإذا استتم كلام الملك رجع إلى وراء الملك.

ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم وسائر طبقات العسكر، ثم يتبع ذلك بغال الشراب وبغال الماء، وتكون بارزة بحيث ترى، ولا يزاحمها الموكب، ويكون معه بغال الكسوة، وفيها بغال معدة، ويكون معها بغل عليه صندوقان يعد فيهما ما خف من الأطعمة، ويكون خلف الخدم خادما الجوائز والصدقات، ومعه حقيبة فيها صرار من خمسة دراهم إلى مائة إلى ألف، فإذا أمر الملك بمبلغ عرفه وأعطاه إلى صاحبه، ويكون في الموكب الفقهاء، والعلماء، والفضلاء، والمؤذنون؛ ليحصل بهم الرحمة، وإذا وصل الملك إلى قصره تراجع الناس أجمع.

ولا يكثر الملك من الركوب، فإن هيئته كالأسد في قلوب أهل البلد من الذين حوله، ولا يتحجب، فإن ذلك مضر بالملك، بل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم، فإن السباع الكاسرة إذا لم تشاهد الراعى بلغت مرادها من الغنم.

* * *

الباب الثامن

المشورة والحث عليها

اعلم أن المشورة عين الهداية، وسبيل الرشاد إلى الأمر، وإيضاح المبهم من الرأى، ومفتاح المغلق من الصواب، وقد حث الشرع عليها، وندب الخلق إليها، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال الحسن البصرى، رضى الله عنه: أمره بالمشاورة ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل به^(١)، وقال الضحاك: أمره بالمشاورة لما علم ما فيها من الفضل، وما يعود منها من النفع^(٢)، ولأن إرسال الخواطر الثاقبة، وأصالة الأفكار الصافية لا يكاد يعزب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز، والمستبد برأيه بعيد من الصواب، قريب من الزلل، وقد قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس»^(٣)، وما استغنى مستبد

(١) عزاه الحافظ السيوطى لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى لابن أبى شبة، وابن جرير، وابن أبى حاتم. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٣) إلى هنا أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٦٢/٣) ح (٤٨٤٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للطبرانى فى الصغير، وقال: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٧/٨).

١٤٠ كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزرى
برأيه، وما هلك أحد عن مشورة، وإذا أراد الله بعبد هلكة، كان أول ما يهلكه
رأيه^(١)، وقال رسول الله ﷺ: «نقحوا عقولكم بالذاكرة، واستعينوا على أموركم
بالمشورة»^(٢).

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من
استغنى برأيه^(٣)، وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاستشهاد أحمد من الصواب بالاستبداد.
وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك، فشاوره ليكمل لك الرأى. وكان يقال:
إذا أشكلت عليك الأمور، فارجع إلى رأى العقلاء، ولا تأنف من الاسترشاد يشرك
العباد، فإن تسأل وتسلم خير لك من أن تصيب وتندم. وقال بعض الحكماء: مسترشد
ضعيف الحيل خير من عاقل مستكمل رأيه.

ويقال: التردد خير من العجلة، وإذا اقتصر الملك برأيه، عميت عليه المراسد. وقال
حكيم من الفرس: النظر فى الأمور من العزم، والعزم من الرأى، والرأى سلامة من
التفريط، وسلامة التفريط داعية إلى الظفر، والتدبير والفكر يبحثان عن الفطنة،
ويكشفان عن الحزم، ومشاورة الحكماء ثبات فى اليقين، وقوة فى البصيرة، ففكر قبل
أن تعزم، واعزم قبل أن تصرم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وكان يقال:
ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حصنت النعم بمثل المداراة، ولا اكتسبت البغضة
بمثل الكبر.

وقال عبد الملك بن مروان: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلى من أن أصيب وقد
اكتفيت برأى وأمضيته بغير مشورة؛ لأن المقتصر برأيه يزرى به أمران: تصديقه رأيا
الواجب عليه تكذيبه، وتركه المشورة التى يزداد به بصيرة^(٤)، ولهذا شعر:

إذا الأمر أشكل إنفاذه ولم تر منه سيلا فسيحا
فشاور عليه ولا تخفه أخاك اللبيب الأديب الفصيحا
فرمعا أفرج الناصحون وأبدوا من الرأى رأيا صحيحا

وقال محمود الوراق:

(١) أورده الشيخ الماوردى هكذا فى أدب الدنيا والدين (ص ١٧٥).

(٢) لم أجده، والتقصير منّا.

(٣) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص ١٧٥).

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص ١٧٣ - ١٧٩).

إن اللبيب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال آخر:

شاور صديقك في الخفى المشكل واقبل نصيحة صاحب متفضل
فالله قد أوصى بذلك نبيه فى قول شاورهم به وتوكل

* * *

الباب التاسع

فى بيان أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة

اعلم أنه اختلف الناس فى أهل الشورى، هل الأولى أن يجمعهم الملك على رأى، أو
ينفرد بكل واحد منهم فى المشورة، فذهبت العرب والفرس وملوك الهند إلى أن الأولى
اجتماعهم فى تدبير رأى، وأصالة الفكر؛ لذكر كل واحد ما قدحه فكره، ويبين نتيجة
فكرته، حتى إذا كان هناك ضرر فى الأمر ذكروه، وإن توجه عليه نقض نقضوه، وأنه لا
يبقى فى رأى مع اجتماع القرائح خلل إلا ظهر واشتهر.

وذهب الروم وملوك القبط إلى أن الأولى انفراد كل واحد بالمشورة؛ ليحيل فكره،
ويستجدى خاطره للوصول إلى صواب رأى، فإن القرائح إذا انفردت استكرها
الفكر، واستفرغها الجهد، وإذا اجتمعت كان أول ما بدا به الرأى متبوعاً، وينبغى أن
يجتمع فى أهل الشورى سبع شروط عليها مدار المشورة، وبها يشتمل صواب رأى:

أحدها: الفطنة والذكاء؛ لئلا تشبه عليهم الأمور فتلتبس، فلا يصح مع اشتباها
عزم، ولا يتم فى التباسها حزم.

والثانى: الأمانة؛ لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه، أو يغشوا فيما استنصحوها فيه.

الثالث: الصدق، صدق اللهجة بخبرهم؛ ليثق الملك فيما ينهون إليه، ويعمل برأيهم
فيما أشاروا به عليه.

الرابع: أن يسلّموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس، فإن ذلك يمنعهم من الكشف
عن صواب رأى.

الخامس: أن يسلّموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء، فإن العداوة

تستدعى التناصف، وتحجب عن صواب الرأى.

السادس: أن لا يكونوا من أهل الأهواء، فيخرجهم الهوى عن الحق إلى الباطل، فإن الهوى خادع الألباب، وصارف الرأى عن الصواب.

السابع: أن يكونوا من كبراء الدولة، ومشائخ الأعوان؛ لأن المشائخ قد حنكتهم التجارب، وعركتهم النوائب، وقد شاهدوا من اختلاف الدول ما أوضح لعقولهم صواب الرأى.

وقد كانت العرب تقول: المشائخ أشجار الوقار، ومنابع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم. وقد كان يقال: عليك بآراء المشائخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأسماعهم آثار الغبر. وحكى أن المأمون قال لأولاده: يا بنى، ارجعوا فيما اشتبه عليكم إلى رأى أهل الحزم من أعوانكم المحبرين المشائخ المشفقين، فإنهم يرون لكم ما لا ترون، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون، فقد صحبوا لكم الدهور، ومارسوا لكم الأمور، وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها، وإقبالها وإدبارها، فروضوا أنفسكم لهم، وتجرعوا مرارتهم، فقد قيل: من جرّعك مرّاً لتبرأ، شفق عليك ممن جرّعك حلواً لتسقم.

وينبغى أن لا يدخل الملك فى مشورة بخیلاً، ولا جباناً، ولا حريصاً، ولا معجباً، ولا كذاباً؛ لأن البخيل يقصر بعقله، والجبان يخوفك ما لا تخاف، والحريص يعدك ما لا يرجى، فقد كان يقال: البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة، يجمعها سوء الظن. وقال عبد الملك بن مروان لبعض عماله: لا تستعن فى أمر دهمك كذاباً، ولا معجباً، فإن الكذاب يقرب لك البعيد، ويبعد عنك القريب، وأما المعجب، فليس له رأى صحيح، ولا رواية تسلم.

وينبغى للملك إذا أتى كل أحد بما عنده من الرأى، أن يتصفح أقوالهم، ويكشف عن أصولها وأسبابها، ويبحث عن نتائجها وعواقبها، مع مشاركتهم جميعاً فى الارتياض والاجتهاد، وليتوقف فى ذلك، وليحذر مبادرة العمل بالرأى قبل إمعان النظر فيه، فقد قيل: أضعف الرأى ما منح للبديهية ابتداء، وأفضله ما تكررت الفكرة بعده، وأحكمت الروية عقده. وكان يقال: كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة، فهو مولود لغير تمام.

قال عبد الله بن وهب: رأى ابن ثلاث، فإن عيوبه تكشف لكم عن محضه. وقال ابن هبيرة وهو يؤدب ولده: لا تكن أول مشير، وإياك والرأى الفطير، ولهذا شعر لبعض أهل الفضل:

وإذا الخطوب عليك يوماً أشكلت فاعمد لرأى أخ حكيم مرشد
فإذا استشرت فكن لنفسك رائدا متوخيا حد الرشاد فتهدى

قال: فإذا تكرر له الرأى الصحيح بعد الفكرة والروية شرع فى إمضائه والعمل به، وينتهاز فيه الفرصة، وليحذر مخالفة النصحاء والاستهانة بنصائحهم، فقد قيل: من عصى ناصحاً فقد استدعى عدواً. وكان يقال: يستدل على إدبار أمر الملك بخمسة أشياء، أحدها: أن يستكفى الأحداث الذين لا خبرة لهم بموارد الأمور ومصادرها. الثانى: أن يقصد أهل مودته بالأذى. الثالث: أن ينقص خراجة عن مؤنة ملكه. الرابع: أن يكون بتقريبه وإبعاده إنما هو للهوى لا للرأى. الخامس: استهانتة بنصائح العقلاء، وآراء ذوى الحفلة. قال كسرى أنوشروان: حزم الرأى مشورة أهل العلم. وقال أهل الفضل:

إذا ما الأمور عليك التوت فشاور لبيئاً ولا تعصه
وإن كنت فى حاجة مرسلأ فارسل حكيماً ولا توصه

وقال أبو الفتح البستى:

فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
فلا تكن عجلاً فى الأمر تطلبه فليس يحمد قبل التضح بحران

وسنختم هذا الباب بثلاث حكايات موضحة لما شرحناه:

الحكاية الاولى: قيل: إن كسرى أنوشروان وصفت له أرض من التخوم الهندية تقارب أقصى بلاده بحسن المنظر، وطيب الهواء، وكثرة العمائر، وحصانة المعازل، ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم، وبلادة الفهوم، وشجاعة النفوس، وقوة الأبدان، والصبر على ملازمة الطاعة لملكهم، ولين القياد، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض، فسأل عن ملكها، فأخبروه أنه عظيم المنظر، وأنه شاب منقاد إلى شهوته، مقبل على لذاته، غير أن رعيته قد أشربت قلوبها وده، وانصرفت آمالها إلى ما عنده.

١٤٤ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى

قال: فجمع كسرى وزراره، وأعلمهم أن نفسه شائقة إلى تملك تلك الأرض، وعرفهم صفات مالكتها، وهو أن لا ركن له غير إقبال رعيته إلى طاعته ومحبتة، فاجتمع رأيهم على أن ينتدب لاستفساد رعية ذلك الملك رجالاً يحسنون نصب الدعوات، وقلب السبل.

قال: فأحضر رجالاً من دهاة العرب وفتاكهم، وأمدهم بالأموال، ونصب لهم مثلاً يعملون عليه، فنفذوا لما أمرهم، وتفرقوا في تلك المملكة، وأعمل كل منهم قوته فيما انتدب له، وأحكموا أمرهم في عامين، وبثوا الدعوة في تلك المدينة وغيرها من قراها ورسايقها ومعاقلها وثغورها، واستمالوا قلوب الرعية إلى كسرى، فأحضروا المرزبان الذى به تلك الأرض وأمره بالتجهيز إليها، فلما أخذ المرزبان فى إعداد الجند، وكان عسكره خمسين ألف رأس سوى أتباعها، فكتب إلى الملك عيونه يخبرونه بخروج المرزبان إليه، ثم ظهر النفاق ببلاده، وهمس الناس فيه، فانتبه من غفلته، وبحث على الأمر، فوقف على حقيقته، وكان أمر مملكته يدور على خمس رجال، أربعة منهم هم وزراؤه وجلساؤه، والخامس رئيس الزمارة الذين يأخذون عنه الدين، وكان حكيماً عالماً.

قال: فجمعهم الملك، وأطلعهم على ما انتهى إليه من فساد الرعية، وتجهز جيوش أنوشروان إلى جهتهم، وأمرهم فى نظر ذلك، وإمعان الفكر فيه، فجلسوا إلى إدارة الرأى، فقال أحدهم من الوزراء الأربعة: الرأى أن يستصلح الملك برعيته، ويملاً قلوبها رغبات، ويحسن آمالها، فإن العدو إذا علم، كان ذلك حائلاً له عن الإقدام، وإن أقدم لقيناه كلنا بكلمة مجتمعة، وقلوب سليمة، فقال له رئيس الزمارة: هذا لو كان فساد الرعية أوجبه جور وعسف، فيزال حكم الفساد بإزاحة علتة، وأما فساد هؤلاء، فإنما أورده عليهم الجهل بمواقع الصواب، والنظر لترادف النعم، وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر، لم تزدهم التكرمة إلا فساداً: الولد، والزوجة، والخادم، والرعية، فإن هذه الأربعة إذا هاجت لم تزدها المداراة والرفق إلا طغياناً وهيجاناً، قال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثانى: الرأى أن تضرب بمن صلح من الرعية من فسد فيها، حتى ترجع راغمة منقادة، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله، فقال رئيس الزمارة: هذا أنفع لعدوك من جيشه، وأدعى إلى طاعته من دعارته؛ لأننا نعلم أن الرعية لا تخلو من عاقل محروم، لم يمنعه من سل سيفه إلا الخوف، وإذا فعل الملك ما أشرت به، فقد أباحه سل سيفه، وإذا سل سيفه لم يسله لنا، بل إنما يسله علينا، ويتبعه الجمهور لما قد طبعوا عليه من حسد

الملوك، والتعصب للضعفاء، وقد قيل: أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربعة أحوال هلك بها، وهى: الملك فى حال غضبه، والسبك فى حال هجومه، والفيل فى حال غلمته، والرعية فى حال هيجانها، ومعنى السبك الجدرى فى حال انبعاته إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة، فقال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثالث: الرأى أن يطلب الملك تعيين من فسدت طاعته بالأمناء من الجواسيس، فإذا تعينوا عوملوا بما تقتضيه أحوالهم من قلة أو كثرة، فقال رئيس الزمارة: إن البحث الآن عن هذا خطر؛ لأنه لا بد أن يفطن له، وإذا فطن له خاف المريب فحذر، ثم لا يخلو أمره بعد ذلك من حالين، إما يتحرك إلى جهة عدونا، فيعتمد بالنصائح والدلالة على العورات، ويتكثر علينا بأشكاله من الرعية، فينصرونه علينا، وإن لم يكونوا على مثل رأيه؛ لأن من الرعية من أحقده الحرمان، ومن أحقده التأديب، وجمهور الرعية يتعصبون على الأجناد؛ لأنهم لم يسلموا منهم أذى واستطالة، فإن شمعوا أفسدوا المملكة، وإن قصدوا المسىء بالعقوبة المشاكلة له ولو كانوا أعداء له، كما أن الكلبان إذا تهاارشا فرأيا ذئبًا، فإنهما يتركان تهاارشهما ويجمعان على الذئب، وإن كان مثلهما فى الخلقة لكونهما يعاديهما، فيصطلحان على التعاون عليه، وكذلك العامى لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى، بل ينظر إليه من حيث نفوذه، وأنفته، وعلو همته، وجرأته، وشجاعته، وكثرة ماله، فينافره ويألف إلى العامى الذى هو يشاكله فى جهله وطبعه، وغير ذلك من أخلاقه.

ولا تخلو الرعية من ناسك أحق، يظن أنه يغضب للدين، فيحملة حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة، فيكون أمره فى الرعية أنفذ من أمر الملك فى الجند، وقيل: ثلاثة إن كاشفتهم بامتحان ما عندهم فى ثلاثة أحوال خسرتهم، أحدهم: المؤدب إذا امتحنت ما عنده من العلم فى حال تأديبك. الثانى: صديقك إذا امتحنت ما عنده من البذل فى حال فافتك. الثالث: زوجتك إذا امتحنت ما عندها من المحبة فى حال كهولتك، وامتحان الرعية فى هذه الحالة أشد شيئاً مما ذكرناه، وقد قال الحكماء: للدولة أمراض يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: ما يعرض للملك من الكبر، وما يعرض له من الغضب، فإن دولته فى هاتين الحالتين تضطرب لخروجه عن حد الاعتدال فى السياسة، والثالث ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا حرص عسف وظلم. الرابع هيج الرعية، فقال الملك: صدق الحكيم.

١٤٦ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى

فقال الوزير الرابع، وكان أوسعهم علمًا، وأفضلهم رأيًا: إنى وأصحابى كأصابع الراحة فى حاجة بعضها إلى بعض، وقوام بعضها إلى الحاجة ببعض، وكل منا يستمد من نور الملك ونور عقله بنظره إلينا، كاستمداد النجوم الدرارى من نور الشمس، وأنى غير ما يراه أصحابى لا مبرقعا عليهم، ولا عائبا إلى رأيهم؛ لأن القبول والرأى والرد إلى الملك لا إلى غيره، فإن أذن الملك ذكرته، فقال الملك: قل يا أيها الوزير الناصح، فلك ولأصحابك عندنا الثقة بكم والكرامة لكم؛ لأنكم فى المناصحة لنا وغيرها كالحواس الخمس للقلب، فسجدوا له، ثم رفعوا رءوسهم، فقال: إن الرعية قليلة النظر فى العواقب، غير متحفظة من المعاطب، وقد دب فيها سم الفساد، ومكاشفها الآن خطر، والظفر بها وهن فى الملك، والعدو قوى الطمع لا مندوحة لنا عن محاربته، فإن رأى الملك أن يصرف همته أولاً إلى الاستظهار باتخاذ معقل حريز يأمن فيه أهله وخواصه وذخائره ومن خلصت نيته من رعيته، فإنى أعرف فى مملكته معقلاً شاهقاً يطل على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب، وهو مع ذلك لذيذ الهواء، كثير الماء، وقد كان بعض أسلاف الملك اثر فيه آثاراً محكمة، فإن رأى الملك أن يتم به سعى سلفه، ثم يودعه ذخائره ويجعله للإقامة استظهاراً، ثم يلقي عدوه إن قدم على بلاده، فإن ظهرت خيانة أنصاره انحاز بأوليائه إلى ذلك المعقل، وألزم نفسه الصبر وانتظار الفرج.

قال: فسر الملك برأى الوزير، ووقع إجماعهم والحكيم أيضاً على ترجيحه، فركب الملك فى خاصته وجماعته، حتى أتى ذلك المعقل، فحشد إليه الأعوان، وألزمهم الإسراع فى إكمال بنائه، وبادر من فوره، فنقل إليه خاص بيوت أمواله، ونفائس ذخائره، وخزائن سلاحه، وشحنه بالأقوات والأطعمة، وهو مع ذلك يسد الثغور. وإن المرزبان اقتحم أطراف بلاده بالجيوش المتوفرة، ونازل الثغور، وظهرت دعاة كسرى فى من استعمده فى تلك الناحية، ومن استماله من أهلها، فظهر المرزبان على من نازله، ثم جعل يطوى بلاد الملك لا يمتنع عليه مرام، حتى وافته جنوده، فدافعته بعض المدافعة، فانهزم من فسدت نيته، وانهزم المناصحون إلى ذلك المعقل، واستوى المرزبان على تلك الأرض، وانحاز الملك وأتباعه المناصحون إلى ذلك المعقل، فسار خلفه المرزبان حتى أشرف على معقله، فرآه مداعماً ومعقلاً مانعاً، فلم يمكنه النزول بساحته، فرجع من فوره إلى البلاد، فولى فيها الولاة والعمال، واستقامت المملكة إلى المرزبان.

ثم أن الفرس جعلوا يعاملون أهل الهند بالقوة والفضاظة، ويعبثون بهم ويسخرون

منهم، فبدت الشحنة في النفوس، ورأى أهل الهند خراج بلادهم يحمل ويصرف إلى غيرهم، وقد دخلوا تحت حكم الأعاجم، وداخلتهم الغيرة والحمية، فعرفوا فضل ما كانوا فيه، ومشقة ما صاروا إليه، فتوقف المرزبان عن ردعهم لئلا يوحشهم، فكان أمرهم إلى زيادة، وأما ملكهم، فإن وزراء أشاروا عليه بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وبذل المال، والصفح عن الجرم، وتألف المستوحشين، فكانت سمعته تزداد حسناً، والنفوس إليه ميلاً، والألسنة إليه شكرًا، والمرزبان بعكس ذلك.

واتفق أن غلامًا من عمال المرزبان على بعض الثغور ساء السيرة، فقام إلى ناسك من نساك الهند يعظه، فغضب عليه، وأمر بقتله، فثار أهل البلد على العامل فقتلوه، فبلغ المرزبان الخبر، فجاء بجنوده، فأنحاز أهل تلك الناحية إلى حصن ملكهم، ثم ثارت الهنود في البلاد على ولايتهم من العجم فقتلوه، وخرج الملك من حصنه، فجمع إليه أهل البلاد، وسار المرزبان راجعًا إلى بلاده لما قامت عليه الرعية، وخرج من تلك المملكة، وعاد الملك إلى دار مملكته، فجرى على سنن العدل، قامعًا للشهوات، باذلاً مجهوده، مستعملًا ما أفادته التجارب من الأدب حتى بلغ أجله.

الحكاية الثانية: قيل: لما عزم الأمين على انتزاع العهد بالخلافة من أخيه المأمون، وكان المأمون أميرًا بخراسان، وكتب إليه الأمين يستدعيه ويذكر حاجته إليه، وأنه يريد له أمر مهم تضيق عنه الكتب، وأن جواسيس المأمون وعيونه ببغداد كتبوا إليه يعرفونه أن أخاه الأمين يريد تحويل الخلافة عنه إلى ولده موسى الناطق، فأطلع المأمون خاصته على الخبر، واستشارهم في أمره، فأشار عليه أن يثبت مكانه وينتظر الفرص، ويكتب إلى أخيه مكتوبًا يعتذر له ويتعلل بأعلال، ففعل ذلك، فعلم الأمين أنه قد فطن لما يراد به، وآيس من نتاج مكيدته، فحينئذ دعا الناس إلى خلغ المأمون من الخلافة.

ثم التفت إلى علي بن موسى بن همام، وشاوره في أمر خراسان بعد ذلك، وأن يصطنع إلى أهلها بجلائل الصنائع، ويغمرهم بالإحسان والعدل، فضمن له ما يريد منها، فجهزه الأمين بأحسن جهاز، وولاه خراسان، وبعد ذلك جهز معه جمهور جنوده، فخرج على بن موسى بالجند طالبًا خراسان، فبلغ ذلك إلى المأمون، فاضطرب منه، وعلم أنه يعجز عن مقاومة علي بن موسى؛ لميل أهل خراسان إليه ومحبتهم له، فركب إلى منزله له يشاور وزراءه في تدبير أمره، فعارضه في الطريق شيخ مجوسى قد انجذب من هرمه وكبره، فناداه بالفارسية مستغيثًا به من مظلمة نالته، فلما نظر المأمون إلى هرمه

وكبر سنه، رق له، وأمر أن يحمل على دابة إلى الموضع الذى قصده، ويدخل عليه بغير استئذان.

ولما استقر المأمون ووزارؤه فى هذا الموضع، أدخل عليه ذلك المجوسى، فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس، ثم أقبل على خاصته وأخبرهم بما انتهى إليه من أمر على ابن موسى، وأمرهم بإدارة الفكر فى رأى فى ذلك، وهو يظن أن ذلك الشيخ لا يحسن العربية، فقال أحد الوزراء: رأى اصطناع أجناد من العوام الذين لا يعرفون على بن موسى، فتلقيه بهم قبل دخوله خراسان، فقال الوزير الثانى: رأى أن تبادر بالإرسال إلى أخيك معتذراً ومنقاداً لما أراده منك اليوم، ومنتظراً نصر الله تعالى فى غد، فإنك مكره على الخروج من عهدة الخلافة كرهاً لم يخف على أحد من الناس، فهو حق لك متى أمكنك طلبته، وكنت فيه على حجة ظاهرة.

وقال الوزير الثالث: رأى أن تجتمع بمن تثق من موالاته من ذى النجدة والشجاعة، فتزيح عنهم، وتقصد بهم بعض هذه البلاد الكافرة من الممالك المجاورة لنا، ثم نصدقهم القتال، فلعل الله تعالى أن يظفرنا بهم، فنصير بعد إلى مملكة منيعة، ويفزع إلينا من كان على امتثال أمرنا، فمنتنع ونجاهد حتى يقضى الله أمره، وقال الوزير الرابع: رأى أن تستغيث بملك الترك مستجيراً به ومستعيناً على أخيك الغادر، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به.

فلما سمع المأمون كلامهم جميعاً، قال لهم: قوموا عني حتى أنظر فيما ذكره كل واحد منكم، ثم التفت إلى الشيخ فناده، ورفق به، وسأله عن حاجته، فقال له: كنت جئت لحاجة، فعرض لى ما هو أوكد منها، فقال له المأمون: تكلم ما فى نفسك، فقال: أيها الملك، لا تصدنك حقارة قدرى، فإن الدرة النفيسة لا يزرى بها حقارة الغواص، فقال له المأمون: تكلم أيها الشيخ بما عندك، قال: إني سمعت ما أشار به القوم عليك، وكل منهم مجتهد فى الإصابة، وإني لست أرضى شيئاً مما قالوه، وإني وجدت فى الحكم الذى أخذها آبائي عن آبائهم: إنه ينبغى العقل إذا دهمه ما لا قبل له به، أن يلزم نفسه التسليم لأحكام الحكيم، واهب العقل، وقاسم الحظوظ، ولا يترك مع ذلك الاندفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر أمن الغدر.

فقال له المأمون: إن هذا الرجل الذى قصدنا ليملك منا البلاد لا يمكننا مقاومته، قال الشيخ: ينبغى أن تمحو هذا من نفسك، ولا تصطفى من ينطق به، فإنه ما كثر من كثره

البغى، ولا قوى من قواه الظلم، وإن أخاك ظالم لك، باغ عليك، فهو هالك لا محالة، وأنت منصور عليه ظافر به، وسأحدثك حديثاً إن حدوث مثاله نلت مثاله، فقال المأمون: هات يا شيخ، قال: إن الخنشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس، وأراد إطلاقه، أخذ عليه العهد لا يغزو بلاده، ولا يقصده بمكرهه، ولا يتعرض إليه بسوء، ووضع فى أقصى أرض الهياطلة صخرة، وتحالفا على أن لا يتجاوز أحد منهما تلك الصخرة بجيش ولا بمكرهه لصاحبه، ثم أطلقه بعدما استوثق منه الخنشوار بالعهود.

فلما وصل فيروز إلى دار ملكه، دخلته الحمية والأنفة، وعزم على غزو الخنشوار، وعلى أخذ بلاده، واستيفاء ثأره، فجمع وزراءه وشاورهم فى ذلك، فحذروه النكت، وخوفوه عاقبة البغى والغدر، فما ردعه ذلك عما عزم عليه، فذكروه أيمانته التى حلفها للخنشوار، والصخرة التى بين المملكتين، فقال: إنى عاهدته أن لا أتجاوز به جيوشى، وإذا أنا بلغت حملتها بين يدى جيوشى، ولا يتجاوزها أحد منهم، وإذا فعلت ذلك، فلا أكون ناكثاً ولا غادراً، فلما سمعوا ذلك منه، علموا أن الهوى قد وقف به على حد الرضى بهذا القول والتأويل، فأمسكوا عنه.

ثم أن فيروز جمع مرازبته، وهم أربعة، من كل مرزبان منهم خمسون ألف فارس، وأمرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة، فلما فعلوا ذلك سار بهم فيروز، وظن أن جيوش جنده لا غالب لها لكثرتها ولشدة شوكتها. قال: فعارضه موبدان فى طريقه، فقال: أيها الملك لا تفعل، فإن رب العزة وخالق العالم يمهل الملوك على الجور، ولا يمهلهم إذا أخذوا فى هدم أركان الدين، وإن العهود من أركان الدين، فلا تتعرض له بسوء فتهلك، فلم يلتفت إلى كلامه، وسار راكباً هواه فى معصيته، مخالفاً نصحاء، حتى انتهى إلى الصخرة التى جعلها حاجزاً بين أرضه وأرض الخنشوار، فحملها على فيل وسيرها بين يدى عسكره، وإن الخنشوار لما بلغه مسير فيروز إليه، حمل نفسه على الثبت، وفوض أمره إلى الله عز وجل، وسأله سبحانه وتعالى أن ينتقم ممن خان عهوده ومواثيقه التى لم يرع حقها فيروز إليه، ولا خاف عاقبة نكثها، وأخذ مع ذلك فى الجزم فى سد الثغور، وجمع جنده.

ثم خرج فيروز بعدما توسط أرضه، وجمع جنده وأتباعه، فحمل هو وجماعته، وصدقوا فى حملتهم، فانكشف فيروز منهزماً، وترك ما كان بيده، فقتل الخنشوار رجاله،

١٥٠ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى
ونهب أمواله، وأمن فى طلب فيروز، فظفر به وقتله، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه،
واستولى على بلاده، كل ذلك بسبب الغدر ونقض الميثاق، وكذلك يكون أخوك بسبب
نقضه لميثاق أبيك وغدرك، فإنك الظافر به لا محالة.

فلما سمع المأمون كلام الشيخ تهلل وجهه، وطابت نفسه، وقال: قد سمعت
مقالتك، فصادفت منا قبولاً لها، وشكراً عليها، وسروراً بها، ثم حياه وأكرمه وعمل
برأيه، فأبجح الله عمله، وبلغه من الخلافة أمله.

الحكاية الثالثة: قيل: إن عبد الملك بن مروان لما فرغ لقتال عبد الله بن الزبير،
وخرج بالجيش متوجهاً إلى مكة، شرفها الله تعالى وعظمها، وكان قد استصحب معه
عمرو بن سعيد بن العاص، وكان عمرو قد انطوى على دغل نية، وفساد طوية، وطمع
فى نيل الخلافة، فلما كان ببعض الطريق تمارض عمرو بن سعيد، وسأل عبد الملك بن
مروان فى العود إلى دمشق فأذن له فى العود، فلما دخل دمشق صعد المنبر، فخطب
الناس خطبة نال فيها من عبد الملك، ودعا الناس إلى نزع من الخلافة، فأجابوه إلى ذلك
وباعوه، واستولى على دمشق، وحرس صورها، وحمى ثغورها، وبذل الرغائب.

ثم اتصل الخبر إلى النعمان بن بشير أمير حمص، فنزع بيده من الطاعة أيضاً، وكذلك
صنع ظفر بن الحارث أمير قنسرين، وكذلك نايل بن قيس ملك فلسطين، ثم تسوف
أهل الثغور للخلاف، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فخرج على وزرائه وأهل خاصته،
وأطلعهم على ما بلغه، وقال: هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد،
وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن، وهذا النعمان بن بشير
أمير حمص، وظفر أمير قنسرين، ونايل بن قيس أمير فلسطين، قد نزعوا أيديهم من
الطاعة، وباع الناس لابن سعيد، وقد تسوف أهل الثغور للخلاف، فما عندكم من
الرأى؟.

قال: فلما سمعوا مقالته، ذهلت عقولهم، ونكسوا رءوسهم، فقال لهم: ما لكم لا
تنطقون؟ فهذا وقت الحاجة إليكم، هل ترون الرجوع إلى دمشق أصوب، أم التوجه إلى
ما خرجنا إليه أحزم، أم اللحاق بفلسطين، أم النزول على حمص واستئزال النعمان منها،
أم التوجه إلى مصر فى هذا الوقت أغنم؟ كيف ترون الرأى؟ قال أفضلهم: لا رأى عندنا
فى هذا، والله لقد وددت أن أكون طيراً على عود من أشجار تهامة حتى تنقضى هذه
الفتنة، قال: فلما سمع عبد الملك كلامه، علم أنه لا غنى له عندهم، فقام وأمرهم بلزوم

مواضعهم، وركب من فوره منفردًا، وهو يقول:

تكاثرت الظبَاء على خدأش فما يدري خدأش لمن يصيد

وأمر جماعة من أصحابه أن يركبوا متباعدين منه، بحيث يرون إشارته إذا أشار إليهم، وسار ثم تبعه القوم، فلم يزل سائرًا منفردًا، حتى أتى إلى شيخ كبير السن، ضعيف الجسم، يجتنى العفص من الأشجار، فسلم عليه عبد الملك، وقال له: ألك علم بمنزل هذا العسكر؟ قال: بلغنى أنهم نزلوا بأرض كذا وكذا، قال: فهل بلغك شيء بما يقول الناس فى أمر الخليفة؟ قال: فما سؤالك عن ذلك؟ قال: إني أريد اللحاق به والدخول عليه، وقد سمعت أن عمرو بن سعيد خالفه إلى دمشق واستولى عليها، فقال الشيخ: إني أراك أديبًا، وأحس بك حسيبًا، فهل تحب أن أنصح لك؟ قال: نعم أيها الشيخ، قال: ينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الأمر الذى ترغب إليه، فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه، وقد نابذه أتباعه، واضطرب فى أموره، وإن السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه، لا ينبغي أن يقرب أحد منه.

فقال له عبد الملك: إن الحيلة لم تبلغ بى فى مغالبة نفسى بك ما ترغب إليه، وإنى أجدها ترغب إلى صحبة هذا الأمير رغبة شديدة، ولا بد لى من ذلك، فهل لك أن تخبرنى بما تراه من رأى فى تديره بهذه الخطوب التى دهمته حتى أعرض ذلك رأى عليه، وأتقدم به عنده، فلعله يكون سببًا لقربى منه؟ فقال الشيخ: إن حكمة الله تعالى وعزته لتقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل، وإنى لأظن أن هذه النازلة التى نزلت بالخليفة من النوازل التى لا ينفذ فيها رأى، وإنى أكره أن أرد مسألتك بالخفية، فها أنا أقول لك فيما سألتنى عنه قولاً أقضى به حقك، وإن كان الخطب عظيمًا.

قال عبد الملك: إني لأرجو الله أن يرشدك ويرشدنى بك، قال الشيخ: إن عبد الملك خرج لمحاربة عبد الله بن الزبير، فظهر من مشيئة الله تعالى ما صده عن ذلك، وإنى مشير عليك أن تتفقد حال عبد الملك، فإن رأيتَه قصد عبد الله بن الزبير، فاعلم أنه مخذول لا محالة؛ لأنه لج فى طلب ما منع منه، وإن رأيتَه رجع من حيث جاء، فارج له السلامة والنصر؛ لأنه مستقبل، فقال له عبد الملك: أيها الشيخ، أوضح لى ما ذكرت لينطبع فى فهمى صورته، فقال الشيخ: إن عبد الملك إذا قصد عبد الله بن الزبير، كان فى صورة ظالم؛ لأن ابن الزبير لم يعصه قط، ولا وثب على مملكته، فأما إذا قصد عمرو

١٥٢ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى
ابن سعيد بدمشق، فإنه يكون فى صورة مظلوم؛ لأن عمرو أرجل من رعيته طلب
الخلافة لنفسه، واغتصب دار ملك لم تكن له ولا لأبيه، بل كانت لعبد الملك وأبيه، ثم
إن عمرو بن سعيد ظالم له من وجه آخر، وذلك أنه ابن عم عبد الملك، وعز عبد الملك
عز له، وقد كان محسناً إليه، فلما خرج عبد الملك لتشييد عز عمرو منه أوفر حظ فيه،
غدر به، ونكث عهده فخذله، ثم سعى فى ضربه، وأشمت به عدوه، فرجوع عبد الملك
إلى دمشق فهو أشبه بالتفويض والتسليم لأمر الله تعالى، ولا شك أن يظفر بالتفويض
والتسليم عن خانه وبغى عليه ونقض عهده، فإن الباغى مصروع، وإذا ظفر به استقال
النعمان وظفر ومن حوالهما من الثغور، ورجعوا إلى الطاعة عند معاينة الظفر بعمرو بن
سعيد.

قال: فسر عبد الملك بمقابلة الشيخ، وعزم على اتباع رأيه، وقال: جزاك الله خيراً يا
شيخ، قد حسنت فيما أشرت، فأخبرنى باسمك وأين منزلك؟ فقال الشيخ: وما تريد
من ذلك؟ قال: لأقضى حقك، فارفع إلى حوائجك، فإننى عبد الملك، فقال الشيخ: وأنا
أيضاً عبد الملك، فهل بنا نرفع حوائجنا جميعاً إلى من أنا وأنت له عبدان، ثم تركه
الشيخ وانصرف. قال: فذهب عبد الملك وعمل برأى الشيخ فنجح، وبالله سبحانه
وتعالى التوفيق.

* * *

الباب العاشر

فى معرفة أصول السياسة والتدبير

اعلم أن الملك العظيم يحسن به أن يكون فى تصارييف تدبيره وسياسة أموره متشبهاً
بطبائع ثمانية، وهى: الغيث، والشمس، والقمر، والرياح، والنار، والماء، والأرض،
والموت، أما الغيث، فإنه ينزل متواتراً فى أربعة أشهر من السنة، فيساوى به بين كل محلة
مشرفة، وموضع منخفض، ويغمر كلا من مائه بقدر موضعه فى ارتفاعه وهبوطه،
فتأخذ تلك البقاع منه ما تغذى نباتها فى الثمانية أشهر الباقية من السنة، وكذلك ينبغى
للملك أن يعطى جنده وأعوانه فى أربعة أشهر للثمانية أشهر الباقية، فيجعل ربيعهم
ووضعهم فى الحق الذى يستوجه فى القيامة بينهم على حسب ما يراه من المصلحة
على قدر مراتبهم، كما يسوى الغيث بين بقاع الأرض.

وأما الشمس، فإنها تستقصى بحرهما وحدة وقعها فى الثمانية الأشهر الباقية من السنة، فكذلك الملك باستيفاء جميع حقوقه من رعيته وماشيتهم، وغير ذلك من الحقوق الواجبة له عليهم، كما تستقصى الشمس نداوة الغيث من الأرض، وأما القمر، فإنه إذا طلع تمامه انتشر نوره على الخلق، وأنس الناس لضوئه وإشراقه، واستوى فى ذلك القريب والبعيد، وكذلك ينبغى للملك أن يكون فى بهجته ورتبته وإشراقه فى مجلسه، وإيناس الرعية، وعدله مثل القمر فى طلوعه وإشراقه، فلا يختص شريفاً دون وضيع بعدله وإيناسه، ولا يحجب عنهم فتظلم أحوالهم، ويزول أنسهم، ويقل انتعاشهم كما إذا احتجب القمر فى الليالى السود.

وأما الريح، فإنها بلطفها محيطة بالعالم السفلى، وكذلك ينبغى للملك أن يكون بلطفه وحذق جواسيسه وعيونه، محيطاً بمعرفة أحوال رعيته، وقواده، وولاة ثغوره، وأعماله، وحاشيته، وجنده، عارفاً بخبر أعدائه ونظرائه، عالماً بما يعملون وما يأترون بواسطة العيون الثقا، وأما النار، فيكون مثلها فى الحدة على أهل الزعارة والفساد وأصحاب الشر، لا يبقى أحداً منهم، ولا يذر ولا يترك لهم عيناً ولا أثراً، وأما الماء، فإنه مع لينه وسلاسته يقتلع الأشجار العظيمة، ويقهر من قاومه بالسباحة، وكذلك ينبغى للملك أن يكون ليناً لمن لاينه، شديداً على من خالفه، ينصب لأعدائه الغوائل، مع لينه ورقته حتى يقلعهم كما يفعل الماء.

وأما الأرض، فإنها توصف بكتمان السر، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، وكذلك ينبغى للملك أن يكون مثلها فى جميع ذلك، وأما الموت، فإنه يأتى بغتة، ويقاض أهل اللذات على ما هم عليه، ولا يقبل ممن نزل به رشوة، وكذلك ينبغى للملك أن يهاجم عدوه من حيث لا يشعر به، ويفاجئ أهل العداوة والزعارات فى حال غفلاتهم كما يفعل الموت.

واعلم أن المملكة مثلها مثل البستان، فينبغى أن يسوسها الملك فى غالب الأحوال كما يسوس صاحب البستان بستانه، فمن ذلك أن ينتخب أهل السكينة من جنده وذوى الشوكة من أعوانه، فيجعلهم فى أقاصى بلاده، وأطراف مملكته؛ ليحفظ بذلك الرعية كما يفعل صاحب البستان، فإنه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من العيدان، فيحطه على الأشجار المثمرة والزرايع الطيبة ليقىها من أهل الفساد والزعارة، ويخرجهم من بينهم، أو يصلحهم بإقامة الحدود بالحقوق وإظهار السياسة، فإنه إذا فعل

١٥٤ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى

ذلك صلحت أحوال الرعية وانتعشت وكثر خيرها، كما يفعل صاحب البستان، فإنه ينقى بستانه من الحشيش الذى لا فائدة فيه، ويخرج ما فيها من الشوك والنبات الخبيث، فينتعش زرعها، وتنمو أشجارها، ويطيب ثمرها، ومتى حل خراج الملك أو تعين له حق على رعيته من أموال الثمار والغلال، ولم يقبضه فى وقته، فيكون معرضاً للضياع بآفات الزمان، كما يفعل صاحب البستان، فإنه لا يؤخر اجتناء ما صلح من ثمره، وما طلع من ورده؛ لأنه إن لم يبادر لالتقاطه سقط على الأرض، وأحاطت به الآفات.

وينبغى أن يتعهد أبناء جنده وأعوانه الذين ماتوا فى خدمته وطاعته، ويخرج لهم من بيت ماله رزقاً يقوم بكفائتهم، فإنهم أرجى للملك عند بلوغهم، وأشد نصحاً من غيرهم فى خدمته، كما يتعهد صاحب البستان خوالف شجره الهالك بالسقى والتربية؛ لما يرجوه من جنائها لاستطابة ثمرها، ومتى تباغض قائدان من قواده وكانا متجاورين فى موضع، فينبغى أن يفرق بينهما؛ لأن خيرهما لا يرجى مادام متجاورين فى موضع، وربما نتج منهما أو من أحدهما ما لا يمكن الملك معه ائتلافهما، كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين إذا تداخلت أغصانهما؛ لعلمه أن خيرهما لا يرجى مادام كذلك.

واعلم أن الرعية إن كانت ثماراً مخبئاً، ودخائر مقتناة، وسيوفاً منضاة، فإن لها نفاراً كنفار الوحوش، وطغياناً كطغيان السيول، ومتى قدرت أن تقول قدرت أن تصول، وهم ثلاثة أصناف، فينبغى للملك أن يسوسهم بثلاث سياسات، صنف من أهل العقل والديانة والفضل، يعلمون فضل الملك وطول عنائه، ويرثون لشقة إعيائه، فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقائهم، واستماع أحاديثهم، وحسن الإصغاء إليهم، وصنف فيهم خير وشر، فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب والترهيب، وصنف هم السفلة الرعاع أتباع كل داع، فسياسة هؤلاء بإخافة غير مقنطة، وعقوبة غير مفرطة، لا يتحقق ذلك منهم إلا من يكون أغلب أوصافه عليه الرحمة للرعية؛ لأن الملك إنما يتميز عن السوقة بفضلين، فضيلة ذاته، وفضيلة آلائه، أما فضيلة ذاته، فخمس خصال: رحمة تشدد رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحرمة ينتهز بها الفرص إذا أمكنه، وأما فضيلة آلائه، فسته: وفور أمواله، وكثرة أجناده، وحصانة معاقله، واتخاذ المباني الوثيقة، وإعداده الملابس السنية، وتحصيله الدخاير النفيسة.

ولا ينبغى للملك أن يعتمد على فطنته، وقوة حيلته، وكثرة ماله وجنده، وحصانته،

ومعاقله، فيترك الاستعداد للنوازل ولكل ما يجوز وقوعه من الحوادث، فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه، وقوة بديهته، وأهمل مراعاة وقع القول وترتيبه، ثم صعد المنبر، فيوشك أن يستولى عليه العى عند الحاجة، بل ينبغى أن يتقدم فى الحيلة قبل نزول الحادث، فإن الأمور إذا نزلت ضاقت عنها الحيل، وإذا عرف الملك وجه الكيد الذى يكيد به عدوه، فينبغى أن يحترس من مثله؛ لأنه إذا لم يحترس من مثله، كان بمنزلة الرامى الخاسر الذى لا تدبير معه، فهو إن أصاب برميته، فإنه مستهدف لرمية غيره، وكذلك الملك إذا احتال على عدوه بضروب الحيل، ثم إنه لم يتحفظ من كل ما يظن أن يبلغ منه عدوه، كان عمله معونة عليه، غير نافع له فى العاقبة. وقد كان يقال: احترس من تدبيرك على عدوك، كاحتراسك من تدبيره عليك، فرب هالك بما دبّر، وساقط فى البئر الذى حفر، وجريح بالسلاح الذى شهر.

وينبغى للملك أن يأخذ فى سائر أموره بالحزم، وصدق العزم، ولا يترك الاحتراس والحذر، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحزم سوء الظن»^(١)، ولا يكون ظنه حقيقة، بل الحذر والاحتياط. وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: أن تحذر من كل ما يمكن وقوعه، قيل: فما العجز؟ قال: أن تأمن مما يمكن وقوعه، وهنا شعر:

لا تترك الحزم فى شىء تحاذره فإن سلمت فما فى الحزم من باس
ترك الفتى الحزم فيما خاف منقصة وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

وإذا حاول الملك أمراً عرض له، فليشمر فى طلبه عند إمكان الفرصة، ولا يتركه عنه لصغره، فإن وثبة الأسد على الأرنب هى التى تقدمه على الفيل، ومتى استهان الملك الذى حقره عاد كبيراً، فإن القسروح التى تظهر فى الجسد إذا استهان بها الإنسان، صارت إلى أعظم العلاج وأكبر المداواة، ولهذا شعر:

ولا تحقرن عدواً رماً ك وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحز الرقاب ب وتعجز عما تنال الإبر

وإذا وقع الملك فى أمر من عدوه يخاف فيه على نفسه وسلطانه، فينبغى أن يعطى بلسانه كل ما يرضى عدوه مظهرًا للركة والانقباض، وهو مع ذلك مستيقظًا محترسًا

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبى حاتم فى مراسيله (١٢٤/١) ح (٤٤٥)، وعزاه العجلونى لتمام فى فوائده، عن ابن عباس رفعه.

مستعدًا للوثبة عليه إن أمكنته الفرصة، حتى ينال فيها حاجته، ولهذا شعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزج له إن المزاج وفاق
فالنار بالماء الذى هو ضدها تعطى النضاج وطبعها الإحراق

فإن دهمه ما لا طاقة له به فى أمر من أمور مملكته، وأشرف منه على أن يذهب كله، ورأى أن يتلطف بالحيلة فى أن يرجع إليه بعضه فليفعل ذلك، ويكون راجيًا لا يستخف به الأسف والأنف والتمادى حتى يذهب كله فيكون مغلوبًا، فإن العاقل إذا أشرف له ابنان على الهلكة، وطمع فى نجاة أحدهما بموت الآخر، فإن نفسه تسمح بموته لنجاة أخيه، ولا يداخله الإشفاق عليهما والجزع فيهلكا جميعًا.

وإذا عادى الملك رجلاً، فلا يعادى لأجله كل ما شاكله، فإنه ربما انتفع ببعضهم انتفاعه بأهل مودته، فإن السيف الذى يقتل بحده، هو من جنس الدرع الذى يتحصن به عن مضارة حد السيف، ولا ينبغى للملك أن يشتد جزعه على ما فاته وذهب عنه، فإن فعل ذلك تعجلت له المساءة بما لا يقدر على ارتجاعه، وبدرت له الحسرة على ما لا يقدر على استدراكه، ثم يشغله ذلك عن تدبير مستأنف أمره، وصلاح باقى شأنه، وربما أفضى به الحال إلى الهلاك، فإن شدة الجزع تهلكه.

فقد حكى أن ملكًا من ملوك الفرس جلس على سريريه فى يوم نيروز، وجعل الناس يهدون له أصناف الهدايا، فدخل عليه الموبذان ومعه طبق مغطى فأهداه إليه، فلما كشف عنه رأى فيه فحمتين، فقال الملك: ما هذا؟ فقال: أيها الملك، أحدهما باز والأخرى دراجة، وإنى رأيت الباز أرسل على الدراجة فتبعها وهى تطير بين يديه إلى أن أتيا أجمة فيها نار، فحمل الجزع الدراجة على اقتحامها، وحمل الباز الحرص على افتراسها فاحترقا جميعًا، فرأيت أن خير الهدايا هذه الموعظة، فأهديتها لك، فاجتنب أيها الملك الإفراط فى الجزع والحرص، فإنهما سائقان إلى الهلكة، فقال الملك: ما أهديت إلى هدية أنفع من هذه الهدية.

ومتى صنع الملك بخطأ رأى شيئًا فأصاب فيه، فلا يعاوده ثانيًا طمعًا فيما ناله أولاً، فإن من وطئ حية مرة فنجا منها، فليحذر أن يتعرض لها بالوطء مرة أخرى. واعلم أن كبار أعوان الملك ومشايخ دولته الذين صحبوا أسلافه من الملوك، هم أقوى دعائم مملكته، وأثبت أركان دولته؛ لأنهم وإن براهم الزمان بحده، فقد بقى كرم وجوهرهم،

ومحض مودتهم، فهم يزدادون في النصح اجتهاداً، وفي البؤس صبراً وجلاداً، ومثلهم كمثّل دعائم الساج للبيت، فإنها كلما مر عليها الزمان، ازدادت قوة وصلابة، حتى إن الأرضة لو حاولت نقب عودها، لم ينفذ عملها فيها، فيكون البيت بها أقوم وأصلب.

وينبغي للملك أن لا يصحب من أعوانه كذاباً، ولا مطبوعاً على شر؛ لأن الكذاب إذا حدث كذب، وإذا حدثه الملك لم يصدقه؛ لما يظن في نفسه، والمطبوع على الشر غير تارك لطباعه؛ لأنها أملك به، فيكون الملك معه على خطر، ولا يطمع الملك في استصلاحهما ونقلهما عن طباعهما، فإنهما بمنزلة القرد الذي يطعم الدبس والحلاوة ليسمن ويحسن وجهه، فلم يزد وجهه إلا قبحاً، ومتى كان الملك يكل ضبط أموره وإقماع عدوه لقوم ليسوا منه على ثقة، ولا بحفاظ لأمره، فهو منهم على أعظم خطر، حتى يحملهم ما استطاع على الرأي والأدب الذي يمثله تكون الثقة والاستعانة بهم، ولا يغرنه منهم قوته بهم على غيرهم، فإنما هو في ذلك كراكب الأسد يهابه من ينظر إليه، وهو لمركبه أهيب.

ومتى أسرف الملك في توسعة الأرزاق على جنده أبطروهم، ومتى ضيق عليهم أحقدهم، فيكون في هاتين الحالتين متعرضاً للهلاك، فإن الأسباب التي تجر الهلكة ثلاثة، أحدها من جهة الملك، وهو أن تغلب شهواته على عقله، فلا تطرأ له لذة إلا قضاها، ولا راحة إلا افترصها، الثاني من جهة الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضى لتعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حق إلا فندوه وعارضوه، الثالث من جهة الجند وخواص الأعوان، وهو النكول وترك المناصحة في الجهاد، وهم صنفان، الصنف الأول وسع عليهم الملك الأرزاق، فأبطروهم السرف والتنعّم وافتراض اللذات، فبخلوا بنفوسهم، وخافوا عليها عند لقاء الأعداء، فمنعهم ذلك من الإقدام، الصنف الثاني قدر الملك عليهم أرزاقهم، فانطوا منه على حقد ونفاق، فنصبوا له الغوائل، وأسلموه عند النوازل.

وينبغي للملك أن يتعرف أسباب الفتن ونتائجها المفضية إلى اختلاف الكلمة، والخروج عن الطاعة؛ ليحسم مواردها، ويقطع أسبابها، فقد قيل: إن ملكاً من ملوك العجم كتب إلى حكيم من حكمائهم يقول: إن الحكماء قد أكثروا من أسباب وصف الفتن، فاكتب إليّ بما ينشبهها وبما يميّتها، فكتب إليه يقول: ينشبهها ضغائن، ويقويها أطماع لم تقمّعها هيبة وجرأة عامة يولدها استخفاف بالخاصة، ويؤكدّها انبساط الألسنة بضمائر القلوب، وغفلة أمير ملتذ، ويقظة قوى محروم، ويميتها عز السالب، وذل

المسلوب، ودرك البغية، وموت الأمل، وتمكن الرعب، فكتب إليه: إن الذى وصفت كما وصف سواك، فأى الأمور أدفع لما ذكرت، فكتب إليه الحكيم: أخذ العدة لكل ما يخاف وقوعه، وإيثار الجد على الهزل، والعمل بالعدل فى الرضى والغضب.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن صف لى الفتنة حتى كأنى أنظر إليها، فكتب إليه الحجاج: إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتقيح بالشكوى، ويقوم بها الخطباء، وفسادها بالسيف، إن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، قال يوماً لبعض جلسائه وهو محصور: وددت لو أن رجلاً صدوقاً أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء القوم، يعنى الذين يحاصرونه، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنك تطأطأت لهم حتى ركبك، وتغافلت عنهم فسلبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حكمك، قال: صدقت اجلس، ثم قال: هل تعلم ما سبب ثوران الفتنة؟ قال: نعم، سألت عن ذلك شيخاً باقعة فى العلم، فقال: إن الفتنة يثيرها أمران، أحدهما أثيرة تضغن الخاصة، والثانى حلم يجرئ العامة، قال: فهل سألته عما يخمدها؟ قال: نعم، إن الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العثرة، وتعميم الخاصة بالأثرة دون غيرهم، فأما إذا استحكمت الفتنة، فلا يخمدها إلا الصبر، قال عثمان، رضى الله عنه: هو ذاك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

* * *

الباب الحادى عشر

فى الجلوس لكشف المظالم

اعلم أن جلوس الملك والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذى لا يعم السلام إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا به، وقد كانت ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وأول من أفرد للمظلّمت يومًا معلومًا يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر: عبد الملك بن مروان، وكان إذا وقف منها على مشكل، رده إلى قاضيه إدريس الأودى، فينفذ فيه الحكم، وكان إدريس المباشر، وعبد الملك الأمر، ثم زاد ظلم الولاة، وجور النواب بعد ذلك، فافتقرت الحالة إلى المباشرة، فجلس عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، فكشف المظالم، وهو أول من باشر ذلك بنفسه، وجعل يراعى السنن العادلة، ورد مظالم بنى أمية على أهلها، حتى قيل له وهو يشدد

عليهم: إنا نخاف عليك العواقب من ردها، فقال: ما من يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة إلا وقته.

ثم جلس لكشف المظالم من خلف بنى العباس المهدي، حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها، ثم جلس لها من بعده الهادي، ثم الرشيد، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهدي، ثم احتجبت الخلفاء؛ لتظاهر الترك وغيرهم عليهم، ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم، ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل نور الدين بن الزنكي، رحمه الله، بنى له داراً فى قلعة دمشق، سماها دار العدل، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين، ويفصل بين أمر المتنازعين، ولديه الفقهاء وأئمة الدين، فيرجع إليهم ما أشكل عليه من أمور الشرع، وثبت القضايا، ويفصل كلما انتهى إليه فى ذلك اليوم، حتى جعل هذا سنة فى جميع مدائن الشام.

وحدثنى الفقيه أبو طاهر إبراهيم بن الحصين الحموى، قال: كنت عند الملك العادل محمود بن الزنكي، فى دار العدل بدمشق، وقد عرض عليه قصص خراج أملاك أهل الشام، فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معزة النعمان، قال: إني قد عزمت على انتزاع أملاك أهل المعزة من أيديهم، فقد رفع إلى أهل الخبر من الثقة أن جميع أهل المعزة يتعرضون للشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه فى دعوى ملك، حتى يشهد ذلك معه فى دعوى أخرى، وإن الملك الذى بأيديهم إنما حصل لهم بهذه الطريقة، قال: فقلت: أيها الملك، إن الله تعالى أوجب عليك العدل فى رعيته، والنظر للكشف، والتوقف فى الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعزة خلق كثير تواطؤهم على شهادة الزور، وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول لا يجوز.

قال: فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال: أمسكها عليهم، ثم اكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه، وقال: اكتب كتاباً إلى الوالى فى المعزة ليمسك جميع الملك الذى فى أيدي أهلها، حتى ليستدعى البينة، فكتب ووضع بين يديه ليضع علامته فيه، وإذا صبى على شاطئ النهر يغنى شعراً:

اعدلوا ما دام أمركمو	نافذا فى النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم	إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها	طيب ما يلقى من الأثر

فلما سمع الملك ذلك، تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر إلى، وقال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم استدار إلى القبلة، وقال: اللهم أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه، وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم.

وينبغى للملك إذا جلس لكشف المظالم، أن يستكمل مجلسه بحضور خمسة أصناف من الناس لا غنى عن حضورهم، ولا ينتظم نظر أموره إلا بهم، الصنف الأول الفقهاء والعلماء أصحاب الفتوى؛ ليرجع فيما أشكل، ويسألهم عما اشتبه فيه، الصنف الثانى القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت من الحقوق، وما جرى فى مجالسهم بين الخصوم، وتنفيذ القضايا والأحكام، الصنف الثالث العدول ومشائخ البلد؛ ليثبت ما يجرى بين الخصوم، وما يوجب الشرع المطهر لهم من الحقوق، الصنف الخامس الكبار من حماة دولته وأعوانه وخاصته؛ لتظهر بهم الرهبة، وتحصل بهم الهيبة، فيخاف المعتدى، ويتظاهر المظلوم فينتصر، فإذا تشكل مجلس نظره بما ذكرناه، شرع حينئذ فى تصفح القصص وتنفيذ الأمور، والنظر فى أمور الرعية والولاية والعمال على ما قدمناه.

* * *

الباب الثانى عشر

فى أدب صحبة الملوك

إذا أخصك الأمير لخاصته، وجعلك من أهل مجالسته، فالزم الصمت، واستعمل الوقار، ولا تحدّثه بادئاً، ولا تعد حديثك عليه ثانياً، ولا تفصل حديثاً بحديث، ولا تعارض أحداً فى حديثه، واخفض من صوتك، واختصر من لفظك، ولا تغتب أحداً عنده وإن كثرت عيوبه وعظمت ذنوبه، وإذا جالست الملك فغض بصرك، وضم شفيتك، ولا تقولن فى غيبته ما لا تقوله فى حضوره، ولا تأمن أن تكون عليك عيون ترفع إليه أخبارك، وتورد عليه أسرارك، وأنشدنى بعضهم فى المعنى يقول شعراً:

إذا صحبت الملوك فالبس من التوقى أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس

وإذا كان لك إلى الملك حاجة، فلا ترفعها إليه ما لم يكن وجهه بسيطاً، وقلبه نشيطاً، وليكن على مقدار حقك، لا على مقدار عزمك، وإذا طليتها منه فقصر المقال،

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيرازى ١٦١
وتوق الملال، ولا يملك فرط ميله إليك على التبسط عليه فى السؤال، فتحنط ربتك،
وتذهب حرمته، وإذا أقبل الملك عليك فأقبل عليه بوجهك، واصغ إليه بسمعك،
واشغل بحديثه خاطرك، وبمنظره ناظرك، واستمعه استماع مستظرف لحديثه مستبشر به،
واحذر أن تعاتب الملك على تقصير، أو تلومه فى تدبير، فإن ذلك يفضى إلى مقتك
وبعدك منه بعد قربك، ولا تكاشفه بالنصيحة فى الخلوة، ولا تنبسط عليه فى الجلوة،
فإن النصح فى الملأ تفرير، والتبسط عليه تضييع، ولهذا يقال شعر:

تعمدنى بنصح فى انفراد وجنبنى النصيحة فى الجماعه
فإن خالفتنى لتريد نقصى فلا تغضب إذا لم تعط طاعه
فإن النصح بين الناس ضرب من التويخ لا أرضى استماعه

وإذا قربك بأنسه وأدناك من مجلسه، فالزم الاحترام، وقابله بالإعظام، ولا يخرجك ما
تراه من أنسه إلى السماح ومكره المزاح، وإياك وإزالة الحشمة، وإضاعة الحرمة والهزل
والشره فى أكل الطعام، فإن هذه الحالة تدعو الملك إلى الملال، ولا تنادر فى مجلسه
إنساناً، ولا تحدى إلى الغلمان، وإذا دخلت على الملك فحيه بأحسن تحية، وتواضع إليه
بالكلية، ولا تكثر من الدعاء له بحضرته، ولا تسأله عن حالته، ولا عن مبيته فى ليلته،
ولا تكثر مدحه، ولا تظهر نصحه فى حضرته، فجميع ذلك من مساوئ الأخلاق
والتملق والنفاق.

وإذا جلست على موائد الملوك، فلا تمكن فى الطعام شرهًا، ولا فى الأكل نهماً،
وكل مما يليك، وأكثر من المضغ فى فيك، واجعل نظرك إلى الطعام الذى بين يديك،
ولا تنظر إلى ما حواليك، ولا تأكل بكل الأصابع، وقم عن المائدة وأنت جائع، ولا
تحدى ببصرك إلى الطعام، ولا إلى ما حضر من طرائف الألوان، بل يكون نظرك إلى
الملك عند كلامه، والإطراق عند مضغه لطعامه، ولا تنقل من الصفحة إلى الرغيف شيئاً
من اللحم، ولا تتعرض إلى حرمشة العظم، ولا تحول لقمتك من جانب فيك إلى الجانب
الآخر، ولا يسمع لمضغك وبلعك صوت ظاهر؛ لأن المقصود من طعام الملك الشرف
بمواكلته، والتجمل بلطف كرامته.

ومن قام من الطعام لغسل يده، فسبيله أن يبعد عن حضرته إلى الموضع الذى خص
بمرتبته، ولا يبصق فى الطشت بصاقاً يعلو صوته، ولا يستعمل بيده التفرقع، ولا يدللك
بالمنديل يديه، بل يمسح به فمه وشفتيه، ولا يظهر فى يديه شيئاً من الخلال على حال من

١٦٢ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى
الأحوال، وأن لا يساوى الملك فى محبته، ولا يدنى رأس دابته من دابته، ولا يأخذ عليه
مهب الريح فى مسابقتها، ولا يركب فرساً شحناً شعثاً ولا حروناً^(١) فيقف عنه، ولا
كثير الصهيل، ولا ما فيه عيب يضحك منه.

وينبغى أن يكون عارفاً بالمنازل والمناهل، دارياً بكل ما يقع عليه عين الملك ويسأل
عنه من المياه والأنهار والنبات والأشجار، ومضى ساعات الليل والنهار، عارفاً
بالكواكب وانتقالتها، ومنازل القمر وهيئاتها، وأن لا يظهر التعب والكلال، وأن يخفى
السعال والعطاس، وليكن متفقد النكتة، ظريفاً فى محادثته، صبوراً على السهر، غير
متشاغل بالفكر، حافظاً للأسرار، وما يطلع عليه من الأخبار، معتمداً على الصيانة،
مؤدياً للأمانة، فإذا لعب الملك بالشطرنج، فلا يظهر فى لعبه التحاذق عليه، فأما فى
حال الفروسية ولعب الصولجان، فقد لا يكره الملوك التحاذق عليهم فى الميدان، والله
سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

الباب الثالث عشر

فى معرفة ما يكاد به الملوك فى غالب الأحوال

اعلم أن مكائد الأعداء، وغوائل الحساد، وطرق المضار، وأسباب الدواهى كثيرة لا
يحيط بطرقها علم البشر، ولا يحصرها معقول ذوى الفكر، فيجب على الملك الاحتراز
والتحفظ من كل ما يتصور عمله فى المكاييد، ويتصدر فعله من نصب الغوائل، ويعتبر
بمن سلفه من أرباب الممالك، وما نصب لهم من المكاييد والمهالك، وقد ذكرنا فى الباب
السادس فى وصف الحسد من حكاية بهرام وخاقان، وما نصب كل منهما لصاحبه من
المكيدة ما فيه اعتبار لذوى البصائر والأفكار، وأكثر ما رأينا يحدث فى غالب الأحوال
من أمور نحن ذاكرها إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك السموم القاتلة التى يتلطف بها الأعداء فى الحيلة بوصولها إلى الملوك على
يد النسوان والغلمان، وهو يصنع غالباً فى عشرة أشياء: فى السرج، والسرير،
والكرسى، والحلى، والآنية، والطعام، والفاكهة، والثياب، والفراش الذى ينام عليه،

(١) الحرون هو: الذى لا ينقاد، إذا اشتد به الجرى وقف. انظر: لسان العرب (١٣/١١٠)
(مادة/حرن).

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيرزى ١٦٣
وينبغى للملك أن يكون متيقظاً لذلك، محتسباً منه، وسنذكر من العلامات الواضحة فى
هذه الأشياء ما فيه كفاية للفتن، بحيث إذا رآها علم أنه مسموم.

وينبغى للملك أن يتفقد ثيابه كل يوم، وفراشه أيضاً، وغاشيته الذى على سرج
الحصان، وكرسيه الذى يجلس عليه، فإن علامة ذلك إن كان مسموماً أن يظهر فى
صفاء ألوانها لمع كالرسخ يضرب إلى سواد من غير وسخ، وهديها وحواشيها فى نظر
العين كأنها بالية، وأما ظاهر السرج والسرير والكرسى إذا كان ملطوخاً بالسم، يكمد
لونه، ويعلوه كالغبرة، وأما الحلى والآنية وما يستخرج من معادن الأرض كالذهب،
والفضة، والنحاس، والرصاص، والحديد، فإن ذلك كله إذا كان مسموماً يعلوه
كالرسخ، وأما أوانى الخزف والفخار، فإنها إن كانت مسمومة، تحدث دسومة
وزهومة، وربما أفرط صفاء لونها حتى رؤى فيها بريق ليس من ذاتها، وربما ذهب
بريقها الذى هو فى ذاتها.

وأما الطعام المسموم، يستدل عليه من وجهين:

أحدهما: بالنار، فإن الطعام المسموم إذا وضعت منه شيئاً فى النار، لم يصعد دخانه
مستطيلاً إلى الهوى، بل يدور على ذلك الطعام، ويسمع له صوت، وأيضاً يكون طرف
ما ينبعث من النار كأنه عنق الطاووس، وأيضاً مما يظهر منه إذا احترق رائحة منتنة.

الوجه الثانى: أن يعرض الطعام على الطير والدواب التى هى معدة فى دار الملك
لمعرفة الطعام المسموم، فأما الطير، فمنها الغراب، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم،
انكسر صوته، وأما الصرد والقفاء، فإنهما إذا شما الطعام المسموم، صوتا بأعلى
صوتهما، ومنها طائر من جنس الأوز الصينى، يقال له: الهيش، فإنه إذا رأى الطعام
المسموم وشم رائحته هرب منه، وجعل يتعثر فى مشيته، ومنها الكركى، فإنه إذا شم
رائحة الطعام المسموم أو أكله، فإنه يدور حتى يظن أنه مغشى عليه، ومنها الفواخت
والعقق، فإنهما يموتان بأكل الطعام المسموم، وكذلك إذا شما رائحته أيضاً، ومنها
الطاووس، فإنه إذا رأى الطعام المسموم تشوف إليه وطفق يأكله ويهواه، ومنها طائر من
طيور الماء، أحمر العينين، يقال له: حيوحين، فإنه إذا نظر الطعام المسموم خر إلى الأرض
مغشياً عليه، والذباب إذا سقط على الطعام المسموم مات من ساعته.

وأما الدواب المعدة لذلك، فمنها السنور، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم أو شم

رائحته، نفر من موضعه ولم يستقر فيه، ومنها القرد، فإنه إذا قدم إليه الطعام المسموم أيضاً لم يتمالك حتى يهرب منه، ويصعد فى الأشجار والحيطان، فهذا كله يستدل به على الطعام المسموم، فينبغى للخادم المقدم للطعام أن يمتحنه بالنار، ويعرضه على الطير والدواب التى ذكرناها قبل إحضاره بين يدى الملك، وإذا كان الطباخ بصيراً حاذقاً عرف السم إذا طرح فى القدر بالأمانة الدالة عليه، فإن قدر الأرز إذا وضع فيها السم أبطأ نضجها، وإذا نزلت عن النار انعقد فيها سريعاً، وصلب حبها، ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس، وقدر المرق إذا وضع فيها السم، فلا يلبث إلا قليلاً حتى تنشف المرقعة منها، ويبقى اللحم يابساً لا مرقعة عليه، ومهما بقى منه تغير لونه وكدر.

وأما دليل معرفة السم فى الشراب المسموم، فإن كل شراب حلو إذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون النحاس، ويظهر فى المحيط خطوط من الخضرة والصفرة والسمرة، ويظهر فى ماء العسل خط كلون شعاع الشمس، ويظهر فى الماء والنبذ خط أسود. وأما معرفة الفواكه المسمومة، فإن ما لم يدرك منها يظهر للعين كأنه مدرك، والتى قد أدركت منها تظهر كأنها لم تدرك لتغيرها وانقباضها، وكل رطب منها تراه كالمهرى، وكل يابس تراه منقبضاً متشججاً، وجميع الفواكه يذهب صفاء لونها، ويعلوه غبرة وكدرة، ويصير اللين منها صلباً، والصلب منها ليناً.

واعلم أن واضع السم فى بعض هذه الأشياء، أو صانع مكيدة من مكائد الأعداء من النسوان أو الغلمان أو الخدم وغيرهم، لابد أن يظهر عليه من الريبة أمانة لا يخفى فيها على الفطن اللبيب، فينبغى للملك أن يتصفح وجوه خدمه وغلمانه وجواريه ونسائه فى كل وقت، فإن المريب لا يملك نفسه أن يصفر لونه، أو يخضر، أو يتلع ريقه، ويخفق فؤاده، أو يعرض على شفته السفلى، أو يكشر تلفته، وترعد فرائصه، أو يتعثر فى مشيه، أو يكشر ثناؤه، أو يعرق جبينه، أو يقتل أهداً ثيابه ويعبث بها، أو ينكت الأرض بإبهامه الكبير من رجله، أو ينقطع عما يريد أن يتكلم به، أو يكشر القيام فى العمل الذى يعمل ولم يتمه لغير عذر، فجميع هذه أمارات تدل على الريبة، فليراعها الملك من متولى طعامه وشرابه، ومتولى خزانة ثيابه وفراشه وسروج دوابه، وغيرهم من خدم داره.

وأما الأحوال التى يترصدها أهل المكائد فى الغالب، فمنها: المواضع الضيقة، والجهات المجهولة من الطرقات، فلا ينبغى أن يسلكها حتى يكون أمامه دليل خبير

بذلك الموضع، ويتقدمه فى ذلك جماعة من أعوانه. ومنها: ازدحام الموكب عليه فى المواضع الضيقة، أو فى الأعياد والمحافل، فلا يأمن أن يلج بين خواصه من يريد به شراً. ومنها: الإمعان فى طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وثقة الأعوان، فلا يأمن أن يدس عليه أهل العداوة ممن يوقع به الفعل، أو يكمن له الأعداء على الخيول السريعة فى المواضع الوعرة، أو يعرض له أحد السباع الضارية عند انفراده. ومنها: الورود على الأنهار، فإن اغتيال المرء صاحبه فى الماء الجارى أسهل منه على ظهور الخيل؛ لأن الماء معين له على هربه، لاسيما إذا كان رجال الملك وراء ظهره، فينبغى أن لا يردها حتى يتقدمه من أعوانه من يخبر شطوطها ومشارعها.

ومنها حالة شدة المطر، وحال شدة الحر، وحال ظلام الليل، فإنه فى هذه الأحوال تقل الحفظة، ويشغل كل واحد منهم بمصلحة نفسه. ومنها: حال سروره، ولهوه، وطربه فى مجلسه، وسكره، وشرابه، فإن الحفظة أيضاً يسكرون، أو ينامون، فيتمكن منهم المحتال. ومنها: الثقة إلى النسوان والركون إليهن، فإن مكر النسوان وحيلهن أكثر من بساطتهن مع ضعفهن وقلة عقولهن، فلا يأمن مكرهن وغيرتهن وغاراتهن، فقد يقدمن على الأهوال، وما يعجز عنه الرجال، فليراع الملك جميع ما ذكرناه، وما يخطر بباله من أشباه ذلك وأمثاله، مع تسليمه الأمر لله تعالى وقضائه وقدره سبحانه وتعالى.

* * *

الباب الرابع عشر

فيما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبيره

إذا أراد الملك التوجه بجنوده إلى أعدائه، فينبغى له أن ينيلهم فى تدبيرهم وسياسة أمورهم سبعة عشر حقاً؛ ليتم بذلك مصلحتهم، وينتظم به حالهم:

أحدها: استعرافه قبل المسير بهم، فيتفقد خيلهم التى يجاهدون عليها، فلا يدخل عليها كبيراً ولا صغيراً؛ لأن ذلك كله وهن فى المجاهدين، فإنما يستعد للأعداء بالقوة، وما تظهر به الهبة والرهبة. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «ارتبطوا الخيل، فإن ظهورها لكم عز، وبطونها لكم كنز»، ويتفقد جميع أسلحتهم، وسائر آلاتهم وأمتعتهم، ويأمرهم باتخاذ قوياها، واستبدال ضعيفها.

الثانى: أن ترفق فى السير ليقدر عليه ضعيفهم، وتحفظ به قوة قوياهم، ولا يجد السير

١٦٦ كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزرى
فيهلك الضعيف، ويستفرغ قوة القوى. قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين،
فأوغلوا فيه برفق، فإن النبات لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»^(١).

الثالث: يراعى من معه من المقاتلة، وهم صنفان: مسترزقة، ومتطوعة، فأما
المسترزقة، فهم أصحاب الديوان، فيفرض لهم من العطاء من بيت المال من الفىء بحسب
الغنى والكفاية، وأما المتطوعة، فهم الخارجون عن الديوان، الذين خرجوا فى النفير،
فيعطون من بيت المال من الصدقات دون الفىء من سهم رسول الله ﷺ المذكور فى آية
الصدقات.

الرابع: أن يعرف عليهم العرفاء، وينقب عليهم النقباء، فيكون عارفاً بجميع أحوالهم
من عرفائهم ونقبائهم، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ.

الخامس: أن يجعل لكل قائد منهم شعاراً يتميز به أصحابه؛ ليصير به عن غيره
متميزاً.

السادس: أن يتصفح الجيش عند مسيره، فيخرج منهم من كان به تخذيل
للمجاهدين، وإرجاف بالمسلمين، ولو كان غنياً، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، ورد
عبد الله بن أبى سلول المنافق فى بعض غزواته لتخذيذه للمسلمين.

السابع: أن لا يتعرض عند اللقاء لمن خالفه فى العقيدة والمذهب، أو لمن ظهرت عليه
أمارات البغضاء، أو لمن أساء أدبه على الملك، أو من حضر فى خدمته؛ لأن التعرض
لهؤلاء فى مثل هذا الوقت يفضى إلى الفراق، وافتراق الكلمة، وحصول الفشل. قال الله
تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيكُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أى دولتكم، وقيل:
معناها قولكم^(٢).

(١) الصحيح أنه مرسل: أخرجه أبو عبد المقدسى فى الأحاديث المختارة (١٢٠/٦) ح (٢١١٥)،
والبيهقى فى الكبرى (١٨/٣) ح (٤٥٢٠)، والإمام أحمد فى مسنده (١٩٨/٣) ح
(١٣٠٧٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (١٨٤/٢) ح (١١٤٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان
(٤٠٢/٣) ح (٢٨٨٢)، وابن المبارك فى الزهد (٤١٥/١) ح (١١٧٨)، وابن الجوزى فى
العلل المتناهية (٨٢١/٢) ح (١٣٧٥)، وانظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢٨٤/٢) ح
(٢٣٣٩).

(٢) وروى عن مجاهد إنه النصر، وعزاه الحافظ السيوطى للفرىابى، وابن أبى شيبه، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣)، وهو مروى عن قتادة، عزاه
الحافظ السيوطى لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣) وهو=

الثامن: حراسة الجيش من غدره يظفر بها العدو، فينبغى أن ينتقى المكامن ويحفظها عليهم، ويحوط أطرافهم بحرس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم؛ ليتبها وقت الدعوة، ويأمنوا وراءهم فى وقت المحاربة.

التاسع: أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، فيقصدوا أوطأ الأرض مكاناً، وأكثرها مرعى وماء، وأكثرها سعة، وأحرسها أكنافاً وأطرافاً، ويكون الموضع سالماً من جبل أو شجر، فإن فى ذلك كله عوناً لهم على المنازلة، وأقوى لهم على المراقبة.

العاشر: إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد، وعلوفة؛ ليفوق ذلك عليهم فى أوقات الحاجة، حتى تسكن نفوسهم إلى مدة تعينهم على الطلب، ليكونوا على الحرص أوفر، وعلى منازلة العدو أقدر.

الحادى عشر: أن يتعرف أخبار عدوه بالجواسيس الثقة التى تكون له عندهم مكانة، ليكون خبيراً بأحوالهم، ويسلم من مكرهم، ويلتمس العزم فى الهجوم عليهم.

الثانى عشر: ترتيب الجيش فى مصافة الجيش، والتعويل فى كل جهة على ما يراه كفوّاً لها، ويتفقد الصفوف بنفسه من حصول خلل يقع فيها، ويراعى كل جهة يميل العدو إليها بمدد يكون عوناً لها.

الثالث عشر: أن يحرض المؤمنين على القتال، ويقوى نفوسهم وعزمهم على الظفر، ويذكر لهم أسباب النصر، ويصغر العدو فى أعينهم، ويعدهم الإقطاع والزيادة فى الرزق إذا ظهرت منهم النكاية فى العدو.

الرابع عشر: أن يذكرهم ثواب الله تعالى، وما أعد الله لهم فى الآخرة من النعيم المقيم، ويذكرهم الشهادة وفضلها، ويعدهم بإبقاء رزقهم على أولادهم من بعدهم.

الخامس عشر: أن يشاور ذوى رأى منهم وأهل الخبرة بالقتال، والمشايخ من أعوانه وأهل دولته، ويرجع إليهم فيما أشاروا، ويسلم الأمر إليهم فيما أشكل عليه من الخطأ ليسلم من الزلل.

السادس عشر: أن يلزم بما أوجبه الله تعالى من حقوقه، وبما أمره الله تعالى من

١٦٨ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى
مراعاة حدوده؛ لأنه من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين
حلاله وحرامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «انهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ما أفسد
جيش قط إلا قذف الله تعالى فى قلبه الرعب، وانهوا جيوشكم عن الزنا، فإنه ما زنا
جيش إلا سلط الله عليه الموتان».

السابع عشر: أن لا يترك أحدًا من جيشه يشتغل بتجارة، أو زراعة؛ لأن ذلك
يذهب الاهتمام من مصابرة العدو، ويضعف الصدق فى الجهاد. وقد روى أن نبيًا من
بنى إسرائيل غزا غزوة لهم، فقال: لا يغزون معى رجل بنى بناء لم يكمله، ولا رجل
تزوج بامرأة لم يدخل عليها، ولا رجل زرع زرعًا لم يحصده.

وإذا سار الملك بالجيش ودخل أرض العدو، فينبغى أن يكون طلائع جيشه ومقدمته
كالنهر الجارى، فإن النهر فى أول جريه يتخلل ما يمر به من الأرض المستوية، فإذا بلغ
نشوا من الأرض وقف عنه حتى يقوى بالمدد من ورائه، ثم يعلو ذلك النشو، فكذا
ينبغى أن تكون طلائع الجيش التى تتقدم عليه، لا تقتحم ما ترى بالقوة على العدو الذى
أمامها إلا بأن تستمد من ورائها، فإذا أتاها المدد قويت على من تمر عليه، كعلو النهر إذا
استمد من ورائه.

ولا ينبغى أن يقدم على مقاتلة الناحية المجهولة حتى يتقدم إليها من يجبرها من
طلائعه، فقد كان يقال: لا تطأ أرض عدوك إلا على أقوى احتراس وتوق افتراسه، فإنك
لا تأمن أن يكون قد نصب لك فيها الأشرار، ودفن الغوائل والشباك.

* * *

الباب الخامس عشر

فيما ينبغى لأهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد

إذا توجه الملك بالجيش إلى قتال المشركين، لزم أهل الجيش من الحقوق أمران:
أحدهما: ما يلزمهم من حق الله تعالى. الثانى: ما يلزمهم من حق الملك، فأما ما يلزمهم
من حق الله تعالى، فأربعة أشياء:

أحدها: مصابرة العدو عند التقاء الصفين، ولا يهزمون من مثليهم فما دون، فإن
الله تعالى فى الأصل فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين، قال تعالى:

كتاب النهج المسلك في سياسة الملوك للشيزرى ١٦٩
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ [الأنفال: ٦٥].

وأن الله بعد ذلك خفف عليهم لما شق عليهم الأمر، فأوجب على كل مسلم أن
يقاتل رجلين من المشركين، فقال عز وجل: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ
اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ثم أن الله حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد
أمرين، إما متحرف لقتال، فيأوى للاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم، وإما أن يتحيز
إلى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا
مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

الثاني: أن يقصد بقتاله نصره دين الله، وإبطال كلمة من خالفه من الأديان، فيكون
عند الاعتقاد حائزاً لثواب الله تعالى، وطيعاً له في أمره، ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل
من الغنيمة، فيصير من المكتسبين لا من المجاهدين.

الثالث: أن يؤدي الأمانة فيما حازه من الغنائم، لم يغل منها شيئاً، بل يحمله جميعه
إلى المغنم ليقسم بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة؛ لأن لكل واحد منهم فيها حقاً.

الرابع: أن لا يراعى في نصره دين الله تعالى ذا قرابة، أو مودة، فإن حب الله تعالى
أوجب، ونصرة دينه ألزم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي
وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾
[المتحنة: ١].

وأما ما يلزم الجيش من حق الملك، فأربعة أشياء:

أحدها: التزام طاعته، والدخول في ولايته، والقبول لأمره ونهيه ما لم يأمرهم
بالمعصية، فإن طاعة الملك واجبة في غير المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ [النساء: ٥٩] الآية. قال ابن عباس، رضى الله عنه:
وأولوا الأمر الأمراء^(١). قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد

(١) وهو قول أبيّ، أخرجه ابن جرير، عن ابن زيد، عن أبيّ، عزاه له الحافظ السيوطي. انظر: الدر
المنثور (٢/٣١٥).

١٧٠ كتاب النهج المسلوک فی سياسة الملوك للشيزري
حبشی^(١)، فأما إذا أمر بمعصية، فلا يجوز طاعته؛ لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق فی
معصية الخالق»^(٢).

الثاني: أن يفوضوا أمرهم إلى رأيهم، ويكلوه إلى تدبيره، حتى لا يختلف رأيهم
فتختلف كلمتهم، ويتفرق جمعهم، فإن ظهر لهم صواب في شيء خفي على الملك،
فينبغي أن يبينوه له سرًا ليرجع به إلى الصواب.

الثالث: المسارعة إلى امتثال أمره ونهيه في غير المعصية.

الرابع: أن لا يتنازعه في شيء من قسمة الغنائم إذا قسمها فيهم، بل يرضوا به في
القسمة، فإنه يساوي بينهم، ولا يأبى أن يعدل بين القوى والضعيف، ويمائل بين الدنيئ
والشريف، وسنذكر القسمة في بابها.

* * *

الباب السادس عشر

في مصابرة المشركين

إذا تقاوت فريق المؤمنين وفريق المشركين، وجب على الملك مصابرتهم ما صبروا، وإن
طالت بهم المدة، ولا يولي عنهم وبه قوة، فقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فقال

(١) صحيح: أخرجه البخاري (ح/٦٦١)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٢/١٣) ح (٥٩٦٤)،
والحاكم في المستدرک (١٧٤/١) ح (٣٢٩)، وأبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة
(٧٣/٢) ح (٤٥٠)، وأبو عوانة في مسنده (٢٥٧/٥) ح (٧١٠٣)، والترمذي (٢٠٩/٤) ح
(١٧٠٦)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥/٨) ح (١٦٣٧٧)، والنسائي (١٥٤/٧) ح (٤١٩٢)،
وابن ماجه (٩٥٥/٢) ح (٢٨٦٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤١٨/٦) ح (٣٢٥٣٧)،
وإسحاق بن راهوية في مسنده (٢٤٢/١)، والطبراني في الأوسط (٣٥٣/٢)، (٣٥٤) ح
(٣٥٢١) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هكذا مرسلًا (٥٤٦/٦)
ح (٣٣٧١٧). وبلغت: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف»، أخرجه البخاري
(٦٨٣٠)، وأبو عوانة (٧١١٢)، وبلغت: «لا طاعة لمن عصى الله»، أخرجه الحاكم في
المستدرک (٤٠١/٣) ح (٥٥٢٨)، وقال: صحيح الإسناد، لم يخرجاه.

الحسن: معناه اصبروا على طاعة الله، وصابروا أعداء الله، ورابطوا في سبيل الله^(١).

وينبغي للملك أن يرتب جيشه، ويجعل لكل طبقة من أعدائه أشباههم من جيشه، فإنهم كالماء في الأذن إذا دخلها، فلا حيلة أرفق في إخراجها من الماء الذي هو من جنسه، وإذا حمل على أعدائه، فليكن كالنهر إذا جرى لا انثناء له ولا رجعة حتى يبلغ غايته ومنتهاه من مفيضه.

وكذلك ينبغي أن يشد الملك في حملته حتى ينال من عدوه، ويبلغ غايته، وإذا عاد أحد من المشركين إلى البراز، جاز للمسلم أن يخرج إليه؛ لأن ابن أبي خلف دعا رسول الله ﷺ في يوم أحد للبراز، فبرز إليه فقتله، وفي يوم بدر ثلاثة مشركون، وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وأخوه شيبة بن ربيعة، ودعوا إلى البراز، فبرز إليهم من الأنصار عود، ومعاذ بن عفراء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: إنا لا نعرفكم، فليبرز إلينا أكفأنا من قريش، فبرز إليهم ثلاثة من بنى هاشم، وهم: علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة، فأما علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، فبرز إلى الوليد فقتله، وبرز حمزة إلى عتبة فقتله، وبرز عبيدة إلى شيبة، فاختلفا ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه، فمات شيبة لوقته، وحمل عبيدة حيًّا، فمات بعد ذلك.

وروى أن عمرو بن عبد ود العامري دعا إلى البراز في اليوم التالي، فلم يجبه أحد، ثم دعا في اليوم الثالث، فلم يجبه أحد، فقال: يا محمد، أستم ترعمون أن قتلاكم في الجنة عند ربهم يرزقون، وقتلانا في النار يعذبون؟ فلماذا يبالى أحدكم أن يقدم على كرامة ربه، ويقدم عدوه إلى النار؟ ثم أنشد شعراً:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ حبن المشجع موقف القرن المناجز
إنى لذلك لم أزل متسرعا نحو الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

قال: فقام إليه علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، فاستأذن رسول الله ﷺ في مبارزته، فأذن له بعد معاودة، وقال: «أخرج إليه في حفظ الله وعنايته»، فخرج علي،

(١) وعن الحسن: اصبروا عند المصيبة، وصابروا على الصلوات، ورابطوا: جاهدوا في سبيل الله. عزاه الحافظ السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور (٢/٢٠٢).

حالة ذات بيان واضحه فبادروا الحرب العروس الكالحه
فأنتم بين حياة صالحه أو ميتة تورث غنما رابحه

فلم يزل يضرب فيهم بسيفه، ويطعنهم برمح، حتى استشهد، رحمه الله تعالى، ثم
حمل الثانى، وهو ينشد:

قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم غنم الأبد فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فلم يزل يضرب بهم بسيفه، ويطعنهم برمح، حتى استشهد، رحمة الله تعالى عليه، ثم
حمل الثالث، وهو ينشد:

لست فتى الخنساء ولا ابن الأكرم وأعنى عمرو إذا السماح الأقدم
إن لم أزد فى الحرب جيش الأعجم إما لفوز عاجل أو مغنم
أو لحياة الدين أفدى بدمى أو لوفاة فى سبيل الأقوم

فلم يزل يطعن فيهم برمح، ثم استشهد، رحمه الله، فلما بلغ خنساء الخبر، قالت:
الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى أنا وإياهم فى مستقر رحمته،
فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اعطوا الخنساء أرزاق أولادها،
وأجروا عليها ذلك حتى تقبض، فلم تزل تأخذ عن كل واحد منهم مائتى درهم حتى
قبضت، رضى الله عنها، وينبغى أن يكون سواد العسكر وجمهور الموكب ممتداً كامتداد
النهر إذا طمى وزخر لا يمر بشىء إلا علاه وغرقه.

* * *

الباب السابع عشر

فى معرفة قتال أهل الردة، وأهل البغى، وقطاع الطريق

نقتصر فى هذا الباب على ذكر ما يجوز للملك فعله، ونوضح قواعد المذهب فى
ذلك، من غير ذكر خلاف ولا تطويل؛ ليقع الفعل فى ممارستهم موافقاً للشرع، وهو
ثلاثة فصول:

الفصل الأول في معرفة قتال أهل الردة

إذا حكم بإسلام قوم، ثم ارتدوا عن دين الإسلام إلى أى دين خالفه، لم يجز إقرارهم عليه؛ لأن الإقرار بالحكم يوجب التزام أحكامه، ثم لا يخلو حال أهل الردة من أمرين، أحدهما: أن يكونوا فى دار الإسلام أفراداً لم يتحيزوا بدار يمتنعون بها عنه، ويتميزون عن المسلمين فيها. الثانى: أن ينحازوا إلى دار ينفردون بها عن المسلمين، حتى يصيروا فيها ممتنعين، فإن كانوا فى دار الإسلام منفردين، فلا حاجة لقتالهم، لدخولهم تحت القدرة، بل يجب أن يأخذهم بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل، فإن تابوا قبلت توبتهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومن أقام منهم على رده وجب قتله، رجلاً كان أو امرأة؛ لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

واختلف العلماء فى كيفية قتل المرتد، والوقت الذى يقتل فيه، فمنهم من قال: يقتل فى الحال؛ لأن حق الله تعالى إذا وجب لا يجوز تأخير. ومنهم من قال: يؤجل ثلاثة أيام؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، نظر المستورد العجلى بالردة ثلاثة أيام، ثم قتله بعد ذلك^(٢)، ويقتل ضرباً بالخشب، وإذا قتل لم يغسل، ولم يكفن، ولم يصل عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين، ويكون ماله فيئاً إلى بيت مال المسلمين.

وأما إذا انحاز أهل الردة إلى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا فيها ممتنعين، وجب قتالهم على ردتهم، ويجرى على قتالهم حكم قتال أهل الحرب فى جواز قتلهم غرة وبياتاً، ومقبليين ومدبرين، ومن أسر منهم جاز قتله، ولا يجوز استرقاقه، وإذا أغنمت أموالهم لم تقسم بين الغانمين، بل يكون مال من قتل منهم فيئاً لبيت المال، ومال من لا يقتل موقوفاً على إسلامه إن عاد إلى الإسلام رد عليه ماله.

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٣٤/٦) ح (٨٦٢٣)، وفيه ابن لهيعة، وحسن الحافظ الهيثمى إسناده. انظر: مجمع الزوائد (٢٦٤/٦).

(٢) اعلم أنهم اختلفوا فى وجوب الاستتابة، فذهب إلى استحبابها الإمام مالك، وأحمد، وأبو حنيفة، وهو قول الشافعى. والثانى وجوب الاستتابة. وقال عطاء: إن كان مسلماً فى الأصل، لم يستتب، وإن كان قد أسلم ثم ارتد استتب. وقال الحسن البصرى: يقتل من غير استتابة. وفى مدة الاستتابة قولان عندنا نحن الشافعية، أصحهما: أنه يستتاب فى الحال. والثانى: يستتاب ثلاثة أيام. وروى عن الخليفة على، عليه السلام، أنه قال: يستتاب شهراً. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٠١/٣).

الفصل الثاني في معرفة قتال أهل البغى

وإذا خرجت طائفة من المسلمين، وخالفوا رأى الجماعة، وانفردوا عنهم، وخرجوا عن قبضة الإمام الأعظم، وتحيزوا وامتنعوا بمنعة، وجب قتالهم بعد أن ينذرهم ويسألهم ما ينقمون؛ لأن على، رضى الله عنه، بعث عبد الله بن العباس إلى الخوارج، فسألهم ما ينقمون منه، ثم يؤخرهم وينظرهم، فإن رجعوا إلى الطاعة كف عنهم، وإن أبوا قاتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وقاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة، وقاتل على، رضى الله عنه، الخوارج بالهذوان، وقاتل معاوية بصفين^(١).

واعلم أن قتالهم يخالف قتال المشركين من تسعة أوجه:

أحدها: لا يهجم عليهم غرة ولا بيئاتاً^(٢)، ويجوز ذلك في قتال المشركين.

الثاني: أن يقصد بقتلهم ردهم وردعهم ورجوعهم إلى الحق، ولا يعتمد على قتلهم.

الثالث: يقاتلهم مقبلين، ويكف عنهم مدبرين^(٣).

الرابع: أن لا يجهز على جريحهم.

الخامس: أن لا يقتل أسراهم^(٤).

السادس: أن لا نغنم أموالهم، ولا نسبي ذرايرهم^(٥).

(١) وفيه اعتبار معاوية من البغاة، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»، فظهر أن هذا قول ابن بسام.

(٢) هذا مذهبنا نحن الشافعية والكاساني من الأحناف، والمرغيناني، خلافاً للقندوري ومن وافقه، كالطرسوسى من الأحناف. انظر: تحفة الترك للطرسوسى (ص ٦٨).

(٣) هذا مذهبنا نحن الشافعية، خلافاً للإمام الأعظم، حيث قال: يتبعون ويقتلون، واختاره أبو إسحاق، حيث كانت لهم فئة ينحازون إليها، وإلا فكمذهبنا. انظر: حلية العلماء للشاشى (١٠٩٩/٣)، تحفة الترك للطرسوسى (ص ٦٨، ٦٩)، بدائع الصنائع للكاسانى (١٤٠/٧)، (١٤١).

(٤) وعند الأحناف يقتل الأسرى إن كانت لهم فئة يتحيزون إليها، وإن لم تكن، فالإمام مخير، إن شاء قتله استتصلاً لشأفتهم، وإن شاء حبسه لاندفاع شره بالسر والحبس. انظر: الهداية للمرغينانى (٤٦٥/٢)، تحفة الترك للطرسوسى (ص ٦٩).

(٥) ولا تملك أموالهم لبقاء العصمة فيها بكونها محررة بدار الإسلام. انظر: تحفة الترك للطرسوسى (ص ٧١).

السابع: أن لا يستعين على قتالهم بمشرك معاهد ولا ذمى.

الثامن: أن لا يهادنهم إلى مدة، ولا يوادعهم على مال، فإن هادنهم إلى مدة لم يلزم، فإن ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم، وإن وادعهم على مال بطلت المودعة، ثم ينظر فى المال، فإن كان من صدقاتهم وخراجهم، لم يرده عليهم، وإن كان من خالص الأموال رد اليهم، ولا يجوز أن يملكه عليهم.

التاسع: أن لا ينصب عليهم العربات والمنجنقات، ولا يحرق عليهم المساكن، ولا يقطع أشجارهم؛ لأن دار الإسلام تمنع من كل ذلك، بخلاف قتال المشركين، فإن أحاطوا بأهل العدوان، وخافوا منهم الاضطلام، جاز أن يدفعوا عنهم ما استطاعوا من قتل، ونصب المنجنقات عليهم، وحرقتهم بالنار وغير ذلك؛ لأن المسلم إذا أصابه ضرر، بحيث لا يندفع إلا بقتل من قصده، جاز له الدفع بالقتل، ولا يجوز أن ينتفع بدوابهم، ولا أسلحتهم، ولا يستعان بها فى قتالهم^(١)، وقال أبو حنيفة، رحمه الله: يجوز ذلك^(٢).

الفصل الثالث فى معرفة قطاع الطريق

فإن اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السلاح، وقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل النفوس، ومنع السبيل، فهم المحاربون الذين قال الله تعالى فى حقهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، قال الشافعى، رضى الله عنه: من قتل منهم وأخذ المال، قتل وصلب بعد قتله، ومن قتل ولم يأخذ المال، قتل ولم يصلب، ومن أخذ المال ولم يقتل، قطعت يده ورجله من خلاف^(٣)، ومن لم يقتل ولم يأخذ المال، ولكنه أربب وأخاف السبيل، عذر

(١) لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»، إلا لضرورة كما إذا خيف انهزام العدل، ولم يجدوا غير خيولهم، فيجوز لهم ركوبها، وكذا إن لم يجدوا ما يدفعون به عنهم غير سلاحهم. انظر: مغنى المحتاج (١٢٧/٤)، المذهب للشيرازى (٢٢٠/٢).

(٢) وقيد الشيخ المرغينانى بالحاجة إليه. انظر: الهداية (٤٦٥/٢). قال الشيخ الطرسوسى: لنا أن الخليفة على، عليه السلام، قسم السلاح فيما بين أصحابه بالبصرة، وكانت قسمته للحاجة لا للتملك. انظر: تحفة الترك (ص ٧١).

قلت: فالظاهر موافقة مذهب الأحناف لمذهب الشافعية، لتقييد كل الجواز بالحاجة.

(٣) انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى ١٧٧
بالحبس^(١)، وهو النفى من الأرض^(٢). وقال مالك، رضى الله عنه: من كان ذا رأى
وتدبير قتل، ومن كان ذا بطش وقوة عزَّزَ وحبس.

واعلم أن قتال قطاع الطريق كقتال أهل البغى فى عامة أحوالهم، ويخالفه فى خمسة
أوجه:

أحدها: يجوز قتالهم مدبرين ومقبلين، بخلاف قتال أهل البغى.

الثانى: يجوز أن يعتمد إلى قتل من قتل منهم فى حال الحرب، بخلاف قتال أهل
البغى.

الثالث: أنهم يؤخذون بما استهلكوه من دم أو مال فى الحرب وغيرها، بخلاف أهل
البغى.

الرابع: أن يجوز حبس من أسر منهم؛ ليعلم براءة حالهم من غير خلاف، بخلاف
أهل البغى.

الخامس: أن ما جَبَّوهُ من الخراج والصدقات، يكون كالمأخوذ من وجه الغصب
والنهب، لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات، ويكون غرمه مستحقاً عليهم لمن أخذه
منهم، بخلاف أهل البغى.

* * *

الباب الثامن عشر

فى معرفة قسمة الغنيمة والأنفال

إذا أخذ المسلمون من الكفار مالا بزحف الخيل والركاب، فهو غنيمة يجب على
الملِك أن يقسمها ما بين الغانمين، فتجعل خمسة أخماس، خمس منها لأهل الخمس الذين
قال الله عز وجل فى حقهم: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وأربعة
أخماس للغانمين.

(١) هذا أحد وجهين فى الحادى، والثانى: يعززه بما يراه. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

(٢) أى أنه يحبس فى غير بلده، وهو قول أبى العباس بن سريج، والثانى: يحبس فى بلده، وهو قول
أبى حنيفة. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

١٧٨ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى

وينبغى أن يقسم ذلك كله فى دار الحرب؛ لأن رسول الله ﷺ قسم غنائم بنى المصطلق على مياهمهم، وقسم غنائم حنين بأوطاس، هو واد من حنين، ولا يدخل سلب المقتول فى القسم، بل يكون للقاتل دون غيره؛ لأن رسول الله ﷺ جعل السلب للقاتل^(١)، فإن كان الجيش كلهم فرساناً، سوى بينهم فى القسمة، وكذلك إذا كانوا رجالة، وإن كان بعضهم رجالة، وبعضهم فرساناً، جعل للرجل سهماً واحداً، ولل فارس ثلاثة أسهم، سهم للرجل، وسهمان للفرس^(٢)، ويجعل من قاتل ومن لم يقتل سواء فى القسمة، وكذلك من حضر بفرسين أو أكثر، لم يزد سهمه على من حضر بفرس واحد.

وإذا بعث الملك سرية من الجيش إلى جهة الكفار فغنمت السرية، شاركها فى ذلك أهل الجيش، وكذلك إن عمل أهل الجيش، شاركهم أهل السرية؛ لأن رسول الله ﷺ لما هزم هوازن بحنين، أسرى سرية قبل أوطاس فغنمت، فقسم غنائمها بين الجميع، ومن فعل من أهل الجيش فعلاً يفضى إلى الظفر بالعدو، كالتجسس، والدلالة على طريق أو قلعة، أو التقدم بالدخول إلى دار الحرب، جاز للملك أن ينقله من الغنيمة زيادة على سهمه؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك.

* * *

الباب التاسع عشر

فيما ينبغى للملك أن يفعله عند قفوله بالجيش

ينبغى للملك إذا قفل بالجيش من غزوة أو سفر، أن يفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى قفوله من غزواته وأسفاره، فقد كان يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى دائم لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، آيئون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده^(٣)»، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، [القصص: ٨٨].

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٦/٦)، وأبو داود (٢٧٢١)، وانظر: إرواء الغليل (١٢٢٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦٢/٢)، وأبو داود (٢٧٣٣).

(٣) أخرجه البخارى (١٧٠٣)، وابن حبان فى صحيحه (٤٢٤/٦) ح (٢٧٠٧)، والبيهقى فى الكبرى (٢٥٩/٥) ح (١٠١٤٤)، والربيع فى مسنده (١٦٢/١) ح (٤٠٠)، والإمام مالك فى الموطأ (٤٢١/١) ح (٩٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٦٣/٢) ح (٥٢٩٥).

وينبغى إذا أشرف على مدينة أن يحرك دابته ويقول: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً، ثم يرسل إلى نوابه وأهل مدينته، فيخبرهم بقدومه ليخرجوا إلى لقائه؛ لأن الرعية ينتعشون بطلعة الملك عليهم ورجوعه إليهم، كانتعاش النبات بوابل المطر، وإذا دخل البلد فليقصد المسجد ويصلى فيه ركعتين، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، وإذا دخل منزله واستقر على سريره، رفع حجابيه، وفتح بابه، وأذن لوجهاء بلده وبياض رعيته بالدخول لتهنئته بما أفاء الله عليه، وحققه لديه من شمول النعمة، وحسن المنقلب، ثم يكثر من الصدقات والصلاة، ويوسع في العطايا والهبات، ويرد المغصوب والمظلمات، ويكشف عن أحوال من حبسه من أهل الخطيئات، ويستكثر من صنائع المعروف وأفعال البر، فإنه إذا فعل ذلك كان شاكرًا لله، وكان لمزيد النعمة مستحقًا، ولتتابع الإحسان من الله مستوجبًا.

* * *

الباب العشرون

فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك

اعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم، ربما شغلتهم عن أمر الآخرة، وأغفلتهم عن مهمات الدين، فيجنحون إلى اللذات، ويهملون أمر الديانات؛ لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف، وإيثار التنعم، وكراهة التكليف، فلا ينبغى أن تخلو مجالسهم من علماء الدين، وصلحاء المسلمين؛ لينبئوهم عند طرؤ الغفلة، ويذكروهم عند حرارة الشهوة، ويوضحوا لهم نهج الآخرة، ومعالم الشريعة.

وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء، وكانوا فى ذلك ثلاث طبقات، فمنهم طبقة لما سمعوا الوعظ نبذوا ملك الدنيا الذى يفنى؛ ليعتاضوا عنه ملك الآخرة الذى يبقى، وأخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم، واهتموا بأمر الآخرة والعمل بها؛ لينالوا الفوز الأكبر، والنعيم الدائم.

ومنهم طبقة عند سماع المواعظ أخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم، ولم يخرجوه من

١٨٠ كتاب النهج المسلوک فى سياسة الملوك للشيزرى
أيديهم، واهتموا بأمر الآخرة مع بقائهم فى الملك، وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة،
ومثلهم فى ذلك مثل من ألزم نفسه الظماً وأمامه نهر بارد ينظر إليه ويقدر على تناوله،
وهذا كان مقام الخلفاء الراشدين، وأمرائهم، وعمالهم، ومناسك سيبلهم.

ومنهم طبقة أصمهم حب الدنيا ونيل لذاتها عن استماع المواعظ، وأعمى أبصارهم
عن كل مذكر وواعظ، فأثروا اللذات عن المهمات، وقطعتهم الشهوات عن أمور
الديانات، وسأذكر من أخبار أهل هذه الطبقات الثلاث ما يكون فيه رياض لذوى
الأفكار، ورياضات لذوى الأبصار، والله أعلم بالصواب.

وهذه حكايات عظيمة

الطبقة الأولى خمس روضات

الروضة الأولى: ماحكاه أصحاب الحديث، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه،
استعمل عمير بن سعيد الأنصارى، رضى الله عنه، على حمص وأعمالها، فلبث فيها سنة
كاملة، فجلس يوماً وعنده رجل من أصحاب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان قد
أتاه يستدعى منه ما اجتمع عنده من المال، فحضر عنده رجل معاهد، فجعل يتكلم
ويرفع صوته، فقال له عمير: اسكت أخزأك الله، فقال له الرجل الذى عنده: أخزأك الله
من أصحاب عمر يا عمير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا ولى خصم المعاهد
واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، يا عمير اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن
يفعل الله بك فاصنع برعيتك.

قال: فبكى عمير بكاء شديداً، ثم انثنى إلى منزله، فعمد إلى جراب زاده ومزادته
وقصعته، فعلقهن على عصاه، وعلقهن على عاتقه، وخرج من حمص ماشياً حتى قدم
على عمر، رضى الله عنه، فسلم عليه، فرد عليه السلام متثاقلاً، ثم قال له: يا عمير، ما
الذى أدى بك من سوء الحال؟ أمرضت بعدى أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك؟
فقال عمير: يا أمير المؤمنين، ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس؟ ثم ما الذى ترى من
سوء الحال؟ ألسنت ترانى صحيح البدن، قد جئتكم أحمل الدنيا؟ فقال له عمر: وما الذى
جئت به من الدنيا، فقال: جرابى فيه زادى، ومزادتى فيها ماء لشرايى ووضوئى،
وقصعتى لعجيني، وعكازى أذب به عن نفسى، قال: صدقت رحمك الله، فما فعل
المسلمون بعدى؟ قال: تركتهم يوحدون الله ويصلون، ولا تسألنى عما وراء ذلك.

قال: فما فعل أهل الذمة؟ قال: أخذنا منهم الجزية وهم صاغرون عن يد، قال: فما زاد من المال؟ وما أنت وذاك؟ قال: إني لما قدمت حمص اجتهدت برأىي، وجمعت من بها من المسلمين، فاخترت منهم رجالاً فاستعملتهم، ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته في أهله، ولو كان عندنا أكثر لآتاك، فقال: يا عمير، وأين راحلتك؟ قال: لم يكن لي راحلة، قال: أما كان في رعيك من يتبرع لك بدابة تركبها؟ بغس المسلمون وبغس المعاهدون.

ثم قال لابنه عبد الله: جئني بصحيفة لأجدد لعمير عهداً؛ ليرجع إلى عمله، فقال عمير: لا والله لا أعمل على شيء أبداً، فقال عمر: ولم ذلك؟ قال: إني ما نجوت، فإني قلت يوماً لمعاهد: أخزأك الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا ولي خصم المعاهد واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، فنهض عمر وأخذ بيد عمير، ثم أتى قبر رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا أبا بكر، ثم بكى عمر، وقال: ماذا لقيت بعدكما، اللهم ألحقني بصاحبي لم أغير ولم أبدل، وبكى معه عمير طويلاً، ثم قال: يا عمير، الحق بأهلك، وكان أهله على ثلاثة فراسخ من المدينة.

قال: ثم قدم بعد ذلك مال على عمر من عند بعض عماله، فدعا رجلاً من أصحابه اسمه حبيب، فدفع إليه صرة فيها مائة دينار، وقال: انطلق إلى منزل عمير، فأقم عنده ثلاثاً وتفقد حاله، ثم اعطه هذه الصرة، فأتاه حبيب، فوجده في فناء داره يتقلّى في الشمس، فسلم عليه، فقال له عمير: من أين أقبلت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركت عمر؟ قال: جائراً في الحكم، قال: لا، فلعله وضع السوط في أهل القبلة، قال: لا، ولكنه ضرب ابناً له الحد فمات، فقال: اللهم اغفر لعمر، فإنه يحبك ويحب رسولك ويجب إقامة الحد.

ثم أقام عنده حبيب ثلاثة أيام يقره كل يوم قرصاً مأموداً بزيت، فلما انقضت الثلاثة أيام، قال له عمير: ارتحل عنا رحمك الله، فقد أجمعنا، وإنك لم تصادف عندنا فضلاً، لكننا آثرناك، فقال له حبيب: خذ هذه الصرة، فإن عمر بعثها إليك، فلما صارت في يده، قال: صحبت رسول الله ﷺ، فلم أبتل بشيء من الدنيا، وصحبت أبا بكر كذلك، ثم صحبت عمر، فشر أيامي يوم صحبت عمر، وبكى، فقالت له امرأته: لا تبك رحمك الله، ضعها حيث شئت، قال: صدقت، فاطرحي لي بعض خلقانك، قال: ففعلت،

١٨٢ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى
فجعل يصير الدينار والدينارين والثلاثة دنانير والأربعة، وفرق ذلك حتى قسمها فى فقراء
جيرانه.

وعاد حبيب إلى عمر، فأخبره بخبره، فارتاع لذلك، ولبت أياماً، واستدعى عميراً،
وقال له: ما صنعت بالدنانير؟ فقال: أقرضتها ربى إلى يوم فقرى، قال: هل عليك دين؟
قال: لا، فأمر عمر، رضى الله عنه، له بوقر بعير ثمرًا وثوبين، فقال: أما الثوبان
فأقبلهما، وأما التمر فلا حاجة لى به، فإنى قد تركت عند أهلى صاعاً من الشعير، وهو
مبلغهم إلى، ثم انصرف عمير إلى أهله، فقيل: ما لبت قليلاً وتوفى رحمة الله تعالى عليه،
فجزع له عمر، وقال لأصحابه: تمنوا، فتمنوا، فقال: لكنى أتمنى رجالاً أستعين بهم على
أمر المسلمين.

الروضة الثانية: ما حكاه الأصمعى، قال: ركب النعمان بن امرء القيس ابن عمر
الأكبر، حتى أشرف على الخرنوق، وهو الذى بناه، فلما نظر إلى ما حواليه، وكان فى
فصل الربيع ورونته، وقد أخذت الأرض زينتها، فسرّح طرفه ملياً فيما حوله، وكان
معجباً بالشقائق التى يقال لها: شقائق النعمان، ومن أجل إعجابه بها وتبعه لها فى
الرياض نسبت إليه.

قال: وكان هناك روضة شقائق، فلما تأملها، ونظر حسن نضد الشقيق فى منابته،
وقنو حمرة، وخضرة سوقه، وتمايسه مع هبوب النسيم عليه، ارتاح قلبه إليه، فأمر أن
يسط له بساط منسوج من الحرير المخمل على هيئة الروضة، فكان كأنه روضة مختلفة
بأنواع النوار، وضرب عليه قبة من الديباج الأحمر منضودة من الحشايما يضاهاها
ويجانسها فى لونها، ولبس من الثياب الحرير أفضل وأفخر ما عنده، ثم جلس فى تلك
القبة مواجهاً لتلك الروضة، وعنده أكابر قواده، وخواص مملكته، ووجهاء رعيته، وفيهم
عدى بن زيد.

قال: فأعجب الملك بما هو فيه، فقال لجلسائه: هل رأيتم مثل ما أنا فيه، أو علمتم أن
أحدًا أوتى مثل ما أوتيت؟ قالوا: لا أيها الملك، ما رأينا مثلك، وعدى لم ينطق، فنظر
إليه الملك مستدعيًا لكلامه، فقال: أيها الملك، أرايت ما جمعت أشياء هو لك لم يزل،
أو شيء كان لمن قبلك وزال عنهم وصار لك؟ قال: بلى كان لمن كان قبلى ثم صار
إلى، قال: فيزول عنك إلى غيرك أم يبقى؟ قال: يزول عنى ويبقى إلى غيرى، قال: فأراك

كتاب النهج المسلول في سياسة الملوك للشيزرى ١٨٣
أيها الملك مررت بشيء يذهب عنك إلى غيرك وتبقى تبعته، تكتال منه قليلاً، وتوهن فيه
طويلاً.

قال: فبكي النعمان، وقال له: يا عدى، فأين المهرب؟ قال: أحد أمرين، الأول: أن
تقيم في ملكك تعمل بطاعة ربك على ما أمرك وأرشدك، والثاني: أن تضع تاجك،
وتخلع أطمارك، وتلبس مسوحاً، ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد فيه ربك حتى
يأتيك اليقين، قال: فإذا فعلت ذلك، فما لي عنده؟ أحياء لا موت بها، وشباب لا هرام
بعده، وصحة لا سقم بها، وملك جديد لا يلى؟ قال: نعم، قال: وكلما أراه إلى فناء
وزوال؟ قال: نعم، قال: فأى خير فيما ينفى ويحول؟.

ثم أنه ركب هو ومن معه من موضعه، وسار طالباً قصره، وإلى جانبه عدى بن زيد،
فأتوا إلى مقبرة، فقال عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة أيها الملك؟ قال: لا، قال: إنها
تقول: أيها الركب اللاهون على الأرض المجدون، كما كنتم كنا، وكما نحن تصيرون،
قال: ثم ساروا، فمروا بحمامات متناوحات عند عين جارية، فقال عدى: أيها الملك،
أتدرى ما تقول هذه الحمام؟ قال: لا، قال: تقول:

من رآنا فليحدث نفسه أنه سوف على قرب زوال
وصروف الدهر لا تبقى له ولما يأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهرا بعيش حسن غرهم دهر بهم غير عجال
بعد هذا عبث الدهر بهم ولذاك الدهر حال بعد حال

فلما انتهى الملك إلى قصره، التفت إلى عدى، وقال: قد علمت أن المقبرة والحمام لا
تتكلم، وإنما قصدت بذلك عظمتي، وقد حصلت الموعظة، فإذا كان السحر فاحضر
عندى، فإن عندى خبراً سأطلعك عليه، فلما حضر عنده وجده قد لبس مسوح الشعر،
وأخذ أهبة السياحة، فودع عدياً، ثم ارتقى إلى الجبل، فلم يزل هنالك يعبد الله حتى
لحق به، رحمه الله.

الروضة الثالثة: روى نافع، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان فيما سلف ملك دان له الناس، فأعجب بملكه، وقال لوزرائه وقهارمته: ابنوا لى داراً لا يكون فيها عيب، ففعلوا ذلك، قال: اتخذوا لى طعاماً لا يكون فيه عيب، ففعلوا ذلك، فأمر أن يدعى الناس إلى طعامه فى تلك الدار، ثم أمر بإقامة رجلين بالباب، وأمرهما أن يسألا كل واحد يخرج من الدار: هل رأى فيها عيباً أو فى الطعام؟.

قال: فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألاهما، فقالا: نعم رأينا فى الدار عيبين قبيحين، قالوا: وما هما؟ قالا: رأينا الدار تخرب، وصاحبها يموت، فمضيا وأخبرا الملك بما قالا، فأحضرهما وسألهما، فذكرا له ذلك، فأطرق الملك ساعة، ثم قال لهما: أتعرفان داراً لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالا: نعم، قال: وأين هى؟ فقالا: هى دار الله تعالى ربنا وربك، وهى الجنة التى يدوم نعيمها، ولا يزول ملكها، قال: فصفها لى، فوصفاها له، قال: وبأى شىء تنال هذه الدار؟ قالا: بعبادة الله والانقطاع إليه، قال: وكيف تكون العبادة؟ فشرعا له الدين، فوقع فى قلبه أن ذلك هو الحق، فقال لهما: أقيما عندى فى هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتما لى، فإن أقمت فى ملكى جعلتكما وزيرين لا أعصيكما، وإذا خرجت منه تبعتكما على أمركما.

ثم قام فدخل على ابنة له، وكانت عاقلة فهيمة، فقص حكايته عليها، وهو ما ذكره له، وأخبرهما أنه تارك ملكه وخارج معهما، فقالت: يا أبت، انج بنفسك وخذنى معك، قال: يا بنيتى، أنت عورة، فكيف أصنع بك؟ فقالت: إنى أخفى شخصى، فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنثى، قال: فاخلى ثيابك واخرجى، ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها إلى الرجلين، فقال لهما: سيرا بنا ما دام ظلام الليل ساجياً، وهذا ولدى معى، فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها، ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك، ثم ساروا حتى بلغوا ديراً، فقالا له: هذا موضعنا الذى نعبد ربنا فيه، فدخلوا إليه جميعاً، فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة، ثم تجهز للخروج عنهما، فقالوا له: ما شأنك؟ هل أذاك أحد منا؟ قال: لا، ولكنى أراكما تكمراننى لما كنت فيه من الملك، فأريد أن آتى موضعاً لا أعرف فيه، فأكون فى غمار الناس.

فتركاه ومضى حتى أتى ديراً كبيراً كثير الأهل، فيه مساكن كثيرة، فقال: هل من منزل؟ فقيل له: ادخل، فدخل واختار منزلاً، فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه، وكان لأهل ذلك الدير مزرعة، وكل لكل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة، فبلغت النوبة إلى الشيخ، وكان مريضاً، فقيل له ذلك، فقال: إن عذرى واضح، فقالت

له ابنته: أنا أخرج عنك، فخرجت إلى المزرعة، فما كان يراها الناس إلا قائمة تصلى، وفي أمر هي به مغتبطة.

قال: وكان يقربهم دير صغير ينسب إلى رجل له ابنة جميلة، فجاءت تلك الابنة، فاتصلت بها وهي تظن أنها غلام، فجعلت تعرض عليها نفسها، وهي تعتصم من شرها، فلما رأت الجارية أنها لا تفعل، قالت: والله لأهلكنك وأهلكن أباك، ثم أنها ذهبت إلى راع فمكنته من نفسها فحملت، فلما عظم بطنها قال لها أبوها: ما هذا؟ قالت: إني كنت عند ولد الشيخ مطمئنة إليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده، وكان هذا منه، فجاء أبوها وأهل ديره، فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك، وقالوا: لا ينبغي أن يكون هذا الشيخ وولده عندكم، وهموا على إخراجهم، إلا أنه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك.

ثم توفي الشيخ مكانه، فلم يأخذوا في جهازه، فقال علماءهم: إنه لا ذنب له، فاغسلوه وكفنوه واطردوا ابنه، فلا يدخل ديركم، ففعلوا ذلك، فقالت الفتاة: دعوني أبنى لى بيتاً في الصحراء أحرس نفسي فيه من السباع، فبنت لها بيتاً، فكانت تعبد الله تعالى، وتزور قبر أبيها، حتى إذا كانت ليلة من الليالي، مر بها رجل من أهل الدير، فإذا باب بيتها مفتوح، فناداه: يا فتى، فأجابته بصوت خافت، فقال: أحسبك مريضاً؟ قال: نعم، قال: فهل لك حاجة؟ قال: نعم، إذا أنا مت، فلا تكشفوني، ولا تنزعوني من ثيابي وغسلوني فيها، وادفوني في قبر أبي، فقد حفرت إلى جانبه قبراً، ثم أصبحوا فسمعوا قائلاً يقول: مات ابن الشيخ، فقال الرجل الذي كان أوصاه: إنه أوصاني بكذا وكذا، فقال علماءهم: لا تغيروا سنتنا، ابعثوا إليه رجلاً يغسله مجرداً من ثيابه، ثم كفنوه وادفنوه إلى جانب قبر أبيه كما أوصى.

فلما جاء الرجل وكشف عنه ليغسله، فوجدها امرأة، فغطوها وتنادوا في الديوان: الذي طردتموه إنما هو امرأة، فبعثوا إليها النساء وغسلوها، فلما جهزوها حضر إلى الصلاة عليها جميع من في تلك الأرض، ثم دفنوها إلى جانب أبيها، قال: قال عبد الله ابن عمر: فلقد كان أهل تلك الناحية إذا أقحطوا جاءوا إلى قبر أبيها وقبرها، فاستسقوا الله تعالى فيسقون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الروضة الرابعة: حكى أن ملكاً من اليونان قام من منامه في بعض الغدوات، فأنته القيمة على ثيابه بملبوس، ثم ناولته المرأة، فنظر إلى وجهه، فوجد في لحيته شعرة بيضاء،

فقال لها: هاتى المقراض؟ فأنته به فقصها، فتناولتها الجارية، وكانت حكيمة لبية عاقلة، فوضعتها فى كفها، وأصغت إليها بأذنها، والملك ينظر إليها، فقال: ما هذا الذى تصغن إليه؟ قالت: أستمع ما تقول هذه الشعرة التى عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخط عليها الملك فاقصتها، فقال الملك: وما الذى سمعت من قولها؟ قالت: زعم قلبى أنه سمعها تقول كلاماً لا يجترئ عليه لسانى خوفاً من سطوة الملك، فقال لها الملك: قولى ما شئت آمنة إن لزمنا قانون الحكمة، قالت: إنها تقول: أيها العائش إلى أمد قصير، إني قد علمت منك البطش بى والاعتداء علىّ إذ ظهرت ظاهر بشرتك، فلم أظهر فى وقتى هذا حتى عهدت إلى أخواتى من بعدى فى الأخذ بثأرى منك، إما باستئصالك، وإما بتنقيص لذتك، وتنقيص قوتك، حتى تعد الموت راحة لك.

فقال لها الملك: اكبتى كلامك، فكتبته فى لوح، فجعل يتدبره ساعة، ثم نهض مبادراً، فأتى هيكلًا من هياكلهم، فنزع عنه تاجه وثياب الملوك، وتزيا بزى النساك، وبلغ ذلك أهله وأهل مملكته، فطلبوه وسألوه بأن يعود إلى ملكه وتديره، فامتنع منهم وسألهم إقالتة وتمليك غيره، فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهراً، فاصطاح أهل الهيكل معهم على أن يتركوه يعبد ربه ويستنيب غيره فيما استتاب فى مثله من الأمور، وىلى هو غير ذلك من الأمور العظام بنفسه، مع إقامته فى الهيكل، فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله إليه، رحمة الله عليه.

الروضة الخامسة: حكى أبو عبد الله محمد بن أبى محمد ظفر الحجازى، رحمه الله تعالى، أن ملكاً من ملوك الزمان كان كافراً، عتياً، متكبراً، حديث السن، مستحكم العزة، وكان له وزير مؤمن بالله تعالى، قد أدرك بعض حوارى المسيح وهو يكتن إيمانه، ويتحرى وقتاً يمكن فيه دعوة الملك إلى الله تعالى، فركب الملك يوماً، فسمع شيخاً رافعاً صوته لبعض شأنه، فقال للأعوان: خذوه، فلما أخذوا ذلك الشيخ، قال: إن ربى الله، فقال الوزير: تخلوا عنه، فخلى عنه الأعوان، فاشتد غضب الملك على الوزير، ولم يمكنه الإنكار عليه فى ذلك المقام، فسكت ليوهم الناس إنما فعل ذلك الوزير بأمره.

فلما عاد الملك إلى قصره، أحضر الوزير وقال له: ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى؟ فقال له الوزير: إن لم يعجل علىّ الملك أريه وجه نصحى له وشفقتى عليه فيما أتيت، فقال الملك: أرنى ذلك، فإنى لا أعجل عليك، فقال الوزير: أسأل الملك أن يجتنب فى مجلسه هذا خلف حجاب، فيكون بحيث يسمع ويرى ما يكون منى، فقعد الملك كذلك، ثم أن الوزير أحضر قوساً جيدة، صنعها للملك بعض خدمه، وكتب

الصانع اسمه عليها، فأعطى القوس غلاماً، وقال له: أحضر صانع هذا القوس، فإذا حضر وحادثته فاقراً أنت اسم صاحب القوس جهراً حتى تعلم أنه قد سمعك، ثم اكسرها وهو ينظر إليك.

فحضر القواس، وفعل الغلام ما أمره به الوزير، فلما كسر القوس، لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشحه، فقال الوزير: أتضرب غلامى بحضرتى؟ قال: نعم؛ لأنه كسر القوس التى هى صنعتى وعملى، وهى فى نهاية الجودة والحسن، فلاى شىء كسرها وهو يعلم أنها صنعتى؟ قال الوزير: فلعله ما علم أنها صنعتك؟ قال: بلى إن القوس أخبره أنه صنعتى، قال الوزير: رأيت قوساً يخبر؟ قال: نعم، إن اسمى مكتوب عليه وقرأه وأنا أسمع.

ثم أن الوزير صرف الصانع والغلام، ثم قال للملك: قد أوضحت لك نصحى وإشفاقى عليك، وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ، أخبرك أن الله ربه، فخفت عليك من ربه أن يغضب كما غضب هذا القواس لقوسه، فقال له الملك: وهل للشيخ رب غيرى؟ قال له الوزير: ألم ير الملك أن الرجل شيخاً كبيراً والمملك شاب؟ فهل كان قبل أن يولد الملك لا رب له؟ فقال له: إن أبى كان ربه، فقال له الوزير: فما بال الرب هلك والمربوب باق؟ فسكت الملك ساعة، وقال: الآن علمت أن للملك والمملوك رباً لا يزول، فهل تعرفه؟ فقال الوزير: نعم أعرفه، قال: فصفه ودلى عليه؟ فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق، وأوضح له الدلالة على ذلك، فانشرح صدر الملك للإيمان، فأمن بالله تعالى.

فلما رسخ فى قلبه التوحيد، قال: أما لربنا خدمة فنتقرب بها إليه؟ قال: إنه غنى عن كل شىء، قال: فما أمرنا بشىء إذا فعلناه حظينا به عنده؟ قال: بلى، إن له وظائف أمرنا بها، ورضى لنا فعلها، ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه، فسأله عنها، فذكرها له، وهى: الصلاة، والصيام، وغيرها من شرائع المسيح، عليه السلام، فعرفها الملك وراض نفسه بها، حتى صارت له طبعاً، ثم قال يوماً للوزير: ما لك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتنى؟ فقال: أمة ذات قلوب قاسية، وفهوم قاصية، ونفوس عاصية، ولست آمنهم على نفسى، فقال الملك: أنا أفعله إن لم تفعله أنت، فقال الوزير: ليعلم الملك أنهم إن لم تذدهم هيبتة عنى لا آمنهم على نفسى، وسأدعهم إلى الإله، فإن اجترأوا بالقتل على، فلا يعفهم الملك.

ثم أن الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة، وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها، فلما اجتمعوا فى منزله، قام فيهم خطيباً بالدعوة إلى التوحيد، فتواثبوا عليه فقتلوه، ثم أتوا إلى الملك، فأخبروه بما كان من وزيره، فأظهر لهم الرضى بقتله، فانقلبوا عنه راضين، ثم أن الملك ضاق صدره على وزيره، فلما كان الليل لبس مسوح الشعر، والتحق بالركبان، ونبذ ما كان فيه من الملك، ولم يزل يعبد الله تعالى حتى قضى نحبه، رحمة الله عليه وعلى المسلمين أجمعين آمين.

* * *

حكاية الطبقة الثانية

وهى خمس روضات

الروضة الأولى: حكى مالك بن أنس، رضى الله عنه، أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، دخل عليه محمد بن كعب، وعنده هشام بن مصاد، وقد وعظمه فأبكاه، فقال له محمد: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أبكاني هشام حين ذكرنى وقوفى بين يدى ربى، فقال له محمد: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما نفعهم، ومنها خرجوا بما ضرهم، فلا تكن من قوم قد غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها، فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة، فاقسم فيما جمعوا من لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر يا أمير المؤمنين إلى تلك الأعمال التى تتخوف منها فكف عنها، وانظر إلى الذى تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فاصنع منه، وابذل حيث يوجد البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تروج معك، فاتق الله تعالى يا أمير المؤمنين، وافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وارددع الظالم.

يا أمير المؤمنين، ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. قال: فاشتد بكاء عمر بن عبد العزيز وعلا نحيبه، وقال: اللهم أعنى على ما أبلتني به من أمر عبادك وبلادك، وارزقني فيهم العمل بطاعتك، واختم لى بخير منك وعافية والمسلمين أجمعين.

الروضة الثانية: حكى أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة، أقام بها ثلاثاً، فقال:

ما هاهنا رجل أدرك الصحابة يحدثنا؟ فقيل له: إن هاهنا رجلاً عابداً من التابعين اسمه أبو حازم، أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ونقل عنهم الأحاديث، فبعث إليه، فلما جاءه واستقر به المجلس، قال له سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب، قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ فقال: أما المحسن، فكغائب يقدم على أهله، وأما المسيء، فكالعبد الأبق يقدم على مولاه.

قال: فبكى سليمان، وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى، فإنك تعلم ما لك وما عليك، قال: وأين أصيب ذلك من كتاب الله تعالى؟ قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال: يا أبا حازم، أين رحمة الله تعالى؟ قال: قريب من المحسنين، قال: فبكى سليمان، ثم أطارق ساعة، ثم رفع رأسه إليه، وقال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس، قال: من أحق الناس؟ قال: من دخل في هوى رجل ظالم، فباع آخرته بدنياه غيره.

قال: فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من ذلك، فقال: إنما هي نصيحة بلغتها، فقال: إن ناساً أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا وما قيل لهم؟ فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، قال أبو حازم: كذبت والله يا جليس السوء، إن الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم، كيف لنا على الصلاح؟ قال: تدعو التكلف، ولتمسك بالحقيقة، قال: فكيف طريق الأخذ لذلك؟ قال: تأخذ المال من حله، وتضعه في أهله، قال: ومن يقدر على ذلك؟ قال: من قلده الله تعالى من الأرض ما قلده، قال: أفترى يا أبا حازم أن تصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله من ذلك، قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات، قال: يا أبا حازم، فدلني على ما أصنع؟ قال: اتق الله تعالى أن يراك حيث نهاك، ويفقدك حيث أمرك، قال: ادع لنا يا أبا حازم؟ قال: اللهم إن كان سليمان وليك، فيسر له خير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك، فخذ بناصيته إلى فعل الخير، وأصلحه في الدنيا والآخرة.

فقال سليمان: يا غلام، اعط أبا حازم مائة دينار ليقضى بها دينه، فقال: لا حاجة لي

١٩٠ كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيزرى

بها، إنى أخاف أن تكون عوضاً من كلامى، فيكون أكل الميتة أحب إلى من أخذها، ثم نهض فخرج من عنده، فلما كان من الغد بعث إليه فأحضره، فلما أن دخل عليه، قال: يا أبا حازم، أعظنا عظة ننتفع بها؟ فقال: إن هذا الأمر لم يحصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فبكى سليمان وكاد يسقط عن جنبه، فلما أفاق قال سليمان: ارفع إلى حوائجك يا أبا حازم، قال: هيهات، إنى قد رفعتها إلى من لا تحجب دونه الحوائج، فما أعطاني منها قنعت، وما معنى منها رضيت، وذلك إنى نظرت إلى هذا الحال وهذا الأمر، فإذا هو على قسمين، أحدهما لى، والآخر لغيرى، أما ما كان لى، فلو احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه الذى قدر لى فيه، وأما الذى لغيرى، فذاك لا طمع لى فيه، وكما منع غيرى من رزقى، كذلك منعت أنا من رزق غيرى، وانصرف فما برح سليمان بعد ذلك مستضعفاً حتى مات.

الروضة الثالثة: حكى أبو القاسم عبد العزيز بن حسن بإسناده، أن أمير المؤمنين المنصور بعث إلى الأوزاعى وهو بالساحل، فأحضر عنده، فلما استقر به المجلس، قال له المنصور: ما الذى أبطأ بك عنا يا أوزاعى؟ قال: وما الذى تريد منى يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنك والاقْتِباس منك، قال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تجهل شيئاً مما أقول لك، قال: وكيف لا أجهله وأنا أسأل عنه؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك تسمعه ولا تعمل به.

قال: فصاح به الربيع، وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، قال: فصاح الأوزاعى، رحمه الله تعالى: يا أمير المؤمنين، حدثنا مكحول بن عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى عبد جاءته موعظة من الله فى دينه، فإنها نعمة من الله تعالى سيقت إليه، فإن قبلها شكره، وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً، ويزاد بها عليه سخطاً»^(١)، وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا وَال بات غاشاً لرعيته، حرم الله عليه الجنة»^(٢).

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢٩/٦) ح (٧٤١٠)، وعزاه إبراهيم الحسنى لابن عساكر فى التاريخ، عن عطية بن قيس أخى عبد الله المازنى سامى. انظر: البيان والتعريف (٣١٩/١) برقم (٨٦٠).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١١). وبلغنى: «أَيُّمَا إمام بات غاشاً»، أخرجه الرويانى فى مسنده (٩٣/٢) ح (٨٨٣).

يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله تعالى؛ لأن الله هو الحق المبين، يا أمير المؤمنين، إن الذى لين لك قلوب الأمة حتى ولاك أمورهم لقربتك من نبيه ﷺ، فحقيق أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تقوم فيهم بالقسط قائماً، ولعوراتهم ساتراً، فلا تغلق عليهم وعليك الباب، ولا تقم عليك دونهم الحجاب، وابتهج بالنعمة عندهم، وتأذى لما أصابهم من مكروه، يا أمير المؤمنين، لقد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبح أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا بعثك الله يوم القيامة وليس منهم أحد إلا وهو يشكوك إلى ربه من بلية أدخلتها عليه، أو ظلومة سقتها إليه؟.

يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، قال: كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها، ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك، وملأت نفوسهم بها رعباً؟ فكيف بمن شق أستارهم، وسفك دمائهم، وخرب ديارهم، وأخذ أموالهم، وأخلاه عن بلادهم، وأذاقهم الخوف؟ يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، عن ابن زياد بن حارثة، عن حبيب بن سلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده، إذ أتاه جبريل، عليه السلام، فقال يا محمد، إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً، فدعا رسول الله ﷺ الأعرابى، فقال: «اقتص منى»، فقال الأعرابى: قد أحللتك يا رسول الله بأبى أنت وأمى، وما كنت لأفعل ذلك أبداً، فدعا له رسول الله ﷺ بالخير^(١).

يا أمير المؤمنين، رض نفسك بنفسك، وخذ لها الآمال من ربك، وارغب فى جنة عرضها السموات والأرض، التى يقول فيها رسول الله ﷺ: «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لمن كان قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لأحد ما بقى لأحد.

يا أمير المؤمنين، أتدرى ما جاء عن جدك عبد الله بن العباس، رضى الله عنهما، فى تاويل آية: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]؟ قال: يا داود، إذا قعد الخصمان بين

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣٩٧/٤) ح (٧٩٤٣)، وقال: تفرد به أحمد بن عبيد، عن محمد ابن مصعب، ومحمد بن مصعب ثقة. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١٣).

١٩٢ كتاب النهج المسلوک فى سياسة الملوك للشيزرى
يديك، وكان فى أحدهما هوى، فلا تميز نفسك أن يكون الحق له، فيفلح على صاحبه،
فأمحك من نبوتى، يا داود، إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاة كرامة الإبل الذى يجبرون
الكسير، ويدلون الهزيل على الكلاء والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين
أن يحملنه وأشفقن منه، وقد حدثنى يزيد بن جبار، عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى،
أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه فى
بعض أيام مقيماً، فقال: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك فيه مثل
أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ قال: لا، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنه بلغنى أن رسول الله
ﷺ قال: «ما من والٍ يلى شيئاً من أمور المسلمين، إلا أتى يوم القيامة مغلوله يده إلى
عنقه، فيوقف على جسر من نار، فينتفض به الجسر انتفاضاً يزيل به كل عضو منه من
موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإذا كان محسناً نجح بإحسانه، وإن كان مسيئاً تحرق به ذلك
الجسر فهو فى النار سبعين خريفاً»^(١)، فقال له عمر: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبى
ذر وسليمان، فأرسل إليهما عمر، رضى الله عنه، وسألهما عن ذلك؟ فقالا: نعم،
سمعناه من رسول الله ﷺ، فبكى عمر، رضى الله عنه، وقال: واعمراه، من يتولاها بما
فيها؟ فقال أبو ذر: من جدع الله أنفه، وألصق خده بالأرض.

قال: فبكى المنصور، وأخذ المنديل فوضعه على وجهه، وجعل ينتحب فى بكائه
حتى أبكى الحاضرين، فأمسك الأوزاعى ساعة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن جدك
العباس سأل رسول الله ﷺ إمارة على مكة والطائف واليمن، فقال رسول الله ﷺ:
«يا عم النبى، نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحييها»، وهذه النصيحة منه نعمه
وشفقة عليه، يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: بلغنى
أن الأمراء أربعة: أمير ظلم نفسه وعماله، فذاك كالمجاهد فى سبيل الله تعالى، يد الله
باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف، ظلم نفسه، وأرتع عماله لضعفه، فهو على
شفا هلاك إلى أن يرحمه الله تعالى، وأمير كلف عماله، وأرتع نفسه، فأهلك نفسه،

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٢/٦) ح (٧٤١٦)، وهذا النص عن النبى صلى الله عليه
 وآله وسلم، ورد ضمن خطبة خطبها، صلى الله عليه وآله وسلم، قبل وفاته. أخرجه الحارث فى
 مسنده (٣٠٩/١ - ٣١٦) ح (٢٠٥). زوائد الحافظ الهيثمى.

كتاب النهج السلوك في سياسة الملوك للشيرازي ١٩٣
فلذلك هو الحطمة الذي قال رسول الله ﷺ: «شر الرعاة الحطمة»^(١) الهالك وحده،
وأمر أرتع نفسه وعماله، فهلكوا جميعاً^(٢).

يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اللهم إنك تعلم إنني
أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي بمن مال الحق معه من قريب أو بعيد، فلا تمهلني طرفة
عين. يا أمير المؤمنين، إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى،
وإن من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله تعالى
وأذله، وهذه نصيحتي إليك، والسلام عليك ورحمة الله.

قال: فلما سكن عن منصور البكاء رفع رأسه، وقال: يا أوزاعي، قد قلت وأنت غير
متهم في نصحك، وقد سمعناه منك وصادف قبولاً إن شاء الله تعالى، والله الموفق
للخير والمعين عليه، يا ربيع، ادفع إلى الأوزاعي ما يستعين به على زمانه، قال: يا أمير
المؤمنين، إنني غني عن ذلك، وما كنت لأبيع نصيحتي بشيء من عرض الدنيا، ثم إنه
ودع المنصور وانصرف إلى حال سبيله.

الروضة الرابعة: حكى ابن عبد ربه، قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة حاجاً،
فنزل في دار الندوة، وكان يخرج في آخر الليل إلى الطواف، فيطوف ويصلي، ولا يعلم
به أحد من الناس، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، ثم
تقام الصلاة فيصلى بالناس، قال: فخرج ذات ليلة حين أسحر، فبينما هو يطوف، إذ
سمع رجلاً عند الكعبة وهو يقول: اللهم إنني أشكو إليك ظهور البغي والفساد، وما
يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع.

قال: فأسرع المنصور في مشيه، حتى ملأ مسامعه من قوله، فرجع فجلس ناحية من
المسجد، وأرسل إليه فدعاه، فلما حضر قال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقول من

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «شر الرعاة الحطمة»، أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني
(٣٢٥/٢، ٣٢٦) ح (١٠٩٢)، وبلغت: «شر الرعاء الحطمة»، أخرجه مسلم (١٤٦١/٣) ح
(١٨٣٠)، وبلغت: «شر الأئمة الحطمة»، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٢/٢) ح
(٨٠٦)، وبلغت: «شر الولاة الحطمة»، عزاه الحافظ الهيثمي للبراز، وقال: فيه عبد الكريم بن
أبي أمية، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٢٣٦/٥).

(٢) والقول هكذا بنصه، وفيه زيادة من قول الخليفة علي، عليه السلام، ذكره البيهقي في شعب
الإيمان (٣٣/٦) ح (٧٤١٨).

١٩٤ كتاب النهج المسلك في سياسة الملوك للشيزرى

ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلامه والطمع، فقال الرجل: إن أمنتنى على نفسى أنأتك بالأمر؟ قال له المنصور: أنت آمن على نفسك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى استرعاك أموال خلقه، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجة مع السلاح، ثم سجت نفسك فيها، وبعثت عمالك فى جمع أموالهم، واتخذت وزراء ظلمة، وأعواناً غشمة، إن نسيت لم تذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، ثم قويتهم على ظلم الناس بالأموال والكرام والسلاح، وأمرت أن لا يدخل إلا فلان وفلان، نفر سميتهم، ولم تأمر بإدخال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع، ولا العارى، ولا الضعيف.

فلما رآك هؤلاء النفر قد استخدمتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، قالوا: هذا خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه وقد خان الله تعالى، فأضرموا على أن لا يوصلوا إليك من أخبار رعيتك إلا ما أرادوا، ومتى أخرجت عاملاً فخالفهم فى أمر أقصوه وأبعدوه، وبلغوك عنه المكروه حتى يسقط من عينك، فلما اشتهر ذلك عنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم بالهدايا والأموال عمالك القائمين على البلاد ليتفقوا على ظلم الرعية، ثم فعل ذلك أهل القدرة والثروة من رعيتك؛ لينالوا ظلم من هم دونهم من الرعية، فامتلات بلاد الله بالطبع بغياً وفساداً من هؤلاء القوم شركائك فى سلطانتك وأنت غافل، فإن جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول عليك، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك لم يأخذها أحد، وإن أخذها لم يوصلها إليك، وإذا استغاث بك مظلوم بأعلى صوته ضربه ضرباً شديداً، فما بقى من الإسلام بعد ذلك؟.

وقد كانت بنو أمية لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته، وكان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ سلطانهم، فينادى بأعلى صوته: يا أهل الإسلام، فيبتدرون إليه، ويقولون: ما لك؟ فيرفعون ظلامته إلى سلطانهم، فينصف بينه وبين ظالمه، ولقد رأيتم ما تركوا بعدهم من الأموال ولم تنفعهم، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه، فجعل يبكى، فقال له وزراؤه: لا بكت عيناك أيها الملك، ممّ بكاءك؟ فقال: لست أبكى لنزول البلية بى، وإنما أبكى لأن المظلوم يقف بالباب يصرخ فلا أسمعه، ثم قال: لئن ذهب سمعى فما ذهب بصرى، نادوا فى الناس: لا يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم، وكان يركب كل يوم فيله ويخرج، لعله يرى مظلوماً فينصفه.

هذا يا أمير المؤمنين وهو مشرك بالله تعالى، وغلبت عليه الرأفة على المشركين، وأنت مؤمن بالله تعالى، وابن عم نبيه، لا تغلبتك رأفتك على المسلمين، فما تقول إذا نزع الله منك ملك الدنيا، ودعاك إلى الحساب غدًا؟ هل ينفعك الندم إذا زلت بك القدم؟ قال: فبكى المنصور وأعلن النحيب، ثم قال: يا ليتنى لم أخلق، وقال: كيف احتيالى ولم أر من الناس إلا جانبًا، ثم قال الرجل: يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة المرشدين، قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: فقد فروا عنى وهربوا منى، قال: إنما فروا عنك وهربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر منك من قبل عمالك، ولكن افتح الباب، وسهل الجواب، وانصر المظلوم، وخذ المال من حله، وقسمه فى أهله، وأنا ضامن لك أن من هرب منك يعود إليك، ويعاونك على صلاح أمرك، فقال المنصور: اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل.

ثم جاء المؤذنون، فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة، فجعل يصلى بالناس، وقال للحرسى: عليك بحفظ هذا الرجل حتى أفرغ من الصلاة، قال: فلما فرغت الصلاة التفت إلى الحرسى يطلب الرجل فى موضعه، فلم يره، فأمر المنصور به، فلم يره، فاشتد غضبه على الحرسى، وقال: لئن لم تأتىنى به لأضربن عنقك، فخرج الحرسى يطوف عليه، وإذا به فى بعض الشعاب قائم يصلى الضحى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: إنه عزم ليضربن عنقى إن لم آته بك؟ قال: إنه لن يقدر على ذلك، ثم أخرج من جيبه رقعة مكتوبة، وقال: اجعل هذه فى جيبك، فإن فيها دعاء الفرج، فإنه إذا رآك ذهب غيظه، وخشع قلبه، وأوصل إليك ما يسرك.

فقال له الحرسى: يرحمك الله، فما دعاء الفرج؟ قال: من دعا به صباحًا ومساءً ذهبت ذنوبه، ودام سروره، وبسط الله له فى رزقه، وأعانه على عدوه، وكان آمنًا من ظلم الجبارين، ولا يموت إلا شهيدًا، قال الحرسى: وكأنه كان بعض ملح وذاب، فلم أر له أثرًا، فرجع الحرسى إلى المنصور، فلما دخل عليه نظر إليه وتبسم، وقال: ويحك أتحسن السحر؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنى وجدته، وكان من حديثه كذا وكذا، فقال: ادفع إلى الرقعة، فدفعها إليه، فنظر فيها وجعل ييكى، ثم أمر بنسخها، وأمر للحرسى بعشرة آلاف درهم.

وقال: أتعرفون من كان الرجل؟ قال الحاضرون: لا يا أمير المؤمنين، قال: ذلك هو الخضر، عليه السلام، ثم دفع الرقعة إلى من قرأها على الحاضرين، فكان فيها مكتوب:

اللهم كما لطفت بقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت الوسوس كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل أمر أمسيته فيه فرجاً ومخرجاً، اللهم إن عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك عن قبيح عملي، أطمعني أن أسألك ما لا أستوجه مما قصرت فيه، أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً وأنت المحسن إليّ، وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليّ بالنعم، وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك، فعد بفضلك وإحسانك عليّ يا أرحم الراحمين. قال: فلما رجع المنصور إلى بغداد، استبدل عماله وحجابه، ثم إنه فتح الباب، وسهل الجواب، ولم يزل عاملاً بقوله حتى مات.

الروضة الخامسة: ما حكاه الفضل بن الربيع، قال: لما حج الرشيد حججت معه، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ سمعت قرع الباب، فخرجت فوجدته الرشيد، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: ويحك إنه قد حاك في صدري شيء، فانظر لي رجلاً أسأله؟ فقلت: إن هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: لو أرسلت إليّ أتيتك، فقلت: خذ لما جئناك به يرحمك الله، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: يا أبا العباس، اقض دينه، ثم انصرفنا من عنده.

فقال: ما أغناني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله؟ فقلت له: الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فسمعناه يقرأ آية في كتاب الله تعالى وهو يرددّها، فقرعت عليه الباب، فأوجز في صلاته، وقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله، أما عليك طاعته، فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية وأخفى نفسه، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد إليه، فقال: كف ما أليته إن نجا من عذاب الله تعالى.

فقال الرشيد: خذ بما جئناك به يرحمك الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيّان، وقال: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ ما أصنع؟ فعد الخلافة بلاء، وأنت وأصحابك تعدونها نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت

كتاب النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزرى ١٩٧
النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين لك أباً، وأوسطهم عندك أخاً،
وصغيرهم ولداً، فوقر أباك، وتحنن على أخيك، وارفق على ولدك.

وقال له رجاء بن حيان: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب
للمسلمين ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت متى شئت، فهل عندك
يا أمير المؤمنين من مثل هؤلاء القوم من يأمر بك بمثل هذا الأمر؟ وإنى لأقول لك هذا،
وأخاف عليك أشد الخوف يوم يزل القدم، قال: فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً،
حتى غشى عليه، فقلت له: يرحمك الله، أرفق بأمر المؤمنين؟ فقال: قتلته أنت
وأصحابك، وأرفق أنا به؟ فلما أفاق، قال: زدنى؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عاملاً
لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، شكى إليه، فكتب له عمر: يا أخى، اذكر سهر
أهل النار فى النار، وخلود الأبدان، فإن ذلك يصرفك إلى ربك نائماً ويقظاناً، وإياك أن
تزل بك قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ
كتابه، طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له: ما أقدمك على؟ قال: خلعت قلبي، فوالله
ما وليت لك ولاية قط حتى ألقى الله تعالى.

فبكى هارون، ثم قال: زدنى رحمك الله، قال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبي
ﷺ جاء إليه، وقال: يا رسول الله، أمرنى إمارة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عباس، يا
عم النبي، إن نفساً تحييها خير لك من إمارة لا تحييها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم
القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، قال: فبكى هارون، وقال: زدنى
يرحمك الله؟ قال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم
القيامة، فإن استطعت أن تقى وجهك من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى
قلبك غش لرعتك، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أصبح غاشاً لرعيته، لم يرح رائحة
الجنة»^(١).

قال: فاشتد بكاء هارون، فأمسك عنه الفضيل، فلما أفاق قال: هل عليك دين؟ قال
الفضيل: نعم على دين لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن حاسبنى، والويل لى إن لم
يلهمنى حجتى، فقال الرشيد: إنما أردت دين العباد، قال: لا، فإن ربى لم يأمرنى

(١) أخرجه البخارى (٦٧٣٢)، ومسلم (١٢٥/١) ح (١٤٢)، والرويانى فى مسنده (٩٣/٢) ح
(٨٨٣)، وابن الجعد فى مسنده (٤٥٨/١) ح (٣١٤٠)، والقضاعى فى مسند الشهاب
(٢٢/٢) ح (٨٠٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١١)، والطبرانى فى الكبير
(٢٠٧/٢٠) ح (٤٧٤).

بذلك، بل أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فقال هارون: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك، فهى من وجه الحل، فقال: سبحان الله، أنا أدلك على النجاة وأنت تدعونى إلى النار، ثم سكت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، سمعنا امرأة من نساءه تقول: يا هذا، قد ترى ما نحن فيه من الضائقة وسوء الحال، فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا؟ فقال لها: إنما مثلى ومثلكم كقوم لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر وعجز عن الكسب، نحروه وأكلوا لحمه.

قال: فلما سمع الرشيد، قال: يا فضل، ادخل بنا إليه فلعله يقبل منا هذا المال، فلما دخلنا عليه وأحس بنا، خرج فجلس على السطح على التراب، فجلس الرشيد إلى جانبه وجعل يكلمه، فلم يجبه، فخرجت جارية وقالت: يا هذا، قد أذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف عنه يرحمك الله، قال: فلما خرجنا من عنده قال لى الرشيد: إذا دلتنى فدلنى على مثل هذا الرجل، هذا يوم وليلة من أشرق الأيام والليالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

* * *

وأما الطبقة الثالثة

من الملوك، فهم الأكثرون، قلوبهم قسية، وأنفسهم عسوية، يورثون ويؤثرون اللذات على الأمور الدينية، وفى المشاهدة منهم بالأبصار كفاية عن الأخبار، وقد انتهينا فى كتابنا هذا إلى ما حاولناه، وأوردنا فيه ما أردناه، وأتينا بما ضمناه بعد ما أوضحنا، وذلك وسع الطاقة وجهد المقل، وعلى الله أتوكل، وبه أستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب الجليل يوم السبت المبارك ثانى شهر شعبان المعظم قدره من شهور سنة ١٠٧٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* * *

المحتويات

ترجمة المصنف.....	٧٣
مصنفاته.....	٧٣
مصادر ترجمته.....	٧٣
الباب الأول فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل.....	٧٩
الباب الثانى فى فضل الأدب وافتقار الملك إليه.....	٨٠
الباب الثالث فى معرفة قواعد الأدب.....	٨١
الباب الرابع فى معرفة أركان المملكة.....	٨٥
الباب الخامس فى معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها.....	٩١
الباب السادس فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها.....	١١٤
الباب السابع فى كيفية رتبة الملك وأوليائه فى حال جلوسه وركوبه.....	١٣٧
الباب الثامن المشورة والحث عليها.....	١٣٩
الباب التاسع فى بيان أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة.....	١٤١
الباب العاشر فى معرفة أصول السياسة والتدبير.....	١٥٢
الباب الحادى عشر فى الجلوس لكشف المظالم.....	١٥٨
الباب الثانى عشر فى أدب صحبة الملوك.....	١٦٠
الباب الثالث عشر فى معرفة ما يكاد به الملوك فى غالب الأحوال.....	١٦٢
الباب الرابع عشر فيما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبيره.....	١٦٥
الباب الخامس عشر فيما ينبغى لأهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد.....	١٦٨
الباب السادس عشر فى مصابرة المشركين.....	١٧٠
الباب السابع عشر فى معرفة قتال أهل الردة، وأهل البغى، وقطاع الطريق.....	١٧٣
الفصل الأول فى معرفة قتال أهل الردة.....	١٧٤
الفصل الثانى فى معرفة قتال أهل البغى.....	١٧٥
الفصل الثالث فى معرفة قطاع الطريق.....	١٧٦
الباب الثامن عشر فى معرفة قسمة الغنيمة والأثقال.....	١٧٧
الباب التاسع عشر فيما ينبغى للملك أن يفعله عند قفوله بالجيش.....	١٧٨
الباب العشرون فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك.....	١٧٩

٢٠٠ كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى

١٨٠ وهذه حكايات عظيمة

١٨٠ الطبقة الأولى خمس روضات

١٨٨ حكاية الطبقة الثانية وهى خمس روضات

١٩٨ وأما الطبقة الثالثة

نهاية الرتبة في طلب الحسبة

للسيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيرازي
المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

تحقيق
محمد حسن محمد حسن اسماعيل أحمد فريد المنزويحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

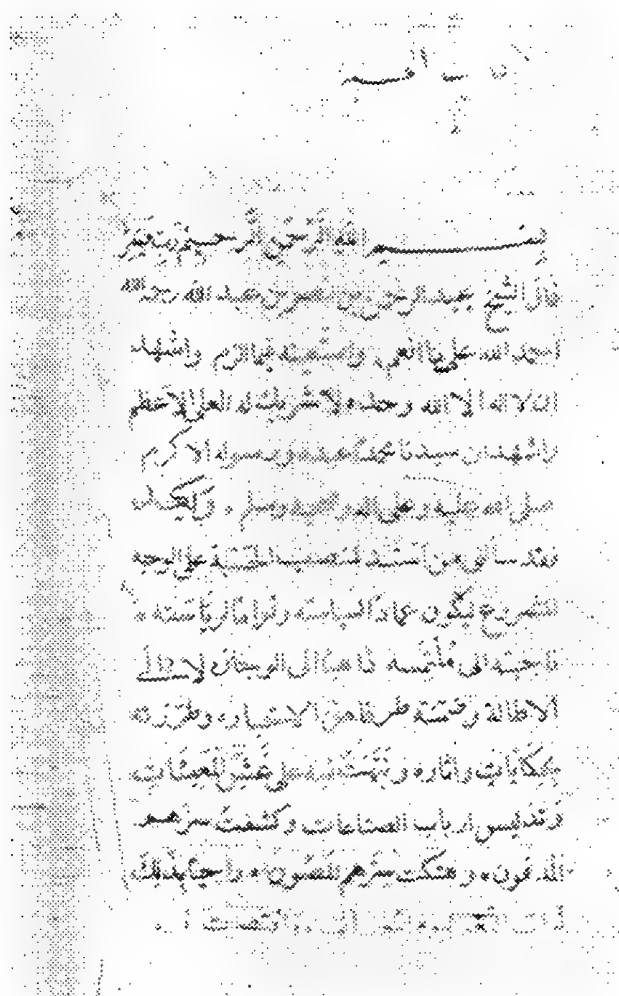
أما ترجمة المصنف، فتقدمت في كتاب النهج السلوك، ولقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب «نهاية الرتبة»، بالإضافة للمطبوعة على:

١- نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم (٦١٢/٢٨٣٦١/اجتماع طلعت).

٢- نسخة دار الكتب المصرية برقم (٢٠/صناعات).

* * *

صور النسخ الخطية



الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية [٦١٢/٢٨٣٦١/ اجتماع طلعت]

على ذكر الحرف المشهور دون غيره فالتيسير
 إلى هذه الأبواب التي هي حلقه من باب ما يجتدي
 لنفسه على مثال ما يسمع على مثال ما يرى وما يلمس
 الرتبة في طلب الحسبة وما يلقى إلا الله عليه
 * تركت وإليه مناب *

الباب الأول في طلب الحسبة على المشيخين من زمام
 الحسبة من قديم الزمان

الباب الثاني في النظر في الإسماعيل والظهور
 الثالث الثالث في معرفة القضاة في الأوقاف والظهور
 والذراهم

الباب الرابع في معرفة كذا من ذلك كذا من ذلك

الباب الخامس في الحسبة على القضاة والفقهاء
 البان السادس في الحسبة على القضاة والفقهاء

الباب السابع في الحسبة على القضاة والفقهاء

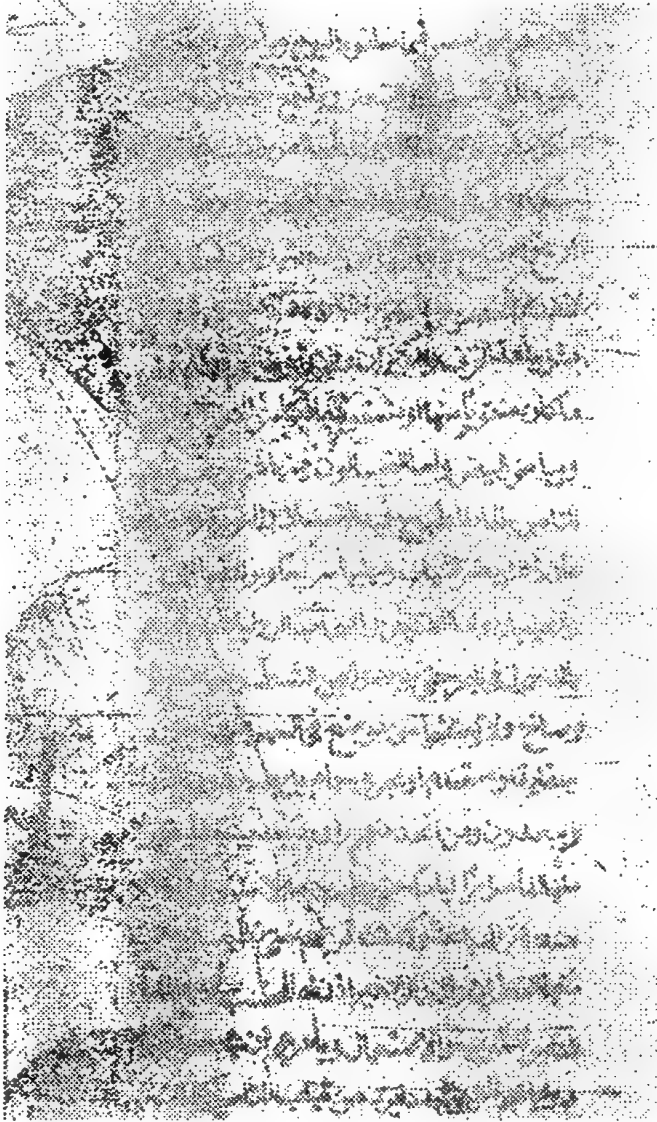
الباب الثامن في الحسبة على القضاة والفقهاء

الباب التاسع في الحسبة على القضاة والفقهاء

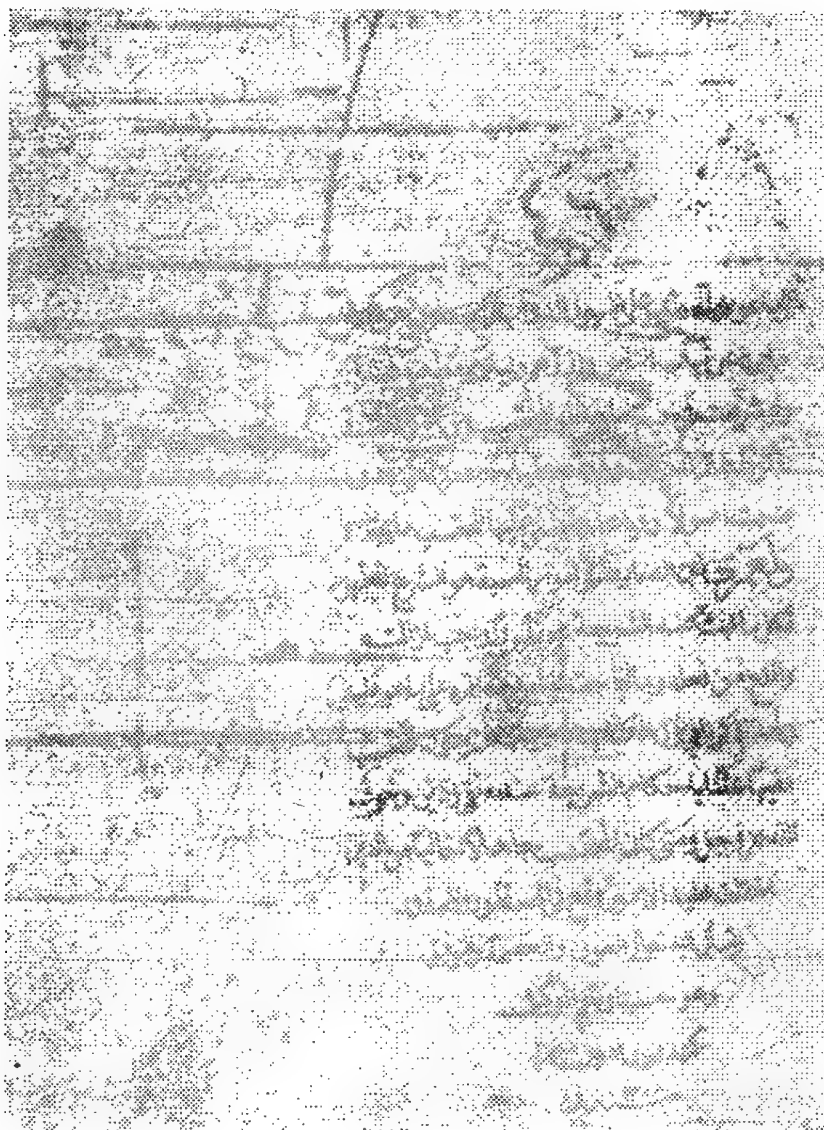
الباب العاشر في الحسبة على القضاة والفقهاء

الباب الحادي عشر في الحسبة على القضاة والفقهاء

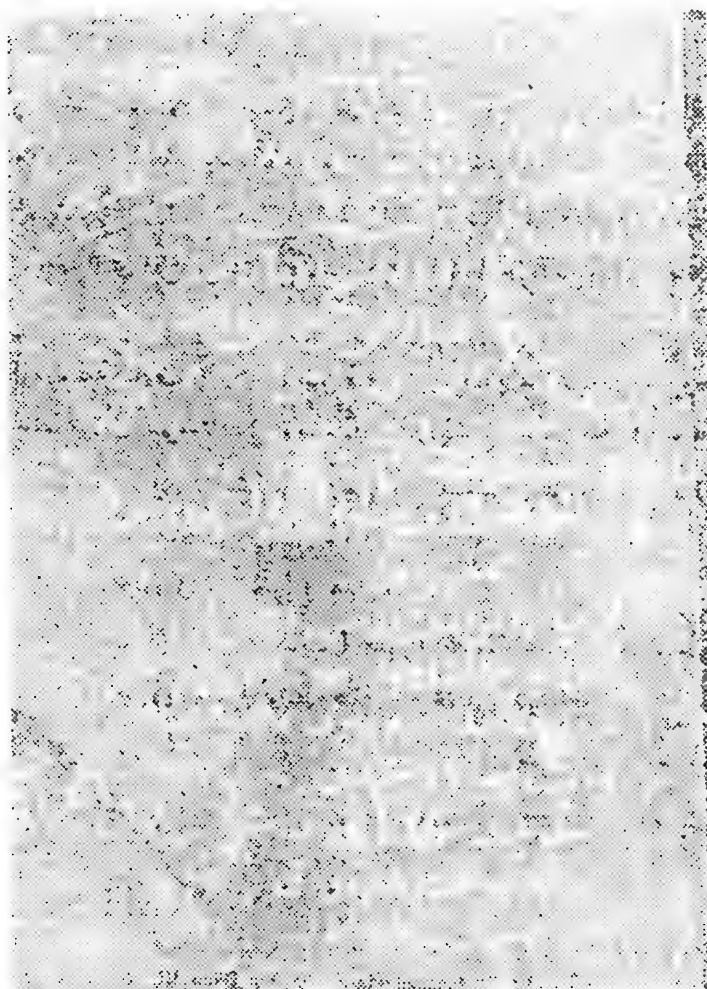
الباب الثاني عشر في الحسبة على القضاة والفقهاء



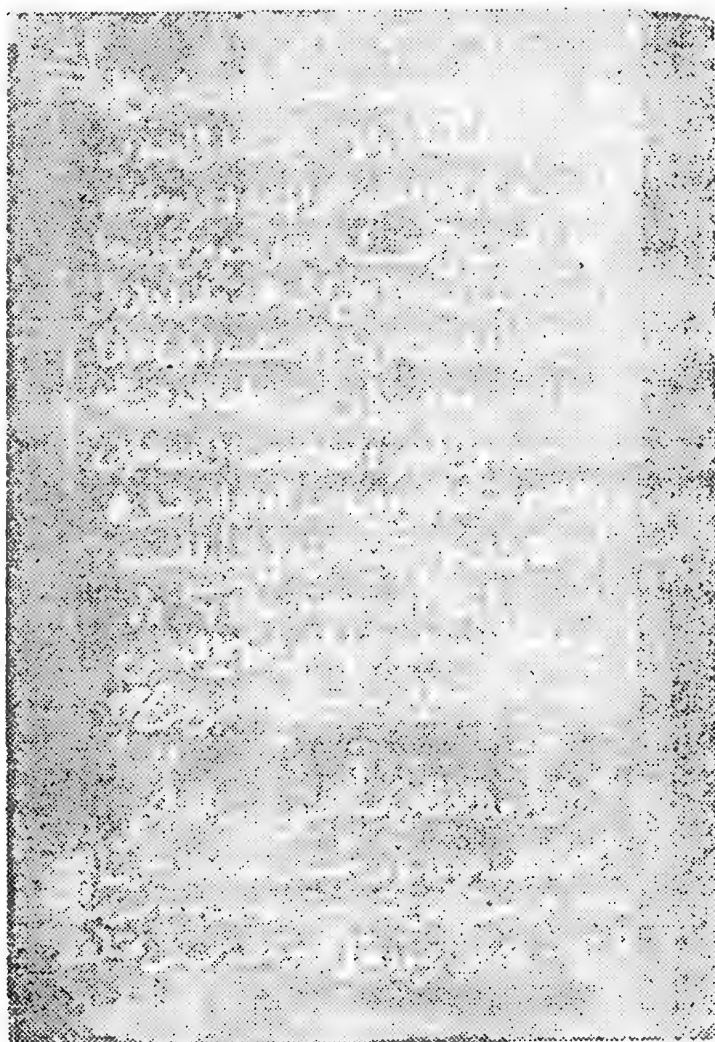
الورقة قبل الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية [٦١٢/٢٨٣٦١/
اجتماع طلعت]



الورقة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية [٦١٢/٢٨٣٦١/ اجتماع طلعت]



طرة نسخة أخرى لدار الكتب المصرية برقم [٢٠ / صناعات]



آخر نسخة دار الكتب المصرية برقم [٢٠ / صناعات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نقتى

قال الشيخ الإمام الأوحى عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله: أحمد الله على ما أنعم، وأستعينه فيما ألزم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلى الأعظم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبى الأكرم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم، وبعد:

فقد سألتى من استند لمنصب الحسبة، وقُلِّد النظر فى مصالح الرعية، وكشف أحوال السوق، وأمور المتعشين، أن أجمع له مختصراً كافياً، فى سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع؛ ليكون عماداً لسياسته، وقواماً لرياسته، فأجبتة إلى ملتسمه، ذاهباً إلى الوجازة، لا إلى الإطالة، وضمّنته طرفاً من الأخبار، وطرّزته بحكايات وآثار، ونهت فيه على غشّ المتعشين فى المبيعات، وتدلّيس أرباب الصناعات، وكشف سرّهم المدفون، وهتك سرّهم المصون، راجياً بذلك ثواب المنعم ليوم الحساب.

واقتصرت فيه على ذكر الحرف المشهورة دون غيرها؛ لميس الحاجة إليها، وجعلته أربعين باباً، يحتذى المحتسب على مثالها، وينسج على منوالها، وسميته: «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة»، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

* * *

ترجمة الأبواب

الباب الأول: فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها.

الباب الثاني: فى النظر فى الأسواق والطرق.

الباب الثالث: فى معرفة القناطير والأرطال والمثاقيل والدرهم.

الباب الرابع: فى معرفة الموازين والمكاييل وعمار الأرطال والمثاقيل.

الباب الخامس: فى الحسبة على الجوبيين والدقائين.

الباب السادس: فى الحسبة على الخبازين.

الباب السابع: فى الحسبة على الفرّانين.

الباب الثامن: فى الحسبة على صنّاع الزلاية.

الباب التاسع: فى الحسبة على الجزارين والقصّائين.

الباب العاشر: فى الحسبة على الشوائين.

الباب الحادى عشر: فى الحسبة على الرواسين.

الباب الثانى عشر: فى الحسبة على قلائى السمك.

الباب الثالث عشر: فى الحسبة على الطباخين.

الباب الرابع عشر: فى الحسبة على الهرائسين.

الباب الخامس عشر: فى الحسبة على النقانقين.

الباب السادس عشر: فى الحسبة على الحلوانين.

الباب السابع عشر: فى الحسبة على الصيادلة.

الباب الثامن عشر: فى الحسبة على العطارين.

الباب التاسع عشر: فى الحسبة على الشرايين.

الباب العشرون: فى الحسبة على السمانين.

الباب الحادى والعشرون: فى الحسبة على البزازين.

الباب الثانى والعشرون: فى الحسبة على المنادين والدلالين.

الباب الثالث والعشرون: فى الحسبة على الحاكة.

الباب الرابع والعشرون: فى الحسبة على الخياطين.

الباب الخامس والعشرون: فى الحسبة على القطّانين.

الباب السادس والعشرون: فى الحسبة على الكتّانين.

الباب السابع والعشرون: فى الحسبة على الحريريين.

الباب الثامن والعشرون: فى الحسبة على الصباغين.

الباب التاسع والعشرون: فى الحسبة على الأساكفة.

الباب الثلاثون: فى الحسبة على الصيارف.

الباب الواحد والثلاثون: فى الحسبة على الصاغة.

الباب الثانى والثلاثون: فى الحسبة على النحاسين والحدّادين.

الباب الثالث والثلاثون: فى الحسبة على البيطرة.

الباب الرابع والثلاثون: فى الحسبة على نخاسى العبيد والدواب.

الباب الخامس والثلاثون: فى الحسبة على الحمامات وقوّامها وذكر منافعها ومضارّها.

الباب السادس والثلاثون: فى الحسبة على الفصّادين والحمامين.

الباب السابع والثلاثون: فى الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحين.

الباب الثامن والثلاثون: فى الحسبة على مؤدبى الصبيان.

الباب التاسع والثلاثون: فى الحسبة على أهل الذمّة.

الباب الأربعون: يشتمل على جمل وتفصيل فى أمور الحسبة.

الباب الأول

فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها

لما كانت الحسبة أمراً بمعروف، ونهياً عن منكر، وإصلاحاً بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً، عارفاً بأحكام الشريعة؛ ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، فإن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول فى معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل^(١)، وسنة نبيه ﷺ، ورب جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع، فيرتكب المحذور وهو غير عالم به، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما قال النبى ﷺ.

فصل

وأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله، فقد قال الله عز وجل فى ذم علماء بنى إسرائيل: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وروى أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «رأيت ليلة أسرى بى رجلاً تقرض شفاهم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»^(١)، وقال الله عز وجل مخبراً عن شعيب، عليه السلام، لما نهى قومه عن بخس الموازين ونقص المكايل: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ولا يكون المحتسب كما قال ابن همام السلولى:

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفأويق حتى ما يدر لها ثعل^(٢)
وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فصل

ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وطلب مرضاته، خالص النية، لا يشوبه فى طويته رياء ولا مرء، ويجتنب فى رياسته منافسة الخلق، ومفاخرة

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٤)، ومسلم فى الإيمان (٢٦٧).

(٢) فى أغلب النسخ الخطية للكتاب: «أبو همام الشادلى»، وما أثبت هو الصواب كما فى لسان العرب (ثعل)، والأمالى للقالى (٤٦/٢).

أبناء الجنس، لينشر الله تعالى عليه رداء القبول، وعلم التوفيق، ويقذف له فى القلوب مهابة وجلالاً، ومبادرة إلى قبول قوله بالسمع والطاعة، فقد قال النبي ﷺ: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه شرهم، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله وكله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه».

وذكروا أن أتاك طغتكين^(١) سلطان دمشق، طلب له محتسباً، فذكر له رجل من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلما بَصُرَ به، قال: إني وليتك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: إن كان الأمر كذلك، فقم عن هذه الطراحة^(٢)، وارفع هذا المسند، فإنهما حرير، واخلع هذا الخاتم، فإنه ذهب، فقد قال النبي ﷺ فى الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتي، حِلٌّ لِنِائِهَا»^(٣)، قال: فنهض السلطان عن طراحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضمنت إليك النظر فى أمور الشرطة، فما رأى الناس محتسباً أهيب منه.

فصل

وينبغى للمحتسب أن يكون مواظباً على سنن رسول الله ﷺ، من قصّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، ونظافة الثياب وتقصيرها، والتعطر بالمسك ونحوه، وجميع سنن الشرع ومستحباته، هذا مع القيام على الفرائض والواجبات، فإن ذلك أزيد فى توقيره، وأنفى للطعن فى دينه. وقد حكى أن رجلاً حضر عند السلطان محمود^(٤) يطلب الحسبة بمدينة غزنة^(٥)، فنظر السلطان، فرأى شاربه قد غطّى فاه من طوله، وأذياه تسحب على الأرض، فقال له: يا شيخ، اذهب فاحتسب على نفسك، ثم عد واطلب الحسبة على الناس.

(١) فى بعض النسخ: «ضعدين»، والصواب ما أثبت، وهو طغتكين بن عبد الله أمين الدولة ظاهر الدين أبو منصور، مملوك السلطان، طُطش السلجوقى بدمشق، توفى سنة ٥٢٢هـ، وصار الملك لابنه من بعد، وكذا سلطته حتى سنة ٥٤١هـ، ثم انتقلت إلى الدولة الأيوبية بعد ذلك.

(٢) الطراحة: مرتبة يفرشها السلطان عند جلوسه. انظر: السلوك للمقريزى (٤٤٩/١).

(٣) رواه الترمذى (١)، والنسائى (٤٠)، وابن ماجه (١٩).

(٤) هو محمد بن سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية بأفغانستان سنة ٣٨٩هـ.

(٥) غزنة: مدينة بأفغانستان، وقد اتخذها سبكتكين قاعدة لملكه.

فصل

وليكن من شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ ولأن الإفراط في الزجر ربما أغرى بالمعصية، والتعنيف بالموعظة تمحج الأسماع.

وقد حكى أن رجلاً دخل على المأمون، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر، وأغلظ له في القول، فقال له المأمون: يا هذا، إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر مني، فقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ثم أعرض عنه، ولم يلتفت إليه، ولأن الرجل قد ينال بالرفق ما لا ينال بالتعنيف، كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على التعنيف»^(١).

وليكن متأنياً، غير مبادر إلى العقوبة، ولا يؤاخذ أحداً بأول ذنب يصدر منه، ولا يعاقب بأول زلة تبدو؛ لأن العصمة في الخلق مفقودة، فيما سوى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإذا عثر بمن نقص المكيال، أو بخس الميزان، أو غش بضاعة أو صناعة، بما يأتى وصفه في أبوابه من أنواع الغشوش، استتابه عن معصيته، ووعظه وخوفه، وأنذره العقوبة والتعزير، فإن عاد إلى فعله عزّره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية، ولا يبلغ به الحدّ.

ويتخذ المحتسب له سوطاً، ودرّة^(٢)، وطرطوراً^(٣)، وغلماً، وأعواناً، فإن ذلك أربع لقلوب العامة وأشدّ خوفاً، ويلازم الأسواق والدروب في أوقات الغفلة عنه، ويتخذ له فيها عيوناً يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق.

(١) رواه البخارى في الاستتابة (٤)، ومسلم في البر (٤٧)، وأبو داود في الأدب (١٠)، والترمذى في الاستئذان (١٢)، ومالك في الموطأ (٣٨)، وأحمد في المسند (١٤٠/١).

(٢) الدرّة: أداة تتخذ للضرب، وهى من جلد البقر أو الإبل، وتحشى بنوى التمر.

(٣) الطرطور: غطاء للرأس، كان يُصنع من اللبد، وينقش بالخرق الملونة، ويكلل بالخرز، والودع، والأجراس، وأذنان الثعالب والسنانير، ويضعه المحتسب فوق رأس المذنب للتشهير به وتوبيخه.

فصل

ومن الشروط اللوازم للمحتسب أن يكون عفيفاً من أموال الناس، متورّعاً عن قبول الهدية من المتعشين وأرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة، وقد قال النبي ﷺ: «لعن الله الراشئ والمرتشئ»^(١)، ولأن التعفف عن ذلك أصون لعرضه وأقوم لهيته. ويُلزم المحتسب غلمانه وأعوانه بما التزمه من هذه الشروط، فإن أكثر ما تتطرقّ التهمة إلى المحتسب من غلمانه وأعوانه، فإن علم أن أحداً منهم أخذ رشوة، أو قبل هدية، صرفه عنه؛ لتنتفى عنه الظنون، وتنجلى عنه الشبهات.

* * *

الباب الثاني

في النظر في الأسواق والطرقات

ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديماً، ويكون من جانبي السوق إفريزان يمشى عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطاً.

ولا يجوز لأحد من السوق إخراج مصطبة دكانه عن سَمْتِ أركان السقائف^(٢) إلى الممرّ الأصلي؛ لأنه عدوان على المارّة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما في ذلك من حقوق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كلّ صنعة منهم سوقاً يختص بهم، وتعرف صناعاتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق، ولصنائعهم أنفق، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز، والطباخ، والحداد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار.

(١) رواه أبو داود في الأفضية (٢/٢٧٠)، والترمذي في الأحكام (٤/٥٦٦)، وابن ماجه (٢/٧٧٥)، وأحمد في المسند (٢/١٦٤، ١٩٠، ٢١٢، ٣٨٧، ٥/٢٧٩)، والطبراني كما في المجموع (٤/٩٩)، وقال: رجاله ثقات.

(٢) السقائف: مفرد سقيفة، وهي الأسواق المظللة لحماية السابلة من المطر والشمس، وكانت شائعة في أسواق القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة البيزنطية، والراجح أن العرب أخذوها عن تلك المدن، فقد أمر زياد بن أبيه ألا تغلق أبواب للحوانيت في البصرة، وطلب أن يمدّ السقيف عليها، وظلت السقائف سائدة في أسواق مصر حتى عهد محمد عليّ باشا، وإلى يومنا هذا في بعض الأحياء الوطنية.

فصل

ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوق تحت وسع المحتسب، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريقاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها، فقد روى أن النبي ﷺ قال: «استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها»^(١).

فصل

ولا يجوز للمحتسب تسعير البضائع على أربابها، ولا أن يلزمهم بيعها بسعر معلوم؛ لأن السعر غلا على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سَعَرْنَا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله هو المسعّر، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد يطالبني بمظلمة في نفس ولا مال»^(٢).

وإذا رأى المحتسب أحداً قد احتكر الطعام من سائر الأقوات، وهو أن يشتري ذلك في وقت الرخاء، ويتربص به الغلاء، فيزداد ثمنه، ألزمه بيعه إجباراً؛ لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب، وقد قال رسول الله ﷺ: «الجالب مرزوق، والمحتر ملعون»^(٣).

الاحتكار: يُقال في اللغة: حَكراً حَكراً بالشيء، استبدَّ به واستقل، وأصل المعنى الجمع والإمساك. ويقال: احتكر وتحكر الطعام: جمعه وحبسه عن البيع ليقبل فيغلو سعره.

والاحتكار حرام شرعاً؛ لورود النهي الجازم عنه في الأحاديث الشريفة، فالنهي يُفيد طلب الترك، وذمُّ المحتر بوصفه أنه آثم وخاطيء.

والمحتر هو من يجمع السلعة انتظاراً لبيعها بسعر غال، بحيث يضيق على المواطن شراؤها، فبناءً على هذا يكون الاحتكار هو الاستبداد بحبس البضاعة كي تباع بالكثير

(١) هو مما أشتهر على ألسنة الناس. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (١/١٣٤) ح (٣٤٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٩) بيوع، والترمذي (٧٣)، وابن ماجه في التجارات (١٣)، وأحمد في مسنده (٤٩٣/٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٦)، والدارمي في البيوع (١٢).

٢١٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

من الأموال، وأما كون شرط انطباق الاحتكار كونه يبلغُ حدًّا يضيق على أهل البلد شراء السلعة المحتكرة، فلو لم يضيق على الناس شراء السلعة، لا يحصل جمعُ البضاعة ولا الاستبداد بها كى تباغ بالأسعار المرتفعة، وليس شرطُ الاحتكار أن تشتري السلعة فقط، بل شراؤها وجمعها انتظاراً للغلاء يعتبر احتكاراً، وسواء جمعها بالشراء أو جمعها من غلة أراضيها الواسعة، لانفراده بهذا النوع من الغلة، أو لندرة زراعتها، أو جمعها من مصانعه، كما هى حال الاحتكارات الرأسمالية، فإنهم يحتكرون صناعة شىء بقصد قتل جميع المصانع إلا صناعتهم، ثم يتحكمون مستبدين بالسوق.

وبناءً على هذا الفهم اللغوى والشرعى لمنطوق ومفهوم كلمة الاحتكار، يكون الاحتكار حراماً فى جميع الأشياء من غير فرق بين قوت الآدمى أو قوت الحيوان، ومن غير فرق بين ما هو من ضروريات الناس أو من كمالياتهم، وذلك لأن معنى احتكر فى اللغة جمع الشىء مطلقاً، ولم يأت بمعنى جمع الطعام أو القوت أو ضروريات الناس، بل جمع الشىء، فلا يجوز أن تخصّص بغير معناها اللغوى، ولأن الأحاديث جاءت مطلقة من غير قيد، وعامة من غير تخصيص، فتبقى على إطلاقها وعمومها. الإسلام وأيديولوجية الإنسان (ص ٢١، ٢٢).

ولا يجوز تلقى الركبان، وهو أن تقدّم قافلة إنسان خارج البلد، فيخبرهم بكساد ما معهم لبيتاع منهم رخيصةً، فإن النبى ﷺ نهى عن تلقى الركبان^(١)، ونهى عن بيع السلع حتى يهبط بها إلى السوق^(٢)، فإن عثر المحتسب بمن يقصد ذلك، ردعه عن فعله، بعد التعزير.

وينبغى أن يمنع أحمال الحطب، وأعدال التبن، وروايا الماء، وشرائج السرجين، والرماد وأشباه ذلك، من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر بلباس الناس، ويأمر جلابى الحطب والتبن ونحوهم إذا وقفوا بها فى العراض، أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدواب؛ لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتّها، وكان فى ذلك تعذيب لها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان لغير مأكله. ويأمر أهل الأسواق بكنسها، وتنظيفها من الأوساخ والطين المجتمع، وغير ذلك مما يضرّ بالناس؛ لأن النبى ﷺ قال: «لا ضرر ولا إضرار».

(١) أخرجه البخارى فى البيوع (٤/٤٣٣) ح (٢١٥٨)، ومسلم فى البيوع (٣/١١٥٦) ح (١٥١٧/١٤).

(٢) أخرجه مسلم فى البيوع (٣/١١٥٦) ح (١٥١٧/١٤).

فصل

وأما الطرقات ودروب المحلات، فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره ولا دكانه فيها إلى الممر المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية على السالكين، كالميازيب الظاهرة. من الحيطان في زمن الشتاء، ومجارى الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف إلى وسط الطريق، بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها مسيلاً محفوراً في الحائط مكلّساً، يجرى فيه ماء السطح، وكلّ من كان داره مخرج للوسخ إلى الطريق، فإنه يكلفه سدّه في الصيف، ويحفر له في الدار حفرة يجتمع إليها.

ولا يجوز التطلّع على الجيران من السطوحات والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال في طرقات النساء من غير حاجة، وكذلك النساء لا يجلسن على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال، فمن فعل شيئاً من ذلك عزّره المحتسب، سيما إذا رأى رجلاً أجنبيّاً مع امرأة أجنبية يتحدّثان في موضع خلوة، فإنه أشدّ للتهمة في حقّها، والله أعلم.

* * *

الباب الثالث

في معرفة القناطير والأرطال والمناقل والدراهم

لما كانت هذه أصول المعاملات، وبها اعتبار المبيعات، لزم المحتسب معرفتها، وتحقيق كميتها؛ لتقع المعاملة بها من غير غبن، على الوجه الشرعيّ، وقد اصطلاح أهل كل إقليم وبلد في المعاملة على أرطال تتفاضل في الزيادة والنقصان، سيما أهل الشام خاصّة، وسأذكر من ذلك ما لا يسع المحتسب جهله، ليعلم تفاوت الأسعار.

أما القنطار الذي ذكره الله العظيم في كتابه الكريم، فقد قال معاذ بن جبل: هو ألف ومائتا أوقية، وقال أبو سعيد الخدري: هو ملء مسك ثور ذهباً، وأما القنطار المتعارف فهو مائة رطل، والرطل ستمائة وأربعة وثمانون درهماً، وهو اثنتا عشرة أوقية، والأوقية سبعة وخمسون درهماً، هذا رطل شيزر^(١)، الذي رسمه بها بنو منقذ.

(١) شيزر: بلدة بشمال الشام، وتقع على نهر الأورنت، وقد فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح سنة ١٧هـ صلحاً، واقرن اسمها بأسرة بنى منقذ من بنى كنانة منذ القرن الخامس الهجري، وجاهد فيها المسلمون الصليبيين والبيزنطيين، حتى تولاهما نور الدين زنكي، ثم انتقلت السلطنة بعد ذلك للأيوبيين سنة ٥٧٠هـ، في حياة المؤلف، وهى بلده وموطنه. وانظر: معجم ياقوت البلدان (٣/٣٥٣).

وأما رطل حلب، فهو سبعمائة وأربعة وعشرون درهماً، وأوقيتها ستون درهماً وثلث درهم، ورطل دمشق ستمائة درهم، وأوقيتها خمسون درهماً، ورطل حمص ثمانمائة وأربعة وستون درهماً، وأوقيتها اثنان وسبعون درهماً، ورطل حماة ستمائة وستون درهماً، وأوقيتها خمسة وخمسون درهماً، ورطل المعرة مثل الحمص، ورطل مصر، حرسها الله تعالى، مائة وأربعة وأربعون درهماً، وأوقيتها اثنا عشر درهماً، والمن مائتا درهم وستون درهماً، والرطل البغدادي نصف المن.

فصل

وأما المثقال، فهو درهم ودانقان ونصف، وهو أربعة وعشرون قيراطاً، وهو خمس وثمانون حبة، والدرهم الشامى ستون حبة، وقد اختلفت صنع أهل الشام أيضاً، فالمثقال بشيزر يزيد على مثقال حلب نصف قيراط، ومثقال حماة مثل الشيزرى، ومثقال دمشق يزيد على الشيزرى، ومثقال المعرة مثل الدمشقى.

فصل

وقفزان المكيلات ومكاييكها مختلفة أيضاً، فالقفيز بشيزر ستة عشر سنبلًا، وهو مكيال متعارف فيها، يسع رطلاً ونصفاً بالشيزرى، والقفيز الحموى ينقص عن الشيزرى سنبلان^(١)، والقفيز الحمصى مثل الحموى.

والمكوك الحلبي يزيد على القفيز الشيزرى ثلاث سنابل، والمعرى مثله، وهو أربع مرزبان، كلّ مرزبان أربعة أكيال بالحلبى، والغرارة الدمشقية ثلاثة مكاييك بالحلبى، وجميع ما ذكرته غير مستمرّ فى جميع الأزمان، وإنما اصطلاح كلّ قوم على شىء فى زمن سلطان، ثم يتغير ذلك بتغير السلطان، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع

فى معرفة الموازين والمكايل وعمار الأبطال والمناقل

أصحّ الموازين وضعاً ما استوى جانباه، واعتدلت كفتاه، وكان ثقب علاقته^(٢) فى جانبى وسط القصبة فى ثلث سمكها، فىكون تحت مرؤد العلاقة الثلث، ومن فوقه

(١) على لغة الزاء المثنى الألف نصباً وجراً.

(٢) العلاقة: شىء يُعلّق به الإناء. اللسان (علق).

الثلاثان، وهذا يعرف رجحانه بخروج اللسان من قَبِّ العلاّقة، وتهبط الكفّة سريعاً بأدنى شىء، وأما الشواهين^(١) الدمشقية، فوضّع ثقب علائقها بخلاف ما ذكرناه، ويعرف رجحانها بدخول اللسان فى قَبِّ العلاّقة من غير هبوط الكفّة، وقد يكون مردود العلاّقة مربعاً ومثلثاً ومدوّراً، وأجودها المثلث؛ لأنه أسرع رجحاناً من غيره، ويأمر المحتسب أصحاب الموازين بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ، فى كل ساعة، فإنه ربما يجمد فيها قطّر من الدهن، فيظهر فى الوزن.

وينبغى له إذا شرع فى الوزن أن يسكّن الميزان، ويضع فيها البضاعة برفق، ولا يرفع يده فى حال الوضع لها، ولا يخلّق البضاعة من يده فى الكفة تحليقاً، ولا يهزّ حافة الكفة بإبهامه، فإنّ ذلك كله بخس.

ومن البخس الخفى فى ميزان الذهب أن يرفعه بيده تلقاء وجهه، ثم ينفخ على الكفة التى فيها المتاع نفخاً خفيفاً، فيرجح بما فيه، وذلك أن المشتري تكون عينه إلى الميزان، لا إلى فم صاحبه، ولهم فى مسك علاّقة الميزان صناعة يحصل بها البخس، ومنها أنهم يلصقون فى قعر الكفة الواحدة قطعة من الشمع، ثم يجعلون الصنج فيها، ويجعلون الفضة فى الكفة الأخرى، فيأخذون فى الدرهم الحبة والحيتين، فيلزم المحتسب مراعاة ذلك فى كلّ وقت.

والقبّان الرومىّ أصحّ من القبّان^(٢) القبطىّ، وينبغى أن يختبره المحتسب بعد كل حين، فإنه ربما اعوج من شيل الأثقال فيفسد.

فصل

وينبغى للبائع أن يتخذ الأبطال والأواقى من الحديد، وتُعبّر على الصنج الطيّارة، ولا يتخذها من الحجارة؛ لأنها تنتحت إذا قرع بعضها بعضاً فتتنقص، فإذا دعت الحاجة إلى اتّخاذها من الحجارة لقصور يده عن اتّخاذها من الحديد أمره المحتسب بتجليدها، ثم يَحْتَمِها المحتسب بعد العيار، ويجدد المحتسب النظر فيها بعد كل حين؛ لئلا يتخذ البائع مثلها من الخشب^(٣)، ولا يكون فى الحانوت الواحد دستان^(٤) من أبطال وأوراق أو

(١) الشواهين: مفردة شاهين، وهو من عمود الميزان ولسانه (اللسان).

(٢) القبّان: نوع من الموازين. (اللسان: قبن).

(٣) انظر: الخطط للمقريزى (٤٦٤/١).

(٤) الدستان: مثني دست، وهى لفظة فارسية تعنى المجموعة الكاملة.

٢٢٢ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

صنّج من غير حاجة؛ لأنها تهمة فى حقّه. ولا يتخذ البائع ثلث رطل، ولا ثلث أوقية، ولا ثلث درهم، لمقاربتة للنصف، وربما اشتبه ذلك عليه بالنصف فى حال الوزن عند كثرة الزبون.

وينبغى للمحتسب أن يتفقد عيار الصنّج والحبات وغير ذلك على حين غفلة من أصحابها، فإن من يأخذ حبات الشعير والحنطة فينقعها فى بعض الأدهان المعروفة، ثم يغرس فيها رعوس الإبر، ثم يجففها فى الظلّ، فتعود إلى سيرتها الأولى، ولا يظهر فيها شىء من ذلك.

فصل

والمكيال الصحيح ما استوى أعلاه وأسفله فى الفتح والسعة، من غير أن يكون محصرًا ولا أزور، ولا بعضه داخلًا وبعضه خارجًا، وإن كان فى أسفله طوق من حديد كان أحفظ له. وينبغى أن يُشدّ بالمسامير؛ لئلا يصعد فيزيد، أو ينزل فينقص. وأجود ما عُيِّرَت به المكايل الحبوب الصغار التى لا تختلف فى العادة، مثل الكسفرة، والخردل، والبرق قطنونا^(١)، وما أشبه ذلك. ويكون فى كل حانوت ثلاثة مكاييل، منها مكيال، ونصف مكيال وثمان مكيال؛ لأن الحاجة تدعو إلى اتخاذه ذلك.

وينبغى للمحتسب أن يجدّد النظر فى المكايل، ويراعى ما يطففون به المكيال، فإنّ منهم من يصبّ فى أسفله الجبسين المدبر^(٢)، فيلصق به لصقًا لا يكاد يعرف، ومنهم من يلصق فى أسفله وجوانبه الكسب، ومنهم من يأخذ لبن التين ويعجنه بالزيت حتى يصير فى قوام المرهم، ثم يلصقه فى داخل المكيال فلا يعرف، ولهم فى مسك المكيال صناعة يحصل بها التطفيف، فلا يدع التجسس عليهم، والله أعلم.

* * *

(١) البرق قطنونا: لفظ يصح فيه المد والقصر، يُقال: بذر قاطونا، ومنه شتوى وصيفى، وأجوده الرزين الممتلئ الذى يرسب فى الماء المقلو منه، والملتوت فى دهن زيت الورد، قابض، مسكن للصداع، ضمادًا بالخل، وهو غاية جدًّا. انظر: تحفة ابن البيطار (ص ١٨٢) بتحقيقنا - القاهرة.

(٢) هو حجر رخو برّاق، منه أبيض وأحمر، وممتزج بينهما، وله خاصية التحفيف، ويدخل فى تركيب الأدوية. انظر: المفردات لابن البيطار (١/١٥٩).

الباب الخامس

في الحسبة على الحبويين والدقاقين

يُحَرِّم عليهم احتكار الغلة على ما بيناه، ولا يخلطون ردىء الخنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، فإنه تدليس على الناس، وإذا دعت الحاجة إلى غسل الغلة، جُفِّت بعد غسلها تحفيظاً بليغاً، ثم بيعت منفردة.

فصل

ويلزم الدقاقين^(١) غربلة الغلة من التراب، وتنقيتها من الزوان، وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ولهم أن يرشوا على الخنطة ماءً يسيراً عند طحنها، فإن ذلك يكسو الدقيق بياضاً وجودة. ويعتبر عليهم المحتسب الدقيق، فإنهم ربما خلطوا فيه دقيق الشعير المنخول، أو دقيق الباقلاء^(٢) والحمص ونحو ذلك، أو ما هو مطحون على رحي منقورة، أو ما خالطه زوان أو غبار الطاحون، فإن ارتاب بهم حلفهم أن لا يعملوا شيئاً من ذلك.

والمصلحة أن يجعل المحتسب عليهم وظائف يرفعها إلى حوانيت الخبازين في كل يوم.

* * *

الباب السادس

في الحسبة على الخبازين

ينبغي أن تُرفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان؛ لئلا يتضرر بذلك الناس، وإذا فرغ الخباز من إحماؤه، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز.

ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين، ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم؛ ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها، وما يغطى به الخبز، وما يحمل عليه.

(١) الدقاقون: أى الطحانون. انظر: معالم القربة (ص ٨٩).

(٢) الباقلاء: أى الفول. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص ١٨٤) بتحقيقنا - ط التوفيقية - القاهرة.

ولا يعجن العجّان بقدميّه، ولا بركبتيّه، ولا بمرفقيّه؛ لأنّ فى ذلك مهانة للطعام، وربما قَطُر فى العجين شىء من عرق إبطيه وبدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعبة^(١) أو بشت^(٢) مقطوع الأكماس؛ ويكون مُلثَمًا أيضًا؛ لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شىء من بصاقه أو مخاطه فى العجين، ويشدّ على جبينه عصابة بيضاء؛ لئلا يعرق فيقطر منه شىء فى العجين، ويخلق شعر ذراعيه؛ لئلا يسقط منه شىء فى العجين، وإذا عجن فى النهار، فليكن عنده إنسان فى يده مذبة يطرد عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفينة^(٣) مراراً.

فصل

ويعتبر عليهم المحتسب ما يغشّون به الخبز، من الجلبان^(٤)، والبيسار^(٥)، فإنهما يورّدان وجه الخبز، ومنهم من يغشه بدقيق الحمص، ودقيق الأرز؛ لأنهما يثقلانه ويفجّجانه، ومنهم من يعجن الخشكار^(٦)، أو دقيق الشعير، أو الدقيق المزون، ثم ييطن به الخبز الخاص عند نفاقه، وجميع ذلك لا يخفى على وجه الخبز، وفى منظره ومكسره، ويمنعهم المحتسب أن يضعوا فيه البورق، فإنه مضرّ أيضًا، غير أنه يحسّن وجه الخبز، ولا يخبزونه حتى يختمر، فإن الفطير ثقيل فى الوزن والمعدة، وكذلك إذا كان قليل الملح، فيمنعهم المحتسب من فعله، فإنهم يقصدونه لأجل رزاقته فى الميزان، وينبغى لهم أن ينشروا على وجهه الأبازير الطيبة الصالحة له، مثل الكمون الأبيض، والشونيز^(٧)، والسّمسم، والمصطكى، ونحو ذلك. ولا يخرجون الخبز من التنور حتى ينضج حقّ نضجه، من غير احتراق فيه، والمصلحة أن يجعل على كلّ حانوت وظيفة يخبزونها كلّ يوم؛ لئلا يختل البلد عند قلة الخبز، ويلزمهم ذلك إن امتنعوا منه.

* * *

(١) الملعبة: ثوب بدون كمّ. انظر: المخصص لابن سيده (١٦/١٣).

(٢) البشت: رداء من الصوف بلونه الطّبيعى، يرتديه الفلاحون، والنساء، والعجانون عند عجنهم.

(٣) أو الصفيقة: هى الكثيفة. (اللسان: سفق، وصفق).

(٤) الجلبان: نوع من البقول، ويبدو أنه كان غذاء الفلاحين فى عصره. انظر: المفردات لابن البيطار (١٦٤/١، ١٦٥).

(٥) البيسار: هو فول مطبوخ بالسمن واللبن.

(٦) الخشكار: هو الدقيق الغير منزوع النخالة. انظر: المفردات لابن البيطار (٦١/٢).

(٧) والشونيز أو الحبة السوداء، والعامة تسمى بزورها حبة البركة، وينثرونها على الخبز الأبيض؛ لنزاهة اللون، وحسن الطعم. انظر: مبادئ علم النبات لجورج بوست (ص ١٤٧).

الباب السابع

في الحسبة على الفرّانين

يفرقهم المحتسب على الدروب والمحالّ وأطراف البلد، لما فيهم من المرافق وعظم حاجة الناس إليهم، ويأمرهم بإصلاح المداخل، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة من اللباب المحترق، والشرر المتطاير، والرّماد المتناثر؛ لئلا يلصق في أسفل الخبز منه شيء. ويجعل الفرّان بين يديه إجانة نظيفة للماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقى فيها؛ لأنه إذا بقى فيها تغيرت رائحته، ثم يغسلها من الغد. ويتعاهد جرف الدفّ^(١) الذي بين يديه؛ لأن العجين يلصق عليه. وإذا كثرت عنده أطباق العجين للناس، أخرج خبز كل واحد منهم بعلامة يتميز بها على غيره؛ لئلا يختلط الجميع فلا يعرف.

وينبغي أن يكون له مخبزان، أحدهما للخبز، والآخر للسّمك، ويجعل السّمك بمعزل عن الخبز؛ لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز، ولا يأخذ من العجين زيادة عما جُعل له. وقد يكون الدفّ الذي بين يديه مثقوباً، أو يكون قطعتين وبينهما فرجة، فإذا أخذ دقيق الناس بين يديه، ونحته بأصابعه، فينزل من بين الدفتين إلى إجانة أخرى له، فيراعيه المحتسب ويمنعه من ذلك، ويكون غلمانهم وأجراؤهم صبياناً دون البلوغ؛ لأنهم يدخلون بيوت الناس وعلى نسائهم، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن

في الحسبة على صناع الزلابية^(٢)

ينبغي أن يكون مقلّي الزلابية من النحاس الأحمر الجيد، فأول ما يحرق فيه النخالة، ثم يدلّكه بورق الصلّق إذا برد، ثم يعاد إلى النار، ويُجعل فيه قليل من عسل، ويُوقد عليه حتى يحترق العسل، ثم يُجلى بعد ذلك بمدقوق الخزف، ثم يُغسل ويُستعمل، فإنه يُنقى من وسخه وزنجاره^(٣).

(١) الدفّ: هو اللوح من الخشب الذي يستعمله الخباز لرصّ العجين، وتسمّى في مصر الطاولة. وانظر: فقه اللغة للثعالبي (ص ٢٠٢).

(٢) هي نوع من الحلوى المعروفة.

(٣) الزنجار: مادة تتولد من صفائح النحاس إذا وضعت في مكان رطب. انظر: المفردات (١٦٨/٢)، وهي تعرف الآن بأكسيد النحاس.

فصل

ويكون ثلث دقيق الزلاية ناعماً، وثلاثه سميذاً خُشْكَنَانِيًّا^(١)؛ لأنه إذا كثر فيه السميذ زادت الزلاية بياضاً وخفّة في الوزن ونضجاً، غير أن السميذ يشرب من الزيت أكثر من الناعم، فلهذا يكرهونه.

وأجود ما قُلِّيت به الشريح، فإن لم يكن فالزيت الصافي، ولا يُشرع في قليها حتى يختمر عجنها، وعلامة اختمارها أنها تطفو على وجه الزيت، والفطير منها يرسب في أسفل المقلّي، والمختمر أيضاً يكون مثل الأنابيب، إذا جمعتها في كفك اجتمعت، والفطير تكون مرضوضة، وليس فيها تجويف. ولا يُجعل في عجينها ملح؛ لأنها تؤكل بالعسل، فتغشى النفس إذا كانت بالملح.

وأما سواد الزلاية، فقد يكون من وسخ المقلّي، وقد يكون دقيقها ناعماً لا سميذ فيه، أو تكون مقلّوة بالزيت المعاد، وهو الذي قُلِّيَ به، وربما تكون فطيراً فتسود، وربما جارت عليها النار لسوء الصناعة، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك. وينبغي أن تُصنع سلالاً صغاراً لطافاً، كل أربعين منها رطل، ومتى حمض عجينها جعله الصانع خميراً، والله أعلم.

* * *

الباب التاسع

في الحسبة على الجزّارين والقصّابين^(٢)

يُستحبّ أن يكون الجزّار مسلماً بالغاً عاقلاً، يذكر اسم الله على الذبيحة، وأن يستقبل القبلة، وأن ينحر الإبل معقولة، ويذبح البقر والغنم مضطجعة على الجنب الأيسر، فجميع ذلك وردت به السنة عن النبي ﷺ. ولا يجزّ الشاة برجلها جرّاً عنيفاً، ولا يذبح بسكين كالة؛ لأن ذلك تعذيب للحيوان، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان.

ويلزمه في الذبح أن يقطع الودجين والمرىء والحلقوم، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة ويخرج منها الروح؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أمر

(١) أى البسكويت.

(٢) أى الجزّارين.

منادياً ينادى فى المدينة: لا تسليخ شاة مذبوحة حتى تبرد^(١). وتجوز الذكاة بكل شىء إلا السنّ والظفر، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الذكاة بهما. وينهى المحتسب عن نفخ لحم الشاة بعد السليخ؛ لأن نكهة الآدمى تغير اللحم وتزفره.

ومنهم من يشقّ اللحم من الصّفاقين^(٢)، وينفخ فيه الماء، ولهم أماكن يعرفونها فى اللحم ينفخون فيها الماء، فيراعيهم المحتسب عند غيبة العريف. ومنهم من يشهر فى الأسواق البقر السّمان، ثم يذبح غيرها، وهذا تدليس.

فصل

وأما القصابون، فيمنعهم المحتسب من إخراج توالى^(٣) اللحم من حدّ مصاطب حوانيتهم، بل تكون متمكنة فى الدخول عند حد المصطبة والركنين؛ لئلا تلاصقها ثياب الناس فيتضرّون بها. ويأمرهم أن يفرّدوا لحوم المعز عن لحوم الضأن، ولا يخلطوا بعضها ببعض، وينقطوا لحوم المعز بالزعفران^(٤)؛ لتتميّز عن غيرها، وتكون أذنان المعز معلّقة على لحومها إلى آخر البيع، ويُعرف لحم المعز ببياض شحمه، ودقة ضلعه.

ولا يخلطون لحوم المعز بشحوم الضأن، ولا اللحم السمين باللحم الهزيل. ويعرف شحم المعز ببياضه وصفائه، وشحم الضأن بعلو صفرتة. ويأمرهم ببيع الإليات مفردة عن اللحم، ولا يخالطها جلد ولا لحم. وإذا فرغ القصاب من البيع وأراد الانصراف، أخذ ملحاً مسحوقاً ونثره على القرمية^(٥) التى يقصب عليها اللحم؛ لئلا تلحسها الكلاب، أو يدبّ عليها شىء من هوام الأرض، فإن لم يجد ملحاً، وإلا فالأشنان^(٦) المسحوق يقوم مقامه. والمصلحة أن لا يشارك بعضهم بعضاً؛ لئلا يتفقوا على سعر واحد.

ويمنعهم المحتسب من بيع اللحم بالحيوان، وهو أن يشتري القصاب الشاة بأرطال

(١) انظر: بداية المجتهد لابن رشد (٣٥٨/١).

(٢) أو السفاقين، كما فى النسخ الخطيّة. وانظر: فقه اللغة للثعالبي (ص ٩٥).

(٣) التوالى: الأعجاز من اللحم المذبوح. (اللسان).

(٤) هو نبات بصلّى، وهو من الأنواع المعمرة لوجود الكورمات والأزهار كبيرة الحجم، وغلافها الزهرى مكون من ستة أجزاء متساوية حجماً، والثمار كبسولية الشكل، بداخلها العديد من البذور المستديرة، وسمراء لوناً، وصغيرة حجماً.

(٥) وتعرف بالقرمة، قطعة من الخشب الرّان، يقطع عليها اللحم.

(٦) نبات لا ورق له، مالح الطعم. انظر: المفردات (٣٧/١، ٣٨).

لحم معلومة، ويدفع إليه الجزار كل يوم ما يتفقان عليه من اللحم؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك. وإذا شكَّ المحتسب في الحيوان، هل هو ميتة أو مذبوح، ألقاه في الماء، فإن رَسِب فهو مذبوح، وإن لم يرسب فهو ميتة. وكذلك البيض إذا طُرِح في الماء، فما كان مَذِرًا^(١) فهو يطفو، وما كان صحيحًا فهو يرسب.

ويعتبر المحتسب على صيادی العصافير وسائر الطيور بما ذكرناه، فإن أكثرهم لا دين له، وأكثرهم لا يصلّون، فليقت الله المحتسب في أمره، ولا يتناول منهم رشوة، ولا يقبل من أحد منهم هدية؛ لئلا يتسلطوا بذلك على المسلمين وينجسوا معاشهم، وربما اختلط معهم شيء من الطيور الميتة، فباعوه مع المذبوحة.

* * *

الباب العاشر

في الحسبة على الشوائب

ينبغي للمحتسب أن يزن عليهم الحِمْلان قبل إنزالها في التنور، ويكتبها في دفتره، ثم يعيدها إلى الوزن بعد إخراجها، فإن كان الشواء قد نقص منه الثلث، فقد تنهى نضجه، وإن كان دون ذلك، أعاده إلى التنور. ويعتبره عند وزنه وهو لحم؛ لئلا يُخفوا فيه صنع الحديد وثقاقيل الرصاص. وعلامة نضج الشواء أن يجذب الكثف بسرعة، فإن جاءت فقد انتهى في النضج، وأيضًا يشق الورك، فإن ظهر فيها عروق حمراء، ونزل منها ماء اللحم، فهو نىء ولم ينضج.

ومنهم من يدهن الحِمْلان بالعسل، ثم ينزلها بالتنور، فإنها في الحال تحمرّ ويظهر فيها نفح، فينظر الرائي لها أنها قد نضجت. ومنهم من يذبح حملانًا كثيرة، ثم يحمل بعضها إلى المحتسب، ويخفى الباقي. وينبغي أن لا يغمّ الشواء حالة إخراجها من التنور، ولا يوضع في أواني الرصاص ولا النحاس وهو حارّ، فقد قالت الأطباء: إنه يستحيل سُمًّا. ويأمرهم المحتسب أن يطبّئوا تنايرهم بطين حرّ قد عجن بماء طاهر، فإنهم يأخذون الطين من أراضي حوانيتهم، وهو مختلط بالدم والفرث^(٢)، وذلك نجس، وربما انثر على الشواء منه شيء عند فتح التنور فينجس.

(١) أى فاسدًا حامضًا لا يصلح. وانظر: اللسان (مذر).

(٢) الفرث: هو المواد التي تخرج من الكرش. وانظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٤٠/٢).

فصل

وأما باعة الشواء المروض^(١)، فمنهم من يضع الماء والملح فى قدح عنده، ويضع عليه قليلاً من ماء الليمون، ثم يفرقه على المشتريين عند رضّ الشواء، ويرشه عليه. وقد يفضل منه فضلة فى ليالى الصيف، فيصبح متغيراً من الدهن الذى يقطر عليه، فيمزجونه بالليمون الطرى، ليخفى رائحته وطعمه على المشتري. ومنهم من يشتري الروس المغمومة عند كسادها، ثم ينشر لحمها على القرمة، ثم يرضّه مع الشواء قليلاً قليلاً، وربما رضّوا معه الكلى والكبود على غفلة من المشتري، وجميع هذا تدليس، يجب على المحتسب أن يعتبره عليهم. وإذا فرغوا من البيع وأرادوا الانصراف، نثروا على قُرْمِهِم الملح المسحوق، كما قلنا فى القصاصين، والله أعلم.

* * *

الباب الحادى عشر

فى الحسبة على الرواسيين

يأمرهم بنظافة سمط الروس والأكارع^(٢) بالماء الشديد الحرارة، وجودة تنقية الشعر والصوف منها، ثم تُغسل بعد ذلك بالماء البارد، غير الذى سمطت فيه. ويجب على الرواس أن يضمّ إصبعة فى الخياشيم، ويغسل داخلها، بعد أن يدقّ مقدمها، وينزل ما فيه من القذا، والوسخ، والدود المتولد إن كان هناك منه شىء.

ولا يخلطون روس المعز بالضأن عند البيع، ويجعلون فى أفواه روس المعز كوارعها، لتتميز عن الضأن، ولا تشبهه على الجاهل. وعلامة روس الضأن أنّ تحت كل عين ثقب، وليس تحت عيون المعز شىء، وأيضاً أن خرطوم المعز دقيق من أصله، وليس كذلك الضأن. وربما كسدت عندهم الروس، فيخلطونها من الغد بالروس^(٣) الطريّة. وعلامة البائت منها أنك تنسل العظم الدقيق الذى فى المبلع المسمى بالشوكة، ثم تشمّ رائحته، فإن كان متغيراً فهو بائت.

ومنهم من يشتري دهن الأبدان القاطر من الشواء، ويخلطه بدهن الأكارع، ويسقى

(١) المروض: هو المدقوق والمفروم من اللحم.

(٢) الأكارع: ويُقال فى مصر وغير: الكوارع، ويقال: كراع، وأكرع، وهو الجزء المستدق العارى من اللحم من ساق البقر والغنم.

(٣) هو عشبة طيبة الرائحة كالزعفران يعطى الطعام نكهة ورائحة جيدة.

٢٣٠ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

به الثريدة^(١)، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك. ولا يخرج الروس من الغمة حتى ينتهى نضحها، ويكون عنده الملح والسماق^(٢) مسحوقين لينثره بعد البيع، والله أعلم.

* * *

الباب الثاني عشر

الحسبة على قلأى السمك

يؤمنون كلّ يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التى يحملون فيها السمك، وينثرون فيها الملح المسحوق كلّ ليلة بعد الغسل، وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص؛ لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح ننتها، وكثر وسخها، فإذا وضع فيها السمك الطرى تغير ريحه، وفسد طعمه. ويبالغون فى غسّل السمك بعد شقه، وتنظيفه، وتنقيته من جلده وفلوسه، ثم ينثرون عليه الملح والدقيق، وشرط العشرة أرطال، رطل دقيق، ثم يقلونه بعد أن يجفّ من نداوته. ولا يخلطون السمك البائت بالطرى، وعلامة الطرى أن خياشيمه محمّرة، والبائت ليس كذلك.

وينبغى للعرىف أن يتفقد المقلّى كل ساعة عند غيبة المحتسب عنه؛ لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك، ويخلطوا هذا الدهن بالزيت عند قلبه. وأجود ما قلبى به الشيرج، ولا يقلونه بالزيت المعاد إذا كان متغير الرائحة، ولا يخرجون السمك من المقلّى حتى ينتهى نضحها، من غير سلق ولا احتراق.

فصل

وأما السمك الذى يُحمّل إلى البلاد، أو يُكسّد فى المخازن، كالفسىخ، والبطارخ، فلا تقشر فلوسه، ولكن يوثق بالملح، سيما رعوسه وخياشيمه، فإن الدود أول ما يتولد فيها، ومتى مذر السمك المكسود والطريح^(٣)، وجب أن يرمى على المزابل خارج البلد، والله أعلم.

* * *

(١) الثريد: طعام خليط من الأرز والخبز والطماطم، ويضاف إليه اللحم، ويُعرف فى مصر بالفتّة.

(٢) شجرة عظيمة ورقها كورق الباس، إلا أنه أحمر وفيه هموضة، ويوجد فى بر الترك. انظر:

كشف الرموز (ص ٨١).

(٣) هو سمك صغير الحجم يقوم مقام سمك البقلة المحفف فى وقتنا الحاضر.

الباب الثالث عشر

في الحسبة على الطباخين

ويؤمرون بتغطية أوانيهم، وحفظها من الذباب وهوام الأرض، بعد غسلها بالماء الحارّ والأشنان، وألا يطبخوا لحوم المعز مع لحوم الضأن، ولا لحوم الإبل مع لحوم البقر؛ لئلا يأكلها نأقه من المرض فتكون سبباً لنكسه، ويعتبر المحتسب عليهم كثرة الأدام وقلة اللحم، فإن أكثرهم يسلّون الدهن ويفرغونه في القدر، فيطفقوا على وجه الطعام، فيغترّ به الناس، ويظنون من كثرة اللحم.

وعلاوة لحم المعز في القدر سوادها وزهُومَتها^(١) ودقة عظامها. ويعتبر عليهم ما يغشّون به الأطعمة، فإنهم يغشّون المَظيرة بال دقيق، فيزيد في وزنها ويَعْقدها، ومنهم من يعقدها بدقيق الأرز والسميد الناعم، ومنهم من يغشّ البَهْطَة^(٢) بالقلقاس، وعلاوة ذلك كله ميل الطعام إلى السمرة، ومنهم من يعقد اللبنة بالكسب أو بالنشا، ولولا أنى أخاف أن أنبه من لا دين له على غشّ الأطعمة، لذكرت من ذلك جُملاً كثيرة في اختلاف أشياء من عناصرها، ولكنى أعرضت عن ذكرها مخافة ممن يتعلّمها، فيعلّمها للناس.

وقد ذكر يعقوب الكندي^(٣) في رسالته المعروفة باسم: كيمياء الطبائع، ألوان لحم تطبخ من غير لحم، وقلى كُبُود من غير كُبُود، ومخ من غير مخ، ونقانق وطردين من غير لحم، وعجة من غير بيض، وجوزاب^(٤) من غير أرز، وحلاوة من غير عسل ولا سكر، وألوان كثيرة من غير عناصرها يطول شرحها، لا يهتدى إليها الطباخون، فأمسكت عن ذكرها. فيعتبر المحتسب عليهم ذلك؛ لئلا يكون أحد يعرفه، والله أعلم.

* * *

(١) الزهومة: الرائحة المنتنة للحوم السمين. (اللسان: زهم).

(٢) البهظة: لفظة هندية، وهى الأرز المطبوخ باللبن والسمن. انظر: مفاتيح العلوم للخوارزمي (ص ١٠٠).

(٣) هو أبو يعقوب الكندي الطبيب، الفيلسوف، الموسيقى، النجم، الكيميائي، الرياضي. انظر: طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢٠٦/١ - ٢١٣).

(٤) نوع من الحلوى يخلط بسكر ولحم وأرز وخبز ويقول.

الباب الرابع عشر

فى الحسبة على الهرايسين

أوسطُ عيار الهريسة^(١) من غير حيف على الهرايسين، ولا تعسير على الناس، لكل صاع من القمح ثمانى أواق من لحم الضأن، ورطل من لحم البقر. ويكون لحم الهريسة سميناً فتيماً، نقياً من الدرن، والغدد، والعروق، والأعصاب، طرياً غير غث، ولا متغير الرائحة. وينبغى أن يُجعل فى الماء والملح ساعة، حتى يخرج ما فى بطنه من الدم، ثم يُخرج ويُغسل بماء غير ذلك، ثم يُنزل فى القدر بمحضرة العريف، ثم يُختتم بخاتم المحتسب. فإذا كان وقت السحر حضر العريف وكسر الخاتم، وهرسوها بمحضرة العريف؛ لئلا يشيلوا اللحم منها ويعيدوه إليها من الغد، فأكثرهم يفعل ذلك، وإذا لم يختتم عليه القدر.

ومنهم من يغشُّ الهريسة بالقلقاس المدبر، ومنهم من يتاع الروس المغمومة عند كسادها رخيصة، ثم ينسل لحمها ويجعله فى الهريسة. ومنهم من يسلق لحم البقر أو لحم الجمل، ثم يجففه ويدخره عنده، فإذا أمكنه العمل نقعه فى الماء الحار ساعة، ثم وضعه فى الهريسة. وربما بقى عندهم فى القدور فضلة، فخلطوها فى الهريسة من الغد، فيراعى المحتسب جميع ذلك بالختم.

فصل

ويكون دهن الهريسة طرياً طيب الرائحة، قد عمل فيه عند سليه المصطكى والدارصينى^(٢). ويعتبر المحتسب ما يغشون به الدهن، فإن منهم من يأخذ عظام البقر والجمال والروس، ثم يسلقها سلقاً جيداً، فيخرج منها دهن كثير، فيمزجونه بدهن الهريسة. والطريق إلى معرفة ذلك أنك تقطر منه شيئاً على بلاطة، فإن سأل ولم يجمد، أو كان لونه مُشفاً^(٣)، فهو مغشوش بما ذكرناه. ويأمرهم المحتسب بغسل قدور الدهن وتنظيفها وتمليحها؛ لئلا تتغير رائحتها وطعمها، فيتولد فيها الدود، فإذا أعيد الدهن إليها ثانياً، صار متغيراً فى الرائحة والطعم، والله أعلم.

* * *

(١) نوع من خليط الحلوى المعروفة.

(٢) الدارصينى: معرب عن دارشيني الفارسى، شجر هندي كالرمان، وأوراقه كورق الجوز، إلا أنها

أدق، ولا زهر لها، ولا بذر له. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص ٢٠٠) بتحقيقنا.

(٣) أى الشفاف الدقيق الذى يمكن رؤية ما وراءه. انظر: تاج العروس (شف).

الباب الخامس عشر

في الحسبة على النفاقين^(١)

الأولى أن تكون مواضعهم التي يصنعون فيها النفاق بقرب دكة المحتسب؛ ليراعيه بعينه، فإن غشهم فيها كثير لا يكاد يعرف. ويأمرهم بتنقية اللحم، وجودته، واستسمانه، ونعومة دقه على القرم النظيفة. وليكن عنده واحد حين يدق اللحم، بمذبة يطرد بها الذباب. ولا يخلطون معه البصل، والأبازير، والتوابل إلا بحضرة العريف؛ ليعلم مقداره بالوزن، ثم يحشونه بعد ذلك في المصارين النقية. ويعتبر عليهم ما يغشون به النفاق، فإن منهم من يغشها بلحوم الروس المغمومة، ومنهم من يغشها بالكبؤد والكلبي والقلوب، ومنهم من يغشها باللحوم الواقعة الهزيلة، أو يخلطها بلحوم الإبل والبقر الواقعة. ومنهم من يرش الماء على اللحم وقت دقه، فيمنعهم المحتسب من ذلك. ومنهم من يحشو السنوسك^(٢) بلحوم السمك المشوية والتوابل، ومنهم من يغشها بالباقلا المنبت المقشور، وبياض البصل.

ويُعرف جميع ذلك بأن يشق المحتسب النفاق قبل قليها، فينظر ما فيها للعين. وإذا نضجت في المقلاة، فلا تكاد تعرف؛ لأنهم ينحسونها بالسفود إذا قاربت النضج، فيسيل ما فيها من الغش وتُنضج النار فلا يعرف. ويكون دهنها الذي تقلى به طيب الطعم والرائحة، غير عتيق ولا متغير، ثم ينثرون عليها بعد قليل الأبازير الطيبة والتوابل المسحوقة الصالحة لها، والله أعلم.

* * *

الباب السادس عشر

في الحسبة على الحلوانين

الحلوى أنواع كثيرة وأجناس مختلفة، لا يمكن ضبطها بصفة ولا عيار، أخلاطها على قدر أنواعها، مثل النشا، واللوز، والخشخاش، وغير ذلك، فقد يكون ذلك كثيراً في نوع، وقليلاً في نوع آخر، وإنما يُرجع في معرفة ذلك كله إلى العريف. وينبغي أن تكون الحلوى تامة النضج، غير نيئة ولا محترقة. ولا تبرح المذبة في يده، يطرد عنها الذباب.

(١) هم صانعي المصارين المحشوة باللحم وخليط التوابل والبصل متبلاً.

(٢) السنوسك: طعام يُعمل من لحم فخذ الضأن.

ويعتبر المحتسب عليهم ما يغشون به الحلوى، فإنه كثير، فمن ذلك أنهم يمزجون العسل النحل برُبِّ الكَرْم، وعلامة غشّه أنه إذا حُمِلَ على النار ظهرت رائحة الرُبِّ^(١)، ومنهم من يمزج العسل القصب، وهو الذى يسمونه القطار، بالدبس^(٢)، وعلامة غشّه أنه يركد فى أسفل الإناء، ومن الحلوى ما يُغشّ بالدقيق، والنشا، وبدقيق الأرز، وبدقيق العدس، وبقشر السمسم، وعلامة غشّه أنه يطفو على وجه الماء إذا طُرِحَ فيه. وقد يغشون ناطف الخشخاش بالسמיד، وعلامة غشّه أنه يطفو على وجه الماء، وأيضًا فإنه يظهر فى مكسره، وقد يغشون الناطف الهياجى بالسמיד المقلو بالكشك^(٣)، وقد يغشون الناطف الأصفر بالفتيت، وعلامة غشّ الجميع أنه يطفو على وجه الماء، ومنهم من يغشّ البسندود بالفتيت، وربما عملوه بدقيق العدس.

ومنهم من يغشّ كعب الغزال والمشاش بالقند، وعلامة غشّه ميله إلى السمرة والسواد. ومنهم من يغشّ الزلّابية المشبّكة بالقند المحلول، عوضًا من العسل. وقد يغشون الخبائض الناعمة والرطبة والصابونية بالنشا الخارج عن الحدّ، وعلامة غشّها أنها تتفتّت، وإذا باتت خمرت. ومنهم من يغشّ النوية بالدقيق، ومنهم من يغشّ الخشكناج الذى يخبز فى التنور، فإنه إذا كان مغشوشًا وقع فى التنور وسقط. وجميع غشوش الحلاوة لا تخفى فى منظرها وذوقها، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب السابع عشر

فى الحسبة على الصيادلة

تدليس هذا الباب والذى بعده كثير، لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه، فكتبها فى حواشيه تقريبًا إلى الله تعالى، فهى أضرب على الخلق من غيرها؛ لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطوائع والأمزجة، والتداوى على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج؛ فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها، فأضررت بالمريض لا محالة، فالواجب على الصيادلة أن يراقبوا الله عزّ وجلّ فى ذلك.

(١) الرُبّ: عصارة التمرة بعد طبخها حتى تصير غليظة. انظر: نهاية الأرب (١١/٨٩).

(٢) الدبس: عسل التمر وعصارته.

(٣) للكشك أنواع وعدة طرق لعمله وطبيخه. وانظر: فن الطبخ الحديث (ص ١٥٤، ١٥٥) ط/

وينبغي للمحتسب أن يخوفهم، ويعظمهم، ويُنذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع، فمن غشوشهم المشهورة أنهم يغشّون الأفيون^(١) المصرى بشياف ماميتا، ويغشّونه أيضاً بعصارة ورق الخس البرى، ويغشّونه أيضاً بالصمغ، وعلامة غشّه أنه إذا أذيب بالماء ظهرت له رائحة كرائحة الزعفران، إن كان مغشوشاً بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة، وهو خشن، كان مغشوشاً بعصارة الخس، والذي هو مَر صافى اللون ضعيف القوة، يكون مغشوشاً بالصمغ. وقد يغشّون الرواند الصينى بنبتة يقال لها: رواند الدواب، تنبت بالشام، وعلامة غشّه أن الرواند الجيد هو الأحمر الذى لا رائحة له، ويكون خفيفاً، وأقواه الذى يسلم من السوس، وإذا نقع فى الماء كان فى لونه صفرة، وما خالف هذه الصفة كان مغشوشاً بما ذكرناه.

وقد يغشّون الطباشير بالعظام المحروقة فى الأتاتين، ومعرفة غشّها أنها إذا طرحت فى الماء رسب العظم وطفأ الطباشير. وقد يغشّون اللبان الذكر بالقلفونية والصمغ، ومعرفة غشّه أنه إذا طرح فى النار التهبت القلفونية ودخت وفاحت رائحتها. وقد يغشّون التمر هندى بلحم الأجاص. وقد يغشّون الحضض بعكر الزيت ومرائر البقر فى وقت طبخه، ومعرفة غشّه أنه إذا طرح منه شئ فى النار، فإن الخالص يلهب، ثم إذا أطفئته بعد الالتهاب يصير له رغوة كلون الدم، وأيضاً فإن الجيد منه أسود، ويرى داخله ياقوتى اللون، وما لا يلهب وما لا يرغى يكون مغشوشاً بما ذكرناه.

وقد يغشّون القسّط^(٢) بأصول الرأسين^(٣)، ومعرفة غشّه أن القسّط له رائحة، وإذا وُضع على اللسان يكون له طعم، والرأسين بخلاف ذلك. وقد يغشّون زغب السنبل بزغب القلقاس، ومعرفة غشّه أنه بوضعه فى الفم يغنى ويحرق. وقد يغشّون الأفرّيون^(٤) بالباقلا اليابس المدقوق، وقد يغشّون المصطكى بصمغ الأبهل. ومنهم من يغشّ المقل^(٥) بالصمغ القوى، ومعرفة غشّه أن الهندى تكون له رائحة ظاهرة إذا بُخر به، وليس فيه

(١) هو عصارة الخشخاش (أبو النوم) وأجوده ما أخذ بالمشروط، وأضعفه ما يؤخذ منه بالطبخ أو العصر. انظر: تحفة ابن البيطار (ص ١٧٨) بتحقيقنا أحمد فريد.

(٢) القسّط: يُقصد به هنا العود، ومنه أبيض رقيق، وهو أجوده، والآخر يميل إلى السواد، ويُسمى بالعود الهندى. انظر: نهاية الأرب (٤٩/١ - ٥٢).

(٣) هو الجناح شربته إلى مثقال بدله سعد ونصفه شقاقى.

(٤) ساقه شوكية مستطيلة، كثير العصارة، ينمو بإفريقيه. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (١/٢٣١).

(٥) هو علك الدوم، وهو نوعان: أزرق حار يابس فى الثانية، وأسود وهو للرطوبة أميل بارد يابس، ويقال: مقل اليهودى.

٢٣٦ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

مرارة، والأفقيمُون^(١) الإقريطشى يغشونه بالشامى، وليس بضارّ، ويغشونه أيضاً بزغب السبّايح^(٢).

ومنهم من يغشّ المحمودة بلبن اليتوع المحمّد، ومعرفة غشّها أن توضع على اللسان، فإن قرصته فهي مغشوشة. ومنهم من يغشّها أيضاً بنشارة القرون، وتعجن بماء الصمغ على هيئة المحمودة، ومنهم من يغشّها بدقيق الباقلا ودقيق الحمص، ومعرفة غش ذلك كله أن الخالصة صافية اللون مثل الغرى، والمغشوشة بخلاف ذلك. وقد يغشون المرّ بالصمغ المنقوع فى الماء، وصفه غشّه أن الخالص يكون خفيفاً ولونه واحد، وإذا كسر ظهر فيه أشياء كشكل الأظفار ملساء، تشبه الحصى، وتكون له رائحة طيبة، وما كان منه ثقيلًا، ولونه لون الزيت، فلا خير فيه. ومنهم من يغشّ قشر اللّبان بقشور شجر الصنوبر، وصفة غشّه أن يلقى فى النار، فإن التهب وفاحت له رائحة طيبة فهو خالص، وإن كان بالضدّ فهو مغشوش، ومنهم من يغشّ المرزنجوش بيزر الخندقوق.

وقد يغشّون الشمع بشحم المعز وبالقلفونية، وقد يذرون فيه عند سبكه دقيق الباقلا، أو الرمل الناعم، أو الكحل الأسود المسحوق، ثم يُجعل ذلك بطانة فى الشمعة، ثم يُغشى بالشمع الخالص، ومعرفة غشّه أنك إذا أشعلت الشمعة، ظهر فيها ذلك. وقد يغشون الزنجار بالرخام والقلقند، ومعرفة غشّه أن تبلّ إبهامك وتغمسها فيه، ثم تدلك بها السبّابة، فإن نعيم وصار كالزبد فهو خالص، وإن ابيضّ وتحبّب فهو مغشوش، وأيضًا يترك منه شيء بين الأسنان، فإن وجدته كالرمل فهو مغشوش بالرخام، وأيضًا تحمى صفيحة فى النار، ثم يذرّ عليها، فإن أحمرّ فهو مغشوش بالقلقند، وإن اسودّ فهو خالص.

وقد يختارون من الإهليلج^(٣) الأسود إهليلجاً أصفر، ويبيعونه مع الكابلى، ويختارون من الإهليلج الأصفر المعصّب حُباشة الكابلى، ويبيعونه مع الكابلى. وقد يرشّون الماء

(١) التسمية: يونانية، ومعناها: دواء الجنون، وهو نبات له أصل كالجذر شديد الحمرة، وهو عبارة عن بذور وزهور وقضبان صغار متهشمة، ويسكن النفع، ويذهب أمراض السوداء، وينفع من التشنّج، وهو حار حريف الطعم، أحمر البذر.

(٢) السبّايح: نبات ارتفاعه نحو شبر، وهو دقيق الورق، يشبه ورق اللبلاب، وزهره أبيض، وعضلاته صمغية، ويستخدم كمسهل. انظر: ابن البيطار (٣/١١٧، ١١٨).

(٣) أهليلج: كابلى، وأصفر، وصينى، وهندى. انظر: تحفة ابن البيطار (ص ١٧٩) بتحقيقنا.

على الخيارشُبْر^(١) وهو ملفوف في الأكسية عند بيعه، فيزيد رطله نصف رطل. ومنهم من يأخذ اللك ويسكبه على النار، ويخلط معه الآجر المسحوق والمغرة، ثم يعقده وييسطه أقرصاً، ثم يكسره بعد جفافه ويبيعه على أنه دم الأخوين^(٢). ومنهم من يدق العلك دقاً جريشاً، ثم يجعل فيه شيئاً من الجاوشير، ويطحبه على النار في عسل النحل، ويلقى فيه شيئاً من الزعفران، فإذا غلى وأرغى، طرح فيه العلك، وحرّكه إلى أن يشتدّ، ثم يعمل أقرصاً إذا برد، ويكسره ويخلط معه الجاوشير، فلا يظهر فيه.

وأما جميع الأدهان الطبية وغيرها، فإنهم يغشّونها بدهن الخلّ بعد أن يُغلى على النار، ويُطرح فيه جوز ولوز مرضوض، ليزيل رائحته وطعمه، ثم يمزجونه بالأدهان.

ومنهم من يأخذ نوى المشمش والسمسم، ثم يعجنهما بعد دقّهما، ويعصرهما ويبيع دهنهما على أنه دهن لوز. ومنهم من يغشّ دهن البلّسان بدهن السّوسن، ومعرفة غشّه أن يُقطر منه شيء على خرقة صوف ثم يغسل، فإن زال عنها ولم يؤثر فيها فهو خالص، وإن أثر فيها كان مغشوشاً، وأيضاً فإن الخالص منه إذا قُطر في الماء ينحلّ ويصير في قوام اللبن، والمغشوش يطفو مثل الزيت، ويبقى كواكباً فوق الماء.

وقد أعرضتُ عن أشياء كثيرة في هذا الباب لم أذكرها لخفيّ غشّها، ولا متزاجها بالعقاقير، مخافة أن يتعلّمها ممن لا دين له، فيدلّس بها على المسلمين، وإنما ذكرتُ في هذا الباب وفي غيره ما قد اشتهر غشّه بين الناس، ويتعاطاه كثير منهم، وأمسكتُ عن أشياء غير مشهورة، قد ذكر أكثرها صاحب كتاب كيمياء العطر، فرحم الله من وقع في يده ذلك الكتاب، فمزّقه وحرّقه تقريباً إلى الله عزّ وجلّ.

* * *

الباب الثامن عشر

في الحسبة على العطارين

غشوش العطر كثيرة مختلفة أيضاً، لاختلاف أجناس الطيب وأنواعه، وتجانس العقاقير

(١) هو شجر في حجم الخرنوب، ويحلب من البلاد الحارة، له زهر أصفر يضرب إلى البياض، وأجود استعماله طبخه مع التين.

(٢) هو عصارة حمراء معروفة، لمنع النزف ولزق الجروح والقروح. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص ٢٠٢) بتحقيقنا.

الطبية وتقاربها فى الرائحة، وسأذكر من ذلك ما أشتهر غشّه وصنعتة، وأعرضُ عما خفى غشّه وصنعتة، ولا يتعاطاه كثير منهم، فمن ذلك أنهم يعملون نافجة^(١) المسك من قشور الأملج^(٢) والشَّيْطَرَج^(٣) الهندى، ومثلها شادوران، ويعجنونه بماء صمغ الصنوبر، ويجعلون كل أربعة دراهم من هذا درهم مسك، ويحشون به النافجة، ويسدّون رأسها بالصمغ، ثم يجففونها على رأس تنور، ومعرفة غشّها وسائر غشوش النوافج، أن يفتحها المحتسب ويلثمها، كالمحتشّى للشيء، فإن طلع إلى فيه للمسك حدة كالنار، فهو محل لا غشّ فيه، وإن كان بالضدّ فهو مغشوش.

ومنهم من يعمل نافجة من الأملج والشادوران الذى قد نزع صبغه بالماء الحار، ومعهما الأنزورت، ويعجنه بماء الصمغ ويخذه، ثم يجعل لكلّ ثلاثة دراهم منه درهم مسك صُغْدِيّ، ويسحق الجميع ويحشى منه النافجة، ثم يجففه على تنور، ومعرفة غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يعمل نافجة بقشور البلوط المخدوم بالنار، ويخلط منه لكل ثلاثة داهم درهم مسك، ثم يحشى به النافجة، ومعرفة غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يعمل مسكاً بغير نافجة، من زرواند ورامك ودم أخوين، ويعجن الجميع، ويعمل للدرهم الواحد درهم مسك.

ومنهم من يعمل مسكاً من سنبل الطيب، وبرادة العود، وقرفة، وقرنفل، ويخلط بمثله مسكاً. ومنهم من يعمل من القرنفل، وشادوران، وزعفران، ويعجن الجميع بماء ورد ويخلط بمثله، ويحشون جميع ذلك عنبراً، ومعرفة غشّ جميع هذه الأنواع وغيرها من أنواع المسك، أن تطرح منها شيئاً فى فيك، ثم تتفله على قميص أبيض، ثم تنفضه، فإن انتفض ولم يصبغ، فلا غشّ فيه من دم وغيره، وإن صبغ ولم ينتفض فهو مغشوش.

ومنهم من يلقى على المسك الخالص شيئاً من دم الأخوين، أو دم الجداء، ومنهم من يسحق المسك بدم الغزال، ثم يحشيه فى مصرانها، ويشده بخيط، ثم يجففه فى الظل، ثم يشقّ عنه ويخلطه مع غيره فى القوارير، ومنهم من يغشّه بالكبود المحروقة، ومعرفة غشّ ذلك بما ذكرناه. ومنهم من يطرح مع المسك رصاصاً على مقدار الفلفل وأصغر من ذلك، مصبوغاً بالمداد، فلا يتبين إلا عند السحق.

(١) جلد يجتمع فيه المسك.

(٢) شجر ينمو بالهند، يشبه الكمثرى، يستخدم للعقاقير.

(٣) نبات هندی ينمو فى القبور، والحيطان العتيقة، والأماكن المهجورة، وهو دائم النضرة، له رائحة

حادة. انظر: القانون (١/٤٣٤).

فصل

وأما العنبر، فمنهم من يعمل من زبد البحر، والصمغ الأسود، والشمع الأبيض، والسندروس^(١)، وجوزة الطيب، ويخدمه ويخلطه بمثله. ومنهم من يعمل من زبد البحر، والسندروس، والعود، والسنبُل، وبعر الضب، ويخدمه ويدفنه في بطون الخيل، ثم يخرج منه ويخلطه بمثله، وربما عمل على شكل تمثال، أو قلائد، أو غير ذلك. ومنهم من يعمل من المسك والشمع والعنبر، وقد يطلون جماجم العنبر بالسندروس، فيجب أن تحرق رءوسها حتى تعلم سلامتها منه ومن غيره، وربما حُفرت جماجم العنبر وألقى فيها قطع الرصاص، ومعرفة غش جميع ما ذكرناه أن يُجعل منه شيء في النار، فلا تخفى رائحة شيء من ذلك، وتظهر رائحة الأخلاط فيه، وأيضاً فإنه لا يجف، وإن كان فيه سندروس فهو يتفتت.

فصل

وأما الكافور^(٢)، فإن منهم من يعمل بنخالة رخام الخراطين المدبر، ومنهم من يعجن الكافور بماء الصمغ الأبيض، وينجره على الغرايل، ومنهم من يعمل من حجارة النوشادر، ويكسره صغاراً ثم يخلطه به، ومنهم من يعمل من ذريرة غير مفتوتة، وجيسين غير مشوي، وصمغ أبيض، ومثل الجميع كافور، ومنهم من يعمل من خشب الخروع النحر، والأرز المدبر، ومنهم من يعمل من نوى البلح بدقه حتى يصير مثل الزبد، ويجعل عليه مثله كافور، ثم يعجنه بماء الكافور، ويسطه رقيقاً، فيبقى مثل الكافور، ومعرفة غشوش الكافور التي ذكرناها وما لم نذكرها هو أن يُلقى منه شيء في الماء، فإن رسب فهو مغشوش، وإن طفا فهو خالص، وأيضاً يلقي منه شيء على خرقة، ثم يجعل على النار، فإن طار ولم يلبث فهو خالص، وإن احترق وصار رماداً فهو مغشوش.

(١) صمغ شجرة يسيل قطعاً صغيرة سهلة الكسر، وله رائحة وطعم طيبين مثل الصنوبر. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (٢/٧٨٦).

(٢) الكافور: شجرة كبيرة مستديمة الخضرة، هندية، تكون في تخوم سرنديب، قال بعضهم: إن شجرة الكافور كبيرة تظل خلقاً كثيراً، وتنبت هذه الشجرة في نواحي الصين، وخشب الكافور أبيض هش خفيف جداً، وإن كثرة استعماله يسرع الشيب، ويمنع الأورام الحارة. انظر: تحفة ابن البيطار (ص ٢٢٤)، بتحقيقنا.

فصل

ومنهم من يغشّ الزعفران الشعر بصدور الدجاج ولحوم البقر، بعد سلقها بالماء، ثم ينشر ما شاء منها، ويقدّده ويصبغه بالزعفران، ثم يجفّفه ويخلطه فى السّلال، ومعرفة غشّه أن يأخذ المحتسب منه شيئاً وينقعه فى الخلّ، فإن تقلّص فهو مغشوش باللحم، وأيضاً يتغيّر لونه إذا وُضع فى الخلّ، والخالص يبقى لونه على ما كان عليه.

ومنهم من يقطع الأكشوت مثل شعرة الزعفران، ثم يطبخه بمطبوخ البقم^(١)، ويضيف إليه شيئاً مصبوغاً بماء الزعفران، ويذرّ عليه قليل سكر مدقوق، ليثقل ويلصق بعضه ببعض، ثم يخلطه بمثله زعفران، ويرفعه فى السّلال، وبيان غشّه أن تأخذه فى فيك، فإن كان حلواً فهو مغشوش بما ذكرناه. ومنهم من يأخذ نبات الحلبة، وينقعه فى خمر عتيق قد ترك فيه فلفل وكركم^(٢) منخولان وزعفران أياً ما معلومة، ثم ييسطه فى الظلّ، ويخلطه فى السّلال، ومعرفة جميع غشوش الزعفران أن يكون يابس الشعرة، فخذ من وسط السّلة، فإنه يتبين لك الغشوش بيباسته.

ومنهم من يطحن الزعفران المغشوش ناعماً؛ لئلا يظهر غشّه، ويخلط معه فى الطحن دم الأخوين، ليبقى لونه على ما كان عليه، فإن المغشوش إذا طحن ابيضّ لونه، فيجعلون معه دم الأخوين، ومعرفة غشّه أن يُلقى منه شىء فى الماء فى قدح زجاج، فإن رسب منه شىء فهو مغشوش، وإن طفا فهو خالص. ومنهم من يغشّه بالزجاج المسحوق، ومعرفة غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يغشّه بالنشا المسحوق، ومعرفة غشّه أنه إذا وضع على النار فى إناء فيه ماء فإنه ينعقد ويتدبّق. ومنهم من يغشّه بالخلوق^(٣)، ومعرفة غشّه أنه إذا وُضع فى الخلّ والخردل احمّر لونه وصبغ، وقد يستحلّ قوم منهم أن يقيم قرطاساً فى وسط البرنية^(٤)، ويملاً جانبها الواحد خلوقاً، والجانب الآخر زعفراناً مسحوقاً، ثم يدفع إلى كلِّ بمقدار معرفته.

(١) البقم: خشب أحمر اللون، يوجد ببلاد الهند وجزائره، ويستخدم فى تركيب الأصباغ، ويُستخدم فى تزيين المخطوطات. كما ذكر ابن باديس وغيره من علماء التفسير.

(٢) الكركم: عيدانه صفراء من نبات معروف، وهو يُستعمل فى الصباغة. انظر: المخصص (٢١١/١١).

(٣) نوع من الطيب يضاف للزعفران لخلطه غشاً. انظر: نهاية الأرب (١٣٩/١١).

(٤) البرنية: نوع من الخزف والآنية. انظر: الإفصاح للصعيدى (ص ١٨٨).

فصل

وأما الغالية^(١)، فمنهم من يجعل أصلها من القطران المدبّر، ثم يجعل على كلّ درهمين منه درهم مسك جيد، ودرهم عود مسحوق، ودرهم سكّ لادن مسبوك على النار، ويضيف إليه نصف مثقال عنبر، ويخلط الجميع في أربعة مثاقيل دهن بان، فيجىء غالية لا تكاد تعرف، ومنهم من يعمل جسدّها من نخالة الرخام الرخو والشادوران المدبّر، ويجعل على كلّ درهمين منه ما قد ذكرنا من الطيب.

ومنهم من يعمل جسدّها من الفستق، ويجعل عليها للواحد واحدًا. ومنهم من يجعل جسدّها من السمسم الحديث المقشّر، والقرطاس المحرق، ويجعل عليها الطيب المعروف. ومنهم من يعمل جسدّها من شمع الشادوران وعيدانه، ويجعل عليها الطيب المعروف، وجميع هذه الغوالى المغشوشة لا تخفى على المحتسب والعريف، من اللون والرائحة والقوام، فيجب أن يراعيها كلّ منهما بعينه، فأكثر من يبيعها الدوّارون والذين يجلسون على الطرقات ممن لا دين له.

وأما الزّباد، فغشوشه كثيرة، ولا فرق بين جسده وجسد الغالية في الغشّ، وإنما الاختلاف في وزن الحميرة، فأعرضتُ عن ذكر ذلك لشهرته.

فصل

ومنهم من يغشّ العود الهندي، فيأخذ الصندل بيرده نظير العود، وينقعه في مطبوخ الكرم العتيق، ثم يدرجه ويخلطه بالعود الهندي، ومعرفة غشّه أن يُلقى منه شيء في النار، فتظهر رائحة الصندل. ومنهم من يعمل من قشور خشب يقال له: الإبلق^(٢)، فينقعه في ماء الورد المدبّر بالمسك والكافور أيامًا، ثم يخرجّه ويغليه ويدرجه. ومنهم من يعمل هذه الصفة من خشب الزيتون، ومعرفة غشّه أن يُلقى منه شيء في النار، فلا يخفى غشّه.

فصل

ومنهم من يغشّ دهن البان، فيعمله من دهن حبّ القطن، أو دهن نوى المشمش،

(١) الغالية خليط من المسك والعنبر يعجنان بلبان الذكر، والذى سماها بذلك معاوية. انظر: المخصص (٢٠١/١١).

(٢) الإبلق: خشب ذو لونين أبيض وأسود، ويستخدم في زخرفة الأضرحة وآلات الطرب مثل العود وغير ذلك.

٢٤٢ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة
ويعتقه بشيء من المسك الصُّغْدَى والأفاويه، ومنهم من يعملهُ أيضاً من زيت الأنفاق، ثم
يعتقه ويطرح فيه أطراف الآس، فيجىء فيه خضرة، ويقارب المدائنى. ومنهم من يصعد
عقد الصنوبر وقشور الكُنْدَر، فلا يُشكُّ أنه ماء كافور، ومعرفة غشّه أن يقطر المحتسب
منه شيئاً على خرقة بيضاء، ثم يغسلها، فإن علق فيها وأثر فهو مغشوش. بما ذكرناه فى
هذا الكتاب. ولا يتجاسر على عمله وبيعه إلا الغرباء الأعاجم، ومن يدور فى خلال
الدروب، فلا يهمل المحتسب الكشف عن ذلك كله، وإشهار فاعله بالتعزير على ما
تقدّم.

* * *

الباب التاسع عشر

فى الحسبة على الشَّرَابِيِّين^(١)

لا يعقد الأشربة ويركّب المعاجين والجوارشيات إلا من اشتهرت معرفته، وظهرت
خبرته، وكثرت تجربته، وشاهد تجريب العقاقير ومقاديرها من أربابها وأهل الخبرة بها،
ولا يركبها الشَّرَابِيُّ إلا من الكُنَاشَات المشهورة، والأقرباذينات المعروفة، مثل أقرباذين
سابور^(٢)، والملكى، والقانون، وغير ذلك مما يوثق به، وعليه أن يتقى الله عزَّ وجلَّ،
ويخشى اليوم الآخر من التهاون بها والتفريط بأوزانها، وأن يدخل عليها ما ينافيها
ويسلبها خاصيتها، مثل غسل القصب المدبّر بالبن الحليب والخلّ والإسفيداج، فإن هذا
يعمله كثير منهم، فيخرج صافى اللون، طيّب الطعم والرائحة، فيركّب منه الأشربة
والمعاجين بدلاً من السكر وغسل النحل، فيحلّقهم المحتسب أنهم لا يعملونه؛ لأنه يضرُّ،
ويحرف الأمزجة ويفسدها.

ومعرفة غشّه أنه لابدّ أن يرجع إلى السواد إذا أضيف إلى غيره من الأشربة، وتظهر
فيه رائحة الخلّ إذا مضت عليه مدّة، وأيضاً يطرح المحتسب منه شيئاً فى وسط الراحة،
ويقطر عليه الماء، ثم يحلّه بأصبعه، فإن العسل يبيضُ مثل الفانيد.

وينبغى أن يعتبر المحتسب عليهم الأشربة فى رأس كلّ شهر، فما وجد فيها حامضاً
لتطاول المدّة عليه ومتغيراً، فليس لصاحبه أن يعيده إلى الطبخ ثانياً، لفساد مزاجها،

(١) صناع الأشربة ويعرف حالياً بالصيدلى.

(٢) أى سابور بن سهل النصرانى، رئيس بيمارستان جنديسابور فى عهد الخليفة المقتدى بالله، توفى

سنة ٢٥٥هـ. انظر: طبقات الأطباء (١/١٦١).

وانحراف طبعها، سوى شراب الورد، وشراب البنفسج، فإن تغيّرهما يكون سريعاً، وردّهما إلى الطبخ يزيدهما قوة وبقاءً ونفعاً للمعدة. والسكنجيين البزوري، متى كان لونه مائلاً إلى السواد، فهو مغشوش بعسل القصب المذكور، وكذلك المعاجين، إذا تغيّرت في البراني وحمضت أو تنتت، تكون مغشوشة بما ذكرناه. وينبغي للصانع أن يقوّى عقد جميع الأشربة حتى يصير لها قوام، وإذا عقد من العناب شراباً قوّاه بكثرتة فيه؛ لأنه يزداد لطفي الدم. ومنهم من يعجن عكر الخلّ بدبس وشادوران، ثم يقرّصه وييعه على أنه عصارة برباريس.

* * *

الباب العشرون في الحسبة على السّمانين

يعتبر المحتسب عليهم المكايل والموازين والأرطال، على ما قدّمنا ذكره في بابه، ويُنهَوْنَ عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة، إذا اشتروا كلّ واحدة منها على انفرادها بسعر، وعن خلط عتيق التمر والزيبب بالجديد، وألاً يرشّوا الماء على التمر والزيبب ليرطّبه ويزيد في وزنه، وألاً يدهنوا الزيبب بالزيت، ليصفى لونه ويحسن منظره. ومنهم من يمزج العسل القصب بالماء الحارّ، ويرشّه على الرّطب، ومنهم من يغشّ الزيت وقت نفاقه بدهن القرطم، ومعرفة غشّه أنه إذا ترك على النار يكون له دخان عظيم يخنق.

ومنهم من يخلط الشيرج لوقته، ومنهم من يمزج الزيت الذي قد ترك فيه الجبن في الخوابي بالزيت الصافي، ومعرفة غشّه أنه يققع في السراج، وأيضاً يكون زفراً، وأكثرهم يغشّ الخلّ بالماء، ومعرفة غشّه أن الخالص إذا صُبّ منه شيء على الأرض نش^(١)، والمشوب بالماء لا ينشّ، وأيضاً إذا وُضعت فيه حشيشة الطحلب، فإنها تشرب الماء دون الخلّ. وكذلك اللبن المشوب بالماء إذا طرحت فيه هذه الحشيشة فصلت بين الماء واللبن، وأيضاً يعرف غشّ اللبن بالحليب بأن يغمس المحتسب فيه شعرة، ثم يخرجها، فإن لم يعلق عليها شيء من اللبن يكون مغشوشاً بالماء، وإن علق اللبن وتكوكب كان خالصاً.

ويعتبر المحتسب عليهم المخلّل على اختلاف أجناسه، إذا طرح عليه الكرج، فكلما كان مجسّه يابساً قوياً أعيد إلى الخلّ الثقيف، وكلما لان مجسّه رُمى به، فإنه قد فسد،

(١) النش: سماع الصوت للزيت أو السمن عند صبّه. انظر: اللسان (نش).

ومتى حمضت عندهم الكوامخ، يأمر المحتسب بإراققتها خارج البلد، فإنها لا تصلح بعد حمضها، وكلما تغَيَّرَ عندهم أو فسد ودوَّدَ شيء من الجبن المكسود فى الخوابى، والشحوم، والأدهان، فلا يجوز لهم بيعه؛ لما فيه من الضرر بالناس، وكذلك الكبر إذا دوَّدَ فى خوابيه.

وينبغى أن يمنعهم المحتسب من عمل المرئى المطبوخ على النار، فإنه يورث الجذام. ومنهم من يعمل مرئياً يبيعه من يومه، وهو أن يأخذ ربّ الخرنوب، أو غسل القصب، والكمون، والكرويا، والسماق، ويلتّ الجميع بدقيق الشعير، وهذا أيضاً كثير المضرة، فيمنعهم المحتسب من عمله. وقد يخلطون الأباير بعضها ببعض، ومنهم من يخلط الكراويا ببزور حشيشة يقال لها: عين الحية، تشبه الكراويا فى اللون، إلا أن حبّها أكبر قليلاً، ولا رائحة لها، فيعتبر المحتسب ذلك عليهم. وقد يغشّون الدبس البعلبكى بدقيق الحورى والكدان^(١)، ومعرفة غشّه أنه إذا جُعِلَ منه شيء فى الماء رسب الحورارى فى أسفل الإناء، وربما بقى للماء رغوة. وأكثرهم يمزجون العسل النحل بالماء، وعلامة غشّه أنه يبقى فى زمن الشتاء محبباً كالسميد، وفى زمن الصيف يكون مائعاً رقيقاً. ومنهم من يدقّ قشور الرمان ويغشّ بها الكركم، وقد يغشّون الحنا بالرمل والخطمى، ومعرفة غشّه ظاهرة. وقد يغشّون الزفت برماد القصب أو بالرمل، وكذلك يغشّون القار.

فصل

وينبغى أن تكون بضائعهم مصنوعة فى البرانى والقطارميز^(٢)؛ لئلاّ يصل إليها شيء من الذباب وهوامّ الأرض، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك، وإن وضعوها فى قفاف الخوص فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالمياز^(٣)، وتكون المذبة فى يده، يذبّ عن البضاعة بها الذباب. ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم، ويأمرهم بغسل مغارفهم وأنيتهم وأيديهم، ومسح موازينهم ومكاييلهم على ما ذكرناه. ويتفقد المحتسب أصحاب الحوانيت المنفردة فى الحارات و الدروب الخارجة عن الأسواق، ويعتبر عليهم بضائعهم وموازينهم فى كلّ أسبوع، على حين غفلة منهم، فإن أكثرهم يدلس بما ذكرناه.

* * *

(١) هو نوع من الحصى يؤخذ من التربة الصلبة.

(٢) هو عاء من الفخار قصير العنق واسع الفوهة.

(٣) مفردة مئزر: الثوب القصير الذى يستر الجسم من السرة إلى أسفل.

الباب الحادى والعشرون

فى الحسبة على البرّازين

وينبغى ألا يتجرّ فى البرّاز إلا من عرف أحكام البيع وعقود المعاملات، وما يحلّ له منها، وما يحرمّ عليه، وإلا وقع فى الشبهات، وارتكب المحظورات. وقد قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لا يتجرّ فى سوقنا إلا من تفقه فى دينه، وإلا أكل الربا، شاء أو أبى. وقد رأيتُ فى هذا الزمان أكثر باعة البرّاز فى الأسواق يفعلون فى بياعتهم ما لا يحلّ عمله، مما سنذكره إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك النّجش، وهو أن يزيد الرجل فى ثمن السلعة، ولا يريد الشراء، ليغترّ غيره، وهذا حرام؛ لأنّ النبى ﷺ نهى عن بيع النجش، روى أبو هريرة، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١).

ولا يزيد فى السلعة أكثر مما تساوى، ليغترّ بها الناس فيكون حراماً، ومن ذلك البيع على بيع أخيه، وهو أن يشتري الرجل سلعة بثمن معلوم بشرط الخيار، فيقول له رجل آخر: ردّها وأنا أبيعك خيراً منها بهذا الثمن، أو مثلها بدون هذا الثمن، فهذا الفعل أيضاً حرام؛ لأنّ النبى ﷺ قال: «لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه».

ومنهم من يسوم على سوم أخيه، وهو أن يشتري سلعة من رجل، فيقول له رجل آخر: أنا أعطيك أجود منها بهذا الثمن، أو مثلها بدون هذا الثمن، ثم يعرض عليه السلعة فيراها المشتري، وهذا أيضاً حرام؛ لقوله ﷺ: «لا يسوم الرجل على سوم أخيه». ومنهم من يقول للمشتري: بعتك هذا الثوب مثل ما باع به فلان ثوبه، أو بعتك هذه السلعة برقمها.

ومنهم من يقول للتاجر: بعتك هذا الثوب على أن تبيعنى ثوبك، أو بعتك هذا الثوب بعشرة دراهم نقداً، أو بعشرين نسيئة. ومنهم من يبيع السلعة إلى أجل مجهول، أو يبيعها على شرط مستقبل مجهول، وهو أن يقول: بعتك هذا الثوب إلى قدوم الحاج، أو

(١) رواه البخارى فى النكاح (١٠٥/٩) ح (٥١٤٢)، ومسلم فى النكاح (١٠٣٢/٢) ح (١٤١٢/٤٩).

إلى دراس الغلّة، أو على عطاء السلطان، وما أشبه ذلك. ومنهم من يشتري سلعة من تاجر مثله، ثم يبيعها لرجل آخر قبل القبض، فجميع ذلك حرام، لا يجوز لهم فعله؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه.

ولا يجوز بيع الملامسة، وهو أن يقول البائع للمشتري: إذا لمست الثوب بيدك ولم تشتريه لزمك البيع، ولا يجوز بيع المنابذة، وهو أن يقول البائع للمشتري: بعثك هذا الثوب الذى معى بالثوب الذى معك، فإذا نبذ كل واحد منهما ثوبه إلى الآخر فقد وجب البيع، ولا يجوز بيع الحصاة، وهو أن يقول البائع للمشتري: بعثك ما تقع عليه الحصاة من أرض أو ثوب، لما روى أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ نهى عن بيع الملامسة، والمنابذة، والحصاة، وأراد به ما ذكرناه.

فصل

ويعتبر المحتسب عليهم صدق القول فى أخبار الشراء، ومقدار رأس المال فى بيع المراجعة، فإن أكثرهم يفعلون ما لا يجوز، فمن ذلك أنّ أحدهم يشتري سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم، ثم يخبر برأس المال فى بيع المراجعة، وهذا لا يجوز؛ لأن الأجل يقابله قسط من الثمن. ومنهم من يشتري سلعة بثمن معلوم، فإذا انعقد العقد، وطلب البائع الثمن، نقصه المشتري منه شيئاً، وهذا لا يجوز بعد تمام العقد. ومنهم من يشتري سلعة بثمن معلوم، فإذا وجد بها عيباً، ورجع بالأرْش^(١) على بائعها، يخبر برأس مالها الذى اشتراها به أولاً من غير أرش.

ومنهم من يواطىء جاره أو غلامه، فيبيعه ثوباً بعشرة دراهم مثلاً، ثم يشتريه منه بخمسة عشر درهماً، ليخبر بها فى بيع المراجعة، ويقول: اشتريته بخمسة عشر درهماً، وجميع ذلك حرام لا يجوز، فإذا اشترى التاجر ثوباً بعشرة دراهم، ثم قصره بدرهم، وطرّزه بدرهم، ورفاه بدرهم، فإنه لا يقول: اشتريته بثلاثة عشر درهماً؛ لأنه يكون كاذباً، بل يقول: قام علىّ بثلاثة عشر درهماً، أو هو علىّ بثلاثة عشر درهماً، وإن كان هو الذى قصره وطرّزه ورفاه بنفسه، فإنه لا يقول: قام علىّ بثلاثة عشر درهماً؛ لأن عمل الإنسان لا يقوّم عليه، ولا يقول: رأسُ ماله ثلاثة عشر درهماً؛ لأنه يكون كاذباً، بل يقول: اشتريته بعشرة دراهم، وعملتُ فيه عملاً يساوى ثلاثة دراهم، فعلى

(١) أى الدية والخدش، ويُقصد به التعويض من البائع للمشتري لما كان من عيب وجد فى السلعة المشتراة. وانظر: بداية المجتهد (١٥١/٢).

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٢٤٧
المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما ذكرناه، وينهاهم عن فعل ذلك، ويتفقد موازينهم
وأذرعهم، ويمنعهم من شركة المنادى والدلال، ويراعى حسن معاملتهم مع المشتريين
وجلابى البضائع، وصدق القول فى جميع الأحوال.

* * *

الباب الثانى والعشرون

فى الحسبة على الدّالّين والمنادين

ينبغى أن يكونوا أحياناً ثقة، من أهل الدين والأمانة وصدق القول؛ لأنهم يتسلّمون
بضائع الناس، ويقلّدونهم الأمانة فى بيعها، ولا ينبغى لأحد منهم أن يزيد فى السلعة من
نفسه، ولا يكون شريكاً للبزّار، ولا يشتريها لنفسه، ولا يقبض ثمن السلعة من غير أن
يوكّله صاحبها فى القبض. ومنهم من يعمد إلى صناع البزّ والحاقة، ويعطيهم ذهباً على
سبيل القرض، ويشترط عليهم ألا يبيع لهم شيئاً من متاعهم إلا هو، وهذا حرام؛ لأنه
قرض جرّ منفعة. ومنهم من يشتري السلعة لنفسه، ويؤهم صاحبها أن بعض الناس
اشتراها منه، ويواطىء غيره على شرائها منه.

ومنهم من تكون السلعة له، فينادى عليها ويزيد فى ثمنها من عنده، ويؤهم الناس
أنها لبعض التجار. ومنهم من يكون بينه وبين البزّاز شرط ومواطأة على شىء معلوم من
الأجرة، فإذا قدم إلى البزّاز تاجر ومعه متاع، فإن البزّاز يستدعى ذلك المنادى لبيع
المتاع، فإذا فرغ البيع وأخذ الأجرة، أعطى البزّاز ما كان شرطه له وواطأه عليه، وهذا
حرام على البزّاز فعله. ومتى علم المنادى أن فى السلعة عيباً، وجب عليه أن يعلم
المشتري به، ويوقفه عليه، وعلى المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما قلناه، ويتفقد
أحوالهم فى ذلك.

* * *

الباب الثالث والعشرون

فى الحسبة على الحاقة^(١)

يجب على المحتسب أن يأمرهم بجودة عمل الشّقة وصلاحها، ونهاية طولها المتعارف
به، وعرضها، ودقة غزلها، وتنقيتها من القشرة السوداء بالحجر الأسود الخشن، ويمنعهم

(١) الحاقة: جمع حائك، وهو الذى ينسج الغزل قماشاً. انظر: اللسان: (حك).

من نثر الدقيق والجبصين المشوَّى عليها فى وقت نسجها، فإنه يستر وحاشتها، فتبين كأنها صفيقة الرقعة، وهذا تدليس على الناس، وإذا نسج أحدهم ثوباً من الهداب والجداد المعقود، فإنه يبيعه مفرداً عن الثياب، إلا كان تدليساً. ومنهم من ينسج وجه الشقة من الغزل الطيب المصطحب، ثم ينسج باقيها من الغزل الغليظ المعقد من الهداب، فيراعيهم العريف، ويعتبر عليهم ذلك.

وإذا أخذ أحدهم غزلاً لإنسان لينسجه له ثوباً، فيأخذه بالوزن، فإذا نسجه ثوباً غسله، ثم دفعه إلى صاحبه بالوزن، ليكون أنفى للتهمة عنه، فإذا ادعى صاحب الغزل أن الحائك أبدل غزله، عرضه المحتسب على العريف، فإن رجعا إلى قوله كان بها، وإلا حملها إلى حكم الشرع. ومنهم من يكون له على باب حانوته جرن من حجر يعرك شقته فيه، فإذا انصرف جاءت الكلاب وولغت فيه، فيكلفهم المحتسب أن يجعلوا لها أغطية من الخشب، أو يغسلوها كل يوم سبع مرات إحداهن بالتراب، عند الحاجة إليها، وينبغى أن يمنعهم من أن يمدوا شقاتهم فى طرقات المسلمين؛ لأنها تضر بالمارة، ومنعهم أيضاً من أن يلقوا الطعام الذى فيها من دقيق ونحوه تحت أقدام المسلمين، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع والعشرون

فى الحسبة على الخياطين

يؤمرون بجودة التفصيل، وحسن فتح الجيب، وسعة التخاريص، واعتدال الكمين والأطراف، واستواء الذيل، والأجود أن تكون الخياطة درزاً لا شلاً، والإبرة دقيقة، والخيط فى الحرم قصيراً؛ لأنه إذا طال انسلخ وانتقض فتله فيضعف، وأيضاً كلما نثر الخياط ضعف. وينبغى أن لا يفصل الخياط لأحد ثوباً له قيمة حتى يقدره، ثم يقطعه بعد ذلك، فإن كان ثوباً له قيمة كالحرير والديباج، فلا يأخذه إلا بعد أن يزنه، فإذا خاطه رده إلى صاحبه بذلك الوزن. ويعتبر المحتسب عليهم ما يسرقونه من أمتعة الناس، فمنهم من إذا خاط ثوباً حريراً ونحوه حشاه وقت كفه رملاً وأشراساً^(١)، ويسرق بقدره من الثوب إذا كان موزوناً عليه.

(١) نبات ذو ألياف، تطعن أصوله، ثم تغمر فى الماء، ويستخدم فى تجليد الكتب. انظر: المفردات

ويعنعهم أن يماطلوا الناس بخياطة أمتعتهم، باستضرارهم بالتردد إليهم، وحبس الأمتعة عنهم، ولا يتكلفون للناس عملاً أكثر من الأسبوع، إلا أن يشرطوا لصاحبه أكثر من ذلك، ولا يتعدون الشرط. وينبغى أن يُحلف المحتسب الرفائين أن لا يرفوا لأحد من القصار أو الدقاق ثوباً مخروفاً، إلا بحضرة صاحبه، ولا ينقل المطرّز أو الرقام رقم ثوب إلى ثوب يحضره إليه القصار أو الدقاق، فكثير منهم يفعلون ذلك بثياب الناس.

وأما صنّاع القلانيس، فيأمرهم المحتسب بعملها من الخرق الجديدة، وخيوط الإبرسيم، والكتان المصبوغ، ولا يعملونها من الخرق البالية المصبوغة، ويُقوّنوها بالأشراس والنّشا، فهذا تدليس، فيمنعهم من فعله وعمله.

* * *

الباب الخامس والعشرون فى الحسبة على القطنين

لا يخلطون جديد القطن بقديمه، ولا أحمره بأبيضه، وينبغى أن يُندف القطن ندفاً مكرّراً، حتى تطير منه القشرة السوداء والحبّ المكسور؛ لأنه إذا بقى فيه الحبّ ظهر فى وزنه، وإذا طُرح فى لحاف أو جبة أو قباء قرضه الفأر، ولا يخلطون الذى فى أسفل البسطة من الصفايا، وما يطير على الحيطان من القطن الصافى. ومنهم من يندف القطن الرديء الأحمر، ويجعله فى أسفل الكبة^(١)، ثم يعليه بالقطن الأبيض النقى، فلا يظهر إلا عند غزله. وينهاهم المحتسب أن يُجلسوا النسوان على أبواب حوانيتهن، لانتظار فراغ الندف، وينهاهم عن الحديث معهنّ، ولا يضعون القطن بعد ندفه فى المواضع الندية، فإن ذلك يزيد فى وزنه، فإذا جفّ نقص، وهذا تدليس يفعله الكلّ، فيمنعهم المحتسب من فعله، والله أعلم.

* * *

الباب السادس والعشرون فى الحسبة على الكتانين

أجود الكتان المصرى الجيزى، وأجوده الناعم المورق، وأردؤه القصير الخشن الذى ينقصف تحت الصدفة^(٢)، فلا يخلطون جيده برديئه، ولا الكتان النابلسى بالمصرى.

(١) الكبة: هو ما يخرج المغزل من الغزل فضلاً. انظر: المخصص (٢٥٩/١٢).

(٢) هى المحارة التى يُمحر لها. انظر: اللسان: (صدف).

٢٥٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

ومنهم من يخلط القنداس، هو ما يخرج من السرقة، بالكتان الناعم بعد مشطه، وجميع ذلك تدليس. ولا يتركون النسوان جلوساً على أبواب حوانيتهن، كما ذكرنا فى القطّانين، والله أعلم.

* * *

الباب السابع والعشرون

فى الحسبة على الحريرين

لا يصبغون القزّ قبل تبييضه؛ لئلا يتغير بعد ذلك، وقد يفعلونه حتى يزيد لهم، ومنهم من يثقل الحرير بالنشا المدبّر، ومنهم من يثقله بالسمن أو الزيت، ومنهم من يجعل فى ظهره عقداً من غيره، فيعتبر المحتسب عليهم جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن والعشرون

فى الحسبة على الصباغين

أكثر صباغى الحرير الأحمر، وغيره من الغزل والثياب، يصبغون فى حوانيتهن بالحنا عوضاً عن الفوة^(١)، فيخرج الصبغ حسناً مشرقاً، فإذا أصابته الشمس تغير لونه، وزال إشراقه. ومنهم من يدكّن الثياب بالعفص والزّاج، إذا أراد صبغها كحلياً، ثم يديها فى الحايية، فتخرج صافية اللون شديدة السواد، فإذا مضت عليها أقلّ مدّة تغير لونها، ونفض صبغها، وهذا كله تدليس، فيمنعهم المحتسب من فعله. وينبغى أن يكتبوا على ثياب الناس أسماءهم بالحبر؛ لئلا يتبدل منها شيء. وأكثر الصباغين والمرندجين^(٢) إذا كان فى أيام المواسم والأعياد، وغيرها من الأفراح، يغيرون ثياب الناس، ويكرّونها بالأجرة لمن يلبسها فى ذلك اليوم ويزيّن بها. وهذه خيانة وعدوان، فيمنعهم المحتسب من فعله، ويعتبر عليهم ما يفعلونه ويغشّون به الصبغ، ويعرض ذلك على عرفهم، والله أعلم.

* * *

(١) الفوة: Rubia: تزرع فى برّ الشام، وفى فرنسا وغيرهما من أعمال أوربا، وتستعمل جذورها

لصبغ اللون الأحمر. وانظر: مبادئ علم النبات لجورج بوست (ص ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُقصد به صابغى الملابس باللون الأسود؛ لاستخدام مادة اليرندج، وهو الزاج.

الباب التاسع والعشرون في الحسبة على الأساكفة

لا يُكثرون حشو الخرق البالية فيما بين البشتيك والبطانة، ولا بين النعل والظّهارة، ويشدون حشو الأعقاب، ولا يشدون نعلًا قد أحرقتة الدباغة، ولا فطيرًا لم ينضج، ولا أدائمًا بهذه الصفة. وينبغي أن يحكموا إبرام الخيط، ولا يطولونه أكثر من ذراع؛ لأنه إذا طال أكثر من ذلك انسحج، فانتقض إبرامه، وضعف عن الجذب. ولا يخرزون بشعر الخنزير، بل يجعلون عوضه ليفًا أو شارب الثعلب، فإنه يقوم مقامه. ولا يعطلون أحدًا بمتاعه، إلا أن يشرطوا لصاحبه إلى يوم معلوم، فإنّ الناس يتضرّرون بالتردد إليهم، وبجس الأمتعة عنهم. ولا يعملون الورق والبلد وأشباهه في أخفاف النسوان، لكي تصرّ عند المشي، كما يفعله نساء بغداد، فإنه قبيح، وشهرة لا تليق للأحرار؛ فيمنع المحتسب من عمله ولبسه، والله أعلم.

* * *

الباب الثلاثون

في الحسبة على الصيارف

التعيش بالصرف خطر على دين متعاطيه، بل لا بقاء للدين معه إذا كان الصيرفي جاهلاً بالشرعية، غير عالم بأحكام الربا، فالواجب ألا يتعاطاه أحد إلا بعد معرفته بالشرع؛ ليتجنب الوقوع في المحذور من أبوابه. وعلى المحتسب أن يتفقد سوقهم، ويتجسس عليهم، فإن عثر بمن رابى، أو فعل في الصرف ما لا يجوز في الشرعية، عزّره وأقامه من السوق. هذا بعد أن يعرفهم بأصول مسائل الربا، وأنه لا يجوز لأحد أن يبيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، إلا مثلًا بمثل، يدًا بيد، فإن أخذ الصيرفي زيادةً على المثل، أو تفرقًا قبل القبض، كان ذلك حرامًا.

وأما بيع الذهب بالفضة، فيجوز فيه التفاضل، ويحرّم فيه النسا والتفرق قبل القبض، ولا يجوز بيع الخالص بالمغشوش، ولا بيع المغشوش بالمغشوش من الذهب والفضة، كبيع الدنانير المصرية بالدنانير الصورية، أو الصورية بالصورية، أو الدراهم الأحدية بالدراهم القروية، لوجود الجهل بمقدارها، وعدم التماثل بينها، ولا يجوز بيع دينار صحيح بدینار قراضة، لاختلاف قيمتها، ولا دينار قاشاني بدینار سابوری، لاختلاف صفتها، ولا يجوز بيع دينار وثوب بدینارين. وقد يفعله بعض الصيارف والبزازين على غير هذا

٢٥٢ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

الوجه، فيعطى المشتري ديناراً ويجعله قرضاً، ثم يبيعه ثوباً بدينارين، فيصير له عنده ثلاثة دنانير إلى أجل معلوم، ويُشَهد عليه بجملتها، وهذا حرام أيضاً، لا يجوز فعله بهذا الشرط؛ لأنه قرض جرّ منفعة، ولو أنه لم يقرضه الدينار لما اشترى منه الثوب بدينارين.

ومنهم أيضاً من يشتري الدنانير بدراهم فضة، أو بالقرطيس الإفرنجية، ثم يقول للبائع: أجل بها على غريمك لك، لتبرأ أنت من نقدها ووزنها، أو استجرّها من عندي قليلاً قليلاً، فيوافق على هذا الفعل لفرط جهله، وهذا كلّه حرام لا يجوز فعله، فعلى المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما ذكرناه، وما لم نذكره من هذا الباب، وقد ذكروا أنّ وزن الأربعة مثاقيل إذا فُرقت نقصت نقصاً بيناً، ولهذا كثير من الصيارف يكره قبضها لنفسه، وإذا كان لأحدٍ عليه أكثر من أربعة دنانير، فإنه يدفع إليه أربعة، ويعده بقبض الباقي فى وقت آخر، أما اعتبار موازينهم وصنجمهم، فقد سبق ذكره، والله أعلم.

* * *

الباب الحادى والثلاثون

فى الحسبة على الصّاعة

يجب ألا يبيعوا أوانى الذهب والفضة والحلى المصنوعة إلا بغير جنسها، ليحلّ فيها التفاضل، وإن باعها الصائغ بجنسها حُرّم فيه التفاضل والنسا والتفرّق قبل القبض، بما ذكرناه فى باب الصرف، فإن باع شيئاً من الحلى المغشوشة، لزمه أن يعرف المشتري مقدار ما فيها من الغشّ، ليدخل على بصيرة، وإذا أراد صياغة شىء من الحلى لأحد، فلا يسبكه فى الكور إلا بحضرة صاحبه، بعد تحقيق وزنه، فإذا فرغ من سبكه أعاد الوزن، وإن احتاج إلى لحام، فإنه يزنه قبل إدخاله فيه، ولا يركّب شيئاً من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلى إلا بعد وزنها بحضرة صاحبها.

وبالجملّة إنّ تدليس الصّاعة وغشوشهم خفيّة لا تكاد تعرف، ولا يصدّهم عن ذلك إلا أمانتهم ودينهم، فإنهم يعرفون من الجلاوات والأصباغ ما لا يعرفه غيرهم، فمنهم من يصبغ الفضة صبغاً لا يفارق الجسد إلا بعد السبك الطويل فى الروباص، ثم يمزجون بها الذهب للواحد اثنين، فمن ذلك صفة تصفيره، يؤخذ ساذنج قد شويت ودهنت على الانفراد، وراسخت قد شوى بماء المرنج^(١) المدبّر سبع مرّات، وزاج وزنجفر^(٢)

(١) نوع من العود. انظر: المخصص (١٩٩/١١).

(٢) هو حجر الزئبق، ويصنع من الكبريت والزئبق معاً. انظر: مفاتيح العلوم (ص ١٤٩).

مشويان بماء العقاب المحلول فى القارورة، ثم يجمع بين الجميع فى السحق بعد ذلك، ثم يُشوى قدحان بماء المرنج المذكور سبع مرّات، ثم بماء العقاب المحلول سبع مرّات، فإنه ينعقد حجرًا أحمر مثل الدم، يلقى منه درهم على عشرة دراهم قمر يرده شمسًا فى عيار ستة عشر، فإن حُلّ هذا الحجرُ الأكسيرُ الأحمرُ، ثم عُقد صار القمر فى عيار عشرين، يفرغ منه دنانير تُعمل منه، ويُعمل منه مصاغًا.

ومنهم من يأخذ راسخت يشويه بمرارة البقر سبعًا، ثم يضيفه إلى مثله ذهبًا مكلسًا بصفرة الكبريت المستخرجة بالجير والقلّى، ثم يشوى الجميع بماء العقاب المحلول سبعًا، ثم يدهنه بدهن زعفران الطور سبعًا، فإنه ينعقد حجرًا مثل الأوّل، فإن حَلَّه وعقده صار أبلغ من الأوّل، يقارب المعدنى، والمُلَقَى منه قيراط على درهم قمر. وقد يعملون من الطبّخات والجلالات أشياء يطول شرحها، ولولا أنى أخاف أن يطلّع على هذا السرّ من لا دين له، لأوضحت منه جملاً كثيرة، لا يهتدى إليها كثير من الصاغة، فيجب على كلّ مسلم مراقبة الله عزّ وجلّ، ولا يزغل على المسلمين شيئًا بهذا ولا بغيره، فإنّ عشر المحتسب بأحدٍ يفعل هذا عزّره وأشهره، كما سبق بيانه فى موضعه.

وأما تراب دكاكين الصاغة ورمادها، فلا يجوز بيعه إلا بالفلوس، أو بعرض من غير الفلوس، فإنه لا يخلو من ذهب وفضة يكون فيه، فيؤدى إلى الربا، والله أعلم.

* * *

الباب الثانى والثلاثون

فى الحسبة على النحاسين والحدادين

لا يجوز لهم أن يمزجوا النحاس بالحيق الذى يخرج للصاغة وسبّاكى الفضة عند السبك، فإنه يصلّب النحاس ويزيده ييسًا، فإذا أُفْرِغ منه طاسة أو هاون انكسر سريعًا مثل الزجاج، وينبغى ألا يمزجوا النحاس المكسور من الأوانى وغيرها بالنحاس المعدنى الذى لم يستعمل، بل يُسبك كلّ واحد منهما على انفراده، ويُعمل منفردًا.

فصل

أما الحدّادون، فلا يضربون سكيناً، ولا مقراضاً، ولا مخضفاً^(١)، وما أشبه ذلك، من الأرمهان، ويبيعونه على أنه فولاذ، فإنّ ذلك تدليس، ولا يخلطون المسامير الرجعية المطرّقة بالمسامير الجديدة الضرب، ولا يعملون إلا الفولاذ المصفى للسكين والمقصّ والموسى، والله أعلم.

* * *

الباب الثالث والثلاثون

في الحسبة على البيطرة

البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة في كتبهم، ووضعوا فيها تصانيف كثيرة، وهى أصعب علاجاً من أمراض الآدميين؛ لأن الدوابّ ليس لها نطق تعبّر به عما تجد من المرض والألم، وإنما يستدلّ على عللها بالجنس والنظر، فيفتقر البيطار إلى حذق وبصيرة بعلل الدوابّ وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصدّه عن التهجّم على الدوابّ بفصد أو قطع أو كى، وما أشبه ذلك بغير خبرة، فيؤدى إلى هلاك الدابة أو عطبها.

فصل

وينبغى للبيطار أن ينظر إلى رسغ الدابة، ويعتبر حافرها قبل تقليمه، فإن كان أحنف^(٢) أو مائلاً، نَسَف من الجانب الآخر قدرًا يحصل به الاعتدال، وإن كانت يد الدابة قائمة، جعل المسامير المؤخّرة صغاراً والمقدّمة كباراً، وإن كانت يدها بالضدّ من ذلك صغر المقدّمة وكبر المؤخّرة. ولا يبالغ البيطار فى نسف الحافر فتغمس الدابة، ولا يرخى المسامير فيتحرّك النعل، ويدخل تحته الحصى والرمل فترهص^(٣) الدابة، ولا ينبغى له أن يشدّها قوياً على الحافر فتزمن الدابة.

واعلم أنّ النعل المطرّقة ألزم للحافر، واللينة أثبت للمسامير الصلبة، والمسامير الدقيقة خير من الغليظة، وإذا احتاجت الدابة إلى فتح عرق أخذ البيطار المبضع بين إصبعيه،

(١) المخصف: هو المخرز الذى تثقب به النعال من الجلد، وغيره من الأشياء السميكة، وهو من أدوات التزيين.

(٢) الحنف: حافر الدابة مائلاً إلى الداخل . انظر: صبح الأعشى (٢/٢٨).

(٣) الرهصة: وجع يصيب حافر الدابة بسبب حجر أو ما شابه، يدخل بين النعل والحافر، فلا تطيق الدابة وضع حافرها على الأرض كاملاً.

وجعل نصابه في راحته، وأخرج من رأسه مقدار نصف ظفر، ثم فتح العرق تعليقاً إلى فوقى بخفة ورفق، ولا يضرب البيطار العرق حتى يجسّه بإصبعه، سيماً عروق الأوداج، فإنها خطيرة لمجاورتها المرى، فإن أراد أن يفتح شيئاً من عروق الأوداج خنق الدابة خنقاً شديداً، حتى تبدّر عروق الأوداج، فيتمكّن حينئذ مما أراد.

فصل

وينبغي أن يكون البيطار خبيراً بعِلل الدوابّ، ومعرفة ما تحتاج إليه، وما يحدث فيها من العيوب، فيرجع الناس إليه إذا اختلفوا في عيب الدابة، وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدوابّ ثلاثمائة وعشرون علّة، منها: الخناق^(١)، والخنان^(٢)، الرطب، والخنان اليابس، والجنون، وفساد الدماغ، والصّداع، والحر، والنّفخة، والورم، والمرّة الهائجة، والدّية، والخشام، ووجع الكبد، ووجع القلب، والدود في البطن، والمغل، والمغس، وريح السّوس، والقضاع، والصّدام، والسعال البارد، والسعال الحار، وانفجار الدم من الدبر والذّكر، والبحل، والحلق، وعسر البول، ووجع المفاصل، والرّهضة، والدّخس، والدّاحس، والنّملة، والنّكب، والخلد، واللّقوة، والماء الحادث في العين، والمياخونة، ورخاوة الأذنين، والضّرّس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

ويفتقر البيطار إلى تحصيل معرفة علاجه، وسبب حدوث هذه العلل، فمنها ما إذا حدث في الدابة صار عيباً دائماً، ومنها ما لم يصّر عيباً دائماً، ولولا التطويل لشرحت من ذلك جُملاً وتفصيلاً، فلا يهمل المحتسب امتحان البيطار بما ذكرناه، ومراعاة فعله بدوابّ الناس، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع والثلاثون

في الحسبة على نخّاسي العبيد والدّواب

يكون النخّاس^(٣) ثقة، أميناً، عادلاً، مشهوراً بالعِفّة والصّيانة؛ لأنه يتسلّم جوارى الناس وغلمانهم، وربما اختلى بهم في منزله، وينبغي ألاّ يبيع النخّاس لأحد جارية ولا

(١) هو ضيق في البلعوم. انظر: مفاتيح العلوم (ص ٩٧).

(٢) هو داء يُصاب به الدواب، فيكون سبباً للفيح من المنخرين، والدموع من العينين. انظر: البيطرة لابن الأحنف (ص ١٧٣).

(٣) بائع البهائم والحُمير، والدواب عمومًا، وكذلك العبيد.

عبدًا حتى يعرف البائع، أو يأتى بمن يعرفه، ويكتب اسمه وصفته فى دفتره؛ لئلا يكون المبيع حرًا أو مسروقًا، ومن أراد شراء جارية، جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فإن طلب استعراضها فى منزله والخلوة بها، فلا يُمكنه النَّخَاس من ذلك، إلّا أن يكون عنده نساء فى منزله، فينظرون جميع بدنهن، ومن أراد شراء غلام، فله أن ينظر منه إلى ما فوق السُّرَّة ودون الركبة، هذا كلّ قبل عقد البيع، فأما بعده، فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية.

ولا يجوز أن يفرّق بين الجارية وولدها قبل سبع سنين، ولا يجوز بيع الجارية أو المملوك إذا كانا مسلمين لأحد من أهل الذمّة، إلّا أن يعلم النَّخَاس يقينًا أن المملوك ليس بمسلم، ومتى علم أنّ بالمبيع عيبًا، وجب عليه بيانه للمشتري، كما ذكرنا فى أوّل الكتاب.

فصل

وينبغى أن يكون النَّخَاس بصيرًا بالعيوب، خبيرًا بابتداء العلل والأمراض، فإذا أراد بيع غلام، نظر إلى جميع جسده، سوى عورته قبل بيعه، ويعتبر ذلك لئلا يكون فيه عيب أو علة فيخبر به المشتري، فأوّل ما ينظر إلى وجهه، فإن كان مائل اللون إلى الصفرة أو الغبرة، دلّ ذلك على مرض أو علة فى الكبد أو الطحال أو البواسير، بما يطلع عليه من ذلك، وينبغى للدلال ألاّ يبيع دابة حتى يعرف البائع أو يأتى بمن يعرفه، ويكتب اسمه فى دفتره كما قلنا أولاً؛ لئلا تكون الدابة معيبة أو مسروقة، والله أعلم.

* * *

الباب الخامس والثلاثون

فى الحسبة على الحمامات وقومتها

قد ذكرنا فى هذا الباب، وفى الذى قبله، أشياء ليست من قبيل الحسبة، وإنما ذكرناها لعموم الانتفاع معرفتها، وهى لائقة بهذا المكان، ولعمري إن الحكمة ضالة كلّ حكيّم، والفائدة حسنة حيث وُجدت. قال بعض الحكماء: خير الحمامات ما قدّم بناؤه، واتّسع هواؤه، وعذب ماؤه، وقدر الأتّان وقوده بقدر مزاج من أراد وروده. واعلم أن الفعل الطبيعى للحمام هو التسخين بهوائه، والترطيب بمائه، فالبيت الأول مبرّد مرطّب، والبيت الثانى مسخّن مرخّ، والبيت الثالث مسخّن مجفّف.

والحمام يشتمل على منافع ومضارّ، فأما منافعها: فتوسيع المسام، واستفراغ

الفضلات، وهى تحلل الرياح، وتجبس الطبع إذا كانت سهولته عن هيضة، وتُنظف الوسخ والعرق، وتذهب الحكّة والجرب والإعياء، وترطب البدن، وتُجود الهضم، وتُنضج النزلات والزكام، وتنفع من حمى يوم، ومن حمى الدق والرّبع بعد نضج خلطها، وأما مضارّها، فإنها: تُرخي الجسد، وتُضعف الحرارة عند طول المُقام فيها، وتُسقط شهوة الطّعام، وتُضعف الباه، وأعظم مضارّها صبّ الماء الحارّ على الأعضاء الضّعیفة.

وقد تُستعمل الحَمّام على الرّيق والخُلُو، فتُجفّف تجفیفاً شديداً، وتهزل البدن وتُضعفه، وقد تُستعمل الحَمّام على قُرْب عهد بالشّبع، فتُسَمّن البدن، إلّا أنها تُحدث سداً، وأجود ما استعمل الحَمّام على الشّبع بعد الهضم الأول، فإنه يُرطب البدن ويسمنه، ويُحسّن بشرته.

فصل

وينبغى أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمام، وكنسها، وتنظيفها بالماء الطاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك مراراً فى اليوم، ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة؛ لئلا يتعلّق به السّدر، والخطمى، والصابون، فتنزلق أرجل الناس عليها، ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة فى مجاريها، والعكر الراكد فى أسفلها فى كلّ شهر مرّة؛ لأنها إن تركت أكثر من ذلك تغيّر الماء فيها فى الطعم والرائحة.

وإذا أراد القيم الصّعود إلى الخزانة لفتح الماء إلى الأحواض، فينبغى أن يغسل رجليه بالماء ثمّ يصعد؛ لئلا يكون قد خاض فى الغسالات، ولا يسدّ الأنابيب بشعر المشّاطة، بل يسدها بالليف والخرق الطاهرة، ليخرج من الخلاف، ويشعل فيها البخور فى كلّ يوم مرتين، سيّما إذا شرع فى غسلها وكنسها، ومتى بردت الحَمّام، فينبغى أن ييخّرها القيم بالخزّامى، فإنّ دخانها يُحمّى هواءها، ويطيّب رائحتها، ولا يجبس ماء الغسالات فى مسيل الحَمّام؛ لئلا تفوح رائحتها، ولا يدع الأساكفة وغيرهم يصبغون الجلود فى الحمام، فإنّ الناس يتضرّرون برائحة الدباغة، ولا يجوز أن يدخل المجذوم والأبرص إلى الحمام.

وينبغى أن يكون للحَمّامى ميازر يؤجّرها للناس، أو يعيرها لهم، فإنّ الغرباء والضعفاء قد يحتاجون إلى ذلك، ويأمرهم المحتسب بفتح الحَمّام فى السّحر، لحاجة الناس إليها للتّطهر فيها قبل وقت الصلاة، ويلزم النّاظر حفظ ثياب الناس، فإنّ ضاع منها شىء لزمه ضمانه، على الصحيح من مذهب الشافعى، رضى الله عنه.

فصل

ويكون المزّين، وهو البلاء، خفيفاً، رقيقاً، بصيراً بالحلاقة، ويكون حديده رطباً قاطعاً، ولا يستقبل الرأسَ ومنابت الشعر استقبالاً، ولا يأكل المزّين ما يُغَيِّر نكهته، كالبصل، والثوم، والكرّاث، واشباه ذلك؛ لئلاً يتضرّر الناس برائحة فيه عند الحلاقة. وينبغي أن يخلق الجبين، والصدّغين، على ما يليق بالحال، ولا يخلق شعر صبيّ إلا بإذن وليّه، ولا يخلق عذار أمرد ولا لحية مخنث، ويأمر المحتسبُ المدلّك أن يدلّك يده بقشور الرمان، لتصير خشنة، فتخرج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان، ويُمْنَع من دلك الباقل والعُرس في الحمام؛ لأنّ ذلك طعام، فلا يجوز أن يمتهن.

فصل

ويلزم المحتسب أن يتفقّد الحمام في كلّ يوم مراراً، ويعتبر ما ذكرناه، وإن رأى أحداً قد كشف عورته عزّره على كشفها؛ لأنّ كشف العورة حرام، وقد لعن رسول الله ﷺ الناظر والمنظور إليه، والله أعلم.

* * *

الباب السادس والثلاثون

في الحسبة على الفصّادين والحجّامين

لا يتصدّى للفصد^(١) إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء، والعروق، والعضل، والشرابين، وأحاط بمعرفة تركيبها وكيفيتها؛ لئلا يقع المبضع في عرق غير مقصود، أو في عضلة أو شريان، فيؤدّي إلى زمانة العضو وهلاك المقصود، فكثير هلك من ذلك. ومن أراد تعلّم الفصد، فليُدمن فصد ورق السلق، أعنى العروق التي في الورقة، حتى تستقيم يده، وينبغي للفصّاد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مهينة، تُكسب أنامله صلابةً وعسر حسّ، لا يتأتّى معها نبش العروق، وأن يراعى بصره بالأكحال المُقوِّية له والأيارجات، إن كان ممن يحتاج إليها، وألّا يفصد عبداً إلا بإذن مولاه، ولا صبيّاً إلا بإذن وليّه، ولا حاملاً ولا طامناً، وألّا يفصد إلا في مكان مضىء، وبآلة ماضية، وألّا يفصد وهو منزعج الجنان.

(١) راجع في الفصد: الذخيرة في الطب لابن قرة، ومختصر تذكرة السويدي، والتذكرة في الطب والحكمة للقيلوبي، ومختصر الرحمة في الطب والحكمة للصنيرى، والمفيد في الطب، ومجمع الفوائد البدنية، كلها بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية - بيروت.

وبالجملة ينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم العهد والميثاق ألا يفصدوا فى عشرة أمزجة، وليحذروا فيها حذرًا، إلا بعد مشاورة الأطباء، وهى: فى السن القاصر عن الرابع عشر، وفى سن الشيخوخة، وفى الأبدان الشديدة القضاة، وفى الأبدان الشديدة السمن، وفى الأبدان المتخلخلة، وفى الأبدان البيض المرهلة، وفى الأبدان الصفر العديمة الدم، وفى الأبدان التى طالت بها الأمراض، وفى المزاج الشديد البرد، وعند الوجع الشديد، فهذه الأحوال يجب أن يُكشف على الفاصد عند وجودها.

وقد نهت الأطباء عن الفصد فى خمسة أحوال أيضًا، ولكن مضرته دون مضرة العشرة المتقدم ذكرها، فالحالة الأولى الفصد عقيب الجماع، وبعد الاستحمام المحلل، وفى حال الامتلاء من الطعام، وفى حالة امتلاء المعدة والأمعاء من الثقل، وفى حالة شدة البرد والحر، فهذه أحوال يتوقى الفصد فيها أيضًا.

واعلم أن الفصد له وقتان: وقت اختيار، ووقت اضطرار، فأما وقت الاختيار، فهو ضحوة نهار بعد تمام الهضم والنقص، وأما وقت الاضطرار، فهو الوقت الموجب الذى لا يتسع تأخير، ولا يلتفت فيه إلى سبب مانع. وينبغى للمفتصد ألا يمتلىء من الطعام بعده، بل يتدرج فى الغذاء ويُلطّفه، ولا يرتاض بعده، بل يميل إلى الاستلقاء، ويحذر النوم عقيب الفصد، فإنه يحدث انكسارًا فى الأعضاء، ومن افتصد وتورمت عليه اليد، افتصد فى اليد الأخرى بمقدار الاحتمال.

فصل

ينبغى أن يكون مع الفاصد مباحض كثيرة، من ذوات الشعيرة وغيرها، وأن يكون معه كبة من حرير أو خز، أو شيء من آلة القىء، من خشب أو ريش، وينبغى أن يكون معه وبر الأرنب، ودواء الصبر والكندر، وصفته أن يؤخذ من الكندر، والصبر، والمر، ودم الأخوين، من كل واحد جزء، ومن القلقطار^(١) والزجاج من كل واحد نصف جزء، ويجمع الجميع، ويعمل كالمرهم، ويرفعه الفاصد عنده لوقت الحاجة إليه.

وينبغى أن يكون معه نافجة مسك وأقراص المسك، ويعتد بجميع ما ذكرناه، حتى إذا عرض للمفصود غشي بادر فألقم الموضع كبة الحرير، وألقمه بآلة القىء، وشممه النافجة، وجرعه من أقراص المسك شيئًا، فتتغش قوته بذلك. وإن حدث فتوق دم من

(١) هو نوع من الزجاج. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (١/٥٩٥).

٢٦٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

عرق أو شريان، حشاه الفاصد بوبر الأرنب، ودواء الكندر المذكور^(١)، ولا يضرب الفاصد بمبضع كالّ، فإنه كبير المضرة؛ لأنه يخطئ، فلا يلحق العرق، فيورم ويوجع.

وليُمسح رأس مبضعه بالزيت، فإنه لا يوجع عند البضع، غير أنه لا يلتحم سريعاً، وإذا أخذ المبضع فليأخذه بالإبهام والوسطى، ويترك السبابة للحس، ويكون الأخذ على نصف المبضع، ولا يكون فوق ذلك، فيكون التمكن منه مضطرباً، ولا يدفع المبضع باليد غمزاً، بل يدفع بالاختلاس، ليوصل طرف المبضع حشو العروق.

ولم أرَ فى صناعة الفصد أحذق من رجلين رأيتهما بمدينة حلب، افتخر كل واحد منهما على صاحبه بالحدق، فأما أحدهما، فإنه لبس غلالة، وشدّ يده من فوق الغلالة، وانغمس فى بركة، ثم فصد يده فى قاع الماء من فوق الغلالة، وأما الآخر فمسك المبضع بإبهام رجله اليسرى، ثم فصد يده.

واعلم أنه ينبغي أن يُوسّع الفاصد البضع فى الشتاء؛ لئلا يجمد الدم، ويُضيّق فى الصيف؛ لئلا يسرع إلى الغشى، وتثنية الفصد تحفظ قوة المقصود، فمن أرادها فى يومه، فليشّق العرق مورّباً؛ لئلا يلتحم سريعاً، وأجود الثنية ما أخر يومين أو ثلاثة، ومتى تغيّر لون الدم، أو حدث غشى وضعف فى النبض، فليبادر الفاصد إلى شدّ العرق ومسكه.

فصل

واعلم أن العروق المفصودة كثيرة، منها عروق فى الرأس، وعروق فى اليدين، وعروق فى البدن، وعروق فى الرجلين، وعروق فى الشرايين، فيمتحنهم المحتسب بمعرفتها، وبما يجاورها من العضل والشرايين، وسأذكر ما أشتهر منها: أما عروق الرأس المفصودة، فعرق الجبهة، وهو المنتصب ما بين الحاجبين، وفصده ينفع من ثقل العينين والصداع الدائم، ومنها العرق الذى فوق الهامة، وفصده ينفع من الشقيقة^(٢) وقروح الرأس، ومنها العرقان الموليّان على الصدغين، وفصدهما ينفع من الرمد، والدّمة، وجرب الأجناف وبثورها، ومنها عرقان خلف الأذنين، يُفصدان لقطع النسل، فيحلّفهم

(١) الكندر: هو لبان الذكر، ويُعبر عنه باللسان الشجرى، أو الشجرى، مضغه يزيل ثقل اللسان، وأجوده ما يرد من بلاد اليونان، ومن شأنه أنه سريع الاحتراق، يحبس القيء، وقشاره يقوى المعدة ويشدها وينفع من الدوستاريا، ويمنع انتشار القروح الخبيثة فى المقعدة إذا اتخذت منه فتائل. انظر: تحفة ابن البيطار (ص ٢٢٤) بتحقيقنا.

(٢) ألم يحدث فى الرأس، وقيل: نوع من الصداع.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٢٦١
المحتسب ألا يفصدوا واحداً فيهما؛ لأن ذلك يقطع النسل، وقطع النسل حرام، ومنها
عروق الشفة، وفصدها ينفع من قروح الفم، والقلاع^(١)، وأوجاع اللثة وأورامها، ومنها
العروق التي تحت اللسان، وفصدها ينفع من الخوانيق، وأورام اللوزتين.

فصل

وأما عروق اليدين فسته، وهى: القيفال، والأكل، والباسليق، وحبل الذراع،
والأسيلم^(٢)، والإبطى، وهو شعبة من الباسليق، وأسلم هذه العروق القيفال. وينبغى
على الفاصد أن يُنحَى فى فصده عن رأس العضلة إلى موضع لّين، ويوسع بضعه إن أراد
أن يُشْتَى. وأما الأكل، ففي فصده خطر عظيم، لأجل العضلة التي تحته، فربما وقعت
بين عصبتين، وربما كان فوقها عصبه دقيقة مدورة كالوتر، فيجب على الفاصد أن
يعرف ذلك ويتجنبه فى حال الفصد، ويحتاط أن تصيبه الضربة، فيحدث منها خدر
مزم. وأما الباسليق، فعظيم الخطر أيضاً، لوقوع الشريان تحته، فيجب على الفاصد أن
يحتاط لذلك، فإن الشريان إذا يضع لم يرقأ دمه. وأما الأسيلم، فالأصوب أن يُفصد
طولاً، وحبل الذراع يُفصد مورباً، وكلما انحدر الفاصد فى فصد الباسليق إلى الذراع
كان أسلم.

فصل

وأما عروق البدن، فعرقان على البطن، أحدهما موضوع على الكبد، والآخر
موضوع على الطحال، و ينفع فصد الأيمن منهما للاستسقاء، والأيسر ينفع للطحال.

فصل

وأما عروق الرجلين، فأربعة، منها عرق النساء، ويُفصد عند الجانب الوحشى من
الكعب، فإن خفى فلتفصد الشعبة التي بين الخنصر والبنصر من القدم، ومنفعة ذلك
عظيمة، سيما فى النقرس والدوالى، وداء الفيل. ومنها عرق الصافن، وهو على الجانب
الأيسر من الساق، وهو أظهر من عرق النساء، وفصده ينفع من البواسير، ويدرّ الطمّث،
وينفع الأعضاء التي تحت الكبد. ومنها عرق مأبض تحت الركبة، وهو مثل الصافن فى
النفع. ومنها العرق الذى خلف العرقوب، وكأنه شعبة من الصافن، ومنفعة فصده مثل
الصافن.

(١) القلاع: بثور تحدث فى الفم واللسان. انظر: مفتاح العلوم (ص ٩٧).

(٢) عرق بين الخنصر والبنصر، وهو من شعب الباسليق المتقدم ذكره. انظر: مفاتيح العلوم

(ص ٩٣)، والتصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوى (٢/٤٦٠).

فصل

وأما العروق والشرابين المفصودة في الغالب، ويجوز فصدها، فهي الصغار والبعيدة من القلب، فإن هذه التي يرقأ دمها إذا فصدت. وأما الشرايين الكبار القريبة الوضع من القلب، فإنه لا يرقأ دمها إذا فصدت، والتي يجوز فصدها منها، على الأكثر، شريان الصدغين، والشريانان اللذان بين الإبهام والسبابة، وقد أمر جالينوس بفصدها في المنام.

فصل

والحِجَامَةُ^(١) عظيمة المنفعة، وهي أقلّ خطراً من الفِصَادَة، وينبغي أن يكون الحِجَامُ خفيفاً، رقيقاً، خبيراً بالصناعة، فيخفّ يده في الشروط ويستعجل، ثم يُعلّق المحجمة، وتكون التعليقة الأولى خفيفة سريعة القلع، ثم يتدرّج إلى القلع بإبطاء وإمهال، وينبغي للمحتسب أن يمتحن الحِجَامَ بورقة يلصقها على آجرة، ثم يأمره بشرطها، فإن نفذ الشرط كان ثقیل اليد، سىء الصناعة، وعلامة حذق الحِجَام خفة يده، وألاً يوجع المحجوم.

فصل

وقد ذكرت الحكماء أنّ الحِجَامَة تُكره في أوّل الشهر وفي آخره؛ لأنّ الأخلاط في أوّل الشهر لا تكون قد تحرّكت ولا هاجت، وفي آخره تكون قد نقصت، فلا تفيد الحِجَامَة شيئاً، وإنما تستحبّ الحِجَامَة وسط الشهر، إذا تكامل النور في جرم القمر؛ لأنّ الأخلاط تكون هائجة، وتكون الأدمغة زائدة في الإقحاف، وأفضل أوقات الحِجَامَة الساعة الثانية والثالثة من النهار.

فصل

وأما منافع الحِجَامَة، فإنها على النقرة خليفة فصد الأكحل، وتنفع من ثقل الحاجبين، وجرب العينين، والبخر في الفم، غير أنها تورث النسيان، كما قال النبي ﷺ: «إن مؤخر الدماغ موضع الحفظ، وتضعفه الحِجَامَة». والحِجَامَة على الأكحل خليفة فصد الباسليق، وتنفع من وجع المنكب والحلق، غير أنها تضعف فم المعدة. والحِجَامَة في الأخدعين خليفة القيفال، وتنفع الوجه، والأسنان، والأضراس، والعينين، والأذنين، والأنف، والحلق، ورعشة الرأس، غير أنها تُحدث رعشة في الرأس لمن لم يكن به رعشة.

(١) انظر: التصريف للزهراوي (٨٥/١)، والمصادر المتقدمة في الفصد بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية - بيروت.

والْحِجَامَةُ تَحْتَ الذَّقْنِ تَنْفَعُ الْوَجْهَ، وَالْأَسْنَانَ، وَالْحَلْقُومَ، وَتَنْقَى الرَّأْسَ، وَالْحِجَامَةُ عَلَى الْهَامَةِ تَنْفَعُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْعَقْلِ، وَالذَّوَارِ، وَتَبْطِئُ بِالشَّيْبِ، غَيْرَ أَنَّهَا تُضَرُّ بِالذَّهْنِ، وَتُورِثُ بِلَهًا، وَالْحِجَامَةُ عَلَى الْفَخْذَيْنِ مِنْ قَدَامِ تَنْفَعُ مِنْ وَجَعِ الْخَصِيَّتَيْنِ، وَخَرَاجَاتِ الْفَخْذَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ، وَالتَّى عَلَى الْفَخْذَيْنِ مِنْ خَلْفِ تَنْفَعُ مِنَ الْأُورَامِ، وَالْخَرَاجَاتِ الْحَادِثَةِ فِي الْإِلْيَتَيْنِ، وَالْحِجَامَةُ عَلَى السَّاقَيْنِ تَقُومُ مَقَامَ الْفُصْدِ، وَتَنْقَى الدَّمَ، وَتَدْرُ الْطُمَثَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* * *

الباب السابع والثلاثون

في الحسبة على الأطباء والكحّالين والمجبرّين والجراحين

الطَّبَّ عِلْمٌ نَظَرِيٌّ وَعَمَلِيٌّ، أَبَاحَتْ الشَّرِيعَةُ عِلْمَهُ وَعَمَلَهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ حِفْظِ الصِّحَّةِ وَدَفْعِ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ عَنْ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَالطَّبِيبُ هُوَ الْعَارِفُ بِتَرْكِيبِ الْبَدَنِ، وَمَزَاجِ الْأَعْضَاءِ، وَالْأَمْرَاضِ الْحَادِثَةِ فِيهَا، وَأَسْبَابِهَا، وَأَعْرَاضِهَا، وَعِلَامَاتِهَا، وَالْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ فِيهَا، وَالْإِعْتِيَاذَ عَمَّا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهَا، وَالْوَجْهَ فِي اسْتِخْرَاجِهَا، وَطَرِيقَ مَدَاوَاتِهَا، لِيُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوِيَةِ فِي كِمِّيَّاتِهَا، وَيُخَالَفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كَيْفِيَّاتِهَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ مَدَاوَةُ الْمَرْضَى، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَى عِلَاجِ يُخَاطِرُ فِيهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى مَا لَمْ يَحْكَمْ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ.

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ مَلُوكَ الْيُونَانِ كَانُوا يَجْعَلُونَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ حَكِيمًا مَشْهُورًا بِالْحِكْمَةِ، ثُمَّ يَعْضُونَ عَلَيْهِ بَقِيَّةَ أَطْبَاءِ الْبَلَدِ لِيَمْتَحِنَهُمْ، فَمَنْ وَجَدَهُ مَقْصُرًا فِي عَمَلِهِ، أَمَرَهُ بِالِاسْتِغْثَالِ وَقَرَاءَةِ الْعِلْمِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْمَدَاوَةِ. وَيَنْبَغِي إِذَا دَخَلَ الطَّبِيبُ عَلَى مَرِيضٍ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ سَبَبِ مَرَضِهِ، وَعَمَّا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ، وَيَعْرِفُ السَّبَبَ وَالْعِلَامَةَ وَالنَّبْضَ وَالْقَارُورَةَ^(١)، ثُمَّ يُرَتِّبُ لَهُ قَانُونًا^(٢) مِنَ الْأَشْرِبَةِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ يَكْتُبُ نَسْخَةً بِمَا ذَكَرَهُ لَهُ الْمَرِيضُ، وَمَا رَتَّبَهُ لَهُ فِي مَقَابِلَةِ الْمَرَضِ، وَيُسَلِّمُ نَسْخَتَهُ لِأَوْلِيَاءِ الْمَرِيضِ، بِشَهَادَةٍ مِنْ حَضَرٍ مَعَهُ عِنْدَ الْمَرِيضِ. فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ حَضَرَ وَنَظَرَ إِلَى دَائِهِ، وَسَأَلَ الْمَرِيضَ، وَرَتَّبَ لَهُ قَانُونًا عَلَى حَسَبِ مَقْتَضَى الْحَالِ، وَكُتِبَ لَهُ نَسْخَةٌ أَيْضًا، وَسَلِّمَهَا إِلَيْهِمْ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ كَذَلِكَ، ثُمَّ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَبْرَأَ الْمَرِيضُ، أَوْ يَمُوتَ. فَإِنْ بَرِئَ مِنْ

(١) القارورة: أى الزجاجية.

(٢) يقصد المصنف بالقانون هنا: تذكرة العلاج.

مرضه، أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور، وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذى قتله بسوء صناعته وتفريطه، فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد، حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب فى شيء منه.

وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد بقرات^(١) الذى أخذه على سائر الأطباء، ويخلفهم ألا يعطوا أحدا دواء مضرًا، ولا يُركبوا له سُماً، ولا يصفوا التّمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار.

فصل

وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال، وهى كلبات الأضراس، ومكاوى الطحال، وكلبات العلق، وزرقات القولنج، وزرقات الذكر، وملزم البواسير، ومخرط المناخير، ومنجل النواصير، وقالب التشمير، ورصاص الثقيل، ومفتاح الرحم، وبوار النساء، ومكمدة الحشا، وقدح الشوصة، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى صناعة الطب، غير آلة الكحّالين والجراثيين، مما يأتى ذكره فى موضعه.

وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن إسحاق فى كتابه المعروف: «محنة الطبيب». وأما كتاب: «محنة الطبيب» لجالينوس، فلا يكاد أحد من الأطباء يقوم بما شرطه جالينوس عليهم فيه.

فصل

وأما الكحّالون، فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق كذلك، أعنى العشر مقالات فى العين، فمن وجده فيما امتحنه به عارفاً بتشريح عدد طبقات العين السبعة، وعدد رطوباتها الثلاثة، وعدد أمراضها الثلاث، وما يتفرّع من ذلك من الأمراض،

(١) بقرات: هو الطبيب اليونانى القديم الشهير، ويطلق عليه أبو الطب (Hippocrates)، توفى عن ٩٥ سنة من عمره، وهو من مواليد ٤٦٠ ق.م. انظر: طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (٢٤/١ - ٢٧).

وكان خبيراً بتركيب الأكحال، وأمزجة العقاقير، أذن له المحتسب بالتصدى لمداواة أعين الناس. ولا ينبغى أن يفرط الكحال فى شىء من آلات صنعته، مثل صنابير السبل، والظفرة، ومحك الجرب، ومباضع الفصد، ودرج المكاحل، وغير ذلك.

وأما كحّالو الطرقات، فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصدّهم عن التهجّم على أعين الناس بالقطع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، فلا ينبغى لأحد أن يركن إليهم فى معالجة عينيه، ولا يثق بإكحالهم وأشيفاتهم، فإن منهم من يصنع أشيافاً أصلها من النشا والصمغ، ويصبغها ألواناً مختلفة، فيصبغ الأحمر بالأسريقون، والأخضر بالكرّم والنيل، والأسود بالأفاقيا، والأصفر بالزعفران، ومنهم من يجعل أشياف ماميتا، ويجعل أصله من البان المصرى، ويعجنه بالصمغ المحلول، ومنهم من يعمل كحلاً من نوى الإهليلج المحرق والفلفل، وجميع غشوش أكحالهم لا يمكن حصر معرفتها، فيحلّفهم المحتسب على ذلك، إذ لا يمكنه منعهم من الجلوس لمعالجة أعين الناس.

فصل

وأما المجبّرون، فلا يحلُّ لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يُحكّم معرفة المقالة السادسة من كُنّاش بولص فى الجبر، وأن يعلم عدد عظام الآدمى، وهو مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، وصورة كلّ عظم منها، وشكله، وقدره، حتى إذا انكسر منها شىء أو انخلع رده إلى موضعه، على هيئته التى كان عليها، فيمتحنهم المحتسب بجميع ذلك.

فصل

وأما الجراحيّون، فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس فى الجراحات والمراهم، وأيضاً كتاب الزهراوى فى الجراح، وأن يعرف التشريح، وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل، والعروق، والشرابين، والأعصاب، ليتجنب الجراح ذلك فى وقت فتح الموادّ وقطع البواسير. ويكون معه دست المباحض، فيه مدورات الرأس، والمورّبات، والحريات، وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومجرفة الأذن، وورد السّلع، مرهمدان المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم، الذى قدّمنا صفته. وقد يهرجون على الناس بعظام تكون معهم، فيدسّونها فى الجرح، ثم يخرجونها منه بمحض من الناس، ويزعمون أنّ أدويتهم القاطعة أخرجتها. ومنهم من يضع مراهم من الكلس المغسول

بالزيت، ثم يصبغ لونه أحمر بالمغرة، أو أخضر بالكرم والنيل، أو أسود بالفحم المسحوق، فيعتبر عليهم العريف جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن والثلاثون

فى الحسبة على مؤدبى الصبيان

لا يجوز لهم تعليم الخط للصبيان فى المساجد؛ لأن النبى ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنهم يسودون حيطانها، ويُنجسون أرضها، إذ لا يجترزون من البول وسائر النجاسات، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق.

فصل

وأول ما ينبغى للمؤدب أن يعلم الصبى السور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف، وضبطها بالشكل، ويُدرّجه بذلك حتى يألفه طبعه، ثم يُعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يُستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيها ومستزذلها. وفى الرواح يأمرهم المؤدب بتجويد الخط على المثال، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظاً غائباً لا نظراً، ومن كان عمره فوق سبع سنين، أمره المؤدب بالصلاة فى جماعة؛ لأن النبى ﷺ قال: «علموا صبيانكم الصلاة لسبع»، واضربوهم على تركها لعشر^(١). ويأمرهم المؤدب ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيّل أيديهما عند الدخول إليهما، ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع، مثل اللعب بالكعب، والبيض، والسير، ونردشير^(٢)، وجميع أنواع القمار، ولا يضرب صبياً بعضاً غليظة تكسر العظم، ولا رقيقة تؤلم الجسم، بل تكون وسطاً، ويتخذ مجلداً عريض السير، ويعتمد فى ضربه على اللوايا والأفخاذ وأسافل الرجلين؛ لأن هذه المواضع لا يخشى منها ضرر ولا غائلة.

(١) رواه الحاكم فى المستدرک فى الصلاة (١/١٩٧)، والبيهقى فى الكبرى فى الصلاة (٣/١١٩).

ح (٥٠٩٢، ٥٠٩١).

(٢) هى الطاولة المعروفة فى مصر، من ألعاب الفرس القديمة. انظر: صبح الأعشى (٢/١٤٨)،

فصل

ولا ينبغي للمؤدّب أن يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عارٌ على آبائهم، كنقل الزبل، وحمل الحجارة، وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهي خالية؛ لئلاّ تتطرق إليه التهمة، ولا يرسل صبيّاً مع امرأة ليكتب لها كتاباً، ولا غير ذلك، فإن جماعة من الفسّاق يحتالون على الصبيان بذلك، ويكون السائق لهم أميناً، ثقةً، متأهلاً؛ لأنه يتسلّم الصبيان في الغدو والرواح، وينفرد بهم في الأماكن الخالية، ويدخل على النسوان، فيلزم أن يكون كذلك.

ولا يعلم المؤدّب الخطأ امرأة ولا جارية؛ لأن ذلك مما يزيد المرأة شراً، وقيل: إن مثل المرأة التي تتعلم الخطأ، مثل حية تُسقى سمّاً. وينبغي للمؤدّب أن يمنع الصبيان من حفظ شيء من شعر ابن الحجاج^(١) والنظر فيه، ويضربهم على ذلك، وكذلك ديوان صريع الدّلاّ، فإنه لا خير فيه، وكذلك الأشعار التي عملتها الروافض في أهل البيت، فلا يُعرفهم شيئاً من ذلك، بل يعلمهم الأشعار التي مُدحت بها الصحابة، رضوان الله عليهم، ليرسخ ذلك في قلوبهم.

* * *

الباب التاسع والثلاثون

في الحسبة على أهل الذمّة

لا يصحّ عقد الذمّة إلا من الإمام، أو مِمَّنْ يُفَوّض إليه الإمام، ولا تعقد الذمّة إلا لمن له كتاب، أو شبه كتاب من الكفار، كاليهود، والنصارى، والمجوس، وأما غير هؤلاء ممن لا كتاب لهم، ولا شبه كتاب، كالمشركين، وعبدّة الأوثان، ومن ارتدّ عن الإسلام، أو من أظهر الزندقة والإلحاد، فلا يجوز لهم عقد الذمّة، ولا يُقرّون على ما هم عليه، ولا يُقبل منهم غير الإسلام.

فصل

وينبغي أن يشترط عليهم ما شرطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمّة، ويؤخذون بلبس الغيار، فإن كان يهودياً، وضع على

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن الحجاج، من كبار الشيعة، شاعر غزل، ومجون، كان محتسباً على بغداد في عهد عز الدولة بن بويه، توفي سنة ٣٩١ هـ. انظر: وفيات الأعيان (١/١٩٤).

٢٦٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة
 كتفيه خيطاً أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانياً، شدّ فى وسطه زناراً، وعلّق فى عنقه
 صليّاً، وإن كانت امرأة لبست خُفّين أحدهما أبيض والآخر أسود، وإذا عبر الذمّى إلى
 الحمام، ينبغى أن يكون فى عنقه طوق من حديد، أو نحاس، أو رصاص، لتمييز به عن
 غيره، ويمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح، والتقلّد بالسيوف، وإذا
 ركبوا البغال ركبوها بالأكف عرضاً من جانب واحد، ولا يرفعون بنيانهم عن بنيان
 المسلمين، ولا يتصدّرون فى المجالس، ولا يُزاحمون المسلمين فى الطرقات، بل يلجأون
 إلى أضيق الطرقات، ولا يُبدأون بالسلام، ولا يُرحّب بهم فى المجالس، ويشترط
 المحتسب عليهم ضيافة مَنْ مرّ بهم من المسلمين، وإنزالهم فى بيوتهم وكنائسهم،
 ويُمنعون من إظهار الخمر والخنزير، والجهر بالثورة والإنجيل وضرب الناقوس، ومن
 إظهار أعيادهم، ورفع الصوت على موتاهم، فجميع ذلك اشترطه عليهم عمر بن
 الخطاب، رضى الله عنه، فى كتابه، فيراعى المحتسب أحوالهم فى جميع ذلك، ويجبرهم
 عليه.

فصل

ويأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم، على الفقير المُعِيل ديناراً، وعلى المتوسط
 دينارين، والغنى أربعة دنانير عند رأس الحول، فإذا جاء المحتسب أو العامل لأخذ
 الجزية، أقامه بين يديه، ثم لطمه بيده على صفحة عنقه، وهو يقول له: أد الجزية يا
 كافر، ويخرج الذمى يده من جيبه مطبوقه على الجزية، فيعطيهها له بذلّة وانكسار.
 ويشترط المحتسب عليهم مع الجزية التزام أحكام الإسلام، فإن امتنع الذمّى من لزوم
 الأحكام، أو قاتل المسلمين، أو زنا بمسلمة، أو أصابها باسم نكاح، أو فتن مسلماً عن
 دينه، أو قطع الطريق على مسلم، أو آوى المشركين، أو دلّهم على عورات المسلمين، أو
 قتل مُسْلِماً، انتَقِصَتْ ذمّته فى ذلك جميعه، وقُتل فى الحال، وغُنِم ماله فى أصحّ القولين؛
 لأنّ أهل الذمّة قد شُرِطَ عليهم الكفّ عن ذلك، فعلى المحتسب معرفة هذه الأشياء،
 وإلزامهم بجميعها، والله أعلم.

الباب الأربعون

يشتمل على جُمْل وتفاصيل فى أمور الحسبة

قد ذكرنا فى هذا الكتاب من الحسبة على أرباب الصنائع المشهورة، ومن كشف غشوشهم وتدليسهم، ما فيه الكفاية للمحتسب، وأصلٌ يقيس عليه ما عداه، مما لم نذكره، وسأذكر فى هذا الباب تفاصيل جُمْل قد تقدّمت فى هذا الكتاب، وأذكر ما يلزم المحتسب فعله من أمور الحسبة فى صالح الرعية، غير ما ذكرناه. فمن ذلك السوط، والدّرة، والطرطور:

أما السوط، فيتّخذهُ سوطاً، لا بالغليظ الشديد، ولا بالرقيق اللين، بل يكون بين سوطين، حتى لا يؤلم الجسم، ولا يخشى منه غائلة، وأما الدّرة، فتكون من جلد البقر، أو الجمل، محشوة بنوى التمر، وأما الطرطور، فيكون من اللبد، منقوشاً بالخرق الملوّنة، مكللاً بالجزع والودع والأجراس، وأذنان الثعالب والسنانير، وتكون هذه الآلة جميعها معلقة على دكة المحتسب يشاهدها الناس، فترعد منها قلوب المفسدين، وينزجر بها أهل التدليس.

فإذا عثر المحتسب بشارب خمر، جلده بالسوط أربعين جلدة، وإن رأى المصلحة فى جلد الثمانين جلده؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، جلد شارب الخمر ثمانين جلدة، بفتوى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فيجرّده المحتسب عن ثيابه، ثم يرفع يده بالسوط حتى يبيض إبطه، ويفرقّ الضرب على كتفيه وإبتيه وفخذه، وإن كان زانياً، وهو بكر، جلّده فى ملأ من الناس، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وإن كانت امرأة جلدها وهى فى إزارها وثيابها، وأما الزانى المحصن، فيجمع المحتسب الناس حوله خارج البلد، ويأمرهم برجمه، كما فعل رسول الله ﷺ. معازر، وإن كانت امرأة محصنة، حفر لها حفرة فى الأرض، وأجلسها فيها إلى وسطها، ثم أمر الناس برجمها، كما فعل رسول الله ﷺ بالغامدية^(١)، وإن كان المذنب لاط بغلام، ألقاه المحتسب من أعلا شاهق فى البلد، هذا كلّ بعد ثبوته عند الإمام، ثم يتولاه المحتسب.

(١) يقصد قصة رجم معاز بن مالك، وانظر: المبسوط للسرخسى (٩/٩٢)، والغامدية: امرأة جاءت النّبى ﷺ حاملاً نتيجة الزنا، وأقرّت بذلك، فأملها النّبى ﷺ حتى وضعت حملها، ثم أمر برجمها.

فصل

وأما التعزير، فعلى قدر أحوال الناس، وقدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يُضرب بالسوط به أدنى الحدود، ومنهم من يُضرب بالدرّة ويُلْبَس الطرطور ويُركب على جمل أو حمار، وإذا رأى المحتسب رجلاً حامل خمر، أو يلعب بملهاة، كالعود، والمعزفة، والطنبور، والبربط^(١)، والمزمار، عزّره على حسب ما يراه من المصلحة في حقّه، بعد إراقة الخمر، وكسر الملهاة، وكذلك إن رأى رجلاً أجنبيّاً مع امرأة أجنبية، في خلوة أو طريق، ويلزم المحتسب أن يتفقّد المواضع التي تجتمع فيها النسوان، مثل سوق الغزل والكتان، وشطوط الأنهار، وأبواب حمامات النساء، وغير ذلك، فإن رأى شاباً منفرداً بامرأة، ويكلّمها في غير معاملة في البيع والشراء، وينظر إليها، عزّره ومنعه من الوقوف هناك، فكثير من الشبان المفسدين يقفون في هذه المواضع، وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان.

ثمّ يتفقّد المحتسب مجالس الوعّاظ، فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويجعل بينهم ستارة، فإذا انفضّ المجلس، خرج الرجال وذهبوا في طريق، ثمّ تخرج النساء ويذهبن في طريق آخر، فمن وقف من الشباب في طريقهنّ لغير حاجة، عزّره المحتسب، ثمّ يتفقّد المآتم والمقابر، فإذا سمع نادبة أو نائحة عزّرها ومنعها؛ لأنّ النواح حرام، قال رسول الله ﷺ: «النائحة ومن حولها في النار»^(٢).

ويمنع المحتسب النساء من زيارة القبور؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «لعن الله زوّارات القبور»^(٣)، وإذا خرجت جنازة أمر المحتسب النساء أن يتأخرن عن الرجال، ولا يختلطن بهم، ويمنعهن من كشف وجوههن ورءوسهن خلف الميت، ويأمر منادياً ينادى في البلد بالمنع من ذلك، والأوّل أن يمنعهن من تشييع الجنازة، ومتى سمع المحتسب بامرأة عاهرة، أو مغنية، استتابها عن معصيتها، فإن عادت عزّرها ونفاها من البلد، وكذلك يصنع بالمخثئين والمردان المشهورين بالفساد مع الرجال، ويمنع المحتسب الخنثى من حلق لحيته أو نتفها، ودخوله على النسوان، وكذلك الأمرد النكريش، متى حلق لحيته كان ذلك دليلاً على فساده، فيعزّره المحتسب على فعل ذلك.

(١) البربط: آلة موسيقية تعرف بالعود، وهو فارسيّ معرب. وانظر: الموسيقى الكبير للفارابي (ص ٣٢)، والقاموس (برط).

(٢) لعن النائحة والمستمعة، أخرجه أبو داود (٣١٢٨)، وانظر: الكبائر للذهبي (١٦٥/١).

(٣) أخرجه الترمذی (٣٧١/٣) ح (١٠٥٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٥٠٢/١) ح (١٥٧٤)، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٧/٢) ح (٨٤٣٠).

فصل

ويُشرف المحتسب على الجوامع والمساجد، ويأمر قَوْمَهَا بكنسها في كل يوم وتنظيفها من الأوساخ، ونفض حصرها من الغبار، ومسح حيطانها، وغسل قناديلها وإشعالها في كل ليلة، ويأمرهم بغلاق أبوابها عقيب كل صلاة، وصيانتها من الصبيان والمجانين، ومن يأكل فيها الطعام أو ينام، أو يعمل صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد ضالة، أو يجلس فيها للناس لحديث الدنيا، فجميع ذلك قد ورد الشرع بتنزيه المساجد عنه وكرهية فعله.

ويتقدّم المحتسب إلى جيران كل مسجد بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان، لإظهار معالم الدين، وإشهار شعار الإسلام، سيما في هذا الزمان؛ لكثرة البدع، واختلاف الأهواء، وتنوع الباطنية، وما قد صرّحوا به من تعطيل الشريعة، وإبطال أحكام الإسلام، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام، وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك، لتقوى عقائد العامة.

فصل

ولا يؤذّن في المنارة إلا عدل، ثقة، أمين، عارف بأوقات الصلوات؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «المؤذّنون أمناء، والأئمة ضمنا، فرحم الله الأئمة، وغفر للمؤذّنين»^(١). وينبغي للمحتسب أن يمتحنهم بمعرفة الأوقات، فمن لم يعرف ذلك منعه من الأذان حتى يعرفها؛ لأنه ربما أذن في غير الوقت، فيسمعه العامة، فيصلّون قبل الوقت، فلا تصحّ صلاتهم، فيكون هو السبب في إفساد صلاة الناس، فيجب عليه معرفة الوقت، ويقرأ باب الأذان والإمامة في الفقه، ويُسْتَحَبّ أن يكون المؤذّن صبيّا حسن الصوت.

وينهى المحتسب عن النعي في الأذان، وهو التطريب، والتمطيط، ويأمره إذا صعد المنارة أن يَعْضّ بصره عن النظر إلى دور الناس، ويأخذ عليه العهد في ذلك، ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذّن في أوقات الصلاة.

وينبغي للمؤذّن أن يكون عارفاً بمنازل القمر، وشكل كواكب كل منزلة؛ ليعلم أوقات الليل ومُضَيّ ساعاته، وهي ثمان وعشرون منزلة: الشرطان، والبطين، والثريا،

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة (١٦/٣) ح (١٥٣١)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٠/١) ح

والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت، وهو الرشاء. فهذه جملة عدد منازل القمر، والصبح يدوم ويطلع فى كل منزلة من هذه ثلاثة عشر يوماً، ثم ينتقل إلى المنزلة التى بعدها، فإن عرف المؤذن فى أى منزلة هو الصبح نظر إلى المنزلة المعترضة فى وسط السماء، فيعرف حيثئذ الطالع والساقط، وكم بينه وبين الصبح، وهذا فيه علمٌ وحسابٌ يطول شرحه، فمن أراد معرفة ذلك، فعليه بكتاب الأنواء لابن قتيبة، فلا غنى للمؤذن عن معرفته، ليحتاط على معرفة الصبح، ويجوز للمؤذن أخذ الأجرة على الأذان.

وأما أئمة المساجد، فلا يجوز لهم أخذ الأجرة على الصلوات والإمامة، فيمنعهم المحتسب من أخذ ذلك، فإنه حرام، فإن رُفِعَ إلى الإمام شيء من غير شرط، جاز له أخذه على سبيل الهدية، أو الهبة، أو الصلة، أو البر.

ويأمر المحتسب أهل القرآن بقراءته مرتلاً، كما أمر الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحين القرآن وقراءته بالأصوات الملقنة، كما تلحن الأغاني والأشعار، فقد نهى الشرع عن ذلك، ولا يأتون إلى جنازة من غير أن يستدعيهم ولّى الميت، وإذا أعطوا شيئاً من غير شرط على سبيل الصدقة، جاز لهم أخذه، فأما اشتراطه فلا يجوز، فيعتبر المحتسب عليهم ذلك.

ولا يغسل الموتى إلا ثقة أمين قد قرأ كتاب الجنائز فى الفقه، وعرف حدود ذلك، فيسألهم المحتسب عن ذلك، فمن كان قِيماً به تركه، ومن لم يعلم صِرْفَه ليتعلم، وينهى المحتسب الأضرأء وأهل الكدية المقنفين عن قراءة القرآن فى الأسواق للكُدية، فقد نهت الشريعة عن ذلك، ويمنعهم من إنشاد الشعر الذى عملته الروافض فى أهل البيت، ومن ذكر المصرع وأشباهه، فإن هذا كله فتنه للعامة، فلا يصح ذكره.

فصل

وينبغى للمحتسب أن يتردد إلى مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس فى الجامع والمسجد للحكم بين الناس؛ لأنه ربما دخل عليهم الرجل الجنب، والمرأة الحائض، والذمى، والصبى، والمجنون، والحافى، ومن لا يحترز من النجاسات، فيؤذون المسجد،

وينجسون الحصر، وقد ترتفع الأصوات، ويكثر اللغط فيه عند ازدحام الناس ومنازعتهم للخصوم، وكل ذلك قد ورد الشرع بالنهي عنه.

وقد رأيت مكتوباً في كتاب أبي القاسم الصميرى أن الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين، رحمه الله، ولّى رجلاً من أصحاب الشافعى، رضى الله عنه، الحسبة ببغداد، فنزل الرجل إلى جامع المنصور، فوجد قاضى القضاة يحكم بين الناس فيه، فقال له: سلام عليك، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد مكن الله عز وجل خليفته المستظهر بالله أمير المؤمنين فى أرضه، وبسط يده بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وقد جعلنى وآياك نائبين عنه فى ذلك، قائمين فى رعيته بحدود الله، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه، ونحن أولى بمن يعمل بحدوده، ولزوم ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، ليقضى بنا العامة، فنحن ملح البلد، نصلح ما فسد من أحوال العامة، فإذا فسد الملح، مَنْ يصلحه؟ ومجلسك هذا لا يصلح فى الجامع، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، وليس فى هذا الذى أنت فيه شىء من ذلك، وإنه لتدخل إليك المرأة لتحتكم مع بعلها، ومعها الطفل فيبول على الحصر، وإن الرجل ليمشى على النجاسة والقذر، ويدوس الحصر بنعله، وإن الأصوات لترتفع باللغط خارج حلقك، وربما دخل إليك الرجل الجنب، والمرأة الحائض، وجميع ذلك أمر نبيّن ﷺ باجتنابه، فاجلس فى وسط البلد، بحيث لا يشقّ على أحدٍ القصد إليك، والسلام.

قال الصميرى: فنهض القاضى من وقته، ولم يعدّ يجلس فى الجامع للقضاء. ومتى رأى المحتسب رجلاً يسفه فى مجلس الحكم، أو يطعن على الحاكم فى حكمه، أو لا ينقاد إلى حكمه، عزّره على ذلك، وأما إذا رأى القاضى قد استشاط على رجل غيظاً، أو شتمه، أو احتد عليه فى كلامه، ردعه عن ذلك، ووعظه، وخوفه بالله عز وجل، فإن القاضى لا يجوز له أن يحكم وهو غضبان، ولا يقول هجراً، ولا يكون فظاً غليظاً، وكذلك يكون غلماناً وأعوانه الذين بين يديه، فإذا كان فيهم شاب حسن الصورة، فلا يبعثه القاضى لإحضار النسوان، وينبغى على القاضى أن يجلس للناس وسط البلد؛ لئلا يشقّ على الناس القصد إليه.

فصل

وأما الوكلاء الذين بين يدى القاضى، فلا خير فيهم، ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان؛ لأن أكثرهم رقيق الدين، يأخذ من الخصمين، ثم يتمسكون فيه بسنة الشرع، فيوقعون القضية، فيضيع الحق، ويخرج من بيد يدى طالبه وصاحبه، فإذا حضر الخصمان عند الحاكم، فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل، فكأن ترك الوكلاء فى هذا الزمان أولى من نصبهم، إلا أن يكون هناك امرأة غير برزة^(١)، أو صبي، فحينئذ يوكل عنهما الحاكم وكيلاً.

فصل

ويقصد المحتسب مجالس الولاة والأمراء، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويعظهم ويذكرهم، ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان إليهم، ويذكر لهم ما ورد فى ذلك من الأحاديث عن النبى ﷺ، وليكن فى وعظه وقوله فى ردعهم عن الظلم لطيفاً، ظريفاً، ليناً فى القول، بشوشاً، غير جبار، ولا عبوس، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد تقدمت الحكاية عن المأمون فى أول الكتاب.

فصل

وما سوى ذلك أرباب الحرف المذكورة، والصنائع المشهورة فى كتابى هذا، فلا ينفى على المحتسب كيفية الحسبة عليهم، والتطرق إلى كشف تدليسهم، فإن ذلك سهل يعرف بالمشاهدة والعيان، مثل الحسبة على البقالين، وباعة الخضروات، فإنه يأمرهم ببيع البقول مغسولة من السرجين، منقاة من الحشيش والطاقات المصفرة، ويأمرهم بقطع شغل أصول الخس والفجل، وينهاهم عن غسل البصل والثوم الرطبين، فإن الماء يزيدهما زفرة ونتونة، وإذا بات فى دكاكينهم شئ من ذلك، فلا يخلطونه بالطرى المقطوع فى اليوم.

وينهاهم المحتسب عن بيع ما دود من البطيخ، والقثاء، والتين، والرطب، وما قد تناهى نضجه حتى تهرى قشره من ذلك، ومثل الباقلايين^(٢)، ينهاهم عن بيع ما سوس من الباقلا، والحمص، وعن خلط ما بقى عندهم من أمس فيما سلقوه اليوم، ويأمرهم أن ينثروا عليه الملح المسحوق والصعتر، ليدفع مضارّه، ويتفقد مكاييلهم، فإنهم يأخذون

(١) هى المرأة التى تلزم بيتها، فلا تبرز إلى الأسواق ولا تخلط الرجال. انظر: اللسان: (برز).

(٢) أى بائعى الباقلاء، والفول.

قطعة من خشب يحفرونها مكياً، فيكون طولها شبراً مثلاً، والمحفور من داخلها أربع أصابع، فيغتر الناس بسعتها وطولها، ولا يعلمون المقدار المحفور منها، وهذا تدليس لا يخفى.

ومثل باعة الخزف، والكيزان، والأواني، فإنهم يطلون ما كان مثقوباً منها، أو مشقوقاً بالكلس المعجون بالشحم، وبياض البيض، والخزف الأحمر المسحوق. ومثل الغسّالين، ينهاتهم المحتسب عن غسل ثياب الناس بالماء المطبوخ فيه القلى والنورة والنطرون، فإن ذلك يضرّ بالملابس ويبيّله سريعاً، ويولّد فيها القمل والصّيبان. ومثل السقّائين، وأصحاب الروايا والقرب، فإنه يأمرهم بالدخول فى النهر، حتى يبعدوا عن الشط ومواقع الأوساخ، ولا يستقون من موضع فى النهر بقرب من سقاية للدواب، أو مستخدم، أو مجرى حمام، بل يصعدون عنه، أو يبعدون من تحته، ومن اتخذ منهم رواية جديدة، أمره المحتسب بنقل الماء إلى معاجن الطين^(١) أياماً، ولا يبيعه للشرب، فإنه يكون مُتغيّر الطعم والرائحة من أثر الدباغة والزفت، فإن زال التغيّر أذن له المحتسب يبيعه للناس للشرب والاستعمال.

ويأمرهم المحتسب أن يشدّوا فى أعناق دوابهم الأجراس، وصفاقات الحديد والنحاس، لتعلو جلبة الدابة إذا عبرت فى سوق أو محلّة، فيحترس منها الضّيرير، والصبيان، والإنسان الغافل، وكذلك يفعل المكارية، وحمالو الخطب بدوابهم، ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة، ولا يُحمّلون الدواب أكثر من طاقتها، ولا يسوقونها سوقاً شديداً تحت الأحمال، ولا يضربونها ضرباً قوياً، ولا يوقفونها فى العراض وعلى ظهورها أحمالها، فإنّ هذا كلّ نهت الشريعة المطهّرة عن فعله، وعليهم أن يراقبوا الله عزّ وجلّ فى علف الدّابة وعليقها، ويكون موفراً عليها بحيث يحصل به الشبع، ولا يكون مبخوساً ولا نزرّاً.

ولو شرعت أن أذكر جميع ما ينبغى للمحتسب أن يفعله من أمور الحسبة، لطال الكتاب، ولم يقع عليه حصر، ولكنى قد وضعت أصولاً وقواعد يقيس عليها المحتسب ما يجانسها، لعمرى إن الضّابط فى أمور الحسبة هو الشرع المطهّر، فكلّ ما نهت الشريعة عنه يكون محظوراً، ووجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، وما أباحته الشريعة أقرّه على ما هو عليه، ولهذا ذكرنا فى أوّل الكتاب أنه يجب أن يكون

٢٧٦ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

المحتسب فقيهاً، عالماً بأحكام الشريعة، ومتى كان المحتسب جاهلاً، اختلفت عليه الأمور، ووقع في المحذور والمحذور، ونسأل الله العون والعصمة والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

المحتويات

المقدمة.....	٢٠٣
ترجمة الأبواب.....	٢١١
الباب الأول فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها.....	٢١٣
فصل.....	٢١٣
فصل.....	٢١٣
فصل.....	٢١٤
فصل.....	٢١٥
فصل.....	٢١٦
الباب الثانى فى النظر فى الأسواق والطرق.....	٢١٦
فصل.....	٢١٧
فصل.....	٢١٧
فصل.....	٢١٩
الباب الثالث فى معرفة القناطير والأرطال والمثاقيل والدرهم.....	٢١٩
فصل.....	٢٢٠
فصل.....	٢٢٠
الباب الرابع فى معرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل.....	٢٢٠
فصل.....	٢٢١
فصل.....	٢٢٢
الباب الخامس فى الحسبة على الحبوبيين والدقاقين.....	٢٢٣
فصل.....	٢٢٣
الباب السادس فى الحسبة على الخبازين.....	٢٢٣
فصل.....	٢٢٤
الباب السابع فى الحسبة على الفرّانين.....	٢٢٥
الباب الثامن فى الحسبة على صنّاع الزّلاية.....	٢٢٥
فصل.....	٢٢٦
الباب التاسع فى الحسبة على الجزارين والقصايين.....	٢٢٦
فصل.....	٢٢٧

٢٢٨	الباب العاشر في الحسبة على الشّوائن.....
٢٢٩	فصل.....
٢٢٩	الباب الحادى عشر فى الحسبة على الرواسين.....
٢٣٠	الباب الثانى عشر الحسبة على قلائى السّمك.....
٢٣٠	فصل.....
٢٣١	الباب الثالث عشر فى الحسبة على الطباخين.....
٢٣٢	الباب الرابع عشر فى الحسبة على الهرائسين.....
٢٣٢	فصل.....
٢٣٣	الباب الخامس عشر فى الحسبة على النقانقين.....
٢٣٣	الباب السادس عشر فى الحسبة على الحلواتين.....
٢٣٤	الباب السابع عشر فى الحسبة على الصيادلة.....
٢٣٧	الباب الثامن عشر فى الحسبة على العطارين.....
٢٣٩	فصل.....
٢٣٩	فصل.....
٢٤٠	فصل.....
٢٤١	فصل.....
٢٤١	فصل.....
٢٤١	فصل.....
٢٤٢	الباب التاسع عشر فى الحسبة على الشّرايين.....
٢٤٣	الباب العشرون فى الحسبة على السّمّانين.....
٢٤٤	فصل.....
٢٤٥	الباب الحادى والعشرون فى الحسبة على البزّازين.....
٢٤٦	فصل.....
٢٤٧	الباب الثانى والعشرون فى الحسبة على الدّلائن والمنادين.....
٢٤٧	الباب الثالث والعشرون فى الحسبة على الحاكة.....
٢٤٨	الباب الرابع والعشرون فى الحسبة على الخياطين.....
٢٤٩	الباب الخامس والعشرون فى الحسبة على القطّانين.....
٢٤٩	الباب السادس والعشرون فى الحسبة على الكتّانين.....
٢٥٠	الباب السابع والعشرون فى الحسبة على الحريريين.....
٢٥٠	الباب الثامن والعشرون فى الحسبة على الصّبّاغين.....
٢٥١	الباب التاسع والعشرون فى الحسبة على الأساكفة.....
٢٥١	الباب الثلاثون فى الحسبة على الصيارف.....
٢٥٢	الباب الحادى والثلاثون فى الحسبة على الصّاغة.....

٢٧٩	كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة
٢٥٣	الباب الثاني والثلاثون في الحسبة على النحاسين والحدادين
٢٥٤	فصل
٢٥٤	الباب الثالث والثلاثون في الحسبة على البيطرة
٢٥٤	فصل
٢٥٥	فصل
٢٥٥	الباب الرابع والثلاثون في الحسبة على نَخَاسِي العبيد والدَّوَاب
٢٥٦	فصل
٢٥٦	الباب الخامس والثلاثون في الحسبة على الحَمَامَات وَقَوَمَتِهَا
٢٥٧	فصل
٢٥٨	فصل
٢٥٨	فصل
٢٥٨	الباب السادس والثلاثون في الحسبة على الفَصَّادِينَ والحَمَّامِينَ
٢٥٩	فصل
٢٦٠	فصل
٢٦١	فصل
٢٦١	فصل
٢٦١	فصل
٢٦٢	فصل
٢٦٢	فصل
٢٦٢	فصل
٢٦٢	فصل
٢٦٣	الباب السابع والثلاثون في الحسبة على الأطباء والكَّحَالِينَ والمَجْبَرِينَ والجَرَائِحِيِّين
٢٦٤	فصل
٢٦٤	فصل
٢٦٥	فصل
٢٦٥	فصل
٢٦٦	الباب الثامن والثلاثون في الحسبة على مُؤَدِّبِي الصَّبِيَّان
٢٦٦	فصل
٢٦٧	فصل
٢٦٧	الباب التاسع والثلاثون في الحسبة على أَهْلِ الذِّمَّة
٢٦٧	فصل
٢٦٨	فصل
٢٦٩	الباب الأربعون يشتمل على جُمْل وتفاصيل في أمور الحسبة

٢٨٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

٢٧٠ فصل

٢٧١ فصل

٢٧١ فصل

٢٧٢ فصل

٢٧٤ فصل

٢٧٤ فصل

٢٧٤ فصل

نهاية الرتبة

في

طلب الحسبة

لمحمد بن أحمد بن بسام المحاسب

مقدم من محمد بن اسماعيل
تأليفه
أحمد فرید المزیعی

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله العثرة، وعلى أصحابه، رضوان الله عليهم، الخليفة أبو بكر، رضى الله عنه، والخليفة عمر، رضى الله عنه، والخليفة عثمان، رضى الله عنه، وبقية أصحابه، رضوان الله عليهم أجمعين، وبعد:

فهذا الكتاب قليل الحجم، عظيم الفائدة فى الحسبة، لمؤلفه محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، ولم نعرف له ترجمة، إلا أن أقدم نسخة للكتاب كانت سنة ٨٤٤هـ، فهو إذاً قد عاش قبل هذا التاريخ، فإن النسخة لم تكن بخطه، وقد اعتمد ابن بسام على كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى، الذى حققناه قبل هذا الكتاب فى نفس المجلد، ولقد اعتمدنا فى تحقيق هذا الكتاب على النسخة المطبوعة فى مطبعة المعارف بغداد، التى اعتمدت على نسختين خطيتين:

إحدهما: أحمد الثالث - استانبول برقم (٢٣٠٤/عموى)، وتقع فى (١٢٢/ق).

والثانية: نسخة دار الكتب المصرية - الخزانة التيمورية، تحت رقم (٢٢٦٩/٦١٤) اجتماع طلعت.

ولا يسعنى إلا أن أقدم الشكر لمشايخى ووالدى، رحمه الله، ووالدتى، وليعذرنا طلبة العلم فى التقصير.

طالب العلم

محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعى

المعروف بـ (محمد فارس)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال محمد بن أحمد بن بسم المحتسب: أحمد من الحمد له، والنعمة منه، والهداية به، والفضل من عنده، والصلاة على خير خلقه وبه نستعين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، فأمر بذلك مع القدرة عليه، والتمكن منه، ومن الأمر بالمعروف أيضاً، تصفح أحوال السوق في معاملاتهم، واعتبار موازينهم، وغشهم، ومراعاة ما تجرى عليه أمورهم.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، وقال عز من قائل حكاية عن نبيه شبيب، عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقد رأيت المؤلفين من المتقدمين سبقوا إلى ذكر كثير مما يحتاج إليه ويتنفع به، ولم أجد أحداً منهم ذكر ما ينبغي ذكره من الغبن، والفحش، والغش، والخيانة بين الناس في المعاملات والمبايعات، والتنبيه على ذلك، والتحذير منه، حتى لا يكون ولا شيء منه بعون الله تعالى، فأحببت أن أولف عليه كتاباً أدل فيه على ما تيسير من أنواع ذلك، رجاءً لثواب الله، وجعلته أبواباً، أذكر في كل باب منها ما يقربه ويشاكله، وبالله التوفيق.

* * *

(١) أى أولف أو أبدأ إن قلنا: إن الباء متعلقة بمحذوف اسم فاعل، أو ابتدئ متبركاً ومستعيناً بالله، إن قلنا: إن الباء متعلقة بحال من فاعل الفعل المحذوف، أو ابتدائي باسم الله ثابت، إن قلنا: الباء متعلقة بمصدر مبتدأ خبره محذوف. انظر: نهاية المحتاج للشمس الرملى (١٦/١).

فصول الأبواب

قال الشيخ الإمام الأوحى عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزرى^(١): أحمد الله على ما أنعم، وأستعينه فيما ألزم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلى الأعظم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبى الأكرم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، وبعد:

فقد سألتنى من استند لمنصب الحسبة^(٢)، وقلد النظر فى مصالح الرعية، وكشف أحوال السوق، وأمور المتعشين، أن أجمع له مختصراً كافياً فى سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع؛ ليكون عماداً لسياسته، وقواماً لرياسته، فأجبتة إلى ملتسمه، ذاهباً إلى الوجازة لا إلى الإطالة، وضمنته طرفاً من الأخبار، وطرزته بحكايات وآثار، نبهت فيه على غش المبيعات، وتدليس أرباب الصناعات، وكشف سرهم المدفون، وهتكت سرهم المصون، راجياً بذلك الثواب المنعم ليوم الحساب، وذكرت فيه الحرف المشهورة دون غيرها؛ لمسيس الحاجة إليها، وجعلته أبواباً يحتذى المحتسب على أمثالها، وينسج على منوالها، وسميته: «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة»، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

الباب الأول: فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها.

الباب الثانى: فى النظر فى الأسواق والطرقات.

الباب الثالث: فى الخبازين.

الباب الرابع: فى السقائين وغشهم.

الباب الخامس: فى السوق وغشهم.

الباب السادس: فى جزاري الضأن والمعز والإبل، والقصابين وغشهم.

الباب السابع: فى الشوائين.

(١) أى فى كتابه الذى حققناه قبل هذا.

(٢) قال الشيخ أبو يعلى: هو أمر بالمعروف، إذا ظهر تركه، ونهى عن منكر، إذا ظهر فعله. انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص ٢٨٤)، الأحكام السلطانية للماوردى (ص ٢٩٩).

الباب الثامن: فى الهرائسيين.

الباب التاسع: فى الزلبانيين.

الباب العاشر: فى الرواسين وغشهم.

الباب الحادى عشر: فى الطباخين وغشهم.

الباب الثانى عشر: فى الحلوانيين وغشهم.

الباب الثالث عشر: فى هرايس التمر ومطبوخ العدس.

الباب الرابع عشر: فى الباقلانيين، أى الفوالين.

الباب الخامس عشر: فى السماكين والسماك.

الباب السادس عشر: فى باعة الصير والبورى والملح.

الباب السابع عشر: فى قلائي السمك وسمك الطاجن.

الباب الثامن عشر: فى صيادي الطيور والعصافير.

الباب التاسع عشر: فى الطحانين وغشهم.

الباب العشرون: فى الفرانين وصبيانهم.

الباب الحادى والعشرون: فى الخطب والخطابين.

الباب الثانى والعشرون: فى القصب والقصابين.

الباب الثالث والعشرون: فى الجبس والجباسين.

الباب الرابع والعشرون: فى الجير والجيارين.

الباب الخامس والعشرون: فى الحمامات، وذكر قوامها، ومنافعها، ومضارها، وما يلزم حراسها، والبلايين، والمزينيين، والوقادين، وباعة النورة.

الباب السادس والعشرون: فى الغزالين والغزل.

الباب السابع والعشرون: فى الكتاتيين.

الباب الثامن والعشرون: فى الحريريين.

الباب التاسع والعشرون: فى القطنين والندافين.

الباب الثلاثون: فى القلانسين وغشهم.

الباب الحادى والثلاثون: فى الخياطة والخياطين وغشهم.

الباب الثانى والثلاثون: فى سماسرة البز.

الباب الثالث والثلاثون: فى البز والبزازين.

الباب الرابع والثلاثون: فى الغسالىن.

الباب الخامس والثلاثون: فى القصارة والقصارين.

الباب السادس والثلاثون: فى المطرزين.

الباب السابع والثلاثون: فى الرفائين وغشهم.

الباب الثامن والثلاثون: فى الصيادلة والعقاقير.

الباب التاسع والثلاثون: فى الأشربة والمعاجين وما يضاف إلى ذلك.

الباب الأربعون: فى العطر والعطارين.

الباب الحادى والأربعون: فى الصيارف.

الباب الثانى والأربعون: فى الصاغة والصياغة.

الباب الثالث والأربعون: فى الأطباء والفصادين.

الباب الرابع والأربعون: فى الكحالىن والكحل.

الباب الخامس والأربعون: فى المجبرين.

الباب السادس والأربعون: فى الجراثيمين.

الباب السابع والأربعون: فى البيطرة.

الباب الثامن والأربعون: فى صباغى الحرير والغزل.

الباب التاسع والأربعون: فى الخزازين صناعات الشراك.

الباب الخمسون: فى الأساكفة وصناعات الأخفاف.

الباب الحادى والخمسون: فى عمل الأسقاط.

الباب الثانى والخمسون: فى عمل البطط.

الباب الثالث والخمسون: فى الخناطين والعلافين.

الباب الرابع والخمسون: فى صنعة الشرابات.

الباب الخامس والخمسون: فى الحاكة والقزازين.

الباب السادس والخمسون: فى الزنهار وغشه.

الباب السابع والخمسون: فى الإبرار والإبرارين.

الباب الثامن والخمسون: فى السماسم وبائعيه.

الباب التاسع والخمسون: فى الخشب وباعته.

الباب الستون: فى الزفاتين.

الباب الحادى والستون: فى الحدادين.

الباب الثانى والستون: فى المساميرين وغشهم.

الباب الثالث والستون: فى النحاسين وسباكي النحاس.

الباب الرابع والستون: فى النجارين، والبنائين، والفعلة، والنشارين.

الباب الخامس والستون: فى نجاري الضبيب.

الباب السادس والستون: فى نجاري المراكب.

الباب السابع والستون: فى النحاسين باعة العبيد.

الباب الثامن والستون: فى النحاسين باعة الدواب.

الباب التاسع والستون: فى الطوايين وغشهم.

الباب السبعون: فى دلالين العقارات.

الباب الحادى والسبعون: فى تقديرات المراكب.

الباب الثانى والسبعون: فى باعة الفخار.

الباب الثالث والسبعون: فى شعابى البرام.

الباب الرابع والسبعون: فى الزجاجين وغشهم.

الباب الخامس والسبعون: فى معلمى الصبيان، ومعلمات البنات.

الباب السادس والسبعون: فى الدهانين وغشهم.

الباب السابع والسبعون: فى المكارية.

الباب الثامن والسبعون: فى النحاتين، والمصولين فى التراب.

الباب التاسع والسبعون: فى كساحى السمد وحمالته.

الباب الثمانون: فى الغرايل ومناخل الشعر.

الباب الحادى والثمانون: فى حافرى القبور.

الباب الثانى والثمانون: فى الوراقين والمبهرجين.

الباب الثالث والثمانون: فى من يكتب الرسائل على الطريق والرقاع والدروج.

الباب الرابع والثمانون: فى كتاب الشروط.

الباب الخامس والثمانون: فى الوكلاء بأبواب القضاة وتدليسهم.

الباب السادس والثمانون: فى الميازيب ومضرتها.

الباب السابع والثمانون: فى إصلاح الجوامع والمساجد.

الباب الثامن والثمانون: فى قراء القرآن قدام الموتى.

الباب التاسع والثمانون: فى غسالى الموتى، نفع الله بهم.

الباب التسعون: فى المراصد والمراقب.

الباب الحادى والتسعون: فى طباخى الولائم.

الباب الثانى والتسعون: فى معرفة الموازين.

الباب الثالث والتسعون: فى معرفة المكاييل.

الباب الرابع والتسعون: فى معرفة مثاقيل الذهب وصنح الفضة.

الباب الخامس والتسعون: فى معرفة الأرطال والقناطير.

الباب السادس والتسعون: فى معرفة الأقساط.

الباب السابع والتسعون: فى معاصر الزيت وغشهم.

الباب الثامن والتسعون: فى التبن والتبائن.

الباب التاسع والتسعون: فى القرط والقراطين.

الباب المائة: فى الأنماط وصناعتها.

الباب الحادى والمائة: فى صناع الأخمرة والحريز والوقايا.

الباب الثانى والمائة: فى الحصر العبدانى.

الباب الثالث والمائة: فى الخيزرانين.

الباب الرابع والمائة: فى اللبود واللبادين.

الباب الخامس والمائة: فى الأرجوان وصناعته.

الباب السادس والمائة: فى العصار.

الباب السابع والمائة: فى الأبارين.

الباب الثامن والمائة: فى الحلفاء وعدده ورسومه.

الباب التاسع والمائة: فى المحامل وصناعتها.

الباب العاشر والمائة: فى الروايا والقرب.

الباب الحادى عشر والمائة: فى الدباغين.

الباب الثانى عشر والمائة: فى دباغى الكيمخت.

الباب الثالث عشر والمائة: فى دباغ جلود البقر.

الباب الرابع عشر والمائة: فى أهل الذمة.

الباب الخامس عشر والمائة: يشتمل على تفاصيل وجمل.

الباب السادس عشر والمائة: فى ترتيب التعزير.

الباب السابع عشر والمائة: في مجالس الحكام.

الباب الثامن عشر والمائة: في مجالس الأمراء والولاة.

* * *

الباب الأول

فيما يجب على المحتسب^(١) من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها

اعلم وفقك الله لما كانت الحسبة أمراً بمعروف، ونهياً عن منكر، وإصلاحاً بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً، عارفاً بأحكام الشريعة؛ ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، فإن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، ورُبَّ جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع، فيرتكب المحظور وهو غير عالم به، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما قال النبي ﷺ.

فأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله، فقد قال الله عز وجل في ذم علماء بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وروى أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة

(١) اعلم أن الفرق بين المحتسب والمتطوع من تسعة أوجه:

أحدها: أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية، وفرضه على غيره داخل في فرض الكفاية. والثاني: أن قيام المحتسب به من حقوق تصرفه الذي لا يجوز أن يتشاعل عنه غيره، وقيام المتطوع به من النوافل الذي يجوز التشاغل عنه لغيره.

والثالث: أنه منصوب للاستعداد إليه فيما يجب، وليس المتطوع منصوباً للاستعداد.

والرابع: أن على المحتسب إجابة من استعدى به، وليس على المتطوع إجابته.

والخامس: أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة، ليصل إلى إنكارها، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر، ليأمر بإقامته، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

والسادس: أن له أن يتخذ على الإنكار أعواناً؛ لأنه عمل هو له منصوب، وإليه مندوب، ليكون له أقهر، وعليه أقدر، وليس لمتطوع أن يندب لذلك أعواناً.

والسابع: له أن يعزر على المنكرات الظاهرة، ولا يتجاوزها إلى الحدود، وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

والثامن: له أن يرتزق من بيت المال على حسبه، ولا يجوز لمتطوع أن يرتزق على إنكاره.

والتاسع: أن له اجتهد رأييه فيما تعلق بالعرف دون الشرع، كالمقاعد في الأسواق، وإخراج الأجنحة، فيقر وينكر من ذلك ما أداه اجتهداه إليه.

انظر: الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٢٩٩)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص ٢٨٤)،

أسرى بى رجالاً تقرر ضفافهم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم^(١)، وقال الله عز وجل مخبراً عن شعيب، عليه السلام، لما نهى قومه عن بخس الموازين ونقص المكايل: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ولا يكون المحتسب كما قال ابن همام السلولى:

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفأويق حتى ما يدر لها ثعل^(٢)

وقال الآخر^(٣):

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وطلب مرضاته، خالصاً مخلص النية، لا يشوبه فى طويته رياء ولا مراء، ويجتنب فى رياسته منافسة الخلق، ومفاخرة أبناء الجنس، لينشر الله تعالى عليه رداء القبول، وعلم التوفيق، ويقذف له فى القلوب مهابة وجلالة، ومبادرة إلى قبول قوله بالسمع والطاعة، وقد قال النبى ﷺ: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله وكله الله إليهم^(٤)، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله فيما بينه وبين الناس^(٥)، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته^(٦)، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه^(٧)».

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٢٤)، ومسلم فى الإيمان (٢٦٧).

(٢) قال ابن منظور: وإنما ذكر الثعل للمبالغة فى الارتضاع، والثعل لا يدر. انظر: لسان العرب (١٨٤/١) (مادة/ثعل).

(٣) البيت منسوب لأبى الأسود الدؤلى. انظر: معجم البلدان (٣٨٤/٧)، ونسبه الأصفهاني للمتوكل الكنانى. انظر: الأغاني للأصفهاني (٣٩/١١).

(٤) إلى هنا أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٥١١/١) ح (٢٧٧).

(٥) قوله: «من أحسن»، إلى قوله: «وبين الناس»، لم أجده.

(٦) قوله: «ومن أصلح سريره، أصلح الله علانيته»، أخرجه البيهقى فى الكبرى (١٠٦/١٠) ح (٢٠٠٧٠)، وابن أبى شيبه فى مصنفه (١٦٢/٧) ح (٣٤٩٨٨)، وهناد فى الزهد (٣٠٠/١).

ح (٥٢٨).

(٧) وقوله: «ومن عمل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه»، أخرجه الحاكم فى المستدرک (٤٨١/٢) ح (٣٦٥٨)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، والكنانى فى مصباح الزجاجاة (٣٨/١) ح=

وذكروا أن طغتكين أتاك سلطان دمشق، طلب له محتسبًا، فذكر له رجل من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلما بَصُرَ به، قال له: إني وليتك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: إن كان الأمر كذلك، فقم عن هذه الطرَّاحة^(١)، وارفع هذا المسند الذى وراء ظهرك، فإنهما حرير، وخلع هذا الخاتم من إصبعك، فإنه ذهب، فقد قال النبي ﷺ فى الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتى، جلُّ لِنَاتِهَا»^(٢)، قال: فنهض السلطان عن طرَّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضمنت إليك النظر فى أمور الشرطة، قال: فما رأى الناس محتسبًا أهيب منه.

وينبغى للمحتسب أن يكون مواظبًا على سنن رسول الله ﷺ، من قصِّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، هذا مع القيام على الفرائض والواجبات، فإن ذلك أزيد فى توقيره، وأنفسى للطعن فى دينه. وقد حكى أن رجلاً حضر عند السلطان محمود يطلب الحسبة، فرأى شاربَه قد غَطَّى فاه من طوله، وأذياه تسحب على الأرض، فقال له: يا شيخ، اذهب فاحتسب على نفسك، ثم عد واطلب الحسبة على الناس.

وينبغى أن يكون شيمته الرفق فى القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره الناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ فى استمالة القلوب، وحصول المقصود، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد حكى أن رجلاً دخل على المأمون، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر، وأغلظ على المأمون فى القول، فقال له المأمون: يا هذا، إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر منى، فقال لموسى وهارون: ﴿قُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

= (١٠٢)، وابن ماجه (٩٥/١) ح (٢٥٧)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٧٦/٧) ح (٣٤٣١٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠٦/٢) ح (١٨٨٨)، والبيهقى أيضًا فى الزهد الكبير (٦٦/٢) ح (١٦)، وابن أبى عاصم فى الزهد (٢٢/١)، وهناد فى الزهد (٣٥٥/٢) ح (٦٦٨)، والإمام أحمد فى الزهد (٨٠/١، ٨١) ح (١٦٦).

(١) هى مرتبة يفتريشها السلطان إذا جلس.

(٢) رواه الترمذى (١)، والنسائى (٤٠)، وابن ماجه (١٩).

يَخْشَى» [طه: ٤٤]، ثم أعرض عنه، ولم يلتفت إليه، ولأن الرجل قد ينال بالرفق ما لا ينال بالتعنيف، كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب كل رفيق»^(١).

وليكن أيضًا متأنياً، غير مبادر إلى العقوبة، ولا يؤاخذ أحداً بأول ذنب يصدر، ولا يعاقب بأول زلة تبدو؛ لأن العصمة من الناس مفقودة، فيما سوى الأنبياء.

وإذا عثر بمن نقص المكيال، أو بخس الميزان، أو غش بضاعة، بما يأتي وصفه في أبوابه من أنواع الغشوش، استتابه عن معصيته، ووعظه وخوفه، وحذره العقوبة والتعزير، فإن عاد إلى فعله عزّره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية، ولا يبلغ به الحد.

ويتخذ له سوطاً، ودرة^(٢)، وغلماً، وأعواناً، فإن ذلك أرحب للقلوب، وأشدّ خوفاً، ويلزم الأسواق والدروب في أوقات الغفلة عنه، ويتخذ له فيها عيوناً يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق، فقد ذكر أن علي بن عيسى الوزير ببغداد^(٣) وقع إلى محتسب كان في وقت وزارته، ذكروه له بأنه يكثر الجلوس في داره، فكتب له يقول: الحسبة لا تحتمل الحجة، فطف بالأسواق تدر لك الأرزاق، وإن لزمتم دارك صار الأصر كله عليك، والسلام. فإذا فعل المحتسب كذلك، فقد أوفى ما يجب عليه، والذي يجب له أيضاً على سلطانه إدرار الرزق عليه بما يكفيه، وبسط يده، وترك معارضته، وترك الشفاعة عنده في الخاصة والعامة.

ويكون متورّعاً عن قبول الهدية من المتعشين من أرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة، قال النبي ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشى»^(٤)، والتعفف عن ذلك أصون، ويلزم أيضاً غلمانه وأعوانه، فإن علم أن أحداً منهم قبل رشوة، أو أخذ هدية، صرفه عنه؛ لتتفى عنه المطلوب، وتتجلى عنه الشبهات.

ويجب عليه أن يجعل له نائباً على ساحل البحر مكان ترد إليه الغلة ليعلمه ما يرد إليه

(١) رواه البخاري في الاستتابة (٤)، ومسلم في البر (٤٧)، وأبو داود في الأدب (١٠)، والترمذي في الاستئذان (١٢)، وابن ماجه في الأدب (٩)، والدارمي في الرقاق (٧٥) والإمام مالك في الموطأ في الاستئذان (٣٨)، والإمام أحمد في مسنده (١٤٠/١) ح (٩٠٥).

(٢) الدرة: أداة للضرب.

(٣) هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، وزير للمقتدر، توفي سنة ٣٣٤هـ.

(٤) أخرجه أبو داود في الأقضية (٤)، والترمذي في الأحكام (٩)، وابن ماجه (٢)، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) ح (٦٧٨٩).

فى كل يوم، ويحتم على مخازن من غلته رسم عبور إلى وقت الحاجة؛ لأن ربما جرى بعد ذلك تفريط فى أوجه، وهذا أمر جليل لا ينبغى الغفلة عنه، ولا التفريط فيه. ويلزم المحتسب بعد ذلك أن يفرق الغلة بالتعريف على مقدار ما فى البلد، وينظر فيمن عنده من الناس، وذلك مأخوذ من الأحجار التى تطحن فى البلد؛ لأن كل حجر فارسى يطحن فى كل يوم ليلة ستة أرادب^(١)، فإذا جعلناها أقداحاً^(٢) كانت خمسمائة قدح وستة وسبعين قدحاً، بقيت كل إنسان منها قدح، فهذه الأحجار يعرف بها عدد الناس فى كل مدينة بالتقريب.

* * *

الباب الثانى

فى النظر فى الأسواق والطرقات

ينبغى أن تكون الأسواق فى الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديماً، ولا يجوز لأحد من السوق إخراج مصطبة^(٣) دكانه عن سَمْتِ أركان السقائف^(٤) إلى الممرِّ الأصلى؛ لأنه عدوان وتضييق على المارة، فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما فى ذلك من إلحاق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كل صنعة سوقاً يختص بهم، تعرف صناعتهم، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز، والجردقانى^(٥)، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن البزازين والعطارين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار.

وينبغى للمحتسب ويستحب له أن يجعل له على أهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون

(١) جمع إردب، وهو مكيال ضخيم لأهل مصر، وهو أربعة وعشرون صاعاً، بصاع النبىِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومقدار الإردب عند الحنفية: (٣,٢٥ × ٢٤ = ٧٨) كيلو جراماً. وعند الجمهور: (٢,٠٤ × ٢٤ = ٤٨,٩٦) كيلو جراماً. انظر: المكايل والموازين الشرعية لعلی جمعة (ص٣٩).

(٢) القدح: مكيال مصرى، وهو ثمن كيلة مصرية. فحجم القدح: (١٦,٥ ÷ ٨ = ٢,٦٠٢٥) لترًا. انظر: المكايل والموازين لعلی جمعة (ص٣٦).

(٣) المصطبة: بناء من الحجر.

(٤) جمع سقيفة، وهى ما تسقف به الأسواق لحماية الناس من المطر وما شابهه.

(٥) هو الخباز بالفارسية.

مشرقاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما جلب إلى سوقهم من المتاجر والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها، لقوله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها»^(١).

ولا يجوز للمحتسب أن يسعر البضائع على أهلها، ولا أن يلزمهم بيعها بسعر معلوم، فقد غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقال الناس: يا رسول الله، سَعَّرَ لنا، فقال ﷺ: «هو القابض والباسط والمسعّر، وإنني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد يطالبني بمظلمة في نفس ولا في مال»^(٢).

وإنما إذا رأى المحتسب أحداً قد احتكر الطعام من سائر الأقوات، وهو أن يشتري في وقت الغلاء، ويتربص به ليزداد في ثمنه أكثر منه، ألزمه بيعه إجباراً؛ لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب، وقد قال النبي ﷺ: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون»^(٣).

ولا يجوز تلقى الركبان، وهو أن تقدّم قافلة فيلتقيهم إنسان خارج البلد، فيخبرهم بكساد ما معهم لبيتاعه منهم رخيصاً، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك^(٤)، ونهى عن بيع السلع حتى يهبط بها إلى الأسواق، فإن عثر المحتسب بمن يقصد ذلك، عزره وردعه عن فعله.

وينبغي أن يمنع أحمال الحطب، والخلفاء، وأحمال التبن، وروايا الماء، والرماد، وما أشبه ذلك، من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر بلباس الناس، ويأمر أهل الأسواق بكنسها، وتنظيفها من الأوساخ، وغير ذلك مما يضرّ بالناس، فإن النبي ﷺ قال:

(١) هو مما اشتهر على ألسنة الناس، وليس هو من لفظه، ولذا قال الحافظ العجلوني: يستأنس له بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما كان من أمر دنياكم فإليكم». وقال في التمييز: ويشهد له ما ثبت في سنن أبي داود، عن سعد، قال: مرضت، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: «إنك رجل مفؤود، فات الحارث بن كلدة من ثقيف، فإنه رجل يطيب...» الحديث. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (١٣٤/١) ح (٣٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع (٧٣)، وأبو داود في البيوع (٤٩)، وابن ماجه في التجارات (١٣)، والإمام أحمد في مسنده (٤٩٣/٢) ح (٨٨٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٦)، والدارمي في البيوع (١٢).

(٤) وهو النهي عن تلقى الركبان. أخرجه البخاري في البيوع (٤٣٣/٤) ح (٢١٥٨)، ومسلم في البيوع (١١٥٦/٣) ح (١٥١٧/١٤).

٢٩٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
«لا ضرر ولا إضرار»^(١).

وأما الطرقات وأزقة الحارات، فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره إلى الممر المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية على السالكين، كمجارى الأوساخ الخارجة من الدور فى زمن الصيف إلى وسط الطريق، فإنه يكلف بسده فى الصيف، ويحفر له فى داره حفرة يجمع فيها.

ولا يجوز التطلع إلى الجيران من الأسطحة والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال فى طرقات النساء من غير حاجة، فمن فعل ذلك عزَّره المحتسب، سيما إذا رأى رجلاً أجنبياً مع امرأة أجنبية يتحدثان فى موضع خلوة، فإنه أكثر للتهمة فى حقها^(٢)، وإذا تكررت خيانة رجل من أهل السوق أدبه، فقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أمر بضرب رجل وجب عليه الحد، فقال له وهو يضربه: قتلتنى يا أمير المؤمنين، فقال له: الحق قتلك، قال: فارحمنى، قال: لست أرحم بك ممن أوجب عليك الحد^(٣). فإن عاد إلى الخيانة أقامه من السوق^(٤).

* * *

الباب الثالث

فى الخبازين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة من أهل صناعتهم، ويأمره أن يكتب له جريدة بأسمائهم وعدتهم، ويطالبوا برسومهم فى كل يوم، ولا يسامحوا منها بشيء، ومتى سومحوا منها بشيء، كان ذلك سبباً للاضطراب فى الأسواق وفساد الأحوال.

ويتفقد ما يغشون به الأخباز من دقيق الجلبان^(٥)، والقول، فإنهما يسودانه، وكذلك

(١) أخرجه مسلم فى البيوع (١١٥٦/٣) ح (١٥١٧).

(٢) ولا يعجل بالتأديب عليهما حذار من أن تكون ذات محرم، وليقل: إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب، وإن كانت أجنبية، فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات. انظر: الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٣١١)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص ٢٩٣، ٢٩٤).

(٣) لم أجده.

(٤) انظر هذا الباب فى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى (ص ٢١٦).

(٥) نوع من البقول.

دقيق الحمص، فإنه يثقله ويفججه، وكذلك دقيق الشعير والسميد^(١) ما يخفى نظرهما على وجهه، وأيضاً في كسره، وإذا لم ينضج الخبز أدب الخباز والفران جميعاً؛ لأن الخباز إذا أمر الفران ائتمر.

ويطالبون بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، ونظافة المعاجن، وما يغطي به الخبز، وما يفرش تحته، ولا يعجن عجان بقدميه، ولا بركبتيه، ولا بمرافقه؛ لئلا تنحدر أعراق أبدانهم في العجين، وفي ذلك أيضاً احتقار بالطعام، ويكون العجان مثلثاً؛ لئلا ييدر من بصاقه أو مخاطه شيء في العجين إذا تكلم أو عطس، ولا يعجن إلا وعليه ملعة، أو ثوب مقطوع الأكمام، ويشد جبينه بعصابة بيضاء لئلا تمنع عرقه أن يقطر، ويحلق شعر ذراعيه كل قليل، وإذا عجن في النهار، فليكن عنده من ينش عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمنخل الصفيق.

وأما الجرذقانيون، فلا يضع أحد منهم في عجينه شيئاً من النطرون^(٢)؛ لأنه يورث العطش، ويسهل البطن، ويورث البواسير. وينبغي أن يجعلوا عوضه الكمون الأبيض، وأن لا يحمي أحد منهم تنوره بساس الكتان، ولا بقرمة؛ لأنه يورث النسيان. وكذلك حوانيتهم التي توقد فيها التنانير، تكون سقوفها مرتفعة، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوفها منافس واسعة يخرج منها الدخان، وإذا فرغ من حموه مسحه بخرقه، ثم يسرع في الخبز، ويقرر بيع الخبز بلا غبن ولا حيف على الخباز ولا على الرعية. ويؤمنون أن لا يخبزوا خبزاً إلى أن يختمر، فإن غير الخمير يثقل في الميزان، ويثقل في المعدة. وكذلك إذا كان قليل الملح، فإنهم يقصدون بذلك ثقله ووزانته.

وينبغي أن يرشوا على وجهه الأبازير الطيبة مثل الكمون الأبيض والأسود، والشونيز^(٣)، والقرطم^(٤)، وما أشبه ذلك، وكذلك في العجين، والمصطكي، وعرق الكافور، والشبية، ويعتبر سعر الأوقات ونقصانه، ويفتش على لوح الخبازين أوزانها على أطرافها، وإذا عرض حركة على الخبز أمرهم بعمل وظائفهم كلها خبزاً.

(١) نوع من الدقيق.

(٢) النطرون هو: البورق الرومي، وهو لونان: أبيض خفيف، فيه مشابه كور الزناير، ويسمى: غوله، والآخر: أصفر قطاع كالصفائح.

(٣) هو: حبة البركة السوداء.

(٤) هو: القرطم الهندي، أو حب النيل.

٣٠٠ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن يسام
وبعد، فاعلم وفقك الله أن الحملة الدقيق الحواري^(١) ثلاثمائة رطل بالقلعي^(٢)،
وكذلك الخشكار^(٣)، فإذا أردت معرفة مؤونة كل واحد منهم ووقوع خبزهم بالرطل
القلعي أيضاً، فوجدت قمح الحملة الحواري مدخلها عشر وبيات^(٤) ونصف قمحاً غلتا
يصبح في سبعة ونصف، وطحينها ستة دراهم، ويلحقها في العجين والخبز أربعة
دراهم، ومن الخمير عشرون رطلاً، وخبزها ثلاثمائة وثمانون رطلاً بالقلعي، وعيار
الحملة الخشكار من القمح نظير الحواري، وطحينها ثلاثة ونصف، ويلحقها أيضاً في
العجين والخبز أربعة دراهم، ومن الخمير عشرون رطلاً، ووقوع خبزها عليها في محاسبة
الخبازين إذا احتيج إلى ذلك يوماً، وبالله التوفيق^(٥).

* * *

الباب الرابع

في السقائين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً، ويعرفه أنه لما كانت الأمواج تجيب الأوساخ والأقذار
إلى الشطوط، وجب أن يكون السقاؤون يدخلون في الماء إلى أن يبعدوا عن الأوساخ،
وإذا يستقوا من مكان يكون قريباً من سقاية، ولا مستحم، ولا مجبرة حمام، ومن اتخذ
منهم رواية جديدة، فليقل بها الماء إلى الطين أياماً، فإن ماءها يكون متغير الطعم

(١) هو: لب الدقيق.

(٢) الرطل: معيار يوزن به، وهو مكيال أيضاً، وإذا أطلق في الفروع الفقهية فالمراد به: رطل بغداد،
أو الرطل العراقي. الرطل العراقي عند الحنفية: نصف من أي (١٣٠ درهماً)، فالرطل العراقي
(٨١٢,٥ ÷ ٢ = ٤٠٦,٢٥ جراماً)، وعند الجمهور الرطل يساوي (١٢٨ درهماً وأربعة
أسباع)، فالرطل عند الجمهور = (١٢٨,٥٧٥ × ٢,٩٧٥ = ٣٨٢,٥ جراماً)، والرطل الشامي
(٦٠٠ درهماً)، فهو عند الحنفية (٣,١٢٥ × ٦٠٠ = ١٨٧٥ جراماً)، وعند الجمهور
(٢,٩٧٥ × ٦٠٠ = ١٧٨٥ جراماً)، والرطل المصري يقدر بـ (٤٤٩,٢٨ جراماً)، قاله الشيخ
على جمعة في المكايل والموازين الشرعية (ص ٢٩، ٣٠).

(٣) الخشكار هو الدقيق الذي لم تنزع نخالته.

(٤) جمع ووية، وهو وزن مصري يعادل (٤٠ - ٤٢ رطلاً مصرياً). انظر: معالم القرية في أحكام
الحسبة لابن الأخوة (ص ٩٠).

(٥) انظر هذا الباب في نهاية الرتبة في طلب الحسبة (ص ١٨٩)، معالم القرية في أحكام الحسبة
لابن الأخوة (ص ٩١ - ٩٢).

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٠١
والرائحة من أثر الدباغ، فإذا زال التغير، أذن له المحتسب في بيع مائها.

وينبغي أن يكون في أوساطهم التبانين^(١)؛ ليستروا عوراتهم. وسقاة الماء بالكيزان أصحاب القرب، يؤمرون بنظافة أزيارهم، وصيانتها بالأغطية، وتغطية قريهم التي يسقون منها في الأسواق بالميازير، ويمنعهم أن يسقوا بكيزانهم المحذم، والأبرص، وأصحاب العاهات والأمراض الظاهرة، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة، وتطيب شبابيكها بشمع المسك واللادن^(٢) الطيب العنبري، واقتقاد الخوابي بالبخور، والغسل كل ثلاثة أيام.

* * *

الباب الخامس

في السوق وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمر أحدهم أن لا يقدم فرشه خارجاً عن مصطبه بشيء، وأن يجعل فراش أكبرهم إلى داخل حانوته، وإذا أجلس البياع على ميزانه صبيّاً دون البلوغ، اشترط على معلمه أنه إذا بخس كانت العقوبة واقعة به دون صبيه، وبعد الشرط، فلا يمنع الصبي التعيش.

ويعير موازينهم، وصنحهم، وأقداحهم، ويمنعوا من أن يكون في حوانيتهم دستان من الصنح، والأرطال حديد لا يكون في شيء منها حلقة أصلاً، ويختتم بالخواتم الرصاص، ويكتب عليها المحتسب، ويرسم الختم بخطه، ويفتقد كل قليل، وربما جلدوا على اللفت وزنوا به في جملة الأرطال، وينبغي إذا شرع في الوزن أن يسكن الميزان، ويضع فيها البضاعة، ولا يهمز حافة الكفة بإبهامه، فإن ذلك بخس وتدليس.

ولا يكون في ميزانهم الفضة صنحة ثلاثة دراهم، ولا في ميزان الأرطال ثلث رطل؛ لأن الثلث يشابه النصف رطل، وكذلك صنحة الثلاثة تشابه الدرهمين، ويعتبر حبات القمح التي في موازينهم، فقد تنقع ويدس في أجسامها ما يزيد في ثقلها من أطراف الأبر وغيرها. وتكون كفات موازين الذهب والفضة خفافاً، ومساميرها فولاذاً. وتكون موازينهم الفضة من بين أيديهم حتى يشرف عليها من يزن أو يوزن له.

(١) جمع تبان، وهو سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط، يكون للملاحين عادة.

(٢) اللادن: نبات يستخرج منه مادة لزجة طيبة الرائحة.

ويأمرهم أن يجعلوا ما يبيعون به من الدراهم فى بطون موازينهم، ولا يتركوها فى جملة ما فى أيديهم من الصنح، بحيث ألا يكون فوق فراخ موازينهم إلا الصنح لا غير. ولا ينقد أحد دراهم الناس وبين يديه جوز، أو لوز، ولا شئ من المكسرات، فربما يسقط فيها من دراهم الناس عند النقد، ويجمعها إذا انصرفوا. ويكون سائر ما يكتالون به محتوياً بالرصاص، ومنقوشاً فى طرفها اسم الإمام؛ لئلا يبردوا رءوس المكاييل بعد العيار فتتقص. ويكون سائر ما يكال به سعة أسفله أو قريب منه، ويفتقدها بعد ذلك كل قليل؛ لئلا يصب فيها ما ينقصها مثل الجبس وغيره.

وربما حشيت أواقى الزيت التى يطوفون بها البيعة، والمكاييل، بالقير فى أسفلها، ويقلعها إذا خاف. ويلزمون أن تكون موازين الأرتال متعرضة فى قوس الدكان لي شاهد الزبون ما يحمل له من الأرتال عند الوزن والمأكولات. ويمنعهم أن يجعلوا فى كفة الميزان خيطاً من حلفاء، فإنه يمنعها النزول، ويجنبها بسرعة الرجحان. ولا يكون لشئ من الأوزان خطأً، فإن الغرض منه أن يعلق فى الكفة القدامية، فتكون الخيانة بمقدار وزنه، وتكون جميع موازينهم وأوعيتهم التى لأطعمة الناس نظيفة مصونة بالأغطية والشد عليها.

ويمنعون أن يسقوا الجبن السنارى بالزيت الطيب، ولا بالشيرج؛ لأنه تدليس. وربما فجوه بأفواههم، فيكون ذلك ضرراً لمن يأكله. ولا يغسلوا الجبن الحيسى فى مطاهر الحمامات. ويمنع من يرطب التمر بالماء، ومن يرش الماء الممزوج بعسل القصب على الرطب. وكذلك باعة الزيت يمنعون من فجه بالماء، وينهاهم عن بيع ما دون من البطيخ، والقثاء، والتين، والرطب، وما قد تنهى نضجه حتى يهرأ قشره من جميع ذلك. وتكون ملاعق بيع الصابون من خشب، فإن صدأ ملاعق الحديد يبقى فى الصابون، فإن طبوعها محرقة لما يتعلق منه فى الملابس.

ويعتبر عليهم الزيوت فى زمن نفاقها، فإن الزيوت تغش بزيت القرطم فى زمنه، إلا أن له دخاناً عظيماً فى النار، وهو يخلط أيضاً فى الشيرج لوقته، وكذلك زيت الخس، وهو يعرف بخفته فى الوزن، ورقته فى الوعاء، وشمه إذا مسح به على ظهر اليد. وقد يخلط الشيرج بالزيت للإتفاق إذا غلا سعره، وجسم الشيرج أخف من جسم الزيت، فلا يمكنهم من ذلك، فإنه غش وتدليس.

وإذا غشوا الخل بالماء، انجس فيه خشيشة من الراس، فإنها تشرب الماء وتقبله دون

الخل، ومن معرفته أيضاً إذا صب الخل الحاصل على الأرض نش، وإذا كان معيوباً لم ينش، ومن معرفته أيضاً خذ خوصة أطليها بدهن أو بزيت، ثم اغمسها فى الخل، فإن خرجت وعليها الخل، ففيه الماء، وإن خرجت ملساء ليس عليها شىء، فليس فيه ماء.

وكذلك اللبن الحليب إذا كان فيه الماء، اغمس فيه شعرة، فإنه لم يطلع منه عليها شىء، وإذا كان خالياً من الماء طلع اللبن عليها مكلاً، وكذلك إذا غمست فيه الريش، فإنه يشرب الماء دون اللبن فتمصه، فيخرج فى فيك، وإذا كان بلا ماء، فإنك تمصها ما يخرج منها شىء، ومن معرفته أيضاً إذا قطر منه على خرقة سال كالدهن وجرى، وإذا لم يكن فيه ماء وقف، وسبيله أن لا يبيعه إلا الغنامة من ضروع الغنم إلى المشتري، وبيعه اللبن الحامض يعتقون عندهم المش الحامض، ثم يخلطونه بالطرى، وهو أحد السمائم، ثم يبيعونه حامضاً، فيمنعون من ذلك، ويحلفون عليه، وتفتش دكاكينهم، ويلزمون بأن يكون يبيعهم وشراؤهم بالقسط الجروى، وهو أربعة أرتال ونصف.

ويعنعون من عمل المرى المطبوخ وبيعه، فإن الفلاسفة يذكرون أنه يورث الجذام، ويعتبر عليهم غش المرى الشعير الذى يعملون به من رُبِّ الخُرُوب، أو من غسل القصب، والملح، والكامون الأسود، والكراويا، والشمار، وبيعونه، فهو يبين فى اليد من قلة ذكائه، وإنه يفسد ما يعمل به من الطعام، ويفسد طعمه ورائحته. ويعنعهم أن يدهنوا النيدة البائتة بالزيت، وتباع فى هيئة الطرية، فإن هذا تدليس. ويعتبر عليهم الكوامخ^(١)، والملوحات، والمخللات، فإنها كثيرة التغيير والاستحالة، فيخزنونها ويستحلون بيعها، فما وجد فى شىء منها عتيق أو تغيير، رمى على المزابل.

ويفتقد أوعيتهم التى عندهم من الأوساخ، والتهاون بتركها مكشوفة، ولا يمكنون من ذلك، والسبب فى فساد الكوامخ وحموضها وكرخها والدود المتولد فيها، أن تكون فى الأصل قليلة الملح، والعلف بالعطائر، فتحمض، وربما خلطوه بغيره ففسد الكل، ويتولد فيه الدود، فيراعى ذلك بالعطر والذوق.

والبصل المخلل إذا طلع عليه الكرخ، وكان محبسه يابساً، يأمرهم بتنظيفه من قشره، ويلقى عليه الخل، فإنه ينصلح ويثبت، وإن كان جسمه ليناً، وفيه خمج، فينبغى أن يرمى. وإن تغير اللفت المخلل ولان جسمه، فيجب أن يرمى على المزابل. وكذلك

(١) جمع كامخ، وهو الذى يؤتدم به، وهو معرب.

الكشك قد يعمل من القمح العتيق، ويسقى بماء الخمير، والمش، ويترك حتى يختمر ويحمض، فيعتبر هذا عليهم بالذوق والنظر والرائحة.

والبقالون يلزمون بيع جميع ما يبيعون من البقول بشداته التى يشترونه بها، ولا يحلوا حزمة يعملونها اثنتين، ولا شرش^(١) كبير يفرقونه حزمًا صغارًا، ويبيعوا جميع البقول مغسولة منقاة من الحشيش والطاقات المصغرة. ويأمرهم بقطع سعد أصول الخس. والفجل لا يباع إلا مغسولاً. وإذا بات عندهم شيء فى دكاكينهم من الخضروات، فلا يخلطوه من طرى يومه، ويمنعون من ذلك، فإن ذلك غش وتدليس. وينهاهم أيضًا عن غسل البصل والثوم الطرى الأخضر، فإنه يزيده نتونة وزفرة، ويتفقد عليهم أرطالهم وموازينهم، ومن خالف هذا أدب.

* * *

الباب السادس

فى جزارى الضأن، والمعز، والإبل، والقصاين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ثقة من أهل معيشتهم، ثم بعد ذلك يستحب أن يكون الجزار مسلماً، بالغاً^(٢)، عاقلاً^(٣)، يذكر اسم الله على كل ذبيحة^(٤)، وأن يستقبل

(١) هو الحزمة الكبيرة، وتستعمل عادة لمن يريد أن يشتري كمية كبيرة من البقول.

(٢) قال شيخ الإسلام موفق الدين: كل من أمكنه الذبح من المسلمين وأهل الكتاب إذا ذبح حل أكل ذبيحته، رجلاً كان أو امرأة، بالغاً أو صبيّاً، حرّاً كان أو عبداً، لا نعلم فى هذا خلافاً. انظر: المغنى لموفق الدين (٥٤/١١، ٥٥).

قال ابن المنذر: وأجمعوا على إباحة ذبيحة الصبى والمرأة إذا أطاقا الذبح، وأتيا على ما يجب أن يؤتى عليه. انظر: الإجماع لابن المنذر (ص ٥٨).

(٣) أى يستحب أن يكون عاقلاً، فمذهب الإمام الشافعى عدم اعتبار العقل، وله فيما إذا أرسل المجنون الكلب على صيد قولان، خلافاً للجمهور. انظر: المغنى لموفق الدين (٥٥/١١ - ٥٦).

وبهذا يتضح ثانياً للتأكيد أن مذهب الشيخ ابن بسام المصنف مذهب الشافعية. طالب العلم.

(٤) أى أن التسمية مستحبة، وهو قول الشافعى، ورواية عن الإمام أحمد، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، يعنى الميتة، ذكر ذلك عن ابن عباس. انظر: المغنى لموفق الدين (٣٣/١١).

وروى عن سيدنا ابن عباس أنها شرط مع الذكر، وتسقط بالسهو، وهو قول الإمام مالك، والثورى، وأبى حنيفة، ومشهور مذهب أحمد، وإسحاق، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن المسيب، =

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٠٥
القبلة^(١)، وأن ينحر^(٢) الإبل^(٣) معقولة من قيام^(٤)، والبقر^(٥)، والغنم مضجعة على
الجانب الأيسر؛ لأن ذلك وردت به السنة عن النبي ﷺ. ويأمرهم أيضًا أن لا يجروا
الشاة برجلها جرًّا عنيفًا، وأن لا يذبحوا بسكين كالة، فإن فى ذلك تعذيبًا للحيوان، وقد
نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان^(٦).

ويلزمه فى الذبح أن يقطع الودجين، والمرىء، والحلقوم^(٧)، ولا يشرع فى السلخ بعد
الذبح حتى تبرد الشاة ويخرج منها الروح؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أمر

= والحسن، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة. انظر: المغنى لموفق الدين
(٣٢/١١ - ٣٣). وبهذا يتضح أن المصنف ابن بسام شافعى المذهب.

(١) استحب استقبال القبلة سيدنا ابن عمر، رضى الله عنهما، وابن سيرين، وعطاء، والثورى،
والشافعى، وأصحاب الرأى، وكرة ابن عمر، وابن سيرين، أكل ما ذبح لغير القبلة، وقال
سائرهم: ليس ذلك مكروهًا؛ لأن أهل الكتاب يذبحون لغير القبلة قد أحل الله ذبائحهم. انظر:
المغنى لموفق الدين (٤٦/١١).

(٢) اعلم أن النحر هو المستحب فى الإبل، والذبح فيما سواها، بلا خلاف بين أهل العلم، قال الله
تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾
[البقرة: ٦٧]، قال مجاهد: أمرنا بالنحر، وأمر بنو إسرائيل بالذبح، فإن النبى صلى الله عليه وآله
وسلم، بعث فى قوم ماشيتهم الإبل، فسن النحر، وكانت بنو إسرائيل ماشيتهم البقر، فأمروا
بالذبح. انظر: المغنى لموفق الدين (٤٥/١١).

(٣) فالنحر خاص بالإبل.

(٤) صحيح: أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٢٨٥/٤) ح (٢٨٩٣)، وابن حبان فى صحيحه
(٢٢٤/١٣) ح (٥٩٠٣)، والحاكم فى المستدرک (٢٦٠/٤) ح (٧٥٧١)، وقال: صحيح، ولم
يخرجاه، وأبو داود (١٤٩/٢) ح (١٧٦٧)، وابن أبى شيبه فى مصنفه (٢١٤/٣) ح
(١٣٥٥٨). وانظر: نصب الرأية للزيلعى (١٦٤/٣).

(٥) أى ينحر البقرة.. الخ، للعطف على الإبل، وليس مرادًا للاتفاق على ذبح ما سوى الإبل. انظر:
المغنى لموفق الدين (٤٥/١١).

(٦) نعم، فقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا
قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

(٧) هذا قول الإمام مالك، وأبى يوسف، خلافًا للإمام الشافعى، واعتبر الإمام الأعظم أحد
الودجين. انظر المغنى لموفق الدين (٤٤/١١ - ٤٥).

وبهذا يتضح أن ابن بسام مرة يأخذ بمذهب الإمام الشافعى، ومرة يخالف فعله ما كان متمذهبًا.
طالب العلم.

٣٠٦ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام
منادياً ينادى فى المدينة: لا تسلخ شاة مذبوحة حتى تبرد^(١). وتجوز الذكاة بكل شىء،
إلا السن والظفر، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الذكاة بهما^(٢). ويمنعهم أيضاً ألا يذبحوا
جملأً يكون مقرح الجسم إلى أن يبرأ جميع ما فيه من القروح، وقد كان لأمير المؤمنين
الحاكم بأمر الله فى سجل مجلد فى ديوان الإنشاء، بأن لا يذبح من البقر المخلوج
الورك، والأعور، والأعمى، والمقلوع السن، والمریش العنق، والمجنون، والجرب، وكل
مشقوق الحافر، والمقطوع، والمكوى، وكل شىء كانت عيوبه ظاهرة، والصحيح الرقاد،
والمعلوفة إذا كان بها شىء من هذه العيوب المذكورة، فينهاهم المحتسب عن ذلك
جميعه.

وينهاهم أن لا ينفخوا شاة بعد السلخ، فإن نكهة ابن آدم تغير اللحم وتزفره، ومنهم
من يشق اللحم من الصفاقين، وينفخ فيه الماء، ولهم أيضاً أماكن يعرفونها فى اللحم
ينفخون فيها الماء، فيجب مراعاتهم فى ذلك، ومنهم من يشهر فى الأسواق البقر
السمان، ثم يذبح غيرها، وهذا تدليس.

وأما القصابون، فيمنعهم من إخراج توالى اللحم عن حد مصاطبه، بل تكون متمكنة
فى الدخول عند المصطبة والركنين، فلا يلاصقهم ثياب الناس فيضرون بها، ويأمرهم أن
يفردوا لحوم المعز من لحوم الضأن، وأن لا يخلطوا بعضها ببعض، وينقطوا لحوم المعز
بالزعفران؛ ل يتميز من غيره، وتكون أذنان المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع، ولحم
المعز يعرف برقة لحمه وعظمه، وبياض شحمه.

ويأمرهم بأن لا يلصقوا على سائر اللحوم شيئاً من القزدير، فإن الحكماء قد ذكروا
بأنه يسممه، ولا يخلطوا اللحم السمين بالهزيل، بل يباع كل واحد منهما على حدته،
ويمنعهم أيضاً أن لا يخلطوا شحم المعز بشحم الضأن، وعلامة شحم المعز صفو لونه
وبياضه، وشحم الضأن تعلوه الصفرة، وكذلك بطون المعز لا تختلط ببطون الضأن،
وكذلك الإليات تباع مفردة لا يخالطها جلد ولا لحم.

وإذا فرغ من البيع وأراد الانصراف، أخذ ملحاً مسحوقاً ونثره على القرمة^(٣)؛ لئلا

(١) أخرجه ابن الجعد فى مسنده (٤٦٨/١) ح (٣٢٤٥).

(٢) حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا ما لم يكن سناً
أو ظفراً»، متفق عليه.

(٣) هى قطعة من الخشب يقطع عليها اللحم.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٠٧
تلحسها الكلاب، أو يدب عليها شيء من الهوام، فإذا لم يجد ملجأ، وإلا الأشنان^(١).
والمصلحة أن لا يشارك بعضهم بعضاً؛ لئلا يتفقون على واحد. ويمنعهم أيضاً من بيع
اللحم بالحيوان؛ وهو أن يشتري الشاة بأرطال لحم معلومة، ويدفع إليه كل يوم ما
يتفقان عليه من اللحم، فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك^(٢).

* * *

الباب السابع

في الشوائن

ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً ثقة، ويأمرهم أن لا يلطخوا الخروف والجدى بشيء من
العسل ولا غيره من الحلاوات، فإنه ينفخ جسم البهيمة، كما يدخل النار من غير نضج.
ومن علامة نضجه أن ينقص الربع، فينبغي أن يزن الشواء قل إنزاله إلى التنور، وبعد
طلوعه منه، ومن علامة نضجه أيضاً أن يجذب كتفه، فإن جاء بسرعة، فهو المراد منه،
وإلا ألزم بإعادته إلى النار، ومن علامته أيضاً أن يشق الورك، فإنه يوجد فيه عرق من
الدم باقياً فيه.

وتكون خرافهم مقطوعة الملحات من أصلها، وكذلك الأعضاء، وإلا قطعوها بعد
الوزن، وإذا عرف أوزانها نقصه من الوزن بعد شيه، ويفتقد ما يبقى عندهم منه بلا بيع
في ليالي الصيف، فإنه كثيراً ما يتغير، فيرضونه مع الليمون المالح ويبيعونه، فيخفى
رائحته وطعمه على مشتريه. وربما كسدت الرءوس على الرواسين، فتبتاعها منهم
الشوائن، ويبروا لحمها على قمرهم قليلاً بعد قليل، ويبيعونه في جملة الشواء بسعره،
فيراعى ذلك عليهم أشد مراعاة.

ويأمرهم أن لا يحمو تنانيرهم بساس الكتان أصلاً، ويفتش دكاكينهم كل وقت على
الملاحى التى يسرقونها من ذبائح الناس، وكذلك شحوم الخراف وعصانها، ويحتاط
على جميع ذلك إلى أن ينزلوا الشواء إلى التنور، فإذا نزل طين عليه بطين كثيف نظيف،
وكذلك رمانة الكتف التى تكون تحت الكتف، فإنهم يسرقونها، ويباشر أيضاً ما
يسرقونه من السميد، والأرز، واللبن.

(١) نبات صحراوى.

(٢) انظر هذا الباب في معالم القرية لابن الأخوة (ص ٩٧ - ١٠٥).

٣٠٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن يسام
 ويأمرهم أن لا يؤخروا أشوية الناس عنهم فى أوقاتها، فما كان من الشوائن الذين
 يتعيشون يدفع إليهم شواءهم ضحوة نهار، وأكثر الناس الظهر، ولمن كان صائماً عند
 المغرب، وكذلك أرباب المآتم، ومن اختار التأخير إلى آخر النهار؛ وإن أخر عن الناس
 أطعمتهم فى هذه الأوقات المحدودة، فقد أضرّ بهم، واستحق عند ذلك الأدب بعد
 الإعذار إليه. ويمنع الشوائن من بيع الجدابة التى يعملونها من الماء الذى يقطر من
 الخراف مع يسير من شحومها ودماها؛ لأنه تدليس، فينها عن ذلك، فمن عاد أدب
 وأشهر.

ويفتقد الطين الذى يطبنوا به التنور، وربما عجنوه فى أرض دكاكينهم، فإن الجيف
 تؤذى رائحته، وربما يسقط عنه عند فتح التنور، فيأمرهم بعجنه فى قصرية نظيفة،
 ويفتقد إزيهاهم لتكون مصونة نظيفة^(١).

* * *

الباب الثامن

فى الهرائسين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة من أهل صناعتهم، بصيراً بها، ويطالبهم بنظافة
 قدورهم وجميع آلاتهم بالغسل بكرة كل يوم بالأشنان، والماء الحار، وعيار الهرايس لكل
 قدح من القمح رطل واحد بالجروى من لحم البقر الطيب السمين، ومن لحوم الضأن
 لكل قدح ثمانى أواق بالجروى. ويراعى العريف نظافة اللحم كل يوم بنفسه من الغدد،
 والعروق، والجلود، ويتنقع فى الماء والملح وقتاً طويلاً حتى يحمر الماء، ويلقى فى القدور
 بحضرة العريف، ويختم عليها، فقد يضاف إلى الهرايس من الحيوان الذى ما له قيمة
 ويلقى فى القدور، فإذا كان آخر الليل يشيل منها إلى دار مَنْ يُعِينُهُ على فساد أطعمة
 الناس، فيجب أن لا يفرط فى الختم، ولا يفتحها إلا العريف بعد وقوفه على صحة
 الختم، ويقطر من دهنها على بلاطة نقطاً، أو يغمس فيه ريشة، فإن كان فيه زيت أو
 شيرج، فإنه لا يجمد، وإن كان شحمًا نقيًا خالصاً عرف بجموده. ولا يمكنهم من العمل
 بلحوم البقر المعدة عندهم للمصلوقة، فرما عازهم اللحم الطرى، فيكون ذلك عندهم،
 فلا يمكنون من ذلك، ولا من العمل باللحوم البائنة التى تغيرت رائحتها، ولا بلحوم

(١) انظر هذا الباب فى معالم القرية لابن الأخوة (ص ٩٢ - ٩٤).

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٠٩
الوقائع التي تغيرت رائحتها، ويفتقد قدور الشحوم المسلية؛ لأنها ربما دارت، وكذلك
قدور الزبد التي عند الباعة، فينبغي أن تراعى^(١).

* * *

الباب التاسع

في الزلبانين

ينبغي أن يطالبوا بنظافة آلاتهم كلها، وتغيير مقاليمهم، فإنهم ربما أخذوا عظام البقر
والجمال وغيرها يسلقونها، ويأخذون ما صفا من دهنها، وكذلك دهن الرءوس،
ويخلطونه بالزيت، ويقولون به الزلاية، فإذا أردت معرفة ذلك، اغمس فيه ريشة، أو قطر
منه شيئاً على بلاطة، أو على قليل من الماء، فإن كان فيه دهن جمد على الماء، وإن كان
زيتاً خالصاً لم يجمد.

[وربما بقى في قدورهم شيء من الهريسة، فيخلطونه فيما يعمل من الغد، فيعتبر
عليهم ذلك، وربما باعوا ما يفضل منهم لمن يخلطه في الكشك السوقي، فيراعى ذلك
بشق النقانق قبل قليها، فإنه لا يخفى]^(٢).

وينبغي أن يكون مقلّي الزلاية من النحاس الأحمر الطيب، ويأمرهم بغسله كل يوم
قبل أن يقلوا فيه، وهو أن يحرق فيه النخالة، ثم يدلّكه بورق الصلق إذا برد، ثم يعاد إلى
النار، ويجعل فيه قليل عسل، ثم يوقد حتى يحترق العسل، ثم يجلى بعد ذلك بالخزف، ثم
يغسل ويستعمل، فإنه ينقى من وسخه وزنجاره.

ويكون ثلث دقيق الزلاية ناعماً وثلثاه سميداً؛ لأنه إذا أكثر فيه السميد، زادت
الزلاية بياضاً وخفة في الوزن ونضجاً، غير أن السميد يشرب الزيت أكثر من الناعم،
فلهذا يكرهونه.

وأجود ما قلت به الشيرج، فإن لم يكن، فالزيت الصافي، ولا يشرع في قليها حتى
يختمر عجينيها، وعلامة اختمارها أن تطفوا على وجه الزيت، والفطير منها يركد أيضاً
في أسفل المقلّي، والخمير أيضاً يبقى مجوّفاً مثل الأنابيب، والفطير تكون مرصوصة وليس
فيها تجويف، ولا يجعل في عجينيها ملح؛ لأنها تؤكل بالحلاوة، فتقوى النفس إذا كانت
بالملاح.

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزري (ص ٢٣٢).

(٢) ما بين المعكوفين هكذا في النسختين الخطيتين، ولا علاقة له بالباب.

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
وأما سواد الزلابية، فقد يكون من وسخ المقلاة، أو تكون مقلوبة بالزيت المعاد، وهو الذى يقلب به، أو تكون فطيرًا، وربما جازت عليها النار لسوء الصناعة، فيعتبر المحتسب عليهم جميع ذلك، وينبغى أن تُصنع سلالاً صغاراً لطافاً، ومتى حمض عجينة جعله خميراً.

* * *

الباب العاشر

فى الرواسين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة عارفاً بمعيشتهم، فيأمرهم أنهم إذا سلقوا الرعوس والأكارع يسمطونها بعد ذلك، حتى لا يبقى عليها شئ من الشعر، ويدقوا الرعوس على مقادهم؛ ليقع ما فيها من سائر الأوساخ والدود المتولد فيها، وتسوك تسويكاً نظيفاً، ويجعل فى أفواهها شيئاً من الدارصينى^(١) والكرفس، ولا يخلطوا رعوس الضأن برعوس المعز، وعلامة رعوس الضأن تحت كل عين ثقب يسمونه ماقا، وليس تحت عيون المعز مثله. وربما كسدت عندهم، فيخلطونها بما يبيعونه من غد، وعلامة ذلك أن تُسل العظم الرقيق الذى فى أصل المبلع، وهو المسمى بالشوكة، وتشمه، فإن كان متغيراً، تعلم أنه بائت.

ويجب أن تكون أوعيتهم نظافاً مغطاة. ومنهم من يشتري دهن الأيدان القاطر من الشواء، ويخلطه بدهن الأكارع، ويسقى به الثريد، فيعتبر المحتسب عليهم ذلك، وأن لا يخرجوا الرعوس من الغمة إلى أن ينتهى نضجها، ويكون عنده الملح والدارصينى مسحوقاً ينثره عليها بعد البيع^(٢).

* * *

الباب الحادى عشر

فى الطباخين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة بصيراً عارفاً بمعيشتهم، ويطالبهم بنظافة آلاتهم كلها، وغسلها كل يوم بالماء الحار والأشنان، وأن لا يطبخوا بلحوم المعز، ولا بلحوم الجمال؛ لئلا يأكل منه العليل فيزيد فى علته، أو ناقه من مرض، فتكون سبباً لنكسته. وينهوا عن حشو النقائق بكبود الجمال وكبود البقر، ولا بلحوم المعز، ولا بكبودها،

(١) الدارصينى: شجر له قشر يستعمل مسحوقه فى أخلاط التوابل والبهار.

(٢) انظر هذا الباب فى نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٢٩)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٩٥).

وإنهم أيضاً يجعلون مع كل خمسة أرطال من البقر، رطلين من بياض البصل، ورطل دهن، ورطلين ماء، بعد دقها، فينبغى أن يعتبر عليهم ذلك بالشق عنها قبل أن تقلى، فإنه إذا قلاه نخسه فى المقلى بالسفود ليفجره حتى يستر عيوبه ويسيل ما فيها من الغش، وكذلك غش السنوسك بين قبل قليه وبعد قليه، فإنه يغش بالاقلاء المقشر المنبت، وبياض البصل، فإذا فتحت رآيته عديم اللحم، وهو ما ذكرناه، فاعلم أنه مغشوش، وقد يعمل فيه من لحوم الأسماك المشوية والتوابل^(١).

وإن طبخوا المعز، فعلامته فى القدور سواده، وزهومته، ورقة سائر عظامه. ويمنعون من غش المضيرة بالدقيق لتعقد ويزيد فى وزنها، وقد تعقد أيضاً بدقيق الأرز. ويتفقد عليهم كثرة الأدهان فى قدورهم. ويغشوا أيضاً البهطة بالقلقاس، وقد يغشون به الهريسة أيضاً، وقد يغشون أيضاً الهرايس بالكروش المسلوقة المبشورة، ويسترون عيوبها بالشحوم. ويعتبر عليهم أيضاً العصبان، فإنهم يبيعونها الجزارون.

وينبغى أن يعتبر غسلهم بالشق، ويمنعوا أن تنقع فى الماء قبل بيعها، ويؤمروا بنظافته، وحشوه بلحوم الخواصر، وقناقه بالنعنع، واليسير من السداب، ويخلفوا بالله العظيم أنهم إذا عملوا عصباناً من بطون المعز وباعوه، أن يعلموا الزبون بذلك، ويراعيه العريف أيضاً.

وقد وجدت فى الرسالة التى تعرف بكيمياء الطبخ، التى ألفها يعقوب بن إسحاق الكندى إلى المعتضد ألواناً تطبخ من غير لحم، وقلايا كبود من غير كبود، ومخ من غير مخ، ونقانق من غير لحم، وعجة من غير بيض، وجوذاب من غير جبن ولا أرز، وحلاوة من غير غسل ولا سكر، وألواناً كثيرة من غير عناصرها يطول شرحها، وليس يهتدى إلى دقة صناعتها، وخشيت من تدليس المتعشين فى الأسواق، فأمسكت عن صفتها خوفاً من التنبيه على عملها، رجاءً لثواب الله تعالى^(٢).

* * *

الباب الثانى عشر

فى الحلوانيين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة؛ لأن غش هذه الصنعة كثير جداً، فمن ذلك أن العسل النحل إذا كان نافعاً غالباً، غشوه برب العنب، وهو يعرف إذا جعل على النار،

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٣١)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٠٦).

(٢) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٣١)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٠٦ - ١٠٨).

فإن رائحة الرّب تظهر، وكذلك العسل القصب إذا غلا غشوه بالدبس، فإن النوى يوجد في أسفل الوعاء. والفالودج يُحلّف صانعه ألا يطرح لكل رطل عسل إلا أوقيتين من النشا، أن يكتر فالودز، وأن لا يحشيه.

ومن الحلوى ما يغش بالدقيق، والنشا، ودقيق الأرز، ودقيق العدس، وبقشر السمسم، وربما عملوا عوض العسل النحل القند، والسميد مكان الخشخاش وغيره، ومنه ما يغش بالفتيت وبدقيق السندود، ومنه ما يمزج في النشا ليخفى سواده، والذي يغش منه بالدقيق، إذا ألقى في إناء زجاج وصب عليه الماء، ذاب سكره، وصفا لونه، وركد دقيقه.

ومما يغش به من دقيق اللوزنيج المعزول واليابس، والقاهرة^(١) يغش حشوها بالدقيق، ويعجن بالدقيق أيضاً، وفي حشو القطايف أيضاً يسقى خبزه بالماء الحار حتى لا يشرب الدهن، وكذلك القطايف والمقلي يغش حشوه بالدقيق، ويسقى بخل القند عوضاً عن العسل النحل، وكذلك ناطف^(٢) الخشخاش يغش بالسميد، وإنه لا يبين في الخشخاش، وهو يطفو أيضاً على الماء.

والناطف الهياجي يغش أيضاً بالسميد المقلّى والبندق، والكشك الأبيض والأصفر يغشان بالفتيت، وهو يعود أيضاً على الماء، وكذلك البسندود يغش بالفتيت، وربما عمل بدقيق العدس، وكعب الغزال إذا كان أسمر اللون، فهو معمول من القند، وقد يدرج في النشا ليخفى أمره، وناطف المشاش^(٣) أصفر وأبيض، وكذلك المزاج أصفر وأبيض، فما كان منه بقند عرفته بسواده، وما كان صافياً كان مزاجاً حسناً يباع كل منها بسعره، وما يساوى في الوقت.

والخشكان^(٤) الذي يخبز في التنور إن غشوه يقع عليهم في التنور عند خبزه، والخشكان المقلّى يغش حشوه أيضاً بالدقيق، والمشبكة أيضاً تغش بخل القند عوضاً عن العسل النحل، والخبائص^(٥) الرطبة والناعمة، فغشها أن يكون نشأها خارجاً عن الحد؛

(١) نوع من الحلوى، يدخل فيها اللوز والعسل.

(٢) نوع من الحلوى.

(٣) هو عسل يطبخ، ثم يوضع في إناء ليحمد، فيصبح حلوى.

(٤) هو البسكوت بالفارسية.

(٥) نوع من الحلوى.

لأن منهم من يعمل لكل رطل حلاوة رطل نشأ، ومنهم من يعمل مع كل رطل نصف رطل نشأ، وهذا هو الخطأ، فمن فعل هذا استتيب أول مرة، فإن عاد أدب وشهر.

ولا يمكنهم العريف أن يطرحوا لكل رطل حلاوة سوى أوقيتين نشأ لا غير، وهذه الحبايص الرطبة الكثيرة النشأ إن خفيت فى منظرها وذوقها، فإنها إذا باتت حمضت، والفانيد الخزائى إذا عمل من الأجاجير كان صافياً حسناً شديد الحسن، وكذلك كعب الغزال إذا عمل من القند عرف بسمته، فيباع كل واحد منهما بما يساوى، وأجود ما عمل فى السوق ما كان من السميد، وما كان فى العسل القصب، والماء ورد بالفسق لا غش فيه.

* * *

الباب الثالث عشر

فى هرايس التمر ومطبوخ العدس

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويأمره أن يتقدم إليهم ويلزمهم بغسل جزارهم، وقودورهم، كل يوم بالماء الحار والأشنان، ويعتبر عليهم شغلهم، فمنهم من يعمل فى الهرايس من التمر شيئاً يسيراً، ويلقى عليه من النوى المجموع من على المزابل والطرقات شيئاً كثيراً، ويطرح فيه خشباً يعرف بالقلم^(١) ليصبغه ويزيد فى حمرة، ويطرح فيه شئ من النطرون، أو الكمون الأبيض لينوب عنه، وهو أسلم من النطرون وأنفع منه، فينبغى أن يمنعوا من هذا ويحلفوا عليه.

ثم يعتبر جزارهم بعد ذلك، فإذا رأى شيئاً مما ذكرناه بعد ذلك، كسر ورمى فى أتونات الحمام، ويؤدبون ويشهرون، وكذلك باعة حشو العدس، يتقدم أيضاً لهم ويأمرهم بنظافة أوعيتهم، وتغطيتها، ونظافة مياهاها، ونظافة العدس قبل طبخه، ويحلفوا أن لا يخلطوا فيه ماء الحمص المسلوق بعد طلوعه من التنور ليكثره؛ لأنهم يفعلون هذا فى وقت تحريك السعر وقلة العدس.

* * *

(١) القلم هى: قشور الجوز الأخضر.

الباب الرابع عشر**في الباقلايين، أى الفوالين**

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويأمره أن يمنعهم من عمل الباقلاء المسوس، بل يكون جيداً طيباً، منقى من القديم، وهو يزيد فى تنبته مثله، وكذلك الحمص السالم من التسوس قبل بله وقبل سلقه [ينظف]^(١) من الطين والحجارة، ولا يخلط ما بقى من أمسه مسلوقاً فى حمص يومه، ويؤمرون أن ينشروا عليه الملح المطحون، والكمون الأبيض بعد بيعه؛ ليدفع مضاره، ويفتقد مكاييلهم، فإنهم يأخذون قطعة خشب يحفرونها مكياً، فيكون مثاله طول شبر، والمحفور من داخلها أربعة أصابع، فيغتر الناس بسعتها وطولها، ولا يعلمون ما المقدار المحفور منها، وهذا تدليس ظاهر لا يخفى.

وكذلك الترمس المسلوق، لا يسلق إلا بعد إقامته فى الماء ثلاثة أيام لتزول مرارته، ويجاد سلقه، ويذر أيضاً عليه بعد بيعه الكمون المدقوق بالملح، وكذلك الباقلاء؛ ليعين عل هضمه لفرط ثقله. ويتعاهد موازينهم، وصنحهم، ومكاييلهم، فإن صنحهم قد تتكاثر عليها الأوساخ، ومكاييلهم قد يصبوا فيها الجبس فى أسفلها، أو خبز الفجل حتى تنقص، فيعتبر عليهم ذلك فى سائر الأوقات.

وربما كان معهم أقداح صغار ليس لها عيار، يدعون أنهم يكتالون بها للصغار، وهى مما لا يقع عليها مقدار ولا تحديد، فيمنعون من ذلك وتكسر، ومن شأنهم أن يكون عندهم ثلاثة أقداح، فلا يترك ذلك عندهم أصلاً، ولا ثلث درهم، ولا ثلث رطل أصلاً، جملة كافية.

* * *

الباب الخامس عشر**فى السماكين والسماك**

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً بمعيشتهم، ويأمره أن يعتبر عليهم، فقد يموت السمك فى الماء لفرط البرد وشدته، فتقذفه الأمواج إلى الشطوط، فيأخذونه فى جملة ما

(١) ما بين المعقوفتين زيادة ليست فى الأصل، يتم بها المعنى.

كان يصاد حيًا، وهو ممنوع من أكله لانحراف مزاجه، وفساد طبعه قبل موته، فيمنعون من ذلك. وما بقى عند باعة السمك شيء وبات، جعل صيرًا^(١). وأرطال السماكين، فرسمها أن تكون زائدة على عيار غيرها أوقيتين، وتكون حديدًا مختومة قطعة واحدة بلا حلقة، وإن كانت حجارة، فتكون مجلدة مختومة بالرصاص كما قدمنا ذكرها أولاً.

ويأمر باعته بمواصلة غسل حصرهم، وموازينهم، وجميع آلاتهم، وقفاف الحمالين أيضًا، ويرشوا عليها الملح عند انصرافهم لتقطع رائحتها، فمن خالف ذلك، وكانت قفته من الحمالين منتنة أدب وأشهر، ومن اشترى سمكًا لنفسه، فليكن حمله في زنبيل معه، لكي لا يعدم به ثياب الناس في الأسواق، ومن وجد حاملًا سمكًا في يده، وضع في حجره تأديبًا لغيره.

* * *

الباب السادس عشر

في باعة الصير والبورى والملح

أما الملح، إذا كان جريشًا، ينهوا عن تهشيمه، فإن ذلك تدليس، ومكايل الملح الجريش في المراكب، ودكاكين الملاحين، كلها حروية، فمن اشترى بالحروى وباع بالليتى، فقد ظلم وجار.

وأما البورى، فيعتبر عليهم الفات منعه، ويمنعهم من بيعه، وأن لا يخلطوا بعضها مع بعض، مثاله أن يكون ششف مع لاج، أو طوبار مع طرى، ولكن كل واحد منهما وحده. وينفض ما في خياشيمه من الملح قبل وزنه. ومن باع منه طريًا فأعطى فائتًا ألزم برده، وإعادة ما غرم عليه من حوائجه، وأن تكون أرطالهم كأرطال السماكين، زائدة من عن عيار غيرها أوقيتين، وأن يكون تحت يد كل واحد منهم قفة كبيرة لتقشير السمك، [وأخرى]^(٢) لوضعه ولجمعه فيها، وإذا قشر السمك لصاحبه، فلا يشق بطنه إلا بإذن صاحبه، فإنهم يعملون تحت أيديهم الأوعية للمصران، ويأخذون بغير إذن صاحبه ويبيعونه، وهذا حرام، فيعتبر عليهم ذلك.

وأما الصير، فيعتبر عليهم ما ربح منه، أو ما داد من قلة ملح، أو أن يبيعوا جنسين

(١) الصير هو السمك المجفف المملح.

(٢) زيادة ليست في الأصل، يتم بها الكلام.

مخلوطين، مثاله أن يبيعوا راي وهو مخلوط بغيره، فهو تدليس، فإنه يظهر لونه، وتزيد حمرة فى رأى العين، فيكون بطعمه وذوقه بخلاف ذلك، ويمنعهم أن يشيل أحدهم الملوحة من المطر إلى الميزان بمرته، فهذا تدليس. ويجتهد فى تغطية أوعيته. ويؤخذ عليهم أن لا يعملوا مرى صيراً غيره. ويمنعهم أن لا يعملوا عليه الشرش من ماء الفول المسلوق، فيمنعوا من ذلك، وأن لا ينقلوا من وعاء إلى وعاء، فإن ذلك يغيره ويزيد زفرته، وأن لا يبيع ملحوة جديدة قبل استحقاق أكلها، ومتى ظهر عليهم شىء من ذلك، أدبوا وأشهروا، فيؤمر بأن يفرك عليها بعد بيعها الصعتر الشامى.

* * *

الباب السابع عشر

فى قلائى السمك وسمك الطاجن

ينبغى أن يعرف عليهم عربياً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويأمره أن يأمرهم أن لا يعملوا سمكاً بائناً، ولا متغير الرائحة، وينظر إلى حمرة خيشومه، ويغسلوا آنتهم كل وقت بالماء الحار والأشنان، وتدق حوائجه دقاً ناعماً، ويكون الدقاق مثلثاً؛ لئلا يتكلم أو يعطس، فيقع بصاقه أو مخاطه فى الحشو، ويكون عيار الحشو لكل طاجن إذا كان فيه سمك، ما قيمته عشرة أرتال، وتكون أبزاره معتبرة، ويكون لفلله ثمن أوقية، وكراويا ثمن قدح، وكزبرة ثمن قدح وثوم ثلث أوقية، وسماق ثمن قدح، وزيت طيب ثمن رطل، وطحينه نصف رطل، وماء ليمون نصف رطل، وخمس شدات بقدونس، وقليل صعتر نصف رطل شامى، وقلب بندق محمص مدقوق غير ناعم، فيعتبر عليهم ذلك، ويأمرهم بقلع عظمه وقت وزنه للمشتري، وأن لا يعملوا مع الحوائج شيئاً من الماء إلا ما يغسل به إناء الحوائج عند فراغه، ويكون ذلك بحضرة المحتسب أو نائبه.

وكذلك القلاؤون للسمك من باعته المقيمين فى البلد، والمسافرين به إلى البلدان والأسواق، يطالبون بطراوة ما يتاعونه من السمك، وبنظافته وغسله، ومواضع خياشيمه، ونظافة مقالیه، وطيب وزنه، وغسل أوعيته، وأن يقلى السمك قلياً واحداً بليغاً، بشرط أن لا يعاد إلى الطاجن مرة أخرى، إلا أن يختار ذلك المشتري لتسخينه. وأن ينثر عليه بعد بيعه الأبزار المدقوقة بالملح، ولا يخلطوا البائت بالطرى، وعلامة الطرى حمرة خياشيمه، والبائت ليس كذلك، وينبغى أن يفقد العريف الطاجن كل وقت عند غيبة المحتسب؛ لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك؛ لأنهم يخلطونه مع

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام ٣١٧
الزيت عند قلبه، ويمنعهم أيضاً أن لا يقللوا بالزيت المعاد إذا كان متغير الرائحة، ولا
يفسح لهم فى شىء من ذلك.

* * *

الباب الثامن عشر

فى صيادى الطيور والعصافير

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويمنعهم من نفخهم الطيور، لما فيه
من الضرر والوسخ، ولا سيما إذا نفخه فتكون نكهته متغيرة، ويعتبر الميت منه، وربما
خلطوه بالذى كان حياً، ومعرفته أن يلقى الجميع فى الماء، فإن الميت يعوم، فمن ظهر
عليه شىء من هذا أدب وشهر لكى يعتبر به غيره، وكذلك العصافير المأخوذة من على
الدبق، وعصافير الذبح، فهى كثيرة ممن يموت فى الشباك، فيوجب مراعاتها أيضاً، فإن
الميت منها يعوم على الماء كما ذكرنا أولاً.

* * *

الباب التاسع عشر

فى الطحانين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمره أن يكون فى كل طاحون ميزان من خشب
نظير موازين الجبس، وأوزانه وكلايه كما شرطنا فى موازين الجبس، يوزن به القمح إذا
ورد، والدقيق إذا صدر، ويشد على أذن كل قفة لوح صغير، ويكتب فيه اسم صاحبها
ووزنه، فإذا صح الوزن زالت التهمة وارتفع الشك، وتكون الحجارة التى يوزن بها
القمح مجلدة معيرة مختومة بالرصاص، مكتوباً عليها بالخبر بخط المحتسب أوزانها،
ويشترط على المتاجرين من الطحانين اعتدال موازين الحجارة؛ لأنها إذا رفعت خفت
على الدواب وجرشت الدقيق، وإذا وضعت سحقت وأضرت بالدواب، وإنما يكون
الميزان معتدلاً حتى لا يقع الضرر، ويصلح حال الدواب، ويطيب الدقيق من غير حيف
على الجهتين.

ويحلفون أن لا يخونوا أحداً فى قمحه، ولا فى دقيقه، ومنهم من إذا وزن عليه زنبيل
قمح، أفرغه فى القادوس وبلّ أسفل الزنبيل بالماء، وأخذ بمقدار بلله من ذلك الدقيق،
يفعل هذا بقفاف كثيرة، ويستحلون ذلك، فيحلفون أن لا يفعلوا ذلك، ولا يأمرؤا من
يفعل لهم ذلك.

٣١٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

ثم يوصى بعد ذلك أرباب دواب العمل أن يتقوا الله تعالى فى ترفيهها فى كل يوم ليلة بمحاجتها إلى الراحة والسكون، وأن لا يخاف على العمالة الشرعية الجارى بها العادة، فإن فى ذلك مثوبة، وبقاء للنعمة، وإذا حسنت لهم وفيهم، مع ترك الخيانة.

* * *

الباب العشرون

فى الفرنين وصبيانهم

ينبغى أن يكون للفران مطرحتان، واحدة للخبز، وأخرى للسّمك، لا يطرح فيها خبزاً جملة كافية، ويلزم بتوريد سائر ما يخبزه للخبازين ولأهل البلد، ولا يقبل من ذلك الخباز إذا قال له: جر يدك ليخرج خبزه غير نضيج ائتمر. ويكون فرنه نظيفاً، لا يسود أسافل الخبز، ولا يقربه لشيء من الرماد، وأن لا يوقد بشيء من الأزبال التى تجمع من على الأكوام، ومتى فعل هذا أدب ولطخ منه وجهه وأشهر، ولا يغسل، ويجعل عوضها قصاريّاً جداداً فيها الماكل كل يوم، ويهراق فى آخره.

ويجددوا حشيش مكانسهم من غير حصر المساجد، ويكون على مصطبته التى يلقي عليها أخباز الناس حصيراً مصونة من التراب والأوساخ، وإذا شؤوا سمكاً أو لحمًا، وشموا رائحته، أخذ منه قطعة بحضور صاحبه، ويجعلها تحت يده لمن يأتى إليه ويطلبه بالرائحة من النساء الحوامل، وإذا خبز طبقاً، وكان عليه مئزر أو خرقة، سلمها لصاحب الطبق، وإن كان صاحبه غائباً، جعلها تحت يده إلى أن يحضر، فإن لم يفعل كذلك، وعدم لأحد شيء، لزمه غرامته.

وكذلك أخباز الناس تعد بحضور أربابها، وإذا غاب صاحب طبق أعد على من يشهد له به من الحاضرين. وغلمانهم الذين ينقلون إليهم أخباز الناس، ويدخلون بها إلى بيوتهم، يكونون دون البلوغ، وإذا جاءهم صبي بالغ صرفوه لحال سبيله يحمل فى السواحل، وإذا أتاهم من يطلب ناراً اعتبروه، فإن كان صغيراً يعلمون أنه لا يحسن تدبرها ولا يحملها، فلا يعطوه شيئاً، ويمنعونه من ذلك، ومتى فعلوا بخلاف ذلك واحترق طفل صغير أدبوا وشهروا، وكذلك المداخن التى لأفرانهم يرفعون بنيانها بالبراخ وتعلّى، بحيث يخرج دخانها مرتفعاً عن دور مجاورهم، ومنهم من يخبز بعد فراغه من أخباز الناس وغلق فرنه للمزارين، فينبغى للعريف مباشرتهم فى مثل هذه الأوقات.

* * *

الباب الحادى والعشرون

فى الخطب والخطابين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً، يأمر الخطابين الذين يبتاعونه للخزين إذا قدمت به المراكب، أن يتوقفوا عن الشراء إلى أن يكفى الخبازون وأهل البلد، وما فضل عنهم وكسد اشتروه، وما كان منه حزماً موفر الشد، باع على حاله، وشده بما أطعم الله ورزق من غير حيف على الناس، ولا علمهم بالعدد كما جرت به العادة، ويتقدم إليهم بالمتع من حطاب النزاع البائت عليها وحولها؛ لأن قطعه يخلخل أرضها، ويفسد نظامها، ويكون سبباً لهجوم الماء وقلة نباتها، فيضر ذلك، فمن فعل منهم شيئاً من ذلك بعد الإنذار أشهر.

* * *

الباب الثانى والعشرون

فى القصب والقصابين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، يتقدم إلى أرباب مراكب القصب بأن يوفروا حزمهم كلها، ولا يحيلوا على صبيان المراكب، ولا يقبل لهم عذر. وعيار الحزمة خمسون قبضة بالإبهام والإصبع الوسطانى. وينبغى للمحتسب أن يختم لهم حزمة بثلاث خواتيم تكون عياراً لهم، على ما ذكرنا، ليسقط الحلف، ويزول العذر، وتكون عند العريف يطالبهم بها أبداً. ومتى جرى من أحد منهم بخس، رفع إلى المحتسب ليؤدبه ويشهره. ولا يبيع لأحد من الخزانين شيئاً من القصب إلى أن يكفى سائر أصحاب الأشغال والعمارات، ومهما فضل عن هؤلاء ابتاعوه للتجارة وخزنوه.

* * *

الباب الثالث والعشرون

فى الجبس والجباسين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويتقدم إليهم ويأمرهم بإنضاج الجبس فى الوقيد حتى يصفو، وتظهر منه رائحة كرائحة الطفل، وعلامة نضجه أنه إذا خلط بالماء لم يشتد لوقته، فإذا كان نيئاً لصق، وكذلك إذا صب على الحائط فنشف لوقته، فهو نىء، وإن بقى رطباً ساعة، فهو نضيج.

ويكون لهم موازين خشب نظير الطحانين، كما ذكرنا فى أول الكتاب، وتكون أوزانها مسمرة من تحت العمود مواجهة الأرض، ولا تكون مسمرة فى طرفى عمود

٣٢٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

الميزان فى طوله، وإلا متى اختار إبرازها إلى خارج، فيلحق المشتري الضرر فى الزيادة عليه فى بخسه بمقدار ما أخرجها. وتكون قفة العيار خمسة أرتال بالجروى، معيرة، مختومة بخاتم السلطان الرصاص، ومن فوقه بخط المحتسب، حتى لا يوزن بغيرها، ولأنهم ربما وزنوا فى قفف فى قعرها إبراش مخرطة، فيدخل بينها حبس، فتكون السرقة فى كل وزنة عدد القفف، فينبغى مراعاة ذلك وقلة التغفل عنه، ومتى تخطوا إلى ذلك، أو إلى شىء منه، أدبوا وأشهروا ليكونوا شعبة لغيرهم.

وكذلك الوقاد إذا قصر فى وقيد الحبس ونضجه أدب وأشهر، وكذلك الحجر الذى يعير به الحبس، يكون معيراً، مختوماً، وقنطار الحبس جروى.

* * *

الباب الرابع والعشرون

فى الجير والجيارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، لا يمكنهم من ترك الحجارة، يعنى ترابه الذى يتفتت وقت كسره، حوالى المحيرة، ويكنسون حوالىها قبل إنزالها، ويستظهر عليهم ويباشرهم، وكلما قل حمل الجير على المحيرة كان أجود للجير وشيئ، ويتقدم إليهم بإنضاجه، ليخف ويجود، وتقل حجارتة وأذيته، وأن يكون لهم ميزان خشب نظير موازين الجباسات، فإن دعت الحاجة إلى العيار، فيكون معيناً، وينقش وزن رمانته على صدره عند لسانه، وينقش أيضاً على الرمانة؛ لئلا تبدل برمانة أقل وزناً منها، وقنطار الجير لىتى، وإذا طلع فى الجير حجارة أعيدت لصاحبه وأخذ وزنها.

* * *

الباب الخامس والعشرون

فى الحمامات، وقوامها، وذكر منافعها ومضارها، وما يلزم حراسها،

والبلانين، والمزينين، والوقادين، وباعة النورة

اعلم وفقك الله أنه قد ذكرنا فى هذا الباب وفى اللذين قبله، أموراً ليست من قبيل الحسبة، وإنما ذكرها لعموم الانتفاع بها ومعرفتها، وهى لائحة بهذا الباب، ولعمري إن الحكمة ضالة كل حكيم، والفائدة حسنة حيث وجدت، قال بعض الحكماء: خير الحمام ما قدم بناؤه، واتسع هواؤه، وعذب ماؤه، وقدر الوقاد وقوده بقدر مزاج من أراد وروده. واعلم أن الفعل الطبيعى للحمام هو التسخين بهوائه، والترطيب بمائه، فالبيت الأول مبرد، والثانى مسخن مرتفع، والثالث مسخن مجفف.

والحمام يشتمل على منافع ومضار، فأما منافعها: فتوسع المسام، وتستفرغ الفضلات، وتحلل الرياح، وتحبس الطبع عن السهولة، وتنظف الوسخ والعرق، وتذهب الحكمة، والجرب، والإعياء، وترطب الدماغ، وتجوّد الهضم، وتنضج النزلات والزكام، وتنفع من حمى يوم، ومن حمى الدق. وأما مضارها عند طول القيام فيها، فإنها تسقط شهوة الطعام، وتضعف الباه، وأعظم مضارها صب الماء الحار على الأعضاء الضعيفة، وقد تستعمل على الريق والخلو، فتحفف تجفيفاً شديداً، وتهزل، وتضعف.

وقد تستعمل الحمام على قرب عهد بالشبع فتسمن البدن، إلا أنها تحدث سداً، وأجود استعمال الحمام على الشبع بعد الهضم الأول، فإنه يرطب البدن ويسمنه، ويحسن بشرته، فينبغي للمحتسب أن يأمر ضامن الحمام بنظافتها، وكنسها، وغسلها بالماء الطاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك كل يوم مرتين، ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة؛ لئلا يتعلق به السدر، والخطمي^(١)، والصابون، فتزلق عليها أرجل الناس، ويغسلون الخزانة من الأوساخ المحتمة في مجاريها، والعكر الراكد في أسفلها كل شهر مرة؛ لأنها إن تركت أكثر من ذلك، تغير الماء فيها في الطعم والرائحة.

ولا يسد الأنابيب بشعر المشاطة، بل يسدها بالليف والخرق الطاهرة. ويستحلفون بأن لا يخلوا في الأحواض ماء، ويخلوها كل ليلة. وإذا استعملت مياه الأحواض، ولم ينضحوها، ولا يغسلوها، وأصبحوا ليسبيوا عليها الماء، وأراد المحتسب معرفة ذلك، جعل ماء الحوض وماء الميزاب في إنائين متساويين في السعة والوزن ويزنهما، فإن رجح ماء الحوض على ماء الميزاب فهو لابد^(٢)، وقد يدركه أيضاً بشمه.

ويبخر الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين، لاسيما إذا شرع في كنسها وغسلها، ومتى بردت الحمام، فينبغي أن يبخرها بالخزامى^(٣)، فإنه يحمى هواءها، ويطيب رائحتها، وفي أيام الشتاء يزيد في بخورها الميعة اليابسة. ويجب عليه تقديم استعماله سحراً، لما يحتاج إليه من يتطهر قبل الصلاة. وتسد المنافس التي يدخل منها الدخان الذي يسمى الزنبور، فإن ذلك مضرة لعيون الناس ورؤوسهم، ويأمر ضامن الحمام أيضاً بأن يجعل عنده ميازر يكرها أو يعيرها لمن يحتاج، فإن الغرباء والفقراء قد

(١) ويسمى الغاسول، وهو نبات له ورق مستدير.

(٢) هكذا في الأصل، ولم يتم الكلام.

(٣) الخزامى هي عشبة طويلة العيدان، رائحتها طيبة.

٣٢٢ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام

يحتاجون إلى ذلك، فإن كشف العورة حرام، وقد لعن رسول الله ﷺ الناظر والمنظور، وكذلك ما يقلب به الماء، إما اصطال نحاس، وإما قطع خشب.

ويمنع من الدخول إليها الأجدم، والأبرص، وأصحاب العاهات الظاهرة، ولا يدع الأساكفة تغسل فيها الجلود، فإن الناس يتضررون برائحة الدباغ، وكذلك من كانت صنعتها نقل السمد والجيف، إلا أن يغتسل ويتنظف قبل أن يدخل إلى الحمام، وكذلك البوارين والسماكين.

ويلزم القومة بنظافتها، وغسل أعقاب أبوابها، وأن لا يقطعوا إطلاق مياه الطهور من أحواضها، وأن تكون محاكمهم معروضة على النار، أو تنقع في الماء والملح كل ليلتين، ويعتنوا بجلاء الأحواض قبل انصرافهم، وإذا أخذ الحارس أجرة على حفظ ملابس الناس وعدم شئ منه، لزمه غرمه.

ولا يستقبل البلان الرأس ومنابت الشعر استقبالاً، ولا يأكل ما يغير نكهته، كالبصل والثوم، فإنه يضر الناس، ويلزمون في خلط الزرنيخ والجير أن يلقي على كل عشرة أوزان من الجير الأبيض وزناً واحداً من الزرنيخ الخالص، وإن قصر عن ذلك أضررت النورة بالصفراوي، والعليل، وبالقلق لطول مكثها، فيعتبر النورة عليهم بريشة أو بصوفة تغمس فيها وتترك لحظة، فإن تلاشت، وإلا أدب صاحبها بعد إنذاره وتحذيره، ويأمرهم أن لا يمكنوا الباعة من غسل الأجبان في مطاهر الحمامات.

وسبيل المزينين أن يصلحوا لحية كل أحد على مقدار ما يليق بوجهه، وأن يكون حديدهم رطباً قاطعاً، ويأمرهم أن لا يخلقوا رأس صبي دون البلوغ إلا بإذن وليه، ولا يخلقوا ذقن مخنث، ولا يزينوا له صدغاً، ولا لغيره من المردان والأحداث، وأن لا يعمقوا شرط الحمامة؛ لئلا يقطعوا ما تحتها من الشريانات الرقاق، فيشترط ذلك عند مواضع المحاجم، وهذا موجود قوى، مما يصيب الناس، وهذا التعميق في شرط الحمامة سببه، فينبغي أن يعتبر على المزينين هذا الأمر بورقة سلق، أو بورقة موز تلصق على قطعة طين لين، ويتقدم المزين بشرط الورقة، فإن نفذ مشراطه إلى الطين أدب، وإن خفف كان علامة حذقه، وإنه إذا شرط لم يؤمل، فيكون ذلك سبباً للسلامة.

ويأمر المدلك أن يدلك يده بقشور الرمان؛ لتصير خشنة فيخرج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان، ويمنع من دلوك الفول، والعدس، فإن ذلك طعام لا يجوز امتهانه، ويعتبر على

باعة الدلوك ما يغشون به، فمن ذلك ما يغشون به السدر بالرمل، وبخبز الفجل، والحناء بالرمل، وقد يغشون خبز الفجل يزبل الدواب المطحون، والأشنان بالرمل.

والوقادون فى الحمامات يتقدم إليهم، ويأمرهم بأن لا يوقدوا بسماد، ولا بطعام، وأن يتفقدوا مجاريها، ويحسنوا تديرها، ولا يقطعوا ماء الطهور عنها، وإن قل، ولا تقطع إرسال ميازيب المسلخ؛ ليكون ذلك عوناً على نظافة الأسطوان، ولا يبيت الماء فى أحواض الحرارة، ولا يمكن السوقيون أن يأخذوا من رماد الحمام؛ لأنهم يغشون به رمادهم إذا باعوه للزيادة فى ثمنه، فيمنعون من ذلك.

وقيل: إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله نهى عن الفقاع، فإنه ربما غشوه وعملوه من غبار الطواحين، فإذا أراد المحتسب امتحانه عليهم، أمر أن تغلى كيزانه فى الماء الحار وهى مملوءة مسدودة، ثم يقلبها عند غليانها، فإن تعذر ولم ينزل من كيزانه، فهو غبار معمول، وإن كان من شعير انساب ونزل بلا كدر. ويؤمرون بتكثير أفوايه ومسكه، ويقللون من سدابه لعله فساده للباه. والفقاع مكروه فى الشرع والطب جميعاً.

* * *

الباب السادس والعشرون

فى الغزالين والغزل

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، طاهراً، مأموناً، بصيراً بما يجرى فى السوق من الخطأ والتدليس، ويجعل كل جزء من النساء منفرداً غير مختلط. وقد يشتري بعض السماسرة الغزل الرخيص ويعيده إلى السوق مع غيره إلى من يسأله شراء مثله، فيبيعه له بزيادة متفاوتة. وينبغى أيضاً أن يتأمل من يشتري الغزل، فإن كان مظنوناً به، أو مواصياً للمشتري أكثر ما يحتاج إليه، حل غزله وبل بالماء قبل دفعه إليه، ويستحلف سماسرته أتم يمين أن لا يلدسوا غزلاً، ولا يشاركوا فى ذلك، ولا يواطئوا عليه أحداً، ومتى ما أطلعوا على هذا من غيرهم نموا عليه، ولم يسكتوا عنه، وأظهروا فعله ولم يستروه كائناً ما كان من المسلمين وغيرهم.

ولا تبخس الموازين، ولا يظلمون أحداً من البائعين والبايعات، وأن ينقدوا لهم نقداً جيداً يغنى عن المعاودة والمراجعة، ويعتبر موازينهم وصنحهم كل وقت، ولا يترك عند أحد منهم دستى صنج، ولا صنجة ثلث درهم، ولا ثلث أوقية.

* * *

الباب السابع والعشرون

فى الكتاتينيين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة بصيراً، ويلزمهم أن يكون بينهم وبين من يشتري منهم من النساء حجب، ومقاطع من أقفاص وغيرها؛ ليكونوا بذلك غير متلامسين. واعلم أن أجود الكتان المورق، وأردؤه القصير الخشن الذى يتقصف تحت الصدفة^(١)، فيأمرهم أن لا يخلطوا جيده برديته، ولا الكتان الصعدي بالبحري، ومنهم من يخلط ما يخرج بالسراقة^(٢) بالكتان الناعم بعد مشطه، فجميع ذلك تدليس فيعتبر، وتعتبر بعد ذلك موازينهم، وصنجهم، وأرطالهم فى كل وقت.

* * *

الباب الثامن والعشرون

فى الحريريين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويعرف أن فى صبغ الحرير غشوشاً خافية، فمن ذلك أنه إذا صُبغ قز غير مبيض أسود لهم المثل، وإذا كان مبيض زاد لهم الثلث، وكان أقوى وأنقى بعيد تغييره، وينبغى أن لا يباع الحرير المصبوغ بالبقم عوضاً من القرمز، فإنه يتغير فى الماء، ويأمرهم أن لا يصبغوا القز بالقوة قبل اللك^(٣)، فإنه غش وتدليس، وأن لا يبيعوا حاكة الصنفين ما يتغير عليهم فى المراس، وأن لا يكون عندهم دستاً صنج، ولا ثلث درهم، وكذلك يعتبر أيضاً ما ذكرناه من غش أصباغهم.

* * *

الباب التاسع والعشرون

فى القطنيين والندافين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، وتكون أرطالهم معيرة مختومة، وكذلك موازينهم، ويستحلفون يميناً لا كفارة لهم منها، أنهم لا يخلطون قطناً قديماً بجديد، لا فى كفن ولا غيره، بل يبيعون كل واحد على حدته، ويتقدم على الندافين منهم أن يتقصوا فى إخراج الحب عند ندفه فى ملابس الناس، فإن خالفوا ووجد الحب فيما عملوه، أدبوا على ذلك؛ ليكونوا شفعة لغيرهم.

* * *

(١) هى المحارة التى يحمر بها.

(٢) هى آلة من آلات النجارة.

(٣) اللك هو شجر يخرج منه صمغ أحمر اللون، يستعمل فى الصبغ ونحوه.

الباب الثالثون

في القلانسيين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً بمعيشتهم، يمنعهم من عمل القلانس من الخرق البالية التي يلقونها بالقرطاس والأشراس وغير ذلك، فما يلبث أن ينحرق ويهلك. ويتقدم إليهم أن لا يعملوا إلا جديداً، ويبيعون بما قسم الله لهم، ولا يخطوا عتيقاً إلا أن يكون فتيقاً مقلوباً، ويكتب على بطانة الجديد: جديداً، والعتيق: عتيقاً، بخط المحتسب. ومنعهم أن يسودوا القندس، ولا يخرموا على قطع، ولا يشقوا جاحاً أسود بسواد، ولا أحمر بحمرة، ويصقلوه ليخفى على شاربه، فإن ذلك تدليس. ولا يعملوا زيفاً عتيقاً على جديد، ولا يحشو شيئاً جرت عادته أن يحشى بقطن بمشاق. ويحلفون بأن لا يخطوا بطاق غير مفتول، ويحلفون أنهم إذا فصلوا لأحد شيئاً وفضل عندهم منه شيء يردونه لأربابه. ومنهم من يُدفع له الحرير، فيأخذه ويحيط بدله بغزل، فيحلفون أيضاً على ذلك، ومن خالف منهم أدب^(١).

* * *

الباب الحادى والثلاثون

في الخياطة والخياطين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً، ويؤمرون بتضييق الأبدان، وسعة التخاريص^(٢)، وأن تكون خياطتهم درزاً، ولا تكون شلاً، وأن لا تكون الخيوط طوالاً، فإنها تضعف من التكرار، وتكون الأذيال معتدلة، والأطواق لازمة، وإذا دفع إلى أحد منهم ثوباً مما له قيمة، قبضه بالميزان ورده موزوناً، وتراعى خياطته، فربما حشوه رملأ، أو بخ داخلها بماء وملح إذا كانت ممن لا يتبين بياضه، ويتقدم إليهم أيضاً بترك المطل للناس، وأن لا يأخذ أحد شغلأ وهو غير فارغ، إلا أن يشترط على صاحبه مدة فراغه، ومن خالف أدب^(٣).

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٤٠).

(٢) هو ما يزيد في عرض الثوب تحت كميته.

(٣) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٦٧، ٦٨).

الباب الثانى والثلاثون

فى سماسرة البز

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويأمرهم أن لا يخلطوا أموال التجار إذا وردت إليهم، بل يشترون بما لكل إنسان على حدته، ويتقوا الله تعالى فى ذلك، ولا يزدوا ثمن غال على رخيص، ويحذروا الغلط، ويشتروا لكل واحد منهم بقسمه ورزقه، وينبغى أن يعتبر عليهم موازينهم، وصنحهم كل وقت، فإنهم كثيراً ما يزنون للحاكة ناقصاً. وأن لا يكون فى ميزان أحد منهم دسّاً صنح، ولا ثلث درهم. وتكون وزنات الحاكة مفردة، ولا ينقل أحد منها على أحد، ولا على ما حدّه لهم السلطان من الجعل، وهو على كل دينار درهم ورق، ولا يطرح أحد من السماسرة عنده شيئاً من أموال التجار، فيصله بدفعه إليه، وهو خيانة وتدليس.

* * *

الباب الثالث والثلاثون

فى البز والبزازين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، وأن يحلف البزازين فيما يباع بينهم؛ لأنهم ربما قوموا المتاع قيمة قد توافقوا عليها من الزيادة فى رأس المال الذى قد ابتاعوه، ويتأولون فيه هذا التأويل عند بيعه وهم كاذبون؛ لأن الذى يجرى فى هذا وأمثاله يجرى بجرى الحيل والخديعة، فيحلفون على ذلك بحضرة عريقهم. ثم إنهم يراعون بعد ذلك، فإن عاد أحد منهم إلى مثله صُرف من السوق لقلّة أمانته. وينبغى أن لا يكون بين أحد من الدلالين، وبين بزاز شركة؛ لئلا يصفق عليه المتاع بنقص.

وينبغى أن يعمل ذراع من خشب طوله، بعرض الإبهام، أربعة وعشرون إصبعاً محزوزة، وينقش على طرفه الأول اسم الإمام، وعلى الطرف الثانى اسم المحتسب، يتعيشون به، ليرتفع الشك فى طول أمتعة الناس وعرضها فى الزيادة والنقصان. وإذا أشهر المنادى ثوباً، فلا يزيد إلا ما زاده المشتري، ويمنع من أن يزيد من نفسه شيئاً، ولا يأخذ جعلته إلا من البائع بحكم أن لا يبيع إلا مُسَلِّماً. ولا يتجاوزون فى أشغالهم على كل دينار درهماً واحداً ورقاً، ويعتبر موازينهم كل وقت، ويأمرهم أن لا يتاع بينهم قطعة قماش لأحد، كائن من كان، إلا ويكتب اسمه واسم ضامنه فى درجه، يفعل

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٢٧
ذلك السمسار، ويكتب أيضًا البراز في دفتره اسم المنادى، ومن خالف كان دركه
لازمًا له^(١).

* * *

الباب الرابع والثلاثون

في الغسالىن

ينبغي أن يعرف عليهم عريقًا ثقة، ويحلفون أن لا يضربوا على الحجر أكثر من ثوب
واحد، وأن لا يعصروا المتاع بشيء من الخشب، ومراعاة أمتعة الناس في الولايم والمآتم،
ومن لبسها على كل الوجوه والأسباب، ويمنعون أيضًا من غسل أمتعة الناس بالماء
المطبوخ فيه القلى والنطرون، فإن ذلك يضر الأعلام والطرز، ويلى القماش سريعًا،
ويولد فيه القمل والصئبان، ولا يغسل ثوب الرجل على ثوب لغيره، ولا يستبدل شيئًا
من أمتعة الناس.

* * *

الباب الخامس والثلاثون

في القصارين والقصارين

ينبغي أن يعرف عليهم ثقة، ويستحلفهم أن لا يجلبوا إزارًا في ثوب لغيرهم، وكذلك
لا يستخدموا شيئًا من سائر ما يخدمونه ويقصرونه، لا فى أوساطهم، ولا يلتحفوا به،
ولا يشيلوا فيه شيئًا من السوق، وأن لا يتركوا المتاع فى النورة سوى ساعة؛ لئلا تُضر
الطرز والأعلام، ويؤمروا بنظافة المتاع، وسلاسته، وقلة جيره، وإزره، ويؤمروا أن لا
يطووا المتاع رزمًا بالعشايا وهو ندى، فإن ذلك يوجب عفنها وفسادها.

ومن حسن النظر لسائر أمتعة الناس، أن يؤمروا أن لا يرزموها فى شيء من أمتعة
الناس، بل يستعدون لهم أكسية يرزموون فيها، وتكون مناديلهم التى يلبسونها على
رعوسهم فوطًا، أو ميازر، ولا يتعرضوا لشيء من أمتعة الناس على رعوسهم، ولا فى
أوساطهم، ولا يناموا فى شيء منه فى منازلهم، ولا أهاليهم، ومتى لحقت المتاع عاهة
لزمهم الغرم^(٢).

* * *

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيرزى (ص ٢٤٥ - ٢٤٧).

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٣٩، ١٤٠).

الباب السادس والثلاثون

فى المطرزين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويستحلفهم أنهم لا يطرزون بقز ويدعون أنه حرير، وإذا عمل لأحد شغلاً بشيء من الحرير يرده إليه، وأن لا يطرز أحد شيئاً حتى يزنه بالميزان، ويكتب وزنه على طرفه، وإذا أتاهم أحد بثوب يطرز، أو بشيء من سائر المتاع، لا يزيد فيه شيئاً من التطريز، ولا ينقلوا رقم ثوب على ثوب غيره، فإن من القصارين والغسالين مَنْ ليس بثقة، يفعلون هذا بثياب الناس، ويؤمرون أيضاً أن لا يعيدوا رقم ثوب قد انحَتَّ من الرؤوس، ويؤديه للمطرز يصلح له ما فسد من غير أن يعلم صاحبه، وهذا تدليس وخيانة، ومن ظهر عليه شيء مما ذكرنا أدب.

* * *

الباب السابع والثلاثون

فى الرفائين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويحلفوا بالله العظيم أن لا يرفوا لأحد من الغسالين والقصارين شيئاً من المتاع، إلا بحضور مالكه، وأمره له فى ذلك، وينتقد عليهم أيضاً ما يرفونه من جودة الأوصال وحسنها، وكذلك الدفن، والقلع، وغيره من سائر ما يرفونه، ومتى فعلوا شيئاً بخلاف ما رسمنا، بعد الإنذار، أدبوا وأشهروا^(١).

* * *

الباب الثامن والثلاثون

فى الصيادلة والعقاقير

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم؛ لأن العقاقير نحو ثلاثة آلاف عقار، ولها أشباه وأمثلة تقاربها وتدانيها فى الصورة، وتنافيها وتبعد عنها فى المزاج والمنفعة، فينبغى أن يعدل بما يشتري منها إلى من قد نصب لذلك قبل استعمالها، فإذا تبين ما هو ذهب الشك فيه وفى استعماله، فتكون النفس إليه قابلة، وإلى نحوه ساكنة. والذى

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٣٩).

وجب على مؤلف هذا الكتاب ذكر ما يؤدى إليه من غش بعض هذه الأدوية، وهو يقسم بالله العظيم على من عرف شيئاً من غش الصيدلة، وغيرها من سائر الأشياء المغشوشة، من وقف على كتابنا هذا أن ينبه فى آخر كتابنا هذا، وإن أمكنه التنبيه على معرفة استخراج غشه فليذكره، راجياً بذلك ثواب الله عز وجل.

فينبغى للمحتسب أن يياشرهم، ويخوفهم، ويعظهم، وينهرهم بالعقوبة، والتعزير، ويعتبر عليهم عقايرهم فى كل أسبوع، فمن غشوشهم المشهورة أنهم يغشون الأفيون المصرى بشياف^(١) الماميتا^(٢)، ويغشونه أيضاً بعصارة ورق الخس البرى، ويغشونه أيضاً بالصمغ، وعلامة غشه أنه إذا أذيب بالماء ظهرت له رائحة كرائحة الزعفران، إن كان مغشوشاً بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة، فهو بالخس، والذي هو مر صافى اللون، ضعيف القوة، فهو مغشوش بالصمغ.

وقد يغشون الراوند^(٣) بنبتة يقال لها: راوند الدواب، تنبت بالشام، وعلامة غشه أن الراوند الذى لا رائحة له ويكون خفيفاً، هو الجيد، وأقواه الذى يسلم من السوس، وإذا نقع كان فى لونه صفرة، وما خالف هذا اللون والصفة كان مغشوشاً بما ذكرناه، والجيد من الإثم ما كان لفتاته بريق، وكان ذا صفاء صالح وهو نقى من الوسخ، سريع التفتيت.

وقد يغشون الطباشير^(٤) بالعظام المحروقة، ومعرفة غشها أنها إذا طرحت فى الماء رسبت العظام وطفأ الطباشير، وقد يغشون التمر هندی بلحم الأجاص، وقد يغشون الحنظل^(٥) بعكر الزيت ومراثر البقر، فى وقت طبخه، ومعرفة غشه أنه إذا طرح منه شىء فى النار، فإن الخالص يلهب، ثم أنه إذا أطفئته بعد الالتهاب تصير له رغبة كلون الدم، وأيضاً فإن الجيد منه أسود، ويرى داخله ياقوتى اللون، وما لا يلهب وما لا يرغى يكون مغشوشاً بما ذكرناه.

(١) الشياف: نوع من الأدوية، يتخذ قمعاً أو نحوه لمعالجة أمراض المستقيم.

(٢) هو نبات يميل إلى الزرقة، قليل الارتفاع، مر الطعم.

(٣) الراوند هو ساق نبات يميل إلى الحمرة، وإذا مضغ مال لونه إلى الصفرة، يستخدم معالجة أوجاع الكبد، والكلى، والمغص، وغيرها.

(٤) هو رماد الخيزران، يستعمل فى معالجة أمراض القلب، والحميات.

(٥) نوع من الأشجار الشوكية، تستعمل عصارتها فى الأدوية.

٣٣٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بىام

وقد يغشون القسطن^(١) بأصول الرأسين، ومعرفة غشه أن القسط له رائحة، وإذا وضع على اللسان يكون له طعم، والرأسين بخلاف ذلك، وقد يغشون زغب السنبيل السفيل^(٢) بزغب القلقاس، ومعرفة غشه أنه إذا وضع فى الفم يغشى ويحرق، والسنبيل المسحوق يغش ليزيد فى وزنه بالأثمد يرش عليه، وكذلك السك مسك المدقوق، وقد يغشون الأفريون^(٣) بالباقلاء اليابس المدقوق، وقد يغشون المصطكى بصمغ الأبهل^(٤).

ومنهم من يغش المقل بالصمغ القوى، ومعرفة غشه أن الهندي تكون له رائحة ظاهرة إذا بُخِرَ به، وليس فيه مرارة، والأفيمون^(٥) الأقریطشى يغشونه بالشامى، وقد يغشونه بزغب البسبايج^(٦)، ومنهم من يغش المحموده^(٧) بلبن اليتوع^(٨) المحمد، ومعرفة أنك تضعها على اللسان، فإن قرصك فهى مغشوشة، ومنهم من يغشها بنشارة القرون، يأخذونه ويعجنونه بماء الصمغ، ويعملونه كهية المحموده، ومنهم من يغشها بدقيق الباقلاء، ودقيق الحمص، ومعرفة ذلك أن الخالصة صافية اللون مثل الغرى، والمغشوشة بخلاف ذلك.

وقد يغشون المر بالصمغ المنقوع بالماء، وصفة غشه أن الخالص يكون خفيفاً، ولونه واحد، وإذا كسر ظهر فيه أشياء مثل الأظافر ملساء، تشبه الحصى، وتكون له رائحة طيبة، وما كان منه ثقيلاً، لونه لون الزيت، فلا خير فيه، ومنهم من يغش قشور اللبان بقشور شجر الصنوبر، ومعرفة غشه أن يلقى فى النار، فإن التهب وفاحت له رائحة طيبة فهو خالص، وإن كان بالضد فهو مغشوش، ومنهم من يغش المرزنجوش^(٩) ببزر الحندقوق^(١٠).

(١) هو العود.

(٢) السفيل هو شجر طيب الرائحة، له سنابل صغيرة.

(٣) الأفريون هو نبات كثير العصارة، ساقه شوكية مستطيلة، وإذا شق هذا الساق خرجت منه عصارة لينة.

(٤) هو نوع من النبات، قريب من النبق فى الحجم، أحمر اللون، رائحة أوراقه عطرية.

(٥) نبات له أصل كالجزر، شديد الحمرة، زهره أحمر، وبذره صغير.

(٦) نبات ارتفاعه نحو شبر، دقيق الورق، لونه بين الأصفر والأحمر.

(٧) تسمى أيضا السقمونيا، عصارته تستخدم بعد تجفيفها كمسهل.

(٨) هو نبات كثير العصارة.

(٩) هو نوع من الرياحين، بذره كالريحان.

(١٠) نبات له بزر شبيه ببزر الحلبة.

وقد يغشون الشمع بشحم المعز وبالقلفونية^(١)، وقد يذرون فيه عند سبكه دقيق الباقلاء، والرمل الناعم، والكحل الأسود المسحوق، ثم أنه يجعل ذلك بطانة للشمعة، ثم يغمسها بعد ذلك في الشمع الخالص، ومعرفة غشه أنك إذا أشعلت الشمعة ظهر فيها ذلك، وقد يغشون الزنجار بالقلقند^(٢) والرخام، ومعرفة غشه أن تبلل إبهامك وتغمسها فيه، ثم تدلك بها السبابة، فإن نعيم وصار كالزبد فهو خالص، وإن ابيض وتجب فهو مغشوش، وأيضاً يترم منه بين الأسنان، فإن وجدته كالرمل فهو مغشوش بالرخام، وأيضاً تحمى صفيحة في النار، ثم تذر عليها، فإن احمر فهو مغشوش بالقلقند، وإن اسودَّ فهو خالص.

وقد يختارون من الأهليلج الأسود إهليلجاً أصفر، ويبيعونه مع الكابلي، وقد يغشون الماء على الخيار شنب، ويلفونه في الأكسية عند بيعه، فيزيد لهم كل رطل نصفاً، ومنهم من يأخذ اللك ويسليه على النار، ويخلط معه الآجر المسحوق، والمغرة، ثم يخلطه، ويعقده، ويسطه أقرصاً، ويكسره بعد جفافه، ويبيعه على أنه دم الأخوين^(٣)، ومنهم من يدق العلك دقاً جريشاً، ويجعل فيه شيئاً من الجاوشير^(٤) على النار في العسل النحل، ويلقى فيه شيئاً من الزعفران، فإذا غلى دارغر ألقى فيه العلك، وحركه إلى أن يشتد، ثم يعمل أقرصاً إذا برد، ويكسره ويخلط معه الجاوشير، فلا يظهر فيه.

وأما جميع الأدهان الطيبة وغيرها، فإنهم يغشونها بدهن الخل، وهو الشيرج بعد أن يغلى، وي طرح فيه قلب الجوز، وقلب اللوز مرضوضاً؛ ليزيل رائحته وطعمه، ثم يمزجه بالأدهان، ومنهم من يأخذ نوى المشمش ليستخرج دهنه، ويخلطه بالشيرج، ويبيعه على أنه دهن لوز، ومنهم من يغش دهن البلسان^(٥) بدهن السوس، ومعرفة غشه أن يقطر منه شيء على خرقة صوف، ثم يغسل، فإن زال منها ولم يؤثر فيها فهو خالص، وإن أثر فهو مغشوش، وعلامة دهن البلسان الخالص أن تغمس فيه سنبله وتشعلها، فإن اشتعلت فهو خالص، وإذا قطر على اللبن حمد للوقت، وأيضاً إن الخالص منه إذا قطر في الماء

(١) صمغ الصنوبر.

(٢) هو الزجاج الأخضر.

(٣) هو صمغ أحمر.

(٤) هو شجر يعمر في الأرض، أزهاره صفراء، صمغه قوى الرائحة، مر الطعم.

(٥) البلسان: شجرة يجمع ما يرشح منها، فلا يتجاوز بضعة أرتال من الدهن الطيب الرائحة.

الحار، فيصير فى قوام اللبن، والمغشوش يطفو مثل الزيت، ويصير كواكباً على وجه الماء.

وقد يخلطون دهن العراق بدهن الشام، أعنى الورد والبنفسج، وهذا تدليس، وقد أعرضت عن أشياء كثيرة فى هذا الباب لم أذكرها، ليخفى غشها مخافة من تعليمها، وإنما ذكرت ما قد اشتهر غشه بين الناس، ويتعاطاه كثير منهم، وقد أمسكت عن أشياء ليست بمشهورة قد ذكرها صاحب كتاب كيمياء العطر، كما أمسكت عن أشياء كثيرة قد ذكرها يعقوب بن إسحاق الكندى فى رسالته المعروفة بكيمياء الطبايخ، فرحم الله من وقع فى يده ذلك الكتاب فمزقه^(١).

* * *

الباب التاسع والثلاثون

فى الأشربة والمعاجين وما يضاف إلى ذلك

اعلم وفقك الله أنه لما كانت المعاجين، والأشربة، والأقراص، والسفوفات، والأدوية المركبة، إنما يقف على معرفتها، ويتيقن مصلحتها، مَنْ حضر عملها، وشاهد خلطها، وعجنها، فيجب أن يكون ذلك قبل تركيبه بحضور من جعل عريقاً على مثلهم، حتى تزول الظنة، وترتفع الشبهة، فإن لم يمكنه حضور جميع ذلك، عينت الحوائج، وحملها الشرابى إلى مجلس العريف فى طبق، أو غيره ليشاهدها، ويعد عقايرها، ويقابلها بمن يعول عليه. أما شابور أو غيره، ويخلطها بعد المقابلة بيده، ويمضى بها صاحبها يركبها، ويتقى الله تعالى أن لا يركبها بعسل القصب، ولا بقطارة، فإنهم يركبون المعاجين بأشياء من عسل القصب، يأخذون منه عشرة أرطال، يغلونه، ويقلعون نيمه حتى يصفو سواده، ويرش عليه مقدار ثلاث أواق لبن حليب، حتى يصفو، وتطيب رائحته، ثم أنه يسحق له وزن درهمين اسفيداج^(٢) العرايس، فى أوقية خل خمر حاد، ويقلبها فى القدر وهى تغلى، ثم يصلح منه ما شاء من الأشربة والمعاجين.

فينبغى أن يراعى ذلك منهم، ويستحلفون أن لا يفعلوه، ولا يأمرؤا واحداً يفعل له، وهو لابد له ما يرجع فى الأشربة إلى السواد، ويلى فى المعاجين، وتظهر رائحة الخل فيه، ويعتبر أيضاً بأن يؤخذ منه قليل، ويحل بالماء فى وسط الراحة، فإن المعسل يبيض

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٣٧)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٦٤ - ١٦٨).

(٢) الإسفيداج: رماد الرصاص.

مثل الفانيد^(١)، ومتى تطاولت مدة الأشربة، فحمضت، أو غلت، لم يكن لصاحبها أن يردها إلى الطبخ ثانياً، لفساد مزاجها وانحرافه.

ولا يذكر أحد منهم حلاوته بغير ماء الورد، ولا يجعل فيه مسكاً ولا كافوراً. وسبيل شراب البنفسج أن يكون مكرراً، فإنه سريع التغيير، وشراب الورد مثله أيضاً أن يكون مكرراً؛ لأنه أتقى وأنفع للمعدة. والسكنجيين^(٢) البزورى والتادج يكونان بخل خمر، وإذا رأيت السكنجيين إلى السواد لونه، فهو كما ذكرناه من غسل القصب، أو معمول من القند، وكذلك المعاجين إذا أذيت فى البرانى، فينبغى أن يراعى ذلك، ولا يعمل شيء من سائر الأشربة والسويقات وغيرها إلا على النسج من كتاب سابور، أو غيره، بالعسل النحل، والمعاجين والأشربة من السكر الأبيض، وكذلك السفوفات، وكذلك الأقراص، يُعنى بتركيبها على ما نصه الفلاسفة.

وشراب العناب يقوى بكثرة العناب فيه؛ لأنه يراد لطيفة الدم، ولا يعجن الورد بالمراسيق من السكر، وكذلك البنفسج المربى لا يعلق أيضاً بسكر، فإنه غش وتدليس، ويستحيل فى المعدة أصفراً، ويجودون عقد جميع الأشربة، حتى يكون لها قوام، ولا يعجن التمر هندی، الذى قد عتق عندهم وجف بالخل، ولا يباع الحارسين المصرى على أنه فارسى، ولا يلفونه فى الخيش المبلولة ليزيد لهم فى الوزن، ولا يغشون شيئاً من أدهان العراق بشيء من أدهان الشام، ولا بدهن الخل الشيرج، ويمنعون من عمل حشو الشعر فى الأفران؛ لأنهم يعيدون عليه ماءً ثانياً، وربما وردوه بيسير من المضرة، فيعتبر جميع ذلك، ويعتبر موازينهم وصنجهم فى كل وقت، وتكون أواقهم معيرة على الرطل البغدادى عشرة دراهم ونصف وثلث الأوقية^(٣).

* * *

الباب الأربعون

فى العطر والعطارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، فإن غشوش العطر أشياء كثيرة، مختلفة بحسب غشوشها، واختلاف أنواعها، فمن ذلك المسك، يعمل من اثنى عشر صنفاً مغشوشة

(١) الفانيد: عصارة القصب تطبخ حتى تصير أغلظ وأكثر صلابة من السكر الأبيض المعتاد.

(٢) السكنجيين هو شراب يتخذ من العسل والخل.

(٣) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١١٥ - ١٢١).

٣٣٤ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
كلها، فمنه ما يعمل من زراوند^(١)، ورامك^(٢)، ودم الأخوين، ويعجن بمثله مسك جيد،
ويعمل منه أيضًا عنبر، ومنه ما يعمل من سنبل الطيب، ويولد بالعود، وقرنفل،
وشادوران^(٣)، وزعفران، ويعجن بماء ورد، ويخلط بمثله مسك جيد خالص، وقد عملت
نوافج مسك من قشور الأملج^(٤) والشيطرج^(٥) الهندى، ومثله شادوران، ويعجن بماء
صمغ الصنوبر، ويخلط مع كل أربعة مثاقيل من هذه العقاقير مثقال واحد مسك،
ويحشى فى النافجة، ويسد رأسها بماء صمغ، وتجنف على رأس تنور، وياع.

ويعمل أيضًا نوافج من الأملج، والشادوران الذى قد نزع صمغه بالماء الحار، ومعهم
الأنزورت^(٦)، ويعجن بماء الصمغ، ويخدم، ويعمل مع كل ثلاثة مثاقيل منه مثقال مسك
جيد صُغدى، أو تبتى، ويسحق الكل، ويحشى فى النافجة، ويوضع على رأس تنور،
وياع. ويعمل أيضًا من قشور البلوط المخدم بالنار المحفف، ويخلط منه ثلاثة أجزاء
بجزء مسك، ويلقى منه أيضًا كل مثقالين على مثقال مسك وياع، ويحشى أيضًا فى
النوافج، وأبلغ ما يدل على النوافج وقوارير المسك أن تفتحها وتلثمها كالمستحسن لها،
فإن طلع إلى فيك من المسك حدة كالنار، فالمسك فحل لا غش فيه، وإن كان بخلاف
ذلك فهو مغشوش.

وقد يلقى على المسك الجيد التبتى دم الأخوين، أو دم الغزلان، أو دم الجداء، ليثقل،
وقد يسحق المسك ويحشى فى مصارينها، وتشد بخيوط صغار على قدر العنبر، ويجفف
على الجبال فى الظل، ويشق عنه، ويعبأ مع غيره فى القوارير، ومنه ما يغش بالكبود
المحرقة والمسحوقة، وقد يطرح فى قوارير المسك حب رصاص على مقدار الخردل
مصبوغة بالمداد، فلا تبين إلا عند السحق.

وينبغى أن يعتبر أيضًا جميع ذلك الذى ذكرناه من غشوش المسك، وهو أن تطرح فى
فيك منه شيئًا، وتنفل على بعض الملابس البيض وتنفضه، فإن انتفض ولم يصبغ، فلا

(١) الزرواند: نبات ورقه طيب الرائحة.

(٢) الرامك: مادة سوداء كالكافور تخلط بالمسك.

(٣) الشادوران: حجر أسود براق، يتكون فى تجويفات أصول الأشجار العتيقة كالجوز، فإذا قطفت
وجد فى وسطها.

(٤) شجر ثمره كالكُمثرى الصغيرة، وكانت تستخدم فى العقاقير.

(٥) نبات هندي ينمو فى القبور والحيطان العتيقة، له رائحة حادة جدًا.

(٦) صمغ شجرة شوكية تنبت ببلاد فارس.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٣٥
غش فيه من سائر ما ذكرنا، وإن صبغ ولم ينتفض فهو مغشوش.

وغشوش العنبر خمسة، فمنه ما يعمل من زيد البحر، والصمغ الأسود، والشمع الأبيض، والسندروس^(١)، وسنبل الطيب، ويخدم ويعمل منه عنبر، ومنه ما يعمل من زيد البحر، والسندروس، والعود، والسنبل، وربما خلط معه بعنبر الضباء، ويخدم، ويدق، ويدفن في زبل الخيل سبعة أيام، ويخلط معه مثله عنبر خالص، وربما عمل منه تماثيل، وصوراً، وقلائد، وغير ذلك، ومنه ما فعل من المسك الجيد، والصمغ، والعنبر، ويبيع قلائد وتماثيل، وجماجم العنبر، قد تطلّى بالسندروس، فيجب أن يحذف رءوسها متى يعلم سلامتها منه، ومن غيره، وربما حفرت وألقى فيها القطع الرصاص، وإذا حذف رأسها نظر إلى داخلها. والسندروس أيضاً إذا كان عليها منه شيء، فإنه يغيب إذا جف، وإن كانت معيبة بما ذكرنا أيضاً، نُظِر ولم يُخَف.

والكافور أيضاً يعمل منه سبعة أصناف مغشوشة، فمنه ما يعمل من الرخام، نخاعة الخراطين، بمثله كافور معجون بماء الصمغ الأبيض يجر على الغرايل، ومنه ما يعمل أيضاً من قلاز الجبس الغير مشوى عوضاً عن الرخام، ومنه ما يعمل من حجارة النشادر، تكسر صغاراً، وتخلط به، ومنه ما يعمل أيضاً من ذريرة^(٢) غير مفتوتة، وحبس قلاز غير مشوى، وصمغ أبيض، ومثل الجميع كافور.

ويعمل أيضاً من خشب الخروع، ويعمل أيضاً من الأرز المدبّر، فإن عمل تماثيل وقلائد، جعل في كل خمسة مثاقيل من الأرز، مثقال واحد كافور خالص للبيع، فمثقال بمثقال، ومنه ما يعمل أيضاً من نوى البلح المنحوت، يدق حتى يصير مثل الزبد، ويخلط بمثله كافور، ويعجن بماء الكافور، ويبسط رقيقاً مثل الكافور، وجميع غشه بيان في الماء والنار؛ لأنه إذا طرح في الماء فغرق كان مغشوشاً، وإذا عام فهو جيد لا غش فيه، وكذلك إذا ألقى قطعة من خزف، أو جام، على النار، وجعل عليها شيء من الكافور، وكان جيداً، طار ولم يمحث، وإن كان فيه مما ذكرناه احترق وصار رماداً.

وكذلك الزعفران غير المطحون يغش بأشياء كثيرة، فمنها أن تبشر لحوم صدور الدجاج، وكذلك لحوم البقر بعد سلقها، وتشر بالملح، وتقدد، فإذا قدت تصبغ بماء

(١) السندروس: صمغ شجرة يسيل قطعاً صغيرة، رائحته وطعمه كالصنوبر.

(٢) الذريرة: نوع من العطر، يستخرج من نبات يسمى قصب الذريرة، ينمو في الهند، وبلاد العرب.

٣٣٦ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

الزعفران، وتخلط بالزعفران، ومعرفة غش ذلك أن تنقعه فى الخل، فإنه يتقلص، ويبان غشه، وإذا وجد عند مذاقه حلوًا، فهو قليل الصبغ، قد ثقل وغش بالقند، والمطحون منه إذا ألقى فى إناء زجاج فيه ماء فرسى منه شيء، فهو مغشوش بدم الأخوين، فأخذ ما رسى، ويمزجه بخل ويحركه، فإنه يصبغ روحه ويحمر، وقد يغش بالنشأ المطحون، ومعرفة أن تبل منه قليلاً على النار، فإنه يتدبق ويتعقد.

وغش العود، أن يؤخذ الصندل قشراً مطراً يبرد به العود، وينقع فى مطبوخ الكرم العتيق شهراً، يغير عليه بعد كل ثلاثة أيام وينشف، ويخلط فى العود، فلا يشك أنه عود، فيعتبر بالنار، وقد يغلو فيباع مطراً مدرجاً.

وغش البان^(١)، فإنه يعمل من دهن حب القطن، ويعمل من دهن حب الشمس، ويعبق بشيء من المسك التبتى الجيد، والأفاويه^(٢)، ويعمل من الزيت الانفاق^(٣)، ويعبق، وتطرح فيه أطراف الآس الأخضر، فتجىء منه خضرة تقارب البان.

وغش ماء الكافور يعمل من عقد الصنوبر، وقشور الكندر ويصعد، فلا يشك أنه خالص، ومعرفة غشه أنه إذا قطر فى خرقة بيضاء وغسل منها فخرج، فهو غير مغشوش، وإن طبع فهو كما ذكرنا من عقد الخشب، والقشور.

وغش المحلب المعجون المؤلف بالأدهان، يغشه العطارون باللوز المر المقشر من قشره أيضاً، ويغش أيضاً بنوى الشمس، ويغش بنوى الخوخ المقشر، ويخلط مثل نصفه محلب، ومنهم من يأخذ كسب السمسسم فيجففه ويسمقه ويعجنه مع المحلب، ويخمره ويبيعه، وقد يخلطه قوم من العطارين بالنشأ ويبيعونه، فينبغى أن يعتبر عليهم ذلك، ويخلفوا بما لا كفارة لهم منه.

وقد يغش الزعفران أيضاً بالأكشوت^(٤) المصبوغ بالبقم^(٥) بعد أن يقطع نظير شعر الزعفران، ويخلط معه نشأ مصبوغ، ويدر عليه سكر مسحوق فى ليفه، ويلصق، ويخلط

(١) البان: شجر ثمرته تشبه قرون اللوبيا، إذا نضج يستخرج منه دهن البان.

(٢) جمع فوه، وهو الطيب عامة.

(٣) هو الزيت الذى يستخرج من زيت الزيتون قبل نضجه.

(٤) الأكشوت: نبات لا ورق له، يلتف على الشوك والشجر، وزهره أبيض فيه مرارة، تعالج به

أمراض المعدة والكبد.

(٥) البقم: خشب أحمر اللون، ويدخل فى تركيب الأصباغ.

عليه الزعفران، ويعبأ في السلال، ويعمل أيضاً سكرًا من نبات الحلبة منقوعًا في خمر عتق قد أذيب فيه قليل كركم منخول وزعفران أيامًا معلومة، ويبيّت في الظل، فلا يشك الذى يراه أنه زعفران، ويخلط في السلال ويباع، وهذا الزعفران الشعر وغيره بلون الشعر، فإذا أردت معرفته، خذ من وسط السلة، فإنه يبين لك الغش والعيب. ويطحن هذا الزعفران المغشوش بعينه، ربما خلط معه وزن جنار ملتوت بشيرج، وقد يغش بالزجاج المطحون أيضًا، وقد يستحل قوم منهم أن يخلطه بأبى ملىح النصف منه، والنصف زعفران، وبيعه على المسافرين.

وقد يستعمل أقوام من باعة الزعفران أيضًا أن يقيم قرطاسًا في وسط البرنية^(١) يجعله، وعلى جانبها خلوقًا^(٢) مغشوشًا، والجانب الآخر خلوقًا جيدًا، ويدفع إلى كل إنسان منها على قدر معرفته ورايه فيه، ويغش العود أيضًا من قشور خشب يقال له: الألبلق^(٣)، ويجيء شبه العود، إلا أنه يبرى كما يبرى العود، وينقع فى ماء مدبر بالمسك الجيد، والورد الصحيح، والكافور أيامًا كثيرة، ويخرج منه، وينشف، ويدرج، ويباع.

وغش الغوالى^(٤)، فقد تعمل غالية أصلها قطران مصعد مدبر بالقرعة إلى أن يذهب نتنه ورائحته، ثم يجعل على كل مثقالين منه مثقال مسك جيد، ومثقال عود طيب، ومثقال مسك تبتى أو صغدى، ومثقال لادن مسلى على النار، ونصف مثقال عنبر، وثلاثة مثاقيل دهن بان مدينى بارد، وربما عمل بغير عنبر فتجىء طيبة عجيبة، وغالية من نخاعة الرخام الرخو، والشادوران مدبرة، ويحمل على جسد كل مثقال منها ما قد ذكرناه من الطيب فيما تقدم.

وغالية يعمل جسدها من قلب الفستق، وتجىء عجيبة أيضًا إذا حمل على جسدها الطيب كما ذكرناه، وغالية تعمل من السمسم الجديد المقشر، والقرطاس المحرق^(٥)، ويعمل على جسدها الطيب كما ذكرناه، وقد يغشون الغوالى أيضًا بدون هذا، فيعمل أصلها من المرادشنج^(٦) المدبر، وغالية أصل جسمها الأفليجة، وغالية أصل جسمها من

(١) البرنية: إناء من خزف.

(٢) الخلوق: ضرب من الطيب.

(٣) هو خشب ذو لونين.

(٤) هو مسك وعنبر معجونان بالبان.

(٥) القرطاس المحرق هو الكاغد الأبيض المصنوع من نبات البردى.

(٦) كلمة فارسية تعنى شجر طيب الرائحة.

٣٣٨ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام
المومياء، وغالية أصل جسمها من الموز القسطالى الصغار، وغالية أصل جسمها من
صنع الشادوران وعيدانه، ويحمل على جسد هذه الغوالى لكل مثقالين منها وزن دانق
مسك جيد، وحة مسك.

وأكثر من يعمل هذا الذين يجلسون على الطريق ممن لا دين له، وكذلك ممن لا دين
له من العطارين، ولا يخافون من الاستخفاف بهم، فينبغى أن يراعى ذلك لمباشرة العريف
حتى لا يكون شىء منه، وينذرهم، ويخوفهم، فمن تخطى إلى شىء مما ذكرناه، أدب
وأشهر.

وإذا أردت أن تسحق العنبر لتستعمله فيما شئت بلا نار، فخذ بلاطة رخام وضعها
على الثلج، فإذا صارت باردة مثل الثلج، وتكون قد قرضت العنبر صفاراً، فضعه على
البلاطة، فإنه يبرد ويجف، ثم اسحقه فإنه ينسحق كالكحل، واستعمله فيما شئت فى
الوقت، وإلا عاد إلى صفته إذا حمى، فإنه ذهبي، فلا يرجع بعدها على البلاطة، بل النار.

* * *

الباب الحادى والأربعون

فى الصيارف

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، يتعاهد موازينهم، بحيث أن لا يكون عندهم دستاً
صنج يزنون بما شاءوا منها، ويتفقد ذهبهم، ودراهمهم، حتى لا تكون فيها شبه، ولا
بهرج، ولا يطلق للمنادين إلا فى كل عشر دراهم من البيع دانقين، ومن الدينار نصف
قيراط من البيع أيضاً، ولا يباع الذهب إلا بالورق، ولا الورق إلا بالذهب، كما أمر
رسول الله ﷺ، وأن لا يصرفوا لصبى دون البلوغ شيئاً، ولا لجارية، ولا عبد، ولا
يشترؤا منهم ذهباً، إلا بحضور الأولياء، ومن يضمن دركهم، وإذا قبضوهم المبلغ يشهد
عليهم جيران حانوته من الجهتين، ويوقفهم على الوزن قبل تسليمه لهم، ولا يعطون
الناس إلا فضة جيدة، بحيث لا يحوجوهم إلى المراجعة إليهم.

ومن البخس الخفى فى ميزان الذهب، أن يرفعه بيده، تلقاء وجهه، ثم ينفخ على
الكفة نفخة خفيفة فترجع، وذلك أن المشتري تكون عينه إلى الميزان، لا إلى فم صاحبه،
ولهم أيضاً فى مسك العلاقة صناعة يحصل بها البخس، فيلزم المحتسب مراعاة ذلك فى

كل وقت، ومن يخالف منهم ذلك أدب وأشهر^(١).

* * *

الباب الثانى والأربعون

فى الصاغة والصباغة

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة بصيراً بخيانتهم، يمنعهم أن تكون أكوار السبك معلقة مرتفعة، بل تكون فى قصارى مبنية على وجه الأرض، حتى لا يخفى فيها ما يسبك عن صاحبه من ذهب، أو فضة، ويخلف أن لا يسرق من البوتقة بالماسك، ويسمى بسبك النار، وأن يدلس فيها نحاس ولا غيره من أنواع السرقة والخيانة، ويجعل كل صانع شيئاً قليلاً من جسم ما سبكه عند فراغه مما يريد صياغته عند صاحبه، فمتى وقع شك أو تهمة، رجعوا إلى ذلك اليسير الذى مع صاحب الصباغة، فيعتبر عليه ويزول الشك والتهمة.

وينبغى أن يكون بيد كل واحد من الصائغ والمصوغ له خط بشرح حال ما اتفقوا عليه، ووزنه؛ ليرجع إليه متى احتيج إليه، ولا يشتري أحد من الصيارف، ولا الصاغة، علقاً مصغاً ويرده إلى النداء، ويزيد فيه ويلصقه على غيره بزيادة؛ لأن هذا تدليس وخيانة.

ويتقدم إلى سباكى الفضة، ويخلفون أنهم لا يبيعون الخبث الذى يخرج لهم من الفضة لسباكى النحاس؛ لأنهم إذا خلطوه بالنحاس عند سبكه صار النحاس مثل الزجاج، فينكسر إذا سقط من يد أحد، وإن كان فى هاون انخسف بسرعة.

وكذلك باعة الخواتيم وغشهم، ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، يخلفهم أن يصدقوا فى أوزان أثمانها للزبون إذا اشترى منهم شيئاً، وأن لا يحرم ما اشتراه بالزيادة فى إخبار المشتري، وكذلك يصدقون فى أوزانها، وفضتها، فإنهم يعملونها باليسير من الفضة، ويحشونها بالرصاص، وبالزفت، ويكذبون عند بيعها، فإن اشتراها الناس منهم تهشمت بسرعة، وتقشرت فضتها، فيوجد مثل قشر البصل فى رقتة، ويشترط عليهم أن يصدقوا فى نعت فصوصها، فإن أكثرها زجاج مصنوع، ومن مطبوخ دهان الزبادى^(٢).

* * *

(١) انظر: نهاية الرتبة فى الحسبة للشيزرى (٢٥١).

(٢) انظر: نهاية الرتبة فى الحسبة للشيزرى (ص ٢٥٢، ٢٥٣)، معالم القرية لابن الأخوة

الباب الثالث والأربعون

فى الأطباء والفصادين

ينبغى أن يكون المقدم على الأطباء، والمرجوع إليه منهم، مَنْ كثرَ حرمة، وتبالت تجربته، ويخلف بما لا له كفارة، أن يطالب سائر الأطباء بما شرحه يوحنا بن ماسويه المتطبب فى كتابه المعروف بـ«محنة الطبيب»، فمن وجده قيماً بجميع ما حوته شروطه فصلاً فصلاً، أمره فى معيشتة، وأعلمه أنه قد أحسن إليه، وأنه إذا لم يطالبه بما شرط جالينوس فى «محنة الطبيب»، فإنه لا يكاد أن يقوم بذلك كثير منهم، ومن كان بضد ذلك صرفه عن هذه المعيشة، ويمضى فى الدروس، فيلزم قراءة الكتب قبل انتصابه لمداواة الناس؛ لما فى ذلك من الضرر الواقع بالمرضى، فقد بلغنى أن ملوك الأكاسرة جعلوا الأطباء الذين يختصون بهم، ويتقنون فضيلتهم ولادة على سائر المتطبيين، فكانوا يمتحنون من يريد الجلوس للناس، فمن وجدوه قيماً بما التمسه، طبائعيًا، أباحوه ذلك، وكتبوا له رقعة إلى المحتسب بجلوسه، وإن كان بالضد صرفوه.

وينبغى أيضاً أن يقرأ عليه ما شرطه بقراط^(١) على نفسه، وعلى سائر المتطبيين، ويخلفهم عليه، وعلى أنهم لا يعطون لأحد دواءً قتالاً، ولا يشيرون به، ولا يعطون للنسوان العوسج، وهى الصوفة التى تسقط الأجنة، ولا المعجون المعروف بالمرهم، فإنه يقتل الأجنة، ولا للرجال ما يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم إلى المرضى، ولا يفشون الأسرار، ويهتكون الأستار، ويكون عنده آلات الطب مكملة، وهى كلبات الأضراس، وكلبات العلق، ومكاوى الطحال، وزراقات الذكر، وملزم البواسير، ومخرط المناخر، وقالب التشمير، ورصاص التثقيب^(٢)، ومفتاح الرحم، وبوار النساء، وكدة الحشا^(٣)، وقدح الشوصة، وجميع ما يحتاجه.

وينبغى أن يرجع إلى رأى هذا المقدم الطبائعى، ويتشاورون إذا عرض مريض يشك فيه، ويختلف عليه، حتى يطابق على مداواته، ويتقدم إليهم بأن لا يأمرؤا بإخراج الدم فى غير الفصول؛ لأن من المتطبيين من غرضه أخذ العوض عن إخراج الدم، فينبغى أن

(١) بقراط الطبيب يونانى قديم، ويطلق عليه أب.

(٢) التثقيب: قطع من الرصاص تكون مدورة، أو مثلثة، أو مستطيلة، على قدر التواء.

(٣) آلة تستعمل للضماد.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٤١
ينها عن ذلك؛ لأنه ربما أعقبت أمراضاً سوداوية وإعلالاً للرطوبة^(١).

وأما الفصادون، فينبغى أن لا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء والعروق، والمفاصل، والشرابين، وأحاط بمعرفة تركيبها، وكيفيةها؛ لئلا يقع المبضع فى عرق غير مقصود، أو فى عضلة، أو فى شريان، فيؤدى إلى زمانة العضو، وهلاك المفصود، فكثير من هلك من ذلك، ومن أراد تعلم الفصد، فليدمن فى ورق السلق، يعنى يفصد فى العروق التى فى الورقة، حتى تستقيم يده.

وينبغى أيضاً للفاعد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مهينة تكسب أنامله منها صلابة، ويعتمد عشر خصال تلين العروق، وأن يراعى بصره بالأكحال المقوية له، والأيارجات^(٢) إن كان ممن يحتاج إليها، وأن لا يفصد عبداً إلا بإذن مولاه ولا صبيّاً إلا بإذن وليه، ولا حاملاً ولا طامثاً، وأن لا يفصد إلا فى مكان مضىء، وبآلة ماضية، ولا يفصد وهو منزعج.

وبالجملة أن يكون المحتسب يأخذ عليهم العهد إلا يفصدوا فى عشرة أمزجة، وليحذرونه فيها إلا بعد مشاورة الأطباء، وهى: فى السن القاصرة عن الرابع عشر، وفى سن الشيخوخة، وفى الأبدان الشديدة اليبس، وفى الأبدان المتخلخلة، وفى الأبدان البيض المرهلة، وفى الأبدان الصفر العديمة الدم، ولا فى الأبدان التى طالت بها الأمراض، وفى الأمزجة الشديدة البرد، وعند الوجع الشديد، فهذه الأحوال التى يكشف عنها الفاصد فى وجودها، وقد نهت الحكماء والأطباء عن الفصد فى خمسة أحوال، ولكن مضرتها دون مضرة العشرة المقدم ذكرها، فالحالة الأولى الفصد عقيب الجماع، وبعد الاستحمام المحلل، وفى حالة الامتلاء من الطعام، وفى حالة امتلاء المعدة والمعى من الثقل، وفى حال شديد البرد والحر، فهذه الأحوال يتوقى الفصد فيها.

واعلم أن الفصد له وقتان: وقت اختيار، ووقت اضطرار، فأما وقت الاختيار، فهو ضحوة نهار بعد تمام الهضم والنقص، وأما وقت الاضطرار، فهو الوقت الموجب الذى لا يسع تأخير، ولا يلتفت فيه إلى سبب مانع.

وينبغى أيضاً للمفتصد أن لا يمتلىء من الطعام بعده، بل يتدرج فى الغذاء ويلطفه،

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٢٨)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٦٥ - ١٦٨).

(٢) هى المعجونات المسهلة.

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام ويميل إلى الاستلقاء، ويحذر النوم عقيب الفصد، فإنه يحدث انكساراً فى الأعضاء، ومن اقتصد وتورمت عليه اليد، فليفصد فى اليد الأخرى بمقدار الاحتمال، وينبغى أن يكون مع الفاصد مباضع كثيرة فى دقة الشعرة وغيرها، وأن يكون معه كبة من حرير، أو شىء من آلة القىء، من خشب، أو ريش، وأن يكون معه الأرنب، ودواء الصبر، والكندر، وصفته أن يؤخذ من الكندر، والصبر، والمر، ودم الأخوين، من كل واحد جزء يعمل كالمرهم، ويرفعه عنده لوقت الحاجة إليه، وأن يكون معه نافحة مسك، وأقراص المسك، ويعتمد جميع ما ذكرناه، حتى إذا عرض للمفصود غشى بادر بسرعة فألقم الموضع الكبة الحرير، وقياه بآلة القىء، وشممه النافحة، وجرعه من أقراص المسك شيئاً، فتنتعش قوته بذلك، وإن وجد فتوق دم، من عرق، أو شريان، حشاه من وبر الأرنب.

ولا يضرب بمبضع كال، فإنه كثير المضرة؛ لأنه يخطئ ولا يلحق [العرق]^(١)، فيورم، ويوجع، ويمسح رأس مبضعه بالزيت؛ لأنه لا يوجع عند البضع، غير أنه بطيء الالتحام، وإذا أخذ المبضع، فليأخذه بالإبهام والوسطى، ويترك السبابة للجس، ويكون الأخذ منه على النصف، ولا يكون فوق ذلك، فيكون التمكن منه مضراً، ولا يدفع المبضع باليد غمزاً، بل يكون دفعها بالاختلاس، ليوصل طرف المبضع حشو العروق.

ولم أر [أحدًا]^(٢) أحذق فى صناعة الفصد من رجلين رأيتهما بمدينة حلب، افتخر كل واحد منهما على صاحبه، فأما أحدهما [فإنه]^(٣) لبس غلالة، وشد يده من فوق الغلالة، وانغمس فى بركة، ثم فصد يده [فى قاع الماء من فوق الغلالة، وأما الآخر فمسك المبضع بإبهام رجله اليسرى، ثم فصد يده]^(٤).

واعلم أنه ينبغى أن يوسع البضع فى الشتاء؛ لئلا يجمد الدم، ويضيقه فى الصيف؛ لئلا يسرع إلى الغشى، ومتى تغير لون الدم، أو حدث غشى وضعف فى النبض، فليبادر إلى رده ومسكه.

واعلم وفقك الله أن العروق المفصودة كثيرة، منها فى الرأس، وعروق فى اليدين،

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

وعروق في البدن، وعروق في الرجلين، وعروق في الشرايين، فيمتحنهم المحتسب بمعرفتها، وبما يجاورها من العضل والشرايين، فأما عروق الرأس المفصودة، فعرق الجبهة، وهو المنتصب ما بين الحاجبين، وفصده ينفع من ثقل الرأس، وثقل العينين، والصداع الدائم، ومنها العرق الذي فوق الهامة، وفصده ينفع الشقيقة^(١)، وقروح الرأس، ومنها العرقان الملويان على الصدغين، وفصدهما ينفع الرمد، والدمعة، وجرب الأجفان وبثورها، ومنها عرقان خلف الأذنين، يفصدان لقطع النسل، فيحلفهم المحتسب أن لا يفصدا أحداً فيهما؛ لأن ذلك يقطع النسل، وقطع النسل حرام، ومنها عروق الشفة، وفصدها ينفع من قروح الفم، والقلاع^(٢)، وأوجاع اللثة، وأورامها، ومنها العروق التي تحت اللسان، وفصدهما ينفع الخوانيق^(٣)، وأورام الأراويل^(٤).

وأما عروق اليدين، فسته: منها القيفال^(٥)، والأكل^(٦)، والباسليق^(٧)، وأسلم هذه العروق، القيفال، وينبغي أن يتجافى فصده^(٨) [رأس العضلة]^(٩)، وأما الأكل، ففي فصده خطر عظيم؛ لأجل العضلة التي تحته، وربما وقعت بين عصبتين، وربما كان فوقها عصبية دقيقة مدورة كالوتر، فيجب أن يعرف ذلك ويجتنبه في حال الفصد، ويحترز أن تصيبه الضربة، فيحدث منها خذلان مزم، وأما الباسليق، فعظيم الخطر أيضاً، لوقوع الشريان تحته، فيجب أن يحترز ذلك، فإن الشريان إذا بضع لم يرقأ دمه^(١٠).

وأما عروق الرجلين، فأربعة: منها عرق النسا^(١١)، يفصد عند الجانب الوحشى من الكعب، فإن خفى فليفصد الشعبة التي بين الخنصر والبنصر، ومنفعة ذلك عظيمة، سيما

(١) هو داء يحدث في نصف الرأس.

(٢) القلاع: بثور في الفم واللسان.

(٣) الخوانيق: أورام في الخنجرة.

(٤) الأراويل: اللوزتان.

(٥) القيفال: من عروق الذراع.

(٦) الأكل: العرق الأوسط في الذراع.

(٧) الباسليق هو العرق الممتد في الجانب الداخلي من الجسم.

(٨) أى في رأس.

(٩) زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(١٠) أى لم ينقطع الدم بعد وقت قليل.

(١١) عرق النسا: موضعه عند العقب من الجانب الخارجى للقدم.

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام فى النقرس^(١)، والدوالى، وداء الفيل^(٢)، ومنها عرق الصافن، وهو فى الجانب الأيسر، وهو أظهر من عرق النساء، وفصده ينفع من البواسير، ويدر الطمث، وينفع الأعضاء التى تحت الكبد، ومنها عرق باطن الركبة، وهو مثل الصافن فى النفع، ومنها العرق الذى خلف العرقوب، كأنه شعبة من [الصافن. وأما]^(٣) المفصود من الشرايين فى الغالب، ويجوز فصدها، فهى الصغار والبعيدة من القلب، فإن هذه هى التى يرقأ دمها إذا فصدت، وأما الشرايين الكبار القريبة الوضع من القلب، فإنه لا يرقأ دمها إذا فصدت، والتى يجوز فصدها على الأكثر، شريان الصدغين، والشريانان اللذان بين الإبهام والسبابة، وقد أمر جالينوس بفصدها فى المنام، رآها رؤيا.

والحمامة عظيمة المنفعة، وهى أقل خطراً من الفصادة، وينبغى أن يكون الحمام خفيفاً، رشيماً، خبيراً بعلمها، فيخف يده فى الشروط ويستعجل، ثم يعلق المحجمة، وتكون التعليقة الأولى خفيفة سريعة القلع، ثم يتدرج إلى القلع بإبطاء وإمهال، ثم ينبغى للمحتسب أن يمتحن الحمام بورقة يلصقها على طوبة، ثم يأمره بشرطها، فإن نفذ الشرط كان ثقل اليد سيئ الصنع، وعلامة حذاقة الحمام خفة يده، وأن لا يوجع المحجوم، وقد ذكرت الحكماء أن الحمامة تكره أول الشهر مخافة أن تكون الدماء هاجت، وفى آخر الشهر مخافة أن يكون قد نقص الدم، فلا تفيد الحمامة شيئاً، وإنما تستحب الحمامة فى وسط الشهر إذا تكامل النور فى جرم القمر؛ لأن الأخلاط تكون هائجة، والأدمعة تكون زائدة فى الأجفان، وأفضل أوقات الحمامة الساعة الثانية والثالثة من النهار.

وأما منافع الحمامة، على الفقر، أى فقر الظهر، خليفة فصد الأكحل، وتنفع من ثقل الحاجبين، وجرب العينين، والبحر فى الفم، غير أنها تورث النسيان، كما قال ﷺ: «إن مؤخر الدماغ موضع الحفظ، وتضعفه الحمامة». والحمامة على الأكحل خليفة فصد الباسليق، وتنفع من وجع المنكب والحلق، غير أنها تضعف فم المعدة، والحمامة فى الأخدعين خليفة فصد القيفال، وتنفع الوجه، والأسنان، والبزرس، والعينين، والأذنين، والأنف، والحلق، ورعشة الرأس، والحمامة تحت الذقن تنفع الوجه، والأسنان، والحلقوم، وتنقى الرأس، والحمامة على الهامة تنفع اختلاط العقل، غير أنها تضر الدهن،

(١) النقرس: ورم فى المفاصل.

(٢) داء الفيل هو مرض تورم الساق من أعراضه.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٤٥
وتورث بلهًا، والحجامة على الفخذين تنفع الأورام، والخراجات الخارجة فى الإليتين،
والحجامة فى الساقين تقوم مقام الفصد، وتدر الطمث، وإخراج الدم فى غير الفصول
ربما أعقب أمراضًا سوداوية، وأعلالاً للربو^(١).

* * *

الباب الرابع والأربعون فى الكحالين والكحل

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، فيبتدىء بسؤال من نصب نفسه إلى هذه الصناعة
عن كتاب حنين بن إسحاق، أعنى العشر مقالات فى العين، فإن كان عارفاً بتشريح
عدد طبقات العين السبعة، وعدد طوياتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاث، وما يتفرع
من هذه الأمراض، فإن كان قيماً بذلك، ناهضاً به، اعتبر عليه آلة صنعه مثل صنافير
السبل، والظفرة، ومحك الجرب، ومباضع الفصد، ودرج المكاحل، فإن كمل ذلك
استمره المقدم عليهم فى معيشته، وإن وجد به بضد ذلك، رفع خبره إلى المحتسب ليعرفه،
ويمنعه من التعرض إلى أعين الناس، فإن عاد أدب وأشهر ليكون شعفة لغيره.

ويجب أن يأتوا إلى أكبرهم والحاكم عليهم بما عندهم من الأكحال والأشيفات،
ليعتبرها ويأشروها، وأما كحالو الطرقات، فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصددهم
عن التهجم على أعين الناس بالكحل بغير علم، فلا يركن إلى شىء من أكحالهم،
وأشيفهم، فإن منهم من يعمل أشيفات أصلها من النشأ والصمغ، ويصبغها ألواناً من
الأحمر والأسريقون، والأخضر بالكرم والنيل، والأسود بالأفاقيا، والأصفر بالزعفران،
ويعملون أشيف ماميتا من التربة المصرية، ويعجن بيسير من الصمغ، ويعملون كحلاً
من نوى الإهليلج المحترق، والفلفل، ومنهم من يعمل نظير مرارة الطير، وغيرها من
صمغ وكبد كبير، يخلط، ويربب فى الهاون، ويعمل مصارين رقاق صغار، ويدعى أنها
مرائر الطير وغيرها، فيعتبر عليهم جميع ذلك، ويؤدب فاعله ويشهر، بعد أن تؤخذ
عليهم القسامة بالله العظيم أن يكونوا نصحاء فى مداواتهم^(٢).

* * *

الباب الخامس والأربعون فى المجبرين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويسأل من نصب نفسه للجبر عن المعروفة بالمقالة

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٦٣، ١٦٤)، نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٢٨).

(٢) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢٢٨)، معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٦٨، ١٦٩).

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام السادسة من كتاب بولص فى الجبر، ويسأل عن معرفة عدد عظام الإنسان، وهى مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا، وصورة كل واحد منها، وسكنه، ليرده إلى مكانه إذا انخلع، ويجبره إذا انكسر، فإن كان قيمًا فيما ذكرناه، وإلا أقامه^(١).

* * *

الباب السادس والأربعون

فى الجرائحين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقًا ثقة عارفًا، ببهرجتهم، وحيلهم، ودكهم؛ لأنها خطيرة، والذى يجب على الجرائحي أولاً أن يكون عالمًا بكتاب جالينوس المعروف بقطاجانس، قيمًا به، ويكون خبيرًا، وإن كان طبائعيًا كان أفضل، وإن لم يكن، فالأولى أن يحضر معه طبائعيًا خبيرًا، وكذلك المجبر أيضًا؛ لأنهم قد يبطون ما لا يحتاج إلى بط، ويقطعون ما لا يحتاج إلى قطع، ويفتحون الشريانات، فيكون ذلك سببًا إلى تعطيل العضو عن فصله، فيجرون ذلك.

ويكون معه دست المباحض، فيه مباحض مدورات الرأس، والموربات، والحربات، وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومجرفة الأذن، وورد السلّع^(٢)، ومرهمدان^(٣) المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم، ومن جملة بهرجتهم أنهم أيضًا يدوسون العظام فى الجرح، ويهرجون بإخراجها بالأدوية، وأن أدويتهم هى التى أخرجتها، فلهذا قلنا: إنه إذا كان طبائعيًا حاضرًا، كان أجود للعمل، ويستحل قوم منهم أن يصلحوا مراهم أصلها من الكلس المغسول بالزيت، ثم يصبغ ألوانًا، أحمر بالأسريقون، وأخضر بالكركم، وأسود بالفحم، فيعتبر ذلك عليهم^(٤).

* * *

الباب السابع والأربعون

فى البيطرة

اعلم أن البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة فى كتبهم، ووضعوا فيها كتبًا، على أنها أصعب علاجًا من أمراض الآدميين؛ لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من

(١) معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٦٩).

(٢) مفردها: سلعة، وهى: زائدة تحدث فى الجسد.

(٣) المرهمدان: شريط من القماش يوضع عليه المرهم.

(٤) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٦٩).

المرض والألم، وإنما يستدلّ على عللها بالجنس والنظر، فيفتقر البيطار إلى حس وبصيرة بعلل الدوابّ وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصدّه عن الدوابّ بفصد، أو قطع، أو كى، وما أشبه ذلك بغير خبرة، فيؤدى إلى هلاك البهيمة وعطبها.

وينبغى للبيطار أن ينظر إلى رسغ الدابة، ويعتبر حافرها قبل تقليمه، فإن كان أحنفاً، أو مائلاً، نَسَف من الجانب الآخر قدرًا يحصل به الاعتدال، وإن كانت يد الدابة قائمة، جعل المسامير المؤخّرة صغارًا والمقدّمة كبارًا، وإن كانت يدها بالضدّ من ذلك صغّر المقدّمة وكبّر المؤخّرة. ولا يبالغ فى نفس الحافر فتغمز الدابة، ولا يرخى مسامير النعل فيتحرك، ويدخل تحته الرمل والحصى فترهص^(١) الدابة، ولا يشدّها بقوة على الحافر فتزمن.

واعلم أنّ النعال المطرّقة ألزم للحافر، واللينة أثبت للمسامير الصلبة، والمسامير الرقيقة خير من الغليظة، وإذا احتاجت الدابة إلى ترييع أو إلى فتح عرق، أخذ المبضع بين إصبعيه، وجعل نصابه فى راحته، وأخرج من رأسه مقدار نصف ظفر، ثمّ فتح العرق تعليقاً إلى فوق بخفّة ورفق، ولا يضرب العرق حتى يجسّه بإصبعه، لاسيّما عروق الأوداج، فإنّها خطيرة لمجاورتها المرىء، فإن أراد أن يفتح شىء من عروق الأوداج، خنق الدابة خنقاً شديداً، حتى تبدو عروق الأوداج، فيتمكّن حينئذ مما أراد.

وينبغى أن يكون البيطار خبيراً بعلل الدواب، ومعرفة ما يحدث فيها من العيوب، فإن الناس ترجع إليه إذا اختفلوا فى الدابة، وقد ذكر بعض الحكماء فى كتاب البيطرة فى علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة، فمنها: الحناق، والخنان الرطب، والخنان اليابس، والجنون، وفساد الدماغ، والصداع، والحمى^(٢)، والنفخة^(٣)، والورم، والمرّة الهائجة^(٤)، والديبة^(٥)، والخنشام^(٦)، ووجع الكبد، والقلب، والدود فى البطن، والمغل^(٧)، والقولنج،

(١) هو من الرهصة، وهو وجع يصيب حافر الدابة، سببه حجر يدخل بين النعل والحافر.

(٢) الحمى: علة تصيب الدابة فى صدرها، من الإفراط من أكل الشعير، أو بشرب الماء عقب العمل.

(٣) هو الإمساك عن الإخراج للروث والبول.

(٤) الحمى: علة تصيب الدابة يؤدى إلى اشتباك قوائم الدابة، وغلظ البول، وورم الرأس، والحلق.

(٥) الديبة: ورم فى الصدر، تمتنع به الدابة عن العلف.

(٦) الخنشام: داء يصيب الدابة فى أنفها.

(٧) المغل: داء يصيب الدابة فى رأسها، يؤدى إلى انتفاخ البطن، وتنت الروث، وغلظ البول، والعجز

٣٤٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
 وريح السوس^(١)، والقضاع^(٢)، والصدام^(٣)، والسعال من البرد ومن الحر ومن الغبار،
 وعسر البول، والنقرس، والذبحه، وانفجار الدم من الدبر والذكر، والبحل^(٤)، ووجع
 المفاصل، والرھصه، والدخس^(٥)، والداحس^(٦)، والنملة^(٧)، والنكب^(٨)، والخلد^(٩)،
 والماء الحادث فى العين، والمياخونه^(١٠)، والبياض فى العين، والزنبور، ورخاوة الأذنين،
 والضرس، والخلع، والكسر، وغير ذلك مما يطول شرحه، فيفتقر البيطار إلى معرفة
 علاجه، وسبب حدوث هذه العلل، فمنها ما إذا حدث فى الدابة صار عيًّا دائماً، ومنها
 ما لم يصير عيًّا دائماً، ولولا التطويل لشرحت من ذلك جُملاً كثيرة، فلا يهمل
 المحتسب امتحان البيطار بما ذكرناه، ومراعاة فعله بدواب الناس^(١١).

* * *

الباب الثامن والأربعون

فى صباغى الحرير والغزل

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بغش هذه الصنعة، ويمنعهم أن يطرحوا فى
 حوانيتهم الحناء، فإن أكثر صباغى الحرير الأحمر يصبغونه بالحناء عوضاً عن الفوة،
 فيخرج الصبغ حسناً مشرقاً، فإذا أصابته الشمس تغير لونه، وزال إشراقه، وكذلك صبغ
 الغزل إذا دكن بالعفص والزاج^(١٢)، وصبغ بعد ذلك، تغير وانتفض، ولم يثبت، وينبغى
 أن لا يصبغ الحرير والغزل، إذا كان أحمر، بغير الخل الجيد الخمر، وكذلك الياقوتى،

(١) ريح السوس، هو داء يصيب الدابة فى عجزها، فيمنعها من الاعتدال.

(٢) القضاع هو داء يصيب الحيوان فى بطنه.

(٣) الصدام هو داء يصيب صغار الدواب.

(٤) البحل: قرحة تصيب ذكر الحيوان.

(٥) الدخس: ورم يصيب الحافر.

(٦) الداحس: ورم فى الحافر.

(٧) هو شق فى الحافر من ظاهره.

(٨) النكب: داء يصيب الدابة فى كفتها.

(٩) الخلد: داء يصيب الدابة على هيئة ثقب يسيل منه ماء أصفر.

(١٠) المياخونه: ضرب من الجنون يصيب الدواب.

(١١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص ٢١٩)، معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٥٠ - ١٥٢).

(١٢) الزاج: مادة معدنية توجد غالباً مخالطة لأصجاج لا تقبل التحليل.

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٤٩
والخلوقى، ويستحلفوا أن لا يتجاوزوا ذلك، ويعتبر موازينهم وصنحهم، وكذلك موازين الحرير، والغزل فى كل وقت^(١).

* * *

الباب التاسع والأربعون فى الخرازين صناع الشراك

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا فى خصف النعال بجلود الميتة، وأن يقللوا من حشوها، وأن تكون عند بيعها غير مشدودة، لتبين اليسرى من اليمنى إلى المشتري، ويطبق الزوج على ظهره لتكون وجوها ظاهرة، ويؤمر الخرازون أن يجعلوا عوض شعر الخنزير ليفاً، فإنه يقوم مقامه، ويمنع من عمل الشراك المظفورة من البطاين، أو من الجلود الضعيفة المصبوغة، وكذلك لا يوصل ما انقطع من شراك النعال بمثل هذا، ومن خالف أدب وأشهر.

* * *

الباب الخمسون فى الأساكفة صناع الأخفاف

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً، ويأمره أن يمنعهم من عمل العتيق ويطرونه، ويبيعونه جديداً، وأن لا يكثرُوا حشو الخرق بين البشتيك والبطانة، ولا بين النعل والظاهرة، وأن يشدوا حشو الأعقاب، ولا يشدوا نعلًا قد أحرقتة الدباغة، ولا فطيراً لم ينضج، ولا أديمًا فاسداً، ولا مسوساً، ولا معيوباً، وأن يحكموا إبرام الخيط ولا يطولوه أكثر من ذراع؛ لأنه إذا طال انسلخ وانتقض إبرامه وضعف من الجذب، ولا يخرجوا بشعر الخنزير، ويجعلوا عوضه ليفاً، أو شارب الثعلب، فإنه يقوم مقامه، ولا يمتلوا أحداً بمتاعه، إلا أن يشترطوا عليه أياماً معلومة، فإن الناس يتضررون من التردد إليهم، وأن لا يعملوا الورق فى الأخفاف لكى تَصُرَّ عند المشى، كما كانت تفعله نساء بغداد، فيمنع المحتسب من عمله^(٢).

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٤١، ١٤٢).

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٤٩).

الباب الحادى والخمسون

فى عمل الأسفاط

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً يحلفهم بالله العظيم أن لا يدبغوا الجلود إلا بالنخال، وأن لا يجلدوا بواطن الأسفاط إلا من الجلود التى يجلدون بها ظواهرها؛ لأنهم ينتهزون جلود الأسفاط من جلود لها قيمة، ويغشونها من دواخلها بما لا قيمة له، فإذا قوى عليها الشد والحزم تحرقت وتمزقت، وهذا غش، فينبغى أن يمنعوا منه.

* * *

الباب الثانى والخمسون

فى عمل البطط

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً يمنعهم أن يعملوا من جلود الجمال الميتة، ويحلفون بما لا كفارة لهم منه أنهم لا يعلمونها من الميتة، ويفتش دكاكينهم كل وقت، وبيان ذلك عليهم أنهم إذا عملوها من جلود الدباغ، كان لونها إلى الصفاء والصفرة، وإذا عملوها من الميتة كان لونها مائلاً إلى السواد. ويعتبر عليهم أيضاً بالرائحة وخشونة اللمس، وأيضاً أنه لا بد أن يبقى عليه اليسير من الشعر؛ لأن الصانع لا يقدر على إنقاء الشعر من الميتة، وما عمل من جلود الميتة يملح عند جفافه، والصواب أن يمنعوا من عمل المصاصات؛ لأن كل من يمص بها لا بد أن ينزل شئ من بصاقه فى أطعمة الناس من الزيوت، والعسل وغيرهما، وذلك ضرر ووسخ، لاسيما إن كان الفاعل أبخر، فالصواب أن يمنعوا من ذلك^(١).

* * *

الباب الثالث والخمسون

فى الخياطين والعلافين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً يمنعهم احتكار الغلة، ولا يخلطون ردىء الخنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، فإن ذلك تدليس على الناس، وأن لا يجعلوا القمح بجوار الشعير، وإذا دعت الحاجة إلى غسل قمح لأمر حدث، جففت بعد غسلها وبيعت منفردة^(٢).

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣٠).

(٢) معالم القرية لابن الأخوة (ص ٨٩، ٩٠).

الباب الرابع والخمسون

في صنعة الشرابات

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمرهم أن يكون طول الشرابات كلها ثلاثة أشبار، وينقع ليفها في الماء قبل استعماله يوماً وليلة، لتزول الحمرة منه، ولا يخلطوا في الليف الحديد شيئاً من الليف القديم، ويكون حولها دائرة جلود^(١) التماسيح المذبوحة، فإن الميتة منها منتنة الجلود، فإن عدمت جلود التماسيح، فجلود البقر المذبوحة، وتقوى خرزها بخيوط الكتان الرقاق، ولا يغشوا ظهورها بالجلود المجموعة، ولا من الأنطاع المخلفة، بل تكون جلوداً جلدًا مدبوغة، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الخامس والخمسون

في الحاكة والقزازين

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمرهم أن يعطوا لكل من عمل عندهم مسلاً من غزله، لتزول التهمة، ويرتفع الشك، فإذا جرى في ذلك دعوى من صاحب الغزل، أن غزله قد أبدل، رجع العريف وأهل الصنعة إلى ذلك المسلك، ونظر ما رسمناه للصناعة، ورسم نقض الغزل درهم واحد لكل ذراع، ويتقدم إليهم بأن يكروا عقد كل شيء يعملوه للناس وللبيع أيضاً، ويصفقوه، ولا يحلوا لأحد من سائر حاكة الشرب، والصفيق، وغيرهم الخيانة جملة كافية، ومن خالف أدب^(٢).

* * *

الباب السادس والخمسون

في الزنهار^(٣) وغشه

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً بغش صنعتهم، فقد يغش بالسبك بتربة تعرف بالشمعة، تكون إلى الحمرة مائلة، وبدقيق الرمل، حتى يثقل، وقد يغش الصففر بالتراب الأحمر، وهو يزيد المثل، أو قريباً منه، فينبغي أن يحلف من يبيعه، بما لا لهم منه كفارة، أنهم لا يخلطون فيه شيئاً مما ذكرناه، ولا يخلطون فيه دقيق الفول. وأيضاً قد تدق قشور

(١) أي: من جلود.

(٢) معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٣٦، ١٣٧).

(٣) الزنهار: التوابل.

الرمان، ويغش به الكركم المسحون، ويغش أيضاً بالتربة المصرية، وقد تغش الحناء بالرمل، فيعتبر ذلك عليهم.

* * *

الباب السابع والخمسون

فى الأبرار والأبزاريين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، فإن الأبرار كثيراً ما يخلطون بعضها فى بعض، فللكراويا أبرار تعرف بعين الحية، وهى فى هيئة الكراويا، إلا أنها أكبر من حب الكراويا قليلاً، وليس تفعل فعل الكراويا فى ذكاء الطبخ، ويمنعهم أن يخلطوا الكزبرة المصرية فى الشامية، ويعتبر مكاييلهم.

* * *

الباب الثامن والخمسون

فى السماسم^(١) وبائعيه

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة بصيراً بغشهم؛ لأن أغلافهم ظواهرها البارزة من خشب مثل الأبنوس والسماسم، وباطنها من غيره، فإذا دعت إلى ذلك ضرورة، فيبين ذلك للمشتري إذا باعوه، ولا يخفوه عنه، حتى تزول الشبهة والتدليس، وقد ينشرون من سيقان البقر والجمال ما يجعلونه عوضاً من العاج، وذلك غش، وينبغى لمن يسمسر فى ذلك أن لا يأخذ الجعل من وجهين، فمن فعل ذلك أدب.

* * *

الباب التاسع والخمسون

فى الخشب وباعته

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ينهى أخبارهم إلى المحتسب، ويستحلفهم، بما لا كفارة له، أنهم لا يشتركون فى البيعة الخشب، يوقفها أحدهم على دكانه، فإذا جاء المشتري أعان بعضهم بعضاً فى توفير الثمن، وهو بينهم شركة، وهذا تدليس، وأن لا يؤخذ الجعل إلا من البائع، من الدينار نصف قيراط، ومن العشرة دانقين^(٢).

* * *

(١) السماسم: هى الصناديق والأسفاط الخشبية، وكانت تستعمل لحفظ المتاع.

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣٤).

الباب الستون

في الزفاتين

ينبغي أن يعرف عليهم ثقة، ويخلفوا بالله العظيم أن لا يغشوا الزفت برماد القصب، ولا بنشارة الخشب، ولا بالرمل، وغشه يتبين لك بالنار، فيراعى ذلك، ويعتبر موازينهم^(١).

* * *

الباب الحادى والستون

في الحدادين

ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً، ويخلفوا بالله العظيم أن لا يبيعوا السكاكين، والمقاريض، والشفار، والمحاصف، وغير ذلك من الأرمهان^(٢)، ويبيعوها فولاذاً، ولا يماطلوا الناس بأشغالهم، وكذلك سائر الصنائع، ولا يأخذ صانع من سائر الصنائع فوق طاقته إلا شيئاً يعلم أنه يفرغه فى أسبوع، ومن خالف أدب^(٣).

* * *

الباب الثانى والستون

فى المساميرين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً ثقة، ويأمره أن يمنعهم أن يخالطوا المسامير الجديدة فى العتيقة؛ لأن ذلك تدليس، وتكون أرتالهم دون أرتال جميع البيعة، فنحن أمرنا أن تكون أرتال جميع أصحاب المعاش حديداً، ما خلا هذه الطائفة تكون أرتالهم حجارة مجلدة مختومة بالرصاص مكتوباً عليهم بخط المحتسب؛ لأن الحديد يمكنهم فيه الزيادة والنقصان، والحجارة بضد ذلك، ويعتبر أيضاً موازينهم.

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣٩).

(٢) الأرمهان: لفظ فارسى معناه: الحديد المطاوع.

(٣) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٤٨).

الباب الثالث والستون

فى النحاسين وسباكى النحاس

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً، ويأمرهم أن يبينوا للمشتري غشوش النحاس، فإنها كثيرة، فينبغى أن يبينوا عيوبها لمن يشتريها، ويجرى الأمر فى باعته ومناديه، على ما رسمنا. ولا يأخذ السمسار جعالاته إلا من البائع، بحكم أن لا يكون البيع مسلماً، وإذا لحم المكسور يكتب على جنبه ملحوماً، ويكتب على الحديد جديداً، والعتيق عتيقاً، والسباكون قد يجعلون فيما يسبكونه من النحاس خبث الفضة والرصاص، فينكسر ما يعمل منه بسرعة، وتنخسف الهواوين على الضعفاء والمساكين، ويمزجون النحاس المضروب بالمصبوب، فيمنعون من ذلك؛ لأنه غش^(١).

* * *

الباب الرابع والستون

فى النجارين والبنائين والفعلة والنشارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً له دين وبصيرة بصناعتهم، فقد يوافق أكثر الصناعات على أجرة معلومة كل يوم، فيتأخرون عند الغدو، وينصرفون قبل المساء، فينبغى أن يشترط فى ذلك بما يمتنع منه، ولا ينصرفوا إلا مساءً، ومن البنائين والنجارين من يقرب على أصحاب الأشغال ما يعملونه لهم، ويهونونه عليهم، ويقللون مؤنته، حتى إذا نشطوا إليه، وشرعوا فيه، طالبوهم بزيادة المؤونة عما قرروه، فكان فى ذلك خطر، وغش؛ لأنه ربما افتقر، وركبه دين بسببه، وربما ألبأته الضرورة فباع الموضع بسبب المطالبة قبل إتمامه، وفى هذا أذية عظيمة، فينبغى أن يتقدم المحتسب بالمنع من ذلك أتم منع، بالإيمان المؤكدة، ومتى لم يستعمل من يبنى من الصناعات ما لم يصح به من زوايا، وموازين، وخيوط، ثم جرى فيما عمله زيغ، أو ميل، أو انحراف عن الاستواء، لزمه عيب ذلك. وفساده، إلى أن يعود صحيحاً مستقيماً، ومتى قطع البناءون من أخشاب الناس المستأجرة للدعائم شيئاً، لزمهم أرشه، وعليه الأدب بعد الإنذار.

ويلزم الفعلة بلباس التباين اللحم، فإن فيه سترة لعوراتهم عند تعريضهم فى أشغالهم، فى طلوعهم ونزولهم، ولا ينصرفون إلا عند الغيب، وكذلك البناءون والنشارون، فيلزمهم أن يعمل على كل مقص ثلاث أنفس، أحدهم يحذ المنشار، وإذا تعب واحد من الاثنين ناب عنه الآخر إلى أن يأخذ صاحبه راحة، ولا ينصرفوا إلى آخر النهار، ويمنعوا

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٤٧، ١٤٨).

من اشتراك جميعهم على الناس، بل يكونوا مثل التجارين والبنائين ما يعملوا إلا بما قسم الله ورزق، وأن لا يجرقوا شيئاً مما ينشرونه فيتلفون الخشب، ويستحق من التجار، فمن فعل هذا بعد الإنذار أدب، ويحلف البناؤون بحضرة عريفهم أنهم لا يأخذون من الجبّاسين رشوة، ولا هدية، على سائر الوجوه كلها، ليكتموا منهم قلة نضج الجبس، فإنه لا يدخل، ويدخل في القصريّة وقت خلطه بالماء بسرعة، فهذا الجيد النضج، وإن دخل في القصريّة، أو جفّ بسرعة على الحائط للوقت، فهو جبس قليل النضج، فيجب أن يُراعى ذلك، فإن فيه تحملاً على المشتري في الوزن، وفساداً فيما بيننا به، وسوء عاقبة، فيجب الأدب على الجبّاس، والوقاد، والبناء إذا كتم ذلك، بعد الإعذار إليهم أجمعين.

ويجب على البنائين أيضاً نصيحة أرباب العمل ممن يبنون له بالجير والأصطال في الصهاريج والقنوات، وما يشاكل ذلك، أن يكون الخلط الجيد الذي تحمد عاقبته، خمسة عيارات جير مصفى بالماء العذب، وعيار واحد منها أصطال مسحوق من الطوب العتيق والمتوسط، وأربعة رماد من رماد الأتاتين وما يشاكله، وما بين جير مصفى ودونه، خمسة رماد، واثنين جير، فجميع ما ذكرناه واجب على البنائين القيام به، وأن ينصحوا صاحب العمل، ومن خالف أدب وأشهر، بعد الإعذار إليه.

ومن شأن البنائين القيام به أن يبيضوا موضع الإنسان، وأن يكثرُوا من أخلاط الجير في جبس البياض وقت عجنه، ليسهل عليهم بسطه على الحيطان بغير تعب، فيكون سبباً لوقوع البياض من على الحيطان، وقلة حفظه لها، وثباته عليها، فيمنعون من ذلك. ويجب على البنائين إذا بنوا الحيطان، أن لا يبنوها بالطوب القليل النضج اللين، فإنه يتفتت بعد مدة، فيسقط ما فوقه، ويجرب الحائط، فيأمرهم أن يجعلوه حشواً مع الطوب، وبالله التوفيق.

* * *

الباب الخامس والستون

في نجارى الضيب

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، بصيراً بهذه الصناعة، وينشر جواسيسها، وهو باب جليل يحتاج إلى ضبطه؛ لأن فيه حفظ أموال الناس، وصيانة حريمهم، فينبغي أن يراعى، ويحلفون بحضرة عريفهم، بما لا كفارة لهم منه، أن لا يعملوا لرجل ولا لامرأة، مفتاحاً على مفتاح، إلا أن يكونا شريكين مشهورين، ويؤمرون أن لا

..... كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
يتقبوا رأس الأبيات لطرح الأسنان، بل ينقروا لها فى رعوس الأبيات لحفظ الأسنان،
وتكون الأسنان التى فيها مربعة الرعوس، مدورة الأسافل، مبرودة، مجلسة، وكذلك
أسنان المفتاح مبردة، مجلسة، حتى لا يخرب ذكر الغلق، لا من فوقه، ولا من تحته،
ويؤمرون أن يضموا الأغلاق بالجواسيس المختلفة، حتى لا يعمل مفتاح على مفتاح،
ومن خالف ذلك أدب^(١).

* * *

الباب السادس والستون

فى نجارى المراكب

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ثم إن هؤلاء النجارين والقلافطة يأخذون فى
الصناعة المعمورة بالعز الدائم من السلطان، أعزه الله تعالى، أوفر الأجرة إذا عملوا له
عملاً، ثم يشتركون على أرباب المراكب، ويأخذون عما شاءوا أجرته درهماً واحداً،
خمسة دراهم، فإن امتنع عليهم أحد تركوه وانصرفوا عنه، وحلفوا أنهم لا يعملونه إلا
بزيادة عما قرروه فى الأول، فيرجع الناس إليهم للضرورة؛ لأنهم عصبه لا يخالف
بعضهم بعضاً، فهم فى هذا أول شئ خالفوه: خالفوا سنة رسول الله ﷺ؛ لأنه قد حرم
شركة الأبدان، وهم فى ذلك يشيعون على السلطان بالكذب؛ لأنهم يذكرون للناس
أنهم يعملون فى الصناعة عملاً يساوى فوق أجرتهم أضعاف ما يأخذون، فينبغى أن لا
يمكنوا من الشركة؛ لأنها حيف ومضرة على أرباب المراكب، فينبغى أن يحلفوا جميعاً
على ترك هذه الشركة، ويشهر هذا الأمر بالجرس فى كل السواحل، ويعملوا لسائر
الناس كما يعمل نجارو الدور وغيرهم من الصناع، وكذلك القلافطة من غير أن يحيف
على الجهتين، ومن خالف أدب.

* * *

الباب السابع والستون

فى النخاسين باعة العبيد

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً، ويحلفوا بما لا كفارة لهم منه، أنهم لا يخفون
عياً قد ظهر وعلموه، من ذكر ولا أنثى، ويتفقون عهدة الممالك المقدمة فى أيدي

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٣٦، ١٣٧).

مواليهم، ليعلم منها ما قد شرط على المشتري من ذلك، لاسيما العبد الذى مع الغرباء، ويطالبون بضمناء من أهل البلد، ويكتب اسمه وصنعتة فى دفتره؛ لئلا يكون العبد مسروقاً، أو يكون له أهل، وإذا كان فى العهدة ذكر لنفسه، فهى كناية عن المخبور. ولا يبيعون جارية إلا من دمها، أعنى فى أيام حيضها، وتنظره امرأة يوثق بدينها، وتتأملها؛ لئلا يكون دمًا فاسدًا.

ولا يبيعون صبيًا ولا صبية، من الجلب على أهل الذمة؛ لئلا يهودونه أو ينصرونه، بل إذا كانت جارية نصرانية فصيحة، ومعها أولادها دون البالغ، فإن أولادها لاحقين بها، ولا يقبل قول جلاب ولا دعواه، إذا ادعى على من قد جلبه من العجم الذين لا يفقهون، أنهم نصارى. ولا يفرق بين جارية وأولادها، ومن أراد شراء جارية، جاز له أن ينظر إلى وجهها، وكفيها، فإن طلب استعراضها فى بيته، والخلوة بها، فلا يمكنه النخاس، إلا أن يكون عنده نساء فى منزله، وإن أراد شراء غلام، فله أن ينظر منه ما فوق السرة، وما دون الركبة، هذا كله قبل عقد البيع، وأما بعده، فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية.

ولا يفرق بين جارية وأولادها، إلا أن يكونوا ببالغ، وعن تراض بينهم. ويستحلف النخاسون أيضًا أنهم لا يشترون مملوكًا على أكياسهم للتجارة، ولا يدسوا من يشتريه لهم على سبيل الشركة ولا غيرها على سائر الوجوه والأسباب. وينبغى أن يتفقدوا لون المملوك والمملوكة، فإنه إذا كان خاملاً دل على علة كبده، أو الطحال، أو المعدة، أو بواسير ينزف منها دم، ثم يتفقد ظاهر البدن بنفسه فى موضع نير مضىء، كيما لا يخفى أن كان به بهق رقيق، فإن البهق فى ابتدائه يكون خفيفاً، وإنما يكون بياضاً رقيقاً، أو سواداً فى الموضع، ثم يقوى، ويزيد بتزايد الأيام، وأما القوباء، فإن ابتداءها خشونة تحدث فى الموضع، ثم تقوى، وتزيد على مدى الأيام.

وإن كان فى موضع من بدنه تشبيه بشامة، أو لصقة، أو وشم، فليفتقد ذلك تفقدًا كثيرًا، فرما كان فى ذلك الموضع برص فكوى، أو وشم فصبغ ليخفى، فإذا امتدت الأيام محى الصبغ، واتسع البرص عن موضع الكى أو الوشم، فإذا كانت شامة يشك فيها، فليدخل الحمام، ويغسل المكان المشكوك فيه بالماء، وإن كان كياً أو وشمًا فى موضع منكر سئل عنه، ويتفقد ذكاء سمعه، وكمال كلامه، وعقله، ثم يتفقد شعر الرأس، وجلدته هل فيها حزازًا وشقيقة، ويتفقد حدقة العين، وحدقته هل هى صافية

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام معتدلة فى العظم، ومبلغ حدة نظره، وصفاء بياض العين، فإن كدورته وظلمته منذرة بالجذام، وإن كان فيها صفرة دل على زيادة الكبد، وإن كان فيها عروق حمراء كثيرة ظاهرة، فإنه يسأل.

ويتفقد أجفانه هل هى نقية، وكيف سهولة حركتها، فإن الغليظة جربة فى الأكثر، أو مستعدلة، والعسيرة الحركة رديئة، ويتفقد أجفانه، وحواجه، فإن كانت حواجه رديئة مع رداءة جفونه، لاسيما إن كان به بحة فى صوته، وحمرة فى وجهه، ويتفقد جلاء نفسه من أنفه وفمه؛ لئلا يكونا أبخرين، وينظر إلى شكل الأنف، فإن غلظه، أو انحناءه، أو اعوجاجه يدل على أن فى داخله بواسير، فينظر فيها فى الشمس، وينظر إلى سهولة تنفسه، ويتفقد حال أسنانه فى الاستواء، والنقاء، والقوة، وهل فيها شئ يتحرك، أو يتأكل، فإن الأسنان القوية طويلة البقاء، والريقة سريعة السقوط، ويعتبر مع ذلك البدن كله.

ويتفقد رقبته واستواءها، ويغمز عليها ويحس، ويتفقد هل فيها بتر، أو أثر قوبة، فإنه ربما كان هناك غدد تتولد منها الخنازير، وينظر إلى الصدر هل هو عريض لحيم، فإن الرقيق النحيف مع الأكتاف البارزة يدل على السل، ويأمره بالمشى، ويتفقد قوة قبضه، فإن ضعف ذلك دليل على ضعف العصب، ويؤمر بالعدو، وينظر هل يعتره فى عنقه ربو، أو سعال، ويقدر يديه ورجليه بعضهما ببعض، فرمما كانت إحداهما أقصر من الأخرى، ويتفقد حال مفاصله فى سلاستها للحركات، ويتفقد ساقه هل فيه عروق ثخان واسعة، فإن ذلك يؤدى إلى الدوالى، وداء الفيل، وسائر بقية أموره يستعان عليها بالذين يعرفون الأمزجة وطبائعها، فينبغى مراعاة جميع ذلك^(١).

* * *

الباب الثامن والستون

فى النخاسين باعة الدواب

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً له دين وبصيرة بصناعة البيطرة، حتى يكون عارفاً بعيوب الدواب، ويأمرهم أن يخلفوا أنهم لا يخفون عن المشتري عيباً قد علموه، ويبحثون عن ذلك أتم بحث، ومن عيوب الدواب وعللها الكبار الخرخرة، وهى علة من

(١) انظر: معالم الرتبة لابن الأخوة (ص ١٥٢، ١٥٣).

برد يعرض فى رعوسها، ينحدر منها رطوبة، فإن كانت منتنة أعدت الدواب الذين يأكلون معها ويشربون، وتهلك هى من بعد، وإن كان المنحدر إلى الشمس، فهو نوعان: أحدهما الذى يعرض فى ركبها وجع ويزول، والنوع الآخر يعرف بالخطر يتولد فى ركبها ويزيد إلى أن يمنعها المشى فيهلكها، فيجب على النحاسين أن يعرفوا ابتداء العلل وما تؤول إليه.

والعلة الداويدة: هو ورم يحصل فى زندها، فإن صلب لم تفكر فيه إلا أنه عيب، وإن كان ليناً كان أضر عليها، والدخس وهو نظير الداحس، يحصل فوق حافرها، فإن دارت طرحت الحوافر وبطلت سنة إلى أن ينبت لها غيره. ويتفقد منها الطرش، وعلامتها أن تقيم آذانها إذا صاح بها صياحاً عظيماً بغير نهضة. ويتميز أيضاً أثر اللوكة إذا عرضت، وهو اعوجاج الشفة الفوقانية على السفلانية. وكذلك إذا كان بها ضيق نفس، وضيق عليها الحزام والمقود رمت بنفسها إلى الأرض، فيعلم أن بها ضيق نفس.

ويجب أن يتفقد أضراسها، فإن كانت معلقة بلعت الشعير صحيحاً. وربما نبت للدابة أنياب رقاق زائدة الطول تمنعها من أكل العلف فيكسر لها، ولا يكسرها إلا الحاذق العارف بكسرها، إلا أنه عيب، فيجب أن يراعى ويتبرأ منه. والسلاف عيب؛ لأنه ييل المسدود بالزبال، ويكدم الضلف، ولا ينال منه إلا اليسير. والعنق القصير الخلقة عيب، والنكب عيب، وهو ينبت إلى طرف وقوف الدابة، فيعتبر ذلك بالمشى، فإن انطلقت، وإلا فهى علة فى العصب، والدابة التى تمنع البيطار عيب، والأذان المطروحة عيب فى خلقتها، والدابة التى لا تقبل اللجام عيب.

ويجب اعتبار عين الدابة من العمى، والعمى، والظفر، وهو لحم ينبت فى الماقين، ويتفقد قطع لسان الدابة من اللجام، ومن قصبة تأكلها فتجرى على لسانها فتقطعه، والشموص التى تضرب عيب فى الدابة، والدابة التى تمنع الشكل عيب، وعللها كثيرة، مثل أكل المقاد، وقلع الأوتاد، وقلة الطلوع إلى المعادى، وما أشبه ذلك، فيجب على النحاسين أن يتقوا الله عز وجل، ويخلصوا للفريقين بحسن النية، ويشربوا للمشترى أنه بالخيار ثلاثة أيام، ولا يأخذوا الجعل إلا من البائع بغير حيف، وإن كان للسلطان على الدابة رسم أخذ من المشترى^(١).

* * *

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٥٣).

الباب التاسع والستون

فى الطواوين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً ثقة، ويخلفهم بالنصيحة فى أشغالهم بخلط المعاجن وملء القالب، وأن لا يقطع طيناً سبخاً، ويأمرهم أيضاً أن لا يُعد للمشتري الطوب إلا اثنان، فإذا تعبنا ناب عنهما اثنان غيرهما، وأن يتقوا الله، ولا يحيفوا على المشتري، ويحرصوا ويجتهدوا فى تجريد الأثلاث، والأنصاف، والأرباع من الطوب، وأن لا يغشوا فى طبخه، ونضجه، وأن لا يعدلوا فى بيعة إلا لمن يلاطفهم، بل يعرضوه ويشهروه على كل من له عمارة، وإنشاء دار، ويعتبر عليهم المحتسب فى بعض أوقات الغفلة ما أعدوه للناس بعدّادين غيرهم.

* * *

الباب السبعون

فى دلالى العقارات

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً عارفاً، ويخلفوا أن لا يبيعوا ملكاً بقرية، ولا داراً، ولا جداراً، وقد خرج من ملك صاحبه بكتاب زور، ولا كتاب حيلة، ولا شبهة، ولا رهن، ولا يأخذوا الجعل إلا من البائع، ولا يعدل عما زاد فى ثمن شئ من ذلك إلى من نقص منه لعله من العلل، ومن خالف هذا أدب.

* * *

الباب الحادى والسبعون

فى تقديرات المراكب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً جيداً، له دين، يراعى الضرر بالناس وبأموالهم، ويلزمهم أن تكون قرايا المراكب غير زائدة على أطوالها، والرجل غير ناقصة، فإنهما متى كانا على هذه الحال كما ذكرنا، كانتا إلى الأمن والسلامة أقرب، وإذا كانت القرية زائدة على ذلك، والرجل ناقصة، لم يؤمن عند قوة الرياح والعواصف، من انقلابها واضطرابها، وينبغى أن تكون أوساق المراكب خفيفة، حتى تكون نواحيها على وجه الماء ظاهرة غير غائبة فيه، ويوافقوا على أن لا يضرروا بالناس، ولا بأموالهم، بالسير فى أيام النيل، ومن خالف أدب^(١).

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢٢).

الباب الثانى والسبعون

فى باعة الفخار

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويتقدم إليهم بأن لا يدلّسوا على الناس بسد المثقوب، والمشقوق، ومن سائر ما يبيعونه، بالشحم والجير وماء البيض، ويبيعونه على أنه سالم، ومتى وجد عند أحدهم شيئاً بهذه الصفة كسر، وينهوا عن المعاودة، فإن عادوا إلى الغش والتدليس، أدبوا وأشهروا، ويعلق منه شئ فى حلقهم ليكون شعفة لغيرهم^(١).

* * *

الباب الثالث والسبعون

فى شعّابين البرام

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، فإن هؤلاء الشعّابين يغشون بما لم يحله الله عز وجل؛ لأنهم يأخذون دم الذبائح، فيعجنونه بالدماء، ويلحمونها به، فينبغى أن يحلفوا أن يجعلوا عوضاً من الدم الذى يستعملونه، ويستعملون أيضاً دم الحمامة إذا عازوا دم الذبائح، ويأخذون طحالاً من ذبائح الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، فيشوّونه، ويدقونه دقاً ناعماً، ويلحمون بها شقوق البرام.

وكذلك إذا عجنوا الدماء بشئ من حجارة البرام مدقوقاً، منخولاً، مجبولاً بماء البيض، ويلحمون بها الشقوق فإنها تلتحم، وإن عجن ما ذكرناه بزيت الفجل، وليط بها البرام، ألصقها وضبطها، فيراعى ذلك منهم، فمن وجد منهم قد تخطى إلى هذا المحظور، بعد الإنذار، أدب وأشهر.

* * *

الباب الرابع والسبعون

فى الزجاجيين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويحلفوا أن لا يخرجوا الزجاج من الكور إذا فرغ حتى يمضى له يوم وليلة، فإذا تشرب دخانه أخرجه بعد ذلك وباعه، وإن عجل فى إخراجه قبل أن يشرب دخانه يصدع ويهلك على سائر من اشتراه، ويأمر المحتسب العريف أن

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢٢).

يُجْتَمَع على الكور، فإذا تشرب فتحه، وكذلك يصنع بصناع الماثقيل الزجاج، ويحملها عند فتحها إلى المحتسب يعيرها قبل بيعها؛ لأن فيها الزائد والناقص، فيتقى الله.

* * *

الباب الخامس والسبعون

فى معلمى الصبيان ومعلمات البنات

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة له دين، يمنعهم من التعلم فى المساجد؛ لأن النبى ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنهم يسودون حيطانها، وينجسون أرضها، ويمشون على البول، وسائر النجاسات، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى أطراف الأسواق، أو على الشوارع، ولا يعلّمون فى بيوتهم، ولا فى دهايزهم، وأول ما ينبغى للمؤدب أن يعلم الصبى السور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف، وضبطها بالشكل، ويدرجه بذلك، ثم يعرفه عقائد السنن، ثم أصول الحساب، وما يستحسن فى المراسلات والأشعار، دون سخيها، ومستزذلها.

وفى الرواح يأمرهم بتجويد الخط، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظاً غائباً، ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة فى الجماعة، فإن النبى ﷺ قال: «علموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم على تركها لعشر»^(١)، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أيديهما عند الدخول عليهما، ويضربهم على إساءة الأدب، والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشريعة، مثل اللعب بالكعاب، والبيض، ونردشير، وجميع أنواع القمار.

ولا يضرب صغيراً بعصى غليظة تكسر العظم، ولا رقيقة تؤلم الجسم، بل تكون وسطاً، ويتخذ مجلداً عريض السير، ويعتمد بضربه على اللوايا، والأفخاذ، وأسافل الرجلين؛ لأن هذه المواضع لا يخشى عليها مرض، ولا غائلة. ولا ينبغى للمؤدب أن يستخدم أحداً من الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم، كنقل الزبل، وحمل الحجارة، وغير ذلك من نقل الماء إلى بيته، وما أشبه ذلك، ولا يرسله إلى داره وهى خالية، ولا يرسل صبياً مع امرأة لكتب كتاب، ولا مع رجل لكتب قصة، ولا رسالة، فإن جماعة من الفساق يحتالون على الصبيان بذلك.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک فى الصلاة (١/١٩٧)، والبيهقى فى الكبرى فى الصلاة (٣/١١٩)

ومتى جعل عليهم عريفاً، جعله يؤنس. رشده وعفاه، ويمنعه من ضربهم، والحيث عليهم، ويراعى طعامهم وقت جوعهم، ولا يعلم الخط لامرأة ولا لجارية؛ لأن في ذلك مما يزيد المرأة شراً، وقد قيل: إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل حية تسقى سمًا، وينبغي أن يمنع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج^(١) والنظر فيه، ويضربهم على ذلك، وكذلك ديوان صريع الدلاء^(٢)، فإنه لا خير فيه.

ومعلمات البنات يمنعن بالغات البنات من الفواحش، ومن القصائد والأشعار والكلام الذى لا خير فيه، ويمنعن من زيتتهن وبهرجتهن يوم عيدهن فى البطالة، كذلك الصبيان يوم الجمعة ليخرجوا إلى صلاتها، والبنات يوم الأحد^(٣).

* * *

الباب السادس والسبعون

فى الدهانين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً، يراعى أحوالهم، وينهى أخبارهم، ويحلفون بالله العظيم أنهم لا يدهنون ما يبيعونه من جميع أغلاقيهم، وما يتعلق بصناعتهم، مما هو لهم خاصة ولسائر الناس، مما يستعملونه عندهم، وينقلونه منهم، إلا بثلاث دهانات، ثلاثة وجوه، ويشمسونه حتى يشبع قبل دفعه إلى أربابه؛ لأن كثيراً منهم يدهن دهنة واحدة أو دهنين، فأول ما يصيبه الماء والنداءة تقشر وتلف على أربابه، فيمنعون من ذلك، ويعذر إليهم وقت حلفهم، ومن خالف عن هذا أدب وأشهر^(٤).

* * *

الباب السابع والسبعون

فى المكارية

ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً، ويأمرهم أن يعلقوا فى أعناق الدواب الأجراس، وصفاقات الحديد والنحاس، لتعلوا الجلبة للداة إذا حضرت السوق، وكذلك يفعل بحمير حمالين الخطب، لتعلو أيضاً جلبتهم، فحينئذ ينذر الغافل، والمفكر، والضير، ومن

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج شاعر اليتيمة، له ديوان ضخمة ملئ بشعر الخلاعة، والمجون، والفسق، توفى سنة ٣٩١هـ.

(٢) هو أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادي.

(٣) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٧٠ - ١٧٢).

(٤) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ٢٣٧).

٣٦٤ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

يشاكل ذلك. معجىء الدابة. وينبغى أيضاً أن تكون أحمالها وأوساقها بقدر طاقتها واستطاعتها، وأن لا يخاف عليها حيف يضر بها، ولا يسوقها سوقاً حثيثاً تحت الأحمال، ولا يضربوها ضرباً قوياً، ولا يوقفوها فى العراض وهى بحمولها على تجهزها، ويراقبوا الله سبحانه فى علفها، وتكون موفرة بحيث يحصل لها الشبع، ومن خالف ذلك أدب.

* * *

الباب الثامن والسبعون

فى النحاتين والمصولين فى التراب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً يمنعهم أن يغربلوا التراب فى وسط الطرقات، ويأمرهم أن يعتزلوا بها إلى الأكوام والمزابيل، ولا يتركوها فى وسط الطريق بالجملة الكافية؛ لأن الدواب تنثره إذا مرت عليه، فيؤذى الناس، وكذلك الماشى إذا لم يجعل باله منه، وإلا ما يدرى إلا وقد غطست رجله فيه، وفى ذلك مضرة، والصواب المنع منها، والذى يغسل التراب ويصوله بالجفان ويغسله عند رعوس الأنهار والخلجان، وفى ذلك مضرة، فيمنعون منها.

* * *

الباب التاسع والسبعون

فى كساحى السماد وحمالته

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً، ويأمرهم بأنهم إذا نقلوا السماد إلى ظاهر البلد أن يحفروا له حفائر، فإذا نقل إليها يطم عليه، حتى تنقطع رائحته، فلا يتأذى منه أحد، ويمنعون من نقل ذلك إلى الماء وطرحه فيه أو حوله، ويمنعون أيضاً من سرقة الطوب والشقاق فى قفف الرماد إذا جابوه، ويرمونهم فى البير، ويدقونه، ويقولون لصاحب البيت: هذه الأرض الجلدة قد بلغنا إليها، وهم كاذبون، وفى البير سماد كثير قد بقى، فيقف العريف على نظافة ذلك وعلى حقيقته، بالبحث والحفر، ويكون له نصيب من أجرتهم يستعين به على مراعاتهم، والطواف عليهم. ويمنعهم أيضاً من فتح آبار الناس قبل الشرط على الأجرة؛ لأنهم ربما فتحوا البئر وتغالوا فى الأجرة، فإن ارتضى صاحب البيت بما يختارونه، وإلا تركوه مفتوحاً وانصرفوا عنه، فيؤدى إلى الضرر بصاحبه، لدخوله تحت ما يحبون، فيمنعون من ذلك، ومن فعل أدب.

* * *

الباب الثمانون

فى الغراييل ومناخل الشعر

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، يأمرهم بغسل جميع الشعر غسلًا نظيفاً قبل استعماله؛ لئلا يكون فيه شيء من شعر الميتة، ويمنعون من عمل الليف المصبوغ أحمر وأسود مع الشعر فى الغراييل؛ لأنه غش، وإذا غسل الليف المصبوغ بان صبغه، فيمنعون من ذلك، إلا اليهود، فإنهم لا يؤمرون بغيره. ويحلفون أيضاً أن لا يظهروا غراييل من جلود الميتة، وأن يغسلوا الجلود، وينصعوها قبل تقويرها؛ لئلا تكون قليلة الإقامة فتقطع سريعاً، وتضر بمشترىها، ومن خالف أدب^(١).

* * *

الباب الحادى والثمانون

فى حافرى القبور

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة يمنعهم أن يعتدوا على تربة، يحفروا فيها بغير أمر مالكها، ويستغنمون غيبة صاحبها، فيحفرون فيها لغيره، وعلى كل وجه وسبب، أو تكون التربة لامرأة غائبة فى منزلها لا تدرى بهم، فيعتدون عليها فيحفرون فيها. ويؤمرون أن تكون القبور عميقة قدر قامة وبسطة؛ لئلا تنبش الكلاب الناس؛ ولئلا تطلع رائحتهم، ويؤمرون بأن لا يحيفوا على الناس فى الأجرة، ولا يطالبوا الضعفاء بما لا يقدرون عليه، وكلما ظهر لهم وقت حفرهم عظم من عظام الناس ستروه بالتراب، ولا يتركونه ظاهراً بين أيدى الناس، ويعمل للقبور لحد، إلا أن تكون الأرض رخوة بمحفورة، فتشق، ويدفن فى شقها، ويسل الميت من قبل رأسه، ويسجى بثوب عند إدخاله القبر، ويقول عند إدخاله: بسم الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ، ويضعه على الجنب الأيمن، وتوضع تحت رأسه لبنة، ويفضى بخده إلى الأرض، وينصب عليه اللبن، ويحشى عليه التراب، ويرفع القبر عن الأرض قيد شبر، ويرش عليه الماء، وتسطيعه أفضل^(٢).

* * *

الباب الثانى والثمانون

فى الوراقين والمبهرجين

ينبغى أن يمنعوا، ولا يسامحوا بذلك، وأن يسترزقوا الله من وجوه غير هذه الوجوه؛

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ٤٩، ٥٠).

٣٦٦ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

لأنه كذب، ومحال، وحرام، فلا يمكن بحالهم ومقاعدهم إلا على الطريق والشوارع، بحيث أن لا ينفرد واحد منهم بحرمة فى منزله، ولا فى دهليزه، ولا يستخبر منه المحال، ولا يكذب على النساء، ولا على جهال الرجال بحديث سحر، ولا كهانة، ولا بكتاب قبول، ولا بغض، ولا يتحيل عليهم ببذل تراب، ولا بقدر ماء، ولا بالمداد على الإبهام، ولا يُحيل الأشخاص على الصبيان الذين لا تميز لهم، وجميع أشباه ذلك، ومن فعل بالناس شيئاً من ذلك، هذر عليهم بهذه المعانى، فقد وجب عليه الأدب؛ لأن هذا كذب وتدليس^(١).

* * *

الباب الثالث والثمانون

فى من يكتب الرسائل على الطريق، والرقاع، والدروج

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً، ويأمره بأن يتقدم إليهم ويأمرهم بأن لا يكتبوا كتاباً فى سب أحد، أو شتمه، أو قذفه، ولو وفرت له الأجرة، وعظمت له الغبطة، لا يفعل ذلك إلا ما يجرى فى مجرى المراسلات، والاستعطافات، والزيارات، وكذلك ما جرى مجرى السعائيات، والإغراء، والتميمات، إلى أولى الأمور، ويحلفون بالله العظيم أن لا يتجاوزوا ما جرت به العادة فى المكاتبات من استعلام الأخبار، وذكر ما تجرى عليه الأحوال، فمتى جرى الأمر هكذا، لم يكن على الكاتب طريق للذم، ولا عيب، ولا تعزيز، ومن خالف أدب^(٢).

* * *

الباب الرابع والثمانون

فى كتاب الشروط

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً من أهل العلم، والفضل، والنحو، والفقه، واللغة، والبيان، وينبغى لكاتب الشروط أن يكون مقرئاً، فقيهاً، عارفاً بأكثر الاختلاف على مذهب الأئمة، رضوان الله عليهم أجمعين، ويكون حاسباً، فمتى عدم فناً من هذه الفنون التى ذكرتها، كان عجزه بمقدار نقصه من ذلك العلم، ومتى كان فى كل فنٍ من هذه

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٨٢، ١٨٣).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٨٣، ١٨٤).

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٦٧
الفنون فاضلاً، صلح أن يكون كاتباً للشروط، مرجوعاً إليه، وإلى رأيه، وما يشير به،
سيما إذا كان ديناً ظاهر الستر، والله أعلم.

* * *

الباب الخامس والثمانون

في الوكلاء بأبواب القضاة وتدليسهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً، وأن يكون الوكلاء المناظرين بأبواب الحكام أمناء غير
خونة، ولا فسقة، فقد يمسك أحدهم عن إقامة الحجة لموكله من أجل الرشوة على
ذلك، ولا يسمى الوكيل في فراق زوجين، ولا يُعَلِّمُ مقراً إنكاراً، فمن انكشف بذلك،
أو بعضه، أدب وأشهر، وأصرف، وإن كان فيهم شاب حسن الصورة، فلا يرسله
القاضي لإحضار النسوان، ويجب على جماعتهم، إذا شكوا في شيء، رجعوا إلى رأى
من نصب إلى هذا الأمر^(١).

* * *

الباب السادس والثمانون

في الميازيب ومضرتها

اعلم وفقك الله أنه قد يجعل بعض أرباب العقارات ميازيب يقبلون فيه ما يستعملونه
من الماء في طول الزمان، ويحتفرون تحتها حفيراً تجمع تلك المياه فيه، وليس لهم أن
يفعلوا ذلك في طرقات المسلمين، إلا في وقت المطر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]، فإذا لم يكن مطر، فليس لهم أذية للناس في طريقهم،
فإن هذه الحفرة ربما سقط فيها الضرير، والغافل، والمعرض، والغريب إذا عبر في الليل،
وفي ذلك إثم كبير ومضرة، وربما وقع من هذه المياه على ثياب الناس بشيء فينجسها،
فينبغي أن يمنع من ذلك، حتى لا يكون منه سبب.

* * *

الباب السابع والثمانون

في إصلاح الجوامع والمساجد

يؤمر القومة بنفض الجوامع والمساجد في كل يوم بالغدو وبالعشى، ورفع حصرها،
وكنسها كل يوم جمعة، وغسل قناديلها كل شهر مرتين، وإشعالها في كل ليلة في
صلاة المغرب، والعشاء، والصبح، ويعنى بنظافة ساحاتها، وينبغي للمحتسب أن يباشر

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٠٩، ٢٠٩).

وقودها، فإذا رأى نقصاً في وقودها، جعل من جهته مشرفاً على صب زيتها، ويتقدم إلى أئمة المساجد المتطوعة، والمؤذنين المتطوعة، ويسألهم الحضور في كل يوم جمعة للجامع الأعظم للأذان بصلاة الجمعة، فإن في كثرة الأصوات، واجتماع النيات، كثرة وقوة للدين، وضعفاً لقلوب المشركين.

وتكون العناية والمرعاة لجميع المساجد كما ذكرنا في حال الجامع، ويأمرهم بغلق أبوابها عقيب كل صلاة، وصيانتها من الصبيان، والمجانين، كما أمر سيد المرسلين، وكذلك من يأكل فيها الطعام، وينام، أو يعمل صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد ضالة، أو يجلس فيها لحديث الناس، فقد ورد الشرع بتنزيه المساجد عن ذلك. ويتقدم إلى جيران كل مسجد بالمواظبة على صلاة الجماعة عند سماع الأذان، لإظهار معالم الدين، وإشهار شعائر المسلمين، لاسيما في هذا الزمان، لكثرة البدع، واختلاف الأهواء، وما قد صرحوا به من الأحوال الخارجة عن الأحكام، فيجب على كل مسلم إظهار شعائر الإسلام، وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك، لتقوى عقائد العامة.

ولا يؤذن في المنارة إلا عدل، ثقة، عارف بأوقات الصلاة؛ لأن النبي ﷺ قال: «المؤذنون أمناء، والأئمة ضمناء، فرحم الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»^(١). وينبغي للمحتسب أن يمتحنهم بمعرفة الأوقات، فمن لم يعرف ذلك منعه من الأذان حتى يعرفها؛ لأنه ربما أذن في غير الوقت، فسمعه العامة، فيصلون قبل الوقت، فلا تصح صلاتهم، فيكون هو السبب في إفساد صلاة الناس، فيجب عليه معرفة الوقت، ويقرأ باب الأذان والإقامة في الفقه، ويستحب أن يكون المؤذن صيِّتاً، حسن الصوت، وينهاه المحتسب عن التغنى في الأذان، وهو التطريب، والتمطيط، ويأمره إذا صعد المنارة أن يغض بصره عن النظر إلى دور الناس، يأخذ عليه العهد في ذلك.

ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذن في أوقات الصلاة، وينبغي للمؤذن تحرير أوقات الصلاة في النهار بالميزان، وإذا لم يكن له ميزان، مكن الوقت تمكيناً، لا يكون عليه درك بعده، وعليه أيضاً أن يكون عارفاً بمنازل القمر، وشكل الكواكب، ليعلم أوقات الصلاة، وأوقات الليل والنهار، وهي ثمان وعشرون منزلة، أسماؤها: الشرطان،

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٦/٣) ح (١٥٣١)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٠/١)

ح (١٨٦٧)، والشافعي في مسنده (٣٣/١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤٧٧/١) ح (١٨٣٩)،

والإسماعيلي في معجمه (٤٦٦/١، ٤٦٧) ح (١١٩).

والبطين، والثريا، والدبران، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والأكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخيبيبة، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطون الحوت، فهذه جملة عدد منازل القمر.

والفجر يدوم طلوعه فى كل منزلة من هذه المنازل ثلاثة عشر يوماً، ثم ينتقل إلى المنزلة التى تليها، فشرحه طويل، فمن أراد معرفة ذلك، فعليه بكتاب الأنواء لابن قتيبة، ولا غنى للمؤذنين عن معرفته؛ لاحتاط على معرفة الفجر، ويجوز للمؤذن أخذ الأجرة على الأذان بالصلوات، إلا الإمامة، فإنهم يمنعون من أخذ ذلك، فإنه حرام، فإن دفع للإمام من غير شرط، جاز له أخذه على سبيل الهدية، والرهبه، والصلة، والبر^(١).

* * *

الباب الثامن والثمانون

فى قراءة القرآن قدام الموتى

ينبغى أن يعرف عليهم عريفاً، ويأمر أهل القرآن بقراءته مرتلاً، كما أمر الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحين القرآن، وقراءته بالأصوات الملحنة، كما يلحن المغنى بالأشعار، فقد نهى الشرع عن ذلك، ولا يأتون إلى جنازة من غير أن يستدعيهم ولّى الميت، فإن أعطوا شيئاً من غير شرط على سبيل الصدقة، جاز لهم أخذه، وأما اشتراطه فلا يجوز، فيعتبر المحتسب ذلك^(٢).

* * *

الباب التاسع والثمانون

فى غسالى الموتى

اعلم يرحمك الله أنه لا ينبغى أن يغسل الموتى إلا ثقة أمين، قد قرأ كتاب الجنائز فى الفقه، وعرف حدودها، فيسأله المحتسب عن ذلك، وصفته أن يستر الميت فى الغسل عن العيون، ولا ينظر الغاسل إلا ما لابد منه، والأولى أن يغسل فى قميص، وغير المسخن من الماء أولاً، إلا أن يحتاج إلى المسخن، ويتولى غسله، وينجيّه، ولا يجوز أن يمس عورته، ويستحب أن لا يمس سائر جسده إلا بخرقه، ويوضئه وضوءه للصلاة

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٧٢ - ١٧٩).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ١٧٨، ١٧٩).

٣٧٠ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام

ويغسل رأسه بماء وسدر، ويسرح شعره، ويغسل شقه الأيمن، ثم الأيسر، ثم يفيض الماء على سائر جسده، يفعل ذلك ثلاثاً، يتعاهد في كل مرة إمرار اليد على البطن، فإن احتاج إلى الزيادة غسل، ويكون ذلك وترّاً، ويجعل في الغسلة الأخيرة كافوراً، ويقلم أظفاره، ويحف شاربه، ويخلق عاتته، والغرض من ذلك النية والغسل، ثم يستر بثوب، وإن خرج بعد الغسل شيء أعيد غسله، وقيل: يوضأ، وقيل: يكفيه غسل المحل، ومن تعذر غسله ييمم، فمن كان قيماً بما ذكرنا تركه، ومن لم يعلم صرفه ليتعلم.

* * *

الباب التسعون

في المراقب والمراقب

ينبغي أن يتقدم إلى متولى المراقب على البحر المالح، ورصدة البحار، ويأمرهم بالتهليل، والتكبير، والتوقيد للنار في كل ليلة جمعة، ليعلم أنه متيقظ وعلى حذر، فإذا رأى خبراً أو لاح شيء تفقده، ولم يغفل عن مراعاته، نهائراً كان أو ليلاً، ويراعى ذلك منهم، ويتفقد مبيتهم في المراقب، فإن جرى من أحد نقص استبدل به غيره، والصواب أن يسأل قوم من المستورين، وكذلك من المؤقتين، ومن شاكلهم أن يذكروا الناس في الأسواق بتأذين، بالتهليل، والتكبير، والصلاة على النبي ﷺ، وعلى الأئمة، وينهون الناس عما نهاهم الله عنه من البخس والظلم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ...﴾ [المطففين: ١ - ٤]، فقد يوافق هذا التحذير بالإقلاع عن الأضرار، ويحشوا أيضاً على اشتهاؤهم أمر الأعداء والمرضى من في منازلهم من المسلمين ليعود بعضهم بعضاً، لما في ذلك من المثوبة الحسنة، فقد لحقت أنا شيوخاً مستورين كانوا يسألون الأطباء عن الأعداء والمرضى، فيخبرونهم بأماكنهم، فيمضون إليهم، ويلاطفونهم، ويتعاهدونهم بالملاطفة، والهدايا، والأشربة، والفواكه، وغير ذلك.

* * *

الباب الحادى والتسعون

في طباطبي الولائم

ينبغي أن يتقدم إليهم ويمنعهم من أن يدخل الرجال إلى الأماكن التي تجتمع فيها النساء، ولا يقدم الموائد إليهم، ولا يرفعها من بين أيديهم، إلا جوارى أو نساء من الخدام، ولا تجتمع الرجال مع النساء، ولا ينظرون إلى وجوههن، ولا يمكنوا من ذلك، ويحلف الطباقون أنهم لا يهونون على أحد قيمة ما يريد أن ينفقه في الوليمة التي

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ٣٧١
يذكرها الصعاليك، فربما كان ذلك سبباً لإنكاره، وسقوط جاهه، فيمنعون من ذلك،
ويراعى ذلك.

* * *

الباب الثانى والتسعون

فى معرفة الموازين

اعلم وفقك الله أن معرفة الموازين وضْعاً ما استوى جانباه، واعتدلت كفتاه، وكان
ثقب علاقته فى وسط القصبه فى ثلث سمكها، فيكون تحت مرود العلاقة الثلث، ومن
فوقه الثلثان، وهذا يعرف رجحانه بخروج اللسان من قلب العلاقة، وتهبط الكفة سريعاً
بأدنى شىء، وأما الشواهين الدمشقية، فيوضع ثقب علاقته بخلاف ما ذكرناه، ويعرف
رجحانها بدخول اللسان فى قب العلاقة من غير هبوط الكفة، وقد يكون مرور العلاقة
مربعاً ومثلثاً ومدوراً، وأجودها المثلث؛ لأنه أسرع رجحاناً من غيره^(١).

* * *

الباب الثالث والتسعون

فى معرفة المكايل

اعلم وفقك الله أن المكايل الصحيحة ما استوى أعلاه وأسفله فى الفتح والسعة، من
غير أن يكون محصرّاً أو أزور، وأن لا يكون بعضه داخلاً وبعضه خارجاً، وينبغى أن
يكون مشدوداً بالمسامير؛ لئلا يصعد فيزيد، أو ينزل فينقص، وأجود ما عُيرت به
المكايل الحبوب الصغار التى لا تختلف فى العادة فى طول الزمان، مثل الكزبرة،
والخردل، والزر قطونا، والبرسيم، والسّمسم، وما أشبه ذلك، وصحة الويبة ستة عشر
قدحاً على ما أوجبه الحق والحساب^(٢).

* * *

الباب الرابع والتسعون

فى معرفة مثاقيل الذهب وصنع الفضة

اعلم وفقك الله أنه ليس بين الناس خُلف فى أن المثقال درهم ودانقان ونصف، وهو

(١) معالم القرية لابن الأخوة (ص ٨٣).

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٨٥، ٨٦).

٣٧٢ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسلام

أربعة وعشرون قيراطاً^(١)، وهو خمس وثمانون حبة، والدرهم ستون حبة، والمعول في أكثر الأوقات من ذلك على الصنح الواردة من الباب العزيز من الحضرة المطهرة، فيعتبر ويطلق للناس المعاملة بها، وأصح ما عيرت به الصنح الموازين الطيارات الصغار، ومن الكبار الطيارات أيضاً^(٢).

* * *

الباب الخامس والتسعون

في معرفة الأبطال والقناطير

اعلم وفقك الله أنه لما كانت هذه أصول المعاملات، وبها اعتبار المبيعات، لزم المحتسب معرفتها، وتحقيقها، لتقع المعاملة بها من غير غبن على الوجه الشرعى، وقد اصطلاح أهل كل بلد وإقليم على أبطال تتفاضل في الزيادة والنقصان، وسأذكر ما لا يسع المحتسب جهله، ليعلم بذلك تفاوت الأسعار.

فأما القناطير التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، فقد قال معاذ بن جبل، رضى الله عنه: هو ألف ومائتا أوقية^(٣)، وقد قال أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه: هو ملء مسك ثور ذهباً^(٤). والقنطار المتعارف مائة رطل، والرطل مائة وأربعة وأربعون درهماً، وهو اثنا عشر أوقية، كل أوقية اثنا عشر درهماً، هذا رطل مصر الذى رسم بها، وأما رطل دمشق، فستمائة درهم، وأوقيتها خمسون درهماً، ورطل حمص سبعمائة درهم وأربعة وتسعون درهماً، وأوقيتها سبعة وستون درهماً وحبة وثلاثا حبة^(٥).

(١) اعلم أن القيراط جزء من أجزاء الدينار، وقد اختلفت المذاهب في مقداره، فعند الحنفية = ٢٠/١ من الدينار، فالقيراط = (٤,٢٥ ÷ ٢٠ = ٠,٢١٢٥) جراماً، وعند الجمهور = ٢٤/١ من الدينار، فالقيراط = (٤,٢٥ ÷ ٢٤ = ٠,١٧٧١) جراماً. انظر: المكايل والموازين لعلى جمعة (ص ٢٣).
فالمثلثال عند الحنفية = ٢٤ × ٠,٢١٢٥ = ٥,١ جراماً، والمثلثال عند الجمهور = ٢٤ × ٠,١٧٧١ = ٤,٢٥١ جراماً.

(٢) انظر: إتحاف الخيرة للشيزرى (ص ١٦، ١٧)، معالم القرية لابن الأخوة (ص ٨١، ٨٢).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية (٣٥٢/٢)، تفسير القرطبي (٣٠/٤)، تفسير ابن كثير (٣٥١/١).

(٤) لم أجده.

(٥) على اعتبار أن القنطار = ١٢٠٠ أوقية، فمقداره عند الحنفية = (١٢٠٠ × ١٢٤,٨ =

ورطل حمأة ستمائة وستون درهماً^(١)، وأوقيتها خمس وخمسون درهماً^(٢)، ورطل المعرة مثل حمص، ورطل شيراز ستمائة وأربعة وثمانون درهماً، وأوقيتها سبع وخمسون درهماً، والرطل البغدادي مائة وثلاثون درهماً^(٣)، وأوقيته أحد عشر درهماً إلا دانقاً، والمن مائتان وستون درهماً^(٤)، وهو منسوب إليه، وقد وجدنا جميع العطارين والصيدالة يزنون بالعشرة دراهم عوضاً عن الأوقية، وهذا بخس وخيانة، فالزمانهم الأوقية عشرة دراهم ونصف وثلث، وجعلناها مخالفة لصنجة العشرة دراهم، وجعلناها مثلاً عند المعير، يعيرون بها، ويعملون نظيرها في أيام حسبتنا، وأما الرطل الليتى، فمائتا درهم، وأوقيته ستة عشر درهماً ونصف وثلث وثمان حبة، وأما الرطل الجروى، فثلاثمائة درهم، وأوقيته خمسة وعشرون درهماً.

وأما القناطير، فينبغى أن تضبط، فمنها ما يكون قد نقش وجهها بالعربية ليقراها كل أحد، ومنها ما يكون الوجه الواحد عربياً والآخر قبطياً، فينقش على قب القبابين، تحت لسنها، بالعربية، وينقش على الرمانة وزنها، ليكون أصلح وأبين؛ لأن كل رمانة تنقص عن حقها رطلاً، فيدخل على المشتري بها نقص عشرة أرطال، فينبغى للمحتسب أن يحتاط على هذا أتم حيطه.

وينبغى أن يتفقد القبابين في كل وقت بالعيار؛ لأنها تعيب إلى النقص، لاسيما إذا مِيلَها الوزن، لي طرح الوزنة عنها من غير حمالين يرفعون الثقل عنها، فإنها تعب للوقت، والقبان الرومى أصح من القبطى، وينبغى أن يكون المحتسب يمتحنهم بعد كل حين وتختبرهم، فإنها ربما تعوّج من شيل الأثقال، فتفسد كما ذكرنا أولاً^(٥).

* * *

= (١٤٩,٧٦) كيلو جراماً، وعند الجمهور = (١٢٠٠ × ١١٩ = ١٤٢,٨) كيلو جراماً.

على اعتبار أن الأوقية = ٤٠ درهماً، والدرهم عند الأحناف = ٣,٢٥ جراماً، وعند الجمهور =

٢,٩٧٥ جراماً تقريباً. انظر: المكايل والموازين لعلی جمعة (ص ٢٤، ٢٥).

(١) فعند الأحناف تضرب في ٣,١٢٥ جراماً، وعند الجمهور تضرب في ٢,٩٧٥ جراماً.

(٢) وعند الأحناف تضرب في ٣,١٢٥ جراماً، وعند الجمهور تضرب في ٢,٩٧٥ جراماً.

(٣) لأن الرطل العراقي عند الحنفية نصف من ، والمن = (٢٦٠ درهماً)، فالرطل العراقي عند الحنفية

يساوى (١٣٠ درهماً).

(٤) وعند الأحناف تضرب في ٣,١٢٥ جراماً، وعند الجمهور تضرب في ٢,٩٧٥ جراماً.

(٥) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٨٠، ٨١).

الباب السادس والتسعون

فى معرفة الأقساط

اعلم وفقك الله أن عيار القسط الجروى المتعامل به أربعة أرتال ونصف^(١)، والسوقة يجعلونه ثمانية أكواز فى مبيعاتهم، والكوز هو ثمن القسط، ومطر العسل الذى تعير به الأمطار وقتاً عند مقابلة الحمل، وعند تحصيل الثمن، خمسة أقساط، والقسط اللتى أيضاً يجب أن يكون ثلث الجروى، ونظير الرطل أيضاً، فيكون ثلاثة أرتال بالجروى، فمن جعل القسط من اللبانين وغيرهم ثلاثة أرتال إلا ثلث، فقد خان وبخس، فيتقدم المحتسب إليهم بأن لا يفعلوا هذا، ويعير عليهم عياراً يحتاط عليه، ويعملون به، ومن خالف أدب وأشهر، ويجب أن تكون جميع الأقساط والأمطار معيرة مختومة بالخواتيم الرصاص، ويعير عليهم كل وقت.

* * *

الباب السابع والتسعون

فى معاصر الزيت وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً ثقة بمعيشتهم، ويمنعهم أن يعتصروا بزر الكتان إلا مقلّياً، فإنه إذا قلى ظهرت رائحة زيتته، وإذا اعتصروه بلا قلى خفيت رائحته، ويخلطوه فى الزيت الحلو، ويدلسوا به، والزيت المعتصر من القرطم يضر النساء الحبالى إذا أكلوه، ويسقط شعورهن، وقد يخلطه من يستحل ذلك فى الزيت الطيب، وفى الشيرج، فينبغى مباشرة ذلك، والاهتمام به، ويتقدم إلى الحمالين بأن لا يبيعوا الزيوت على الغرباء دون أن يملؤا الأسواق، ويظهروه ويشهروه دفعات قبل بيعه للغرباء، ولا يعترض الحمالون للسمسرة، وأن يكون الحمال غير السمسار^(٢).

* * *

الباب الثامن والتسعون

فى التبن والتبانين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً عارفاً بمعيشتهم، ويمنعهم أن يخلطوا مع تبن الحنطة تبن الفجل، ولا تبن العدس، ولا تبن البرسيم، ولا تبن المبلول الذى يكون فى قعر الشباك،

(١) فهو عند الحنفية = ٤,٥ رطلاً × ٤٠٦,٢٥ جراماً = ١,٨٢٨ كجم، وعند الجمهور = ٤,٥

رطلاً × ٢,٩٧٥ جراماً = ٠,٠١٣٣٨ كجم.

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢٨).

ولا تبين الجلبان، ولا البروينا، وهو أصول القمح الغليظة، ولا يتخطوا إليه، ولا يأمرؤا به، ولا من فعله، ويعرف على حماليه عريقاً ثقة عارفاً عيهم، يأمرهم أن يعيروا بمنهية تريكاً رحمه الله، التي عيارها مائة رطل، فيكون الحمل مائتين وخمسين رطلاً بالقلعي. وأخبرني من أثق به أن عيار المنهية الترياقية ثلاثة أرباب^(١) بالقفيز المصري، ويكتب على عيار كل واحدة منها عيارها بعد أن تصح، ويكتب عليها اسم المحتسب الذي يعيرها، ويؤمرون بجودة الحشو، وإذا وجد من أحد بخس في كيله، أدب وأشهر بعد الإنذار^(٢).

* * *

الباب التاسع والتسعون

في القراط^(٣) والقراطين

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمرهم أن لا يخلوا شيئاً من القت، ويحشونه من الدقاق، ولا يخلطوا الطيب منه بالدون، وليكن بيع كل واحد منهما على حدته، ولا يخلطوا الحزم الكبار ويشدونها صغاراً، بل يبيعوا بشد الغيط^(٤). بما أطعم الله ورزق، ويعتبر موازينهم، وصنجهم، ومن فعل شيئاً من هذا أدب.

* * *

الباب المائة

في الأنماط وصناعتها

ينبغي أن يعرف عليهم رجلاً منهم، ثقة، له بصيرة وخبرة، ويأمره أن يتقدم إليهم، وأن لا يمكن رجلين من شراء سلعة مثمنة أو غير مثمنة، إلا أن يكونا شريكين في مال واحد وحانوت واحد؛ لأنهما إذا كانا متفرقين وأخذ أحدهما السلعة عنده، وجاء رجل مشتر بليل جد في طلب تلك السلعة ليأخذها له من شريكه بزيادة عن قيمتها، ويأخذ منه الجعل، وهذا تدليس وغش، وإن عرض شيء فيه رفو، عرض ونودي عليه البراءة من

(١) اعلم أن الإردب مكيال ضخيم لأهل مصر، وهو أربعة وعشرون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمقدار الإردب عند الحنفية = $(٢٤ \times ٣,٢٥) = ٧٨$ كيلو جراماً، وعند الجمهور = $(٢٤ \times ٢,٠٤) = ٤٨,٩٦$ كيلو جراماً.

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣٣).

(٣) هو نوع من البقول.

(٤) هو الريف بلغتنا نحن أهل مصر.

٣٧٦ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن يسام
سائر العيوب، ولا يمكن الرفاء، ولا الصقال، ولا الغسال، ولا النجار من التجارة فى
هذه الصنائع، بل يكون كل رجل لازماً لبضاعته.

ولا يمكنون باعة الكلل من فتح رعوس الصفقات، ولا يخلط فى الكلل الشرب التى
من عمل تيس، ولا شيئاً من عمل مصر بشيء من عمل تيس، وإذا جلس عند رجل
سمسار ليشتري له شيئاً من الجهاز، يأخذ الجعل منه، ولا يأخذ من البائع، ولا يأخذ
أحد من المنادين من يُراد شيئاً من قماشه فيعيده إلى النداء أصلاً، ولا يزيد فى قطعة
قماش من نفسه، ولا يعمل لحافاً جديداً مقطوع الأركان إلا ويفتق بعضه ليتعين جديد
هو أم عتيق، ولا يعمل الزبون إلا جديداً مبطناً، وربما اشترى التاجر الديباج والبريون
والطنافس بنظرة إلى مدة بدينار معلوم، فإذا صار على كيسه استعمله وأكرهه، فإذا جاءه
الزبون أخبره برأس ماله، وهذا تدليس.

ولا يخلط طرى قديم بمجديد، وسبيل السماسرة أن يكتبوا على الطنافس اسم البائع
والمشتري والمنادى وثمانها على أطرافها، ولا ينادى المنادى على شيء لنفسه، ولا يأخذ
الجعل إلا من يد البائع بقيراط الدينار، وإذا صفق على تاجر قماش ورضيه لم ينقصه
شيئاً من ثمنه إلا برضاه، أو بعيب يظهر، فيفسخ ذلك البيع، ويتوافقون، ومن خالف
عومل بما يستحق وأدب.

* * *

الباب الحادى والمائة

فى صناع الأخمرة والحريز والوقايا

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة من أهل صناعتهم، ويأمره أن يمنهم أن لا يمدوا
الأخمرة إلا كما جرت العادة، فى الطول، والعرض، وعدد الخيوط، فمن ذلك الأخمرة
تكون ستة أذرع بالمرفق فى عرض سداها، وسداها. والعقل الصغار السود الملوّية طول
ذراع ونصف، وعرض ثلاثة أشبار، وسداها ألف وستمائة خيط، ويؤمرون أن لا تباع
إلا خاماً؛ لأنها إذا قصرت أنهرت من الدق والماء والغسل. وصفائها قد يعمل من قطن،
ولا يمكنوا من ذلك، بل تكونا حريراً. وقد يعمل فى أول خيط الطرحات، والخيط هو
ثمانية طرح، فيعملون فى أوله اثنين طول كل واحدة ذراعان، والستة الباقية ذراع
ونصف كل واحدة، فإذا جاء المشتري أروه أول الخيط، ثم يطوونه، وهذا تدليس،
فيمنعون من ذلك أتم منع، ويعتبر عليهم جميع أشغالهم، ويؤدب فاعله شفعة لغيره.

* * *

الباب الثانى والمائة

فى الحصر العبدانى

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بصناعتهم، ويأمره أن يحلفهم بالله العظيم أنهم لا يصبغون السمار الأحمر إلا بالقوة، لا بالبقم، فإن البقم يتغير صبغه من الحر والشمس، وإذا وقع عليه شئ من الحموضة اصفر، ويطلع. والسمار الأسود يكون صبغه بالحديد، ويجفف مقامه، لثلاث تضعف قوته. وتكون مياه الصباغ نظيفة طاهرة، ويكون جميع قيامه من غزل الكتان المعتدلة الخيط، ويعتبر ذلك^(١).

* * *

الباب الثالث والمائة

فى الخيزرانين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بصناعتهم، ويأمره أن يمنعهم من عمل الخيزران الذى يشق من السلال التى يجيبون فيها الصينى إلى مصر، تعمل منه أطباقاً وتباع على الريافة بالحديد، ولا يعمل منه مكبات ولا أسفاط للعطارين ولا غيرها، لسرعة تقصف خيزرانها، بل يكون عملهم من الخيزران الصحيح، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الرابع والمائة

فى اللبود واللبادين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بصناعتهم، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا فى اللبود شيئاً من شعر الميتة، ويمنعهم من عمل صوف الرعوس، ويستدل عليه بفرط خشونته، ويكون وزن اللبد الأحمر أربعة أرطال بالقلعى، واللبد الأزرق والمرشحة الحمراء رطل ونصف، ويسقى الصمغ بلا مشاق، ويمنعهم من عمل اللبد المشاقة الذى يعمل قوالب فى داخل المسانيد، بل يكون من الصوف، ويكون وزن كل واحد منهما ثلاثة أرطال، ومن خالف أدب^(٢).

* * *

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٣١).

الباب الخامس والمائة

في الأرجوان وصناعه

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً، ويأمره إذا خرجت لهم صبغة صافية، لقلّة لُكّها وقوة شَبها، أن يعمد إلى الجير القلاد، فيذرّ منه على مقدار وزن الصبغة بالماء الحار، ثم بماء اللك الذي صبغ به أولاً، ويترك الأرجوان فيه ساعة، وينشل منه لثلاً يسود، وهذا تدليس، وإنما ينبغي أن تكون الزيادة من اللك على مقدار الصبغ، والصبغة الصافية القليلة اللك أيضاً إذا خرجت بسوقها من الجير، فيكبوا لونها إلى السواد، فيسقيه البقم، وهذا تدليس، وإنما الواجب أنه كان يسقيه الشب ليقوى شبه ثانی مرة، ويسقيه اللك إلى أن يأخذ حده من الصبغ، فيراعى ذلك كله منهم، ويمنعون منه، ويستحلفون بالله العظيم على ذلك كله، والطفل الأسود قد يروق مأؤه وتزول صبغته، وكذلك الطين الرومي، وليس يضر الأرجوان، ومن خالف أدب.

* * *

الباب السادس والمائة

في الغضار

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة من أهل معيشتهم، ويأمره أن يشترط عليهم أن لا يباع غضار الكوز إلا مفرداً من غضار التنور، ولا يخلط كوز بتنور إلا أن يكون متقارباً بمقدار الدينار الواحد، وعلى الغضّارى إذا جاءه الزبون لشراء مائة جام كما اشترى، ووقعت المقابلة على هذا الشرط، دفع إليه الثلث غضار والثلثين دقا، ويعد له كما اشترى جاماً جاماً من كل شيء، إلا أن يؤثروا الزبون جنساً واحداً، ويشترط على الحمالين معاونة الزبون من الغرباء وغيرهم، وأن يستوفوا حقوقهم على الشرط الذي تقدم ذكره من الأصناف، والأصباغ، والعدد، وإزالة المعيب^(١).

* * *

الباب السابع والمائة

في الأبارين

ينبغي أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويمنعهم من أن تخلط الأبر الأرمهان بالفولاذ؛ لأنها إذا سقيت خلطها من لا دين له في الفولاذ، بل يكون كل صنف منهم على حدته،

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢١، ٢٢٢).

ويستحلف الصناع على ذلك، ويتفقده حالهم كل وقت، ويعتبر عليهم بالنار؛ لأن الأبر
الفلاذ إذا حميت وسقيت الماء تنقص، والغير فلاذ إذا سقيت الماء لم تنقص، فمن
فعل ذلك أدب^(١).

* * *

الباب الثامن والمائة

فى الحلفاء وعدده ورسومه

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، ويأمره أن يأمرهم أن يكون عدد الحمل مائة
وخمسين عقدة، كما جرت العادة، وأن تكون الأحمال مغطاة بالعبي؛ لئلا تحرق ثياب
الناس فى الطرق، ويكون مع كل ثلاثة حمير سواقاً، والأجراس النحاس المقرعة فى
أعناقها ليعملوا الجلبة، فينتبه الغافل، والمرأة، والأعمى بمجىء الدابة، وكذلك الخطابون،
ومن خالف ذلك أدب.

* * *

الباب التاسع والمائة

فى الحامل وصناعتها

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويأمره أن يمنعهم أن لا يعملوها من خشب السيسبان،
ولا من خشب قد سوس ونخر، ولا برم بخشب فيه علة ولا ضعف، ويكون القد مخبور
الطهارة، ويمنعون من الشركة، ولا تباع إلا معرفة فى وسط السوق حتى يظهر ما فيها
من العيوب، ولا تباع فى المخازن بوجه ولا سبب، ولا تجلد قبل بيعها، ومن خالف
أدب.

* * *

الباب العاشر والمائة

فى الروايا والقرب

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا شيئاً من هذه
الأوقات والآلات الحافظة للمياه التى فيها مادة الحياة، إلا من الجلود المدبوغة بالقرض
اليمانى التى قد استحكم دباغها، وطال مكثها فى الدباغ، ولا تعمل من جلد بغل، ولا

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢٣).

٣٨٠ كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام
مسوس، ولا درن، ولا نجس، ولا من نطع^(١)، ولا من سلفة^(٢)، ولا من جلود الروايا
المستعملة، ولا يعمل فم قربة إلا من أديم مصرى، أو سلفة يمانى؛ لأنها ربما عملت من
البطائن والسلف المغربى، ويحلفوا على هذا كله، ويفقد دكاكينهم كل وقت^(٣).

* * *

الباب الحادى عشر والمائة فى الدباغين

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً، ويأمره أن لا تدبغ جلود المعز إلا بالقرض اليمانى،
ويكون دباغها بوزنها من القرض لا على عدد الجلود، وحد كل دست منها أربعون
جلداً، ويقيم فى الحوض ثلاثة أيام، وينقل إلى حوض آخر، وعليها من القرض مقدار
وزنها الأول، ويفعل بها كذلك أربع دفعات لتتقى من شحومها، ومن قصد الغش
والتدليس دبغ الدست ثلاث دبغات، ويغش الثالث بالعفص، وهو مضر بالجلود يقيناً
ومهلكها، وعلامة غش الدست أن جلودها تسود فى الشمس، ودباغ الصيف أجود من
دباغ الشتاء وأنجب، والعفص فيه عيب، وكذلك القرض المصرى، ومن خالف أدب^(٤).

* * *

الباب الثانى عشر والمائة فى دباغ الكيمخت

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة، فقد سألت عن جلوده، فعرفت أنها من جلود
الخيّل، والبغال، والحمير، وأن أكثرها ميتة، فسألت الفقهاء عما يعمل من هذه الجلود،
فذكروا أن استعماله جائز، إلا المقلّى الذى يقلوه عليه، فإنه نجس، فينبغى أن يجتنب.

* * *

الباب الثالث عشر والمائة فى دباغ جلود البقر

ينبغى أن يعرف عليهم عريقاً ثقة عارفاً بمعيشتهم، ويأمره أن يمنعهم أن يخلطوا جلود
البقر المذبوحة بجلود الميتة، ويأمرهم بدباغ كل عشرة منها بويّة دقيق والماء العذب أياماً

(١) النطع هو بساط الأديم.

(٢) السلفة هو أديم لم يحكم دبغه.

(٣) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٤٠).

(٤) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٢٢٩).

إلى أن يزول شعرها، ثم يدبغها بويبة دقيق وويبة ملح، تقيم فيه ثلاثة أسابيع، وما زاد على مقدار حر الزمان وبرده إلى العفص، فإن كانت الجلود كباراً، وكلها ثيران، دبغت كل جلد بأثنى عشر رطل عفص بالقلعي، وإن كانت بقرًا متوسطة، كان لكل جلد منها ستة أرطال، والعجول بأربعة أرطال كل جلد، وما زاد على ذلك زائدًا في جودة الجلد، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الرابع عشر والمائة

في أهل الذمة

اعلم وفقك الله أنه ينبغي أن يشترط عليهم ما اشترطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، في كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة، ويؤخذون بلبس الغيار، فإن كان يهوديًا عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانيًا، عمل فى وسطه زنارًا، وعلق فى عنقه صليبا، وإن كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود، وإذا عبر ذمى إلى الحمام، ينبغي أن يكون فى عنقه صليب، أو طوق من حديد، أو نحاس، أو رصاص؛ ليختبر به عن غيره.

ويمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح، والتقلد بالسيوف، وإذا ركبوا البغال ركبوها لا بالسرّج، ولا يرفعون بنيانهم على بنيان المسلمين، ولا يتصدرون فى المجالس، ولا يزاحمون المسلمين فى الطرقات، بل يلجأون إلى أضيّق الطرق، ولا يُبدأون بالسلام، ولا يُرحب بهم، ويشترط عليهم ضيافة من مر بهم من المسلمين، وإنزالهم فى بيوتهم وكنائسهم، ويمنعون من إظهار الخمر والخنزير، والجهر بالتوراة والإنجيل، ومن ضرب الناقوس، ومن إظهار أعيادهم، ورفع الصوت على موتاهم، فجميع ذلك اشترطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فيراعى المحتسب جميع ذلك.

ويأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم، الفقير المقتدر دينار، والمتوسط دينارين، والغنى أربعة دنانير، عند رأس الحول، وإذا جاءه المحتسب، أو العامل لآخذ الجزية، أقامه بين يديه، ثم يلمطه بيده على صفحة عنقه، ويقول له: أدّ الجزية يا كافر، ويُخرج الذمى يده من جيبه مطبوقه على الجزية، فيعطيهما له بذلة وانكسار، ويشترط مع الجزية التزام أحكام الإسلام، فإن امتنع الذمى من لزوم الأحكام، أو قاتل المسلمين، أو زنا بمسلمة، أو أصابها باسم نكاح، أو فتن مسلماً عن دينه، أو قطع الطريق على مسلم، أو

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام
 آوى المشركين، أو دلهم على عورات المسلمين، أو قتل مسلماً انتقضت ذمته، وقتل فى
 الحال، وغنم ماله فى أصح القولين؛ لأن أهل الذمة قد شُرط عليهم الكف عن جميع
 ذلك، والله الموفق^(١).

* * *

الباب الخامس عشر والمائة

يشتمل على تفاصيل وجمل

اعلم وفقك الله أنه قد ذكرنا فى هذا الكتاب من الحسبة على أرباب الصنائع
 المشهورة، من كشف غشوشهم وتدليسهم ما فيه كفاية كافية للمحتسب، وأصلاً يفسر
 ما عده مما لم نذكره، وسأذكر فى هذا الباب تفاصيل وجمل، وأذكر ما يلزم المحتسب
 فعله من أمور الحسبة فى مصالح الرعية غير ما ذكرناه، فمن ذلك: السوط، والدرّة،
 والطرطور.

فأما السوط، فيتخذ وسطاً، لا بالغليظ الشديد، ولا بالرقيق اللين، بل يكون بين
 سوطين، حتى لا يؤلم الجسد، ولا يخشى منه غائلة. وأما الدرّة، فتكون من جلد البقر،
 أو الجمل، محشوة بنوى التمر. وأما الطرطور، فيكون من اللبد منقوشاً بالخرق الملونة،
 مكللاً بألوان الخرز، والودع، والأجراس، وأذنان الثعالب والنسائيس، وتكون هذه الآلة
 معلقة على دكة المحتسب يشاهدها الناس، فيرعب بها قلوب المعتدين، ويزجر بها أهل
 التدليس.

فإذا عثر بشارب خمر، جلده بالسوط أربعين جلدة، فإذا رأى المصلحة فى جلده
 الثمانين جلده؛ لأن عمر، رضى الله عنه، جلد شارب الخمر ثمانين جلدة، فيجرد عن
 ثيابه، ثم يرفع عن يده بالسوط حتى يبين بياض أبطه، ويطرّف الضرب على كتفيه
 وإبتيه وفخذه، فإذا كان زانياً، فليكن جلده فى ملأ من الناس، كما قال الله تعالى:
 ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فإن كانت امرأة جلدها فى
 إزارها وثيابها، وأما الزانى المحصن، فيجمع الناس خارج البلد، ويأمرهم برجمه، كما
 فعل رسول الله ﷺ، وإن كانت محصنة، حفر لها حفيرة فى الأرض، وأمر الناس برجمها
 كما فعل رسول الله ﷺ بالغامدية، وإن لاط بغلام ألقاه من أعلى شاهق فى البلد، هذا

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ٣٨ - ٤٥).

* * *

الباب السادس عشر والمائة

فى ترتيب التعزير

اعلم وفقك الله أن التعزير على قدر أحوال الناس، وعلى قدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يضرب بالسوط ولا يبلغ به أدنى الحدود، ومنهم من يضرب بالدرة، ويلبس الطرطور، ويركب على جمل أو حمار، وإذا رأى رجلاً حامل خمر، أو يلعب بملهاة، كالعود، والطنبور، والمزمار، وما أشبه ذلك، عزره على حساب ما يراه من المصلحة فى حقه، بعد إراقه خمره، وكسر الملهاة، وكذلك إذا رأى رجلاً أجنبياً مع امرأة أجنبية، فى خلوة أو طريق.

ويلزم المحتسب مباشرة الأماكن التى يجتمع فيها النسوان مثل سوق الغزل، وسوق الكتان، وشطوط الأنهار، وأبواب حمامات النساء، وما أشبه ذلك، فإذا رأى شاباً معترضاً لامرأة يكلمها فى غير معاملة فى البيع والشراء، أو واقفاً ينظر إليها، عزره ومنعه من الوقوف هناك، فكثير من الشباب المفسدين يقفون فى هذه المواضع، وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان.

ثم يتفقد مجالس المواعظ، ولا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويجعل بينهم ستارة، فإذا انفض المجلس، خرجت الرجال قبل النساء وذهبوا فى طريق، وتخرج النساء بعدهم، ويذهبن فى طريق أخرى، ومن وقف من الشباب فى طريقهن بغير حاجة عزره.

ثم يتفقد المقابر، فإذا سمع نائحة، أو صارخة، عزرها ومنعها من ذلك؛ لأن النواح حرام، وقد قال رسول الله ﷺ: «النائحة ومن حولها فى النار»^(٢)، ويأمر النساء بأن لا يخرجن لزيارة القبور، وإذا خرجن للقبور أمر النساء أن يتأخرن عن الرجال، ولا يختلطن بهم، ويمنعهن من كشف وجوههن ورعوسهن خلف المي، ويأمر منادياً ينادى فى البلد بالمنع من ذلك، والأولى منعهن من تشييع الجنائز، ومتى سمع بامرأة عاهر، أو مغنية، استتابها عن معصيتها، وإن عادت عزرها ونفاها من البلد. ويمنع المخنث من دخوله على

(١) انظر: معالم القرية لابن الأخوة (ص ١٨٤ - ١٩٠).

(٢) وفى الكبائر، قال: «لعن النائحة ومن حولها»، انظر: الكبائر (١/١٦٥)، و: «لعن النائحة والمستمعة»، أخرجه أبو داود فى الجنائز (٣/١٩٠) ح (٣١٢٨).

٣٨٤ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
النسوان، وكذلك الأمر النكريش، متى حلق لحيته ونفها، كان ذلك دليلاً على
فساده^(١).

* * *

الباب السابع عشر والمائة

فى مجالس الحكام

ينبغى للمحتسب أن يتردد إلى مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس فى
الجوامع والمساجد للحكم بين الناس، فربما دخل الرجل الجنب، والمرأة الحائض، والصبي،
والخافى، ومن لا يتحرز من النجاسة، فيؤذون بذلك الحصر، وأيضاً ترتفع الأصوات،
ويكثر اللغط عند المحاكمة والمنازعة، وكل ذلك قد ورد الشرع بالنهى عنه.

وقد وجدنا مكتوباً فى كتاب أبى القاسم الصيمرى: إن المستظهر لله أمير المؤمنين،
رحمة الله عليه، ولى رجلاً من أصحاب الشافعى، رضى الله عنه، الحسبة، فنزل إلى جامع
المنصور، فوجد قاضى القضاة يحكم بين الناس فيه، فقال له: سلام عليك، قال الله تعالى:
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقد مكن الله خليفته المستظهر لله فى
أرضه، وبسط يده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد جعلنى وإياك نائبين عنه فى
ذلك، قائمين فى رعيته حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ونحن أولى بمن
يعمل بحدود الله، ولزوم ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، ليقترن بنا العامة، ونحن
ملح البلد، نصلح ما فسد من الطعام، فإذا فسد الملح من يصلحه؟ وبجلسك هذا لا
يصلح فى الجامع، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ
فِيهَا اسْمُهُ...﴾، إلى قوله: ﴿وَإِتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، وليس فى هذا الموضع
شئ من ذلك، وإنه لتدخل إليك المرأة لتحتكم مع بعلاها، ومعها الطفل فيبول على
الحصر، وإن الرجل ليمشى على النجاسة والقذر، ويدوس الحصر بنعله، وإن الأصوات
لترتفع باللغط، وربما دخل إليك الرجل الجنب، والمرأة الحائض، وجميع ذلك أمرنا رسول
الله ﷺ باجتنابه، فاجلس فى وسط البلد، بحيث لا يشق على أحد دخوله عليك،
والسلام. فنهض القاضى ولم يعد بعدها يجلس فى الجامع للقضاء.

(١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردى (ص ٢٩٣ - ٢٩٧)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى

ومتى رأى المحتسب رجلاً يسفه فى مجالس الحكم، أو يطعن على الحاكم فى حكمه، عزره، وإذا رأى القاضى قد استشاط على رجل غيظاً، أو شتمه، أو احتد عليه فى كلامه، ردعه عن ذلك، ووعظه، وخوفه الله عز وجل، فإن القاضى لا يجوز له أن يحكم وهو غضبان، ولا يقول هجراً، ولا يكون فظاً غليظاً^(١).

* * *

الباب الثامن عشر والمائة

فى مجالس الأمراء والولاة

ينبغى للمحتسب أن يتردد إلى مجالس الولاة، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويذكرهم، ويعظهم، ويأمرهم بالشفقة عليهم، والإحسان إليهم، ويذكر لهم ما ورد فى ذلك من الأحاديث عن النبى ﷺ، وليكن فى وعظه، وردعه، وقوله بشوشاً غير جبار عبوس، وليكن شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق، عند أمره ونهيه، فإن ذلك أبلغ لاستمالة القلوب، وحصول المقصود، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد ذكرنا ذلك فى أول الكتاب.

وقد قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على التعنيف»^(٢)، وينهى الفقراء، وأهل الكدية عن قراءة القرآن فى الأسواق، فقد نهت الشريعة عن ذلك^(٣).

ولو شرعت فى جميع ما يفعله المحتسب من أمور الحسبة، لضافت به الأوراق، وطال فيه الشرح، ولكنى قد وضعت أصولاً وقواعد يستعين بها المحتسب على أموره، ولعمري أن الضابط فى أمور الحسبة هو الشرع المطهر، فكل ما نهت عنه الشريعة وجب على المحتسب إزالته، والمنع منه، وما أباحت الشريعة أقره على ما هو عليه، ولهذا قلنا فى أول الكتاب: يجب أن يكون المحتسب فقيهاً، عالماً بأحكام الشريعة، ومتى كان جاهلاً اختلفت عليه الأمور، ووقع فى المحذور والمحذور.

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ٢٠٠ - ٢٠٨).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص ٢١٦ - ٢١٨).

(٣) تقدم تحريجه.

٣٨٦ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

فنسأل الله العون والصحة والتوفيق، إنه على ما يشاء قدير، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلى العظيم.

* * *

المحتويات

المقدمة.....	٢٨٣
فصول الأبواب.....	٢٨٥
الباب الأول فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها.....	٢٩٢
الباب الثاني فى النظر فى الأسواق والطرق.....	٢٩٦
الباب الثالث فى الخبازين.....	٢٩٨
الباب الرابع فى السقائين وغشهم.....	٣٠٠
الباب الخامس فى السوق وغشهم.....	٣٠١
الباب السادس فى جزارى الضأن، والمعز، والإبل، والقصايين وغشهم.....	٣٠٤
الباب السابع فى الشوائين.....	٣٠٧
الباب الثامن فى الهرائسين.....	٣٠٨
الباب التاسع فى الزلبانيين.....	٣٠٩
الباب العاشر فى الرواسين وغشهم.....	٣١٠
الباب الحادى عشر فى الطباخين وغشهم.....	٣١٠
الباب الثانى عشر فى الحلوانيين وغشهم.....	٣١١
الباب الثالث عشر فى هرايس التمر ومطبوخ العلس.....	٣١٣
الباب الرابع عشر فى الباقلانين، أى الفوالين.....	٣١٤
الباب الخامس عشر فى السماكين والسماك.....	٣١٤
الباب السادس عشر فى باعة الصير والبورى والملح.....	٣١٥
الباب السابع عشر فى قلائين السمك وسمك الطاجن.....	٣١٦
الباب الثامن عشر فى صيادى الطيور والعصافير.....	٣١٧
الباب التاسع عشر فى الطحانين وغشهم.....	٣١٧
الباب العشرون فى الفرانين وصبيانهم.....	٣١٨

٣٨٨ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

٣١٩	الباب الحادى والعشرون فى الخطب والخطابين.
٣١٩	الباب الثانى والعشرون فى القصب والقصابين.
٣١٩	الباب الثالث والعشرون فى الجبس والجباسين.
٣٢٠	الباب الرابع والعشرون فى الجير والجيارين.
٣٢٠	الباب الخامس والعشرون فى الحمامات، وقوامها، وذكر منافعها ومضارها، وما يلزم حراسها، والبلانين، والمزينين، والوقادين، وباعة النورة.
٣٢٣	الباب السادس والعشرون فى الغزالين والغزل.
٣٢٤	الباب السابع والعشرون فى الكتانين.
٣٢٤	الباب الثامن والعشرون فى الحريرين.
٣٢٤	الباب التاسع والعشرون فى القطانين والتدافين.
٣٢٥	الباب الثلاثون فى القلانسين وغشهم.
٣٢٥	الباب الحادى والثلاثون فى الخياطة والخياطين وغشهم.
٣٢٦	الباب الثانى والثلاثون فى سماسرة البز.
٣٢٦	الباب الثالث والثلاثون فى البز والبزازين.
٣٢٧	الباب الرابع والثلاثون فى الغسالىين.
٣٢٧	الباب الخامس والثلاثون فى القصارة والقصارين.
٣٢٨	الباب السادس والثلاثون فى المطرزين.
٣٢٨	الباب السابع والثلاثون فى الرفائين وغشهم.
٣٢٨	الباب الثامن والثلاثون فى الصيادلة والعقاقير.
٣٣٢	الباب التاسع والثلاثون فى الأشربة والمعاجين وما يضاف إلى ذلك.
٣٣٣	الباب الأربعون فى العطر والعطارين.
٣٣٨	الباب الحادى والأربعون فى الصيارف.
٣٣٩	الباب الثانى والأربعون فى الصاغة والصياغة.
٣٤٠	الباب الثالث والأربعون فى الأطباء والفصادين.
٣٤٥	الباب الرابع والأربعون فى الكحالىين والكحل.
٣٤٥	الباب الخامس والأربعون فى المجيرين.
٣٤٦	الباب السادس والأربعون فى الجراثييين.
٣٤٦	الباب السابع والأربعون فى البيطرة.
٣٤٨	الباب الثامن والأربعون فى صباغى الحرير والغزل.
٣٤٩	الباب التاسع والأربعون فى الخزازين صناعات الشراك.
٣٤٩	الباب الخمسون فى الأساكفة صناعات الأخفاف.

٣٨٩	كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام
٣٥٠	الباب الحادى والخمسون فى عمل الأسفاط
٣٥٠	الباب الثانى والخمسون فى عمل البطط
٣٥٠	الباب الثالث والخمسون فى الخياطين والعلافين
٣٥١	الباب الرابع والخمسون فى صناعة الشرابات
٣٥١	الباب الخامس والخمسون فى الحاكة والقزازين
٣٥١	الباب السادس والخمسون فى الزنهار وغشه
٣٥٢	الباب السابع والخمسون فى الأبرار والأبرارين
٣٥٢	الباب الثامن والخمسون فى السماسم وبائعيه
٣٥٢	الباب التاسع والخمسون فى الخشب وباعته
٣٥٣	الباب الستون فى الزفاتين
٣٥٣	الباب الحادى والستون فى الحدادين
٣٥٣	الباب الثانى والستون فى المسامرين وغشهم
٣٥٤	الباب الثالث والستون فى النحاسين وسباكين النحاس
٣٥٤	الباب الرابع والستون فى النجارين والبنائين والفعلة والشارين
٣٥٥	الباب الخامس والستون فى نجارين الضيب
٣٥٦	الباب السادس والستون فى نجارين المراكب
٣٥٦	الباب السابع والستون فى النحاسين باعة العيد
٣٥٨	الباب الثامن والستون فى النحاسين باعة الدواب
٣٦٠	الباب التاسع والستون فى الطواين وغشهم
٣٦٠	الباب السبعون فى دلالين العقارات
٣٦٠	الباب الحادى والسبعون فى تقديرات المراكب
٣٦١	الباب الثانى والسبعون فى باعة الفخار
٣٦١	الباب الثالث والسبعون فى شعّابين البرام
٣٦١	الباب الرابع والسبعون فى الزجاجيين وغشهم
٣٦٢	الباب الخامس والسبعون فى معلمى الصبيان ومعلمات البنات
٣٦٣	الباب السادس والسبعون فى الدهانين وغشهم
٣٦٣	الباب السابع والسبعون فى المكارية
٣٦٤	الباب الثامن والسبعون فى النحاتين والمصولين فى التراب
٣٦٤	الباب التاسع والسبعون فى كساحى السمد وحمالته
٣٦٥	الباب الثمانون فى الغرايل ومناخل الشعر
٣٦٥	الباب الحادى والثمانون فى حافرى القبور

٣٩٠ كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام

الباب الثانى والثمانون فى الوراقين والمهرجين ٣٦٥

الباب الثالث والثمانون فى من يكتب الرسائل على الطريق، والرقاع، والدروج ٣٦٦

الباب الرابع والثمانون فى كتاب الشروط ٣٦٦

الباب الخامس والثمانون فى الوكلاء بأبواب القضاة وتدليسهم ٣٦٧

الباب السادس والثمانون فى الميازيب ومضرتها ٣٦٧

الباب السابع والثمانون فى إصلاح الجوامع والمساجد ٣٦٧

الباب الثامن والثمانون فى قراء القرآن قدام الموتى ٣٦٩

الباب التاسع والثمانون فى غسلين الموتى ٣٦٩

الباب التسعون فى المراصد والمراقب ٣٧٠

الباب الحادى والتسعون فى طبائخين الولايم ٣٧٠

الباب الثانى والتسعون فى معرفة الموازين ٣٧١

الباب الثالث والتسعون فى معرفة المكاييل ٣٧١

الباب الرابع والتسعون فى معرفة مثاقيل الذهب وصنج الفضة ٣٧١

الباب الخامس والتسعون فى معرفة الأرطال والقناطير ٣٧٢

الباب السادس والتسعون فى معرفة الأقساط ٣٧٤

الباب السابع والتسعون فى معاصر الزيت وغشهم ٣٧٤

الباب الثامن والتسعون فى التبن والتبائن ٣٧٤

الباب التاسع والتسعون فى القرط والقراطين ٣٧٥

الباب المائة فى الأنماط وصناعتها ٣٧٥

الباب الحادى والمائة فى صناعات الأخرى والحريز والوقايا ٣٧٦

الباب الثانى والمائة فى الحصر العبدانى ٣٧٧

الباب الثالث والمائة فى الخيزرانين ٣٧٧

الباب الرابع والمائة فى اللبود والبادين ٣٧٧

الباب الخامس والمائة فى الأرجوان وصناعه ٣٧٨

الباب السادس والمائة فى الغضار ٣٧٨

الباب السابع والمائة فى الآبارين ٣٧٨

الباب الثامن والمائة فى الحلفاء وعدده ورسومه ٣٧٩

الباب التاسع والمائة فى المحامل وصناعتها ٣٧٩

الباب العاشر والمائة فى الروايا والقرب ٣٧٩

الباب الحادى عشر والمائة فى الدباغين ٣٨٠

الباب الثانى عشر والمائة فى دباغ الكيمخت ٣٨٠

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام	٣٩١
الباب الثالث عشر والمائة فى دباغ جلود البقر	٣٨٠
الباب الرابع عشر والمائة فى أهل الذمة	٣٨١
الباب الخامس عشر والمائة يشتمل على تفاصيل وجُمْل	٣٨٢
الباب السادس عشر والمائة فى ترتيب التعزير	٣٨٣
الباب السابع عشر والمائة فى مجالس الحكام	٣٨٤
الباب الثامن عشر والمائة فى مجالس الأمراء والولاة	٣٨٥